لجنة التحرير والترجمة والنشر
إيبارشية شبه جزيرة سيناء

السلم إلى الله

للأب يوحنا السينائي

ترجمة
نيافة الأنبا مكاري
أسقف شبه جزيرة سيناء

تقديم
نيافة الأنبا متاؤس
أسقف ورئيس دير السريان

GIFTS OF 2004

LIBRARY OF AMERICA
BALTIMORE FRIENDS OF B.A

لجنة التحرير والترجمة والنشر
بايبارشية شبه جزيرة سيناء

السُلّم إلى الله

للأب يوحنا السينائي

ترجمة دقيقة ذات حواش تفسيريّة وتعليقات روحيّة

مراجعة

ه أبا مكاري

تقديم

الأنبا متاؤس

الكتاب : السُلّم إلى الله
إعداد : لجنة التحرير والنشر بإيبارشية سيناء
تقديم : نيافة الأنبا متاؤس أسقف ورئيس دير السيدة العذراء « السريان »
الطبعة : الأولى يناير ١٩٩٨ م
المطبعة : دار الجيل للطباعة
رقم الإيداع : ٩٨/٧١٤٦



قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وسائر الكرازة المرقسية

(الـ ١١٧)

الفهرس

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

تقديم

كتاب السُلَّم للقديس يوحنا الدرجي أو السُلّمي رئيس دير طور سينا من الكتب الرهبانية الهامة المحبوبة ، التي ينصح آباء الرهبنة تلاميذهم المبتدئين بقراءتها ونساختها والاحتفاظ بها في قلاليهم للرجوع إليها بين الحين والآخر ، لأنه كتاب رهباني بسيط وعميق ويصلح للمبتدئ والمتقدِّم ، للشاب والشيخ من الرهبان

يبدأ الكتاب درجاته باعتزال العالم والغربة الاختيارية ثم الزهد وحياة التوبة والبراءة والطاعة والوداعة والاتضاع والبساطة ثم يتدرج حتى يصل إلى الوحدة والسكون المقدس ، وهكذا يصعد بالراهب درجة درجة بخطوات ثابتة ورزينة ليس فيها مغالاة أو شطحات .

قام الباحث بقراءة وتحقيق عدة مخطوطات قديمة عن كتاب الدرجي وترجم بعض الكتب المكتوبة باللغات الأجنبية ثم قام بصياغة كتاب السُلّم هذا صياغة دقيقة جيِّدة ومفهومة .

إنه مجهود كبير بُذل لكي يصل إليك أيها القارئ العزيز هذا الكتاب الثمين في لغة سهلة ومفهومة .

ا لله يعوّض القائمين بهذا العمل كل خير وبركة ويساعدهم لكي يُخرجوا لنا الكثير من هذه الدرر الثمينة المدفونة في بطون مخطوطاتنا العريقة ليستفيد بها القارئ القبطي محب المسيح .

بشفاعة العذراء مريم سيدة العذارى والقديس العظيم يوحنا الدرجي صاحب هذا السُلّم الروحاني ، وبصلوات أبينا الطوباوي المكرم البابا شنودة الثالث . ونعمة الرب تشملنا جميعاً آمين .

الصوم الكبير المقدس ١٩٩٦ — الأنبا متاؤس

أسقف دير السريان العامر

توطئة للمترجم

المؤلف ...

سيرة القديس يوحنا السُلّمي ليست معروفة لدينا إلاّ من الموجَز الذي حرَّره الراهب دانيال الذي من دير رايتو (ص ٢٠) متبوعاً ببعض القِصص التي سردها الأب أناسطاسيوس . كما أنه يمكن التقاط بضع ملحوظات ذات قيمة عن السيرة من خلال مادة الكتاب نفسه .

السنوات الأولى من عمر القديس يوحنا لا يُعرف عنها شيء ، سوى أنه نال تهذيباً عقلياً عميقاً . بانتقال أبيه الروحي ، كان يوحنا قد بلغ وقت ذاك نحو الخامسة والثلاثين حيث اعتنق السيرة التوحّدية في موضع يسمى " تولا " (وادي الطُلا) مقيماً في صخرة تبعد قليلاً عن مجموعة المتوحدين الذين كانوا يعيشون في ذلك الموضع . وربما تكون هذه الحقبة من حياته ، هي التي خلالها كان ينتفع بمشورات الأب جيورجيوس الأرسيلايتي الذي يشير إليه القديس في السُلّم (درجة ٢٧ : ٦٠) . بعد ذلك بفترة تتلمذ على يديه راهب ؛ يُدعى "موسى" ، إذ كان يوحنا قد أصبح أباً روحياً جليلاً حتى أن كثيرين كانوا يترددون عليه لأخذ مشوراته، فكان هذا الإشعاع سبباً لفتنةٍ أثارها ضده رهبان حسودون ، لكنه أنهى عليها بفضل صمته وتواضعه وصبره .

بعد أربعين عاماً من الحياة التوحدية ، أختير رئيساً لدير سيناء ، أمّا تحريره السُلّم فيجب أن يؤرَّخ في هذه المدة . أما الفترة التي فيها أقام القديس يوحنا في " الدير" الذي يصفه في الدرجة الرابعة من السُلّم (وكان

ذلك الدير من أديرة الشركة التي كانت تزخر بها منطقة الأسكندرية[١]) والذي كان يتبعه دير التائبين ـ الذي تأثر به تأثراً بالغاً ـ فغير معروفة .

ولما تقدَّم العمر بالأب القديس ، تنازل عن رئاسة الدير لشقيقه جيورجيوس ـ الذي لم يعش بعده إلا زمناً يسيراً ـ وعاد إلى وحدته إلى أن توفي بين ٦٥٠ ، ٦٨٠ م .

الكتاب

ترك لنا القديس" سُلَّماً " تتكون من ثلاثين مقالة أو درجة تعقبها " رسالة إلى الراعي " تشتمل توجيهات هامة للرؤساء وللآباء الروحيين .

إن يوحنا راهبٌ ، قد اختبر غاية الحياة الروحية، ألا وهي : " تأليه " الإنسان بواسطة النور غير المخلوق ، وأيضاً الطريق المؤدّي إلى ذلك ،

---

(١) مدينة كانوب كانت موجودة بجزيرة في النيل . . وكانت في زمن الوثنيين من أشهر مدن مصر ، وكان بها عدد كبير من الهياكل التي تُدرَّس فيها العلوم اللاهوتية [الوثنية] للمصريين وأيضاً السحر ، وكان يذهب إليها الأجانب جماعات ، يجذبهم إليها جمال الموقع وكذلك العقيدة . ولكن كل هذه الهياكل والمغارات التي كانت مخصصة للخطيئة قد دُمِّرت وحلت محلها كنائس وأديرة . وقد أعطوا أحد هياكل جزيرة كانوب ـ وهو من أكثرها شهرة ـ إلى رهبان طبانيسي لكي يجعلوه ديراً لهم ، وقد سمّوه " ميطانيا " أي التوبة ، ومنحوا هذا الدير نفس حق الإيواء الذي كان له حين كان يستخدمه الوثنيين . وقد اعتقد بعض المؤلفين بخصوص هذا الاسم ، أنه كان دير " بريكو " أو أحد الأمكنة الشهيرة التي يتكلم عنها القديس يوحنا كليماكوس

MICHAEL - ANGE MARIN : *Les Vies des Pères de Dèserts d' Orient*, Part II P. 53

أنظر سيرة القديس أرسانيوس ـ للأستاذ يوسف حبيب ـ ص ١٠٠ ، ١٠١

(*) كانوب ؛ أو كانوبوس : هي ابوقير حالياً : أنظر

HENRI RIAD & OTHERS *Guide to the Alexanderian Monuments P. 190 (on edition of the regional commitee for the development of tourism*)

والذي يدلّنا عليه بأسلوب عملي. **أما الوسيلة الفريدة لفهم هذا الطريق ، فهي الدخول فيه فعلاً .**

من جهة أخرى ، فإن هذا التعليم لا يعكس لنا مجرد خبرة فردية وأفكار خاصة بمن يسلّمها لنا ، فإن القديس يوحنا لم يفعل سوى أنه اضطلع بما استلمه من تقاليد فجدَّدها . لذلك نجد عنده صدى تعليم إيفاجريوس (أوغريس) البنطي بشأن الرذائل (الآلام ؛ الأوجاع) الرئيسية، وشرح العمل (النسك وممارسة الوصايا) ، والثيؤريا (التأمّل). لكن عقلانية إيفاجريوس نجدها مصحَّحة هنا بتقديم تعليم الأسقف ديادوخوس الفوطيقي عن الحِسّ الداخلي واليقين الباطني اللذين بهما يظهر عمل النعمة. كذلك ينتسب يوحنا إلى شيوخ الأبوفثجماتا Apoph. Patr.[1] مثل برصنوفيوس ، ويوحنا الغزّاوي ، ودوروثيؤس ، بواقعيته الروحية وبتأكيده على الطاعة والإفراز ، وينقل عن غريغوريس الناطق بالإلهيات عندما يتعرض للمضادة الطبيعية في الإنسان ، أي عظمته وسرعة زللِه بآن واحد . وأخيراً فإن لاهوت الثالوث الأقدس ومعنى التدبير الفدائي اللذين يظهران بمثل هذا التواتر في (السُلّم) أمرٌ يكشف لنا عن شخصية المؤلف، كونه قد استوعب في صميم كيانه كلَّ ما خلّفته المجامع المسكونية والعصر الذهبي للآباء . هذا الغنى التقليدي للقديس يوحنا ، بالإضافة إلى موهبة الإفراز الفائق ، الذان نراهما يصبغان مادة الكتاب بوجه عام ، يفسّران الأهمية التي علقتها الكنيسة اليونانية على يوحنا السُلّمي ، والضمان الذي دمغت به تعاليمه ، إذ صارت تعيِّد له في الأحد الخامس من الصوم

(١) جمع Apophthegme : أي قول مأثور

الأربعيني ، معطية له المكانة الأولى بين معلمي الروحانية والنسك .

فمن يريد ألاّ يفوته تحصيل المنفعة الحقيقية لهذا الكتاب عليه أن يدخل من مدخل **التلميذ الذي يصغي إلى معلّمه** متكلّماً من خلال ما كتبه ، أو بالحري يجتهد أن يعي ما يكلمه به الله سراً في قلبه ، ثم يحرص على اتّباع التوجيهات بنفس الانتباه ونفس الجدية اللازمين لاستعمال آلة دقيقة معقدة. ومع ذلك ، فلا ينبغي البحث في " السُلّم " عن مناهج أو قواعد أو وصفات للحياة الروحية فإن السُلّم ـ شأنها شأن أقوال آباء الصحراء عموماً ـ ليست رسالة في النسك ، ولا دستوراً أخلاقياً ، لكنها توضّح بالحري بإرشادات عديدة ـ لا تدّعي أنها ذات صفة قياسية ـ **مدى مساهمة حرية الإرادة البشرية في عملية صلب شخصيتنا العتيقة** ، وتجلّي كياننا كله في نور القيامة ، الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق إلاّ بفعل النعمة الإلهية .

تعليم القديس يوحنا السلّمي :

في تعليم السُلّمي ، هناك خطوط رئيسية يمكن تمييزها وينبغي إفرازها . فأول كل شيء ، نجد تشديداً على ممارسة **التغصّب الإنجيلي** ، اللازم (لاختطاف ملكوت السموات) (أنظر متى ١١ : ١٢) ؛ فالراهب يُعرّف بأنه " منْ يغصب على الدوام طبيعته " (درجة ١ : ١١) ، وهو مَن **يحفظ حرارته** دون أن تخمد ، فإلى نهاية عمره يضيف يوماً بعد يوم على ناره ناراً ، وعلى حرارته حرارةً ، وعلى شوقه شوقاً ، وإلى حبّه حبّاً ، وإلى حرصه حرصاً ، دون أن يتوقّف (١ : ٤٦) . القصد من ذلك ليس بمجرّد بلوغ مثالية أخلاقية ، أو اعتدال في الرغبات البشرية ، أو لتحقيق مُثل المحبة نحو الآخرين على نحو ما يمكن أن يفهمه العالَم المتحضّر، بل الاشتراك في

صلب وقيامة المسيح ، و"تأليه" الكيان كله ــ وهذا هو السّر وراء ما نجده في تعليم السُلّمي من تركيز على التغصّب ــ بما يفوق المقاييس البشرية المعتادة ــ وجدِّية لا تسمح بأي استرخاء ، في أية لحظة ؛ ولكن ــ في غير كبتٍ أو تحويلٍ لمفاهيم الحياة الروحية إلى مجرد أوامر ونواهٍ، بل بما يقتضيه الفهم الصحيح لعمل النعمة ولمتطلبات المحبّة المصلوبة .

ومع ذلك، فإن الجهد الروحي، ينبغي أن يُحدَّد دائماً بحدود "**الإفراز**" الذي يفضح جميع المفاهيم والتصرفات الخاطئة نتيجة الخداعات . كذلك فإن "الإفراز" ينبغي ألا يُساء فهمه ، فتمييز الأمور ليس متروكاً للتقديرات الشخصية للسلوك المتوسط الذي قد ينتهي إلى ما بين الجودة والرداءة، تحت اسم "الاعتدال" ؛ فالأهمية المعطاة للإفراز تناسب في المقام الأول الشخص نفسه ، ثم المطالب الثابتة التي يطالب الله بها من جهة القوانين والأصول المستقرّة . فالمهم ألاّ يطالَب الإنسان بأكثر مما يطلبه الله منه ، وألاّ يفعل شيئاً قبل أوانه ، وألاّ يتخطّي الدرجة التي هو فيها . فليس قليلا أن يطالَب كل واحد بجميع ما يطلبه الله منه ، ويهبه القوة لإنجازه ، وأن يُترك كل واحد ليعطي كلَّ ما في وسعه . وبهذا يحصل النمو المتواصل والمستطاع ، وبلوغ ما يفوق المنطق المجرّد والقدرات البشرية المجرّدة . ومع ذلك ، فإن القديس السُلّمي لا يدّعي قط أنه لا يكتسب إلاّ للأبطال والقديسين ، فالاهتمام البالغ الذي يصف به دير التائبين يشير إلى أن الأشخاص الأكثر تقدّماً الذين كان قد تعرّف عليهم في البرّية ، ليسوا أولئك الذين كانوا يظنون انهم من النساك العظام أو من كبار المتأمّلين ، بل الذين كانوا يعتقدون بصدق أنهم رهبان غير مستحقّين مخفقون في دعوتهم .

إن أساس الحياة الروحية ، عند يوحنا السُلّمي هو التوبة شعوراً

(بالندامة) وعملاً . والتوبة هنا لا تختصّ بعقدة ذنب يغذّيها تذكّر مخالفات ضد مبادئ خارجية واجتماعية ، بل إن التوبة إحساس بالانفصال عن الله ، والحزن على فقد حضرته ، وذوق الموت الذي يؤدّي إليه الحرمان من الحياة المقدّسة ، إحساس التغرّب خارج الفردوس .

إن **النسك الجسدي** ــ الصوم ، والسهر ، والميطانيات ، والتخلّي عن كل راحة ــ يحتلّ مكانة هامة في تعليم السُلّمي . لكن ينبغي أن يُفهم النسك ــ في تصوّر التوبة الحقيقية ــ أنه قبل كل شيء **وسيلة للإنسان للتعبير بكل كيانه عن عجزه، وعجز كل الخليقة، وعن حاجته إلى الله ، ولتعميق وعيه بذلك** . إن التوبة تهدف نحو تغيير الإنسان في علاقته وشركته الشخصية والكلّية مع الله ، وليس فقط نحو تحسين الطبع البشري والعلاقات الاجتماعية . إن مضمون النسك المسيحي ليس هو سيادة العقل على الإرادة وعلى الآلام ، إنه صراع الإنسان ضد طبيعته الخاصة ، ضد الموت المختلط بالطبيعة البشرية .

إن غاية الارتقاء الروحي تظلّ مع ذلك هى **الصلاة النقية ، والتأمّل** . فالنسك الجسدي ، والطاعة ، والرغبة في الهوانات ، ليس لها عمل آخر سوى أن تُعدّنا للإستنارة بالنور الإلهي ؛ بأن تجعلنا نحقّق ــ بفعل النعمة ــ موت كياننا المعتِم وإرادتنا الخاصة التي هى العقبة الوحيدة في طريق إتحادنا الشخصي با لله .

كذلك فإن إحدى السمات المميِّزة لتعليم القديس السُلّمي بشأن الصلاة ، هى الأهمية التي يبرزها للصلاة ذات العبارة الواحدة ، بالدعاء المختصر والمتكرّر باسم يسوع " ملتصقاً بالنَفَس " ؛ فالدعاء المختصر المتكرر الذي لا يملّ ، يخلّص النفس من تعدّد الأفكار ، ويؤدي إلى اعتياد

الصلاة الذي يتحوّل بفعل النعمة إلى شيء آخر تماماً غير الترديد الآلي البسيط . إن هذا التعوّد يبدو كأنه ثمرة ملء داخلي وتوحيد كامل لكل قوى النفس لتخدم خدمة المحبة، ولتنتعش بواسطتها . إن التذكّر الدائم لله، الذي يقود إليه التدرّب على " **صلاة يسوع** " ــ الذي يكون صعباً في البداية ــ يُنتج على الأقل تتابع أعمال حسنة عديدة ، ما لم ينتهِ إلى حالة توجيه القلب توجيهاً تلقائياً ثابتاً نحو الله . بذلك يكون الراهب راهباً بالحقيقة ، إذ " يحقق مرتبة غير المتجسّدين وحالتهم ، من داخل جسد ترابي ملوّث " (١ : ١٠) .

النصوص والترجمات

رغم أن " السُلّم " قد كُتِبَ أصلاً لتعليم رهبان رايتو ــ كطلب أبيهم يوحنا ــ ألاّ أنه قد راق لكثيرين من قارئيه . لقد انتشر على مدى واسع وتُرجم إلى لغات عديدة ابتداءً من القرن التاسع . فكما توجد إلى الآن عشرات من المخطوطات اليونانية المزوّدة بالرسوم التوضيحية ، توجد أيضاً أعداد كبيرة من المخطوطات سريانية (أقدمها يرجع إلى القرن السابع) ، وعربية (أقدمها يرجع إلى بداية القرن العاشر) ، وأرمنية (من القرن العاشر) ولاتينية (من القرن الثالث عشر). كذلك نُسِخ كتاب "السُلّم" بالروسية (منذ القرن الثاني عشر) والبلغارية والصربية[1] ؛ وطُبِعَ بالإيطالية منذ ١٤٩١ م بفينسيا ، كما ظهرت سبع طبعات منه بالأسبانية في القرن السادس عشر ، ثم ظهرت أول ترجمة له بالفرنسية عام ١٦٧٥ م وفي سنة ١٨٥٨ م ظهرت أول ترجمة انجليزية . وفي القرن التاسع عشر

(1) Dictionnaire de Spiritualité Fasc. L 11 - L 111, Paris 1972, P.P. 369 - 389 & GRAF : Geschichte des Christlichen Arabischen Literatur, 1BD., P.P. 409 - 410 .

أيضاً أُنجز طبعه بالروسية للمرة الخامسة . أمّا أول طبعة " للسُلّم "باليونانية فقد ظهـرت بباريس عـام ١٦٣٣ ، وبعـد ذلـك طُبـع بالقسـطنطينية عـام ١٨٨٢ بمعرفة الراهب صفرونيوس المتوحّد .

أما عن تأثير " السُلّم " في الشرق والغرب ، فمعلوم أنه بالإضافـة إلى تأثّر الرهبنة البيزنطية بجبل سيناء وجبل أثوس (باليونـان) بـه تـأثراً عميقـاً كذلك كان " السُلّم " ذا تأثير ملحوظ على الرهبنـة الروسـية ، بـل علـى العلمانيين الروس أيضاً منذ القرن الحادي عشر ؛ كما كان له انتشار واسع بين مواطني رومانيا وسلافونيا وبلغاريـا وصربيـا . وفي القـرن الرابـع عشـر انتقل تأثير " السُلّم " من شـبه جزيـرة البلقـان إلى دول وسـط أوربـا الـتي يخترقها نهر الراين ، فتتلمذ له منذ ذلك الحين الكثير من الرهبان هناك .

أما في مصر ، فعلى الرغم من ذيوع " السُلّم " وتداولـه بـين الرهبـان والعلمانيين منذ القرن الثالث عشر ، إلاّ أنـه بسـبب بقائـه في حـيّز النسـخ الخطّية فقط وعدم طبعه مفصّلاً حتى هذا القرن فقد اقتصرت فائدتـه علـى الرهبان فقط ـ الذين يعتبرونه من الكتب الأساسية للحيـاة الرهبانيـة شـأنه شأن " بستان الرهبان " ، وميامر مار اسحق السرياني ، وأقـوال القديـس برصنوفيوس .

أما عن هذه الترجمة العربية الحالية ، التي بين يدي القارئ ، فلها أربعـة مصادر :

١ـ مخطوطـة لأحـد رهبـان ديـر الـبراموس ، عـن أخـرى قديمـة مؤرخـة في ١٢٩١م، قيل أنها مترجمة عن اليونانية إلى العربية. ويرمز لها بالرمز "ب"

٢ ـ مخطوطة نسخها المعلم غبريال من مدينة المحلـة الكـبرى في عـام ١٩٣٠ دون أن يذكر مصدرها . ويرمز لها بالرمز " م "

٣ ـ كتاب RV. LAZARUS MOOR: *The Ladder of Divine Ascent* ترجمـة

هـذا الأب عـن طبعـة الأب صفرونيـوس السـابق الإشـارة إليهـا ــ بعـد استئناسه ببعض ترجمات روسية ــ إلى الإنجليزيـة عـام ١٩٥٩ــ يُرمـز لـه بالرمز " ل "

٤- P. PLACIDE DESEILLE: *L' Echelle Sainte* ترجمة هذا الأب، عن طبعة الراهب صفرونيوس إلى الفرنسية عام ١٩٧٨، ويرمز له بالرمز "د" .

ومع التزام المترجم إلى العربية بمـا حوتـه هـذه المصـادر الأربعـة التزامـاً دقيقاً ، إلاّ أن المصدرين الأخيرين كشـفا مـا في الأوّلَيْـن ــ شـأنهما شـأن الكثير من المخطوطات العربية ــ من إسهاب وأخطاء في النساخة وإضافات غير أصيلة . ولمراعاة الأمانة في النقل ، سُـجّلت غالبيـة هـذه الإضافـات في الحواشي ، لاسيما لكونها ـ في الغالب ـ كمـا قصـد الذيـن أضافوهـا علـى النصوص الأصلية ـ تشـرح هـذه النصـوص وتجعـل فهـم القـارئ لهـا أكـثر سهولة . هذا وقد روعـي ــ قـدر الإمكـان ــ الاحتفـاظ بـروح الأسـلوب الأدبي الأصلي للغة المخطوطتين العربيتين، لكن مع استبعاد الألفاظ الصعبـة التي اندرست وتخلّفت عـن اللغـة العربيـة المعـاصرة ؛ كمـا سُـجلت بعـض الإيضاحات والتعليقات على النصوص ـ إمّا في حواشـي أسـفل الصفحـات وإمّـا بـين النصـوص الأصليـة بـين قوسـين [ ] ــ لجعلهـا أيسـر فهمـاً مـن الناحيتين اللغوية والروحية .

ولا شك أن تطبيق المبادئ الروحية التي اشتملت عليها السُلّم ـ شـأنها شأن أي كتاب في اللاهوت الروحي ـ يحتاج بالضرورة إلى مرشـد روحـي مختـبر ومُسـتنير بـروح الله ، كيـلا يخطـئ القـارئ في فهـم تلــك المبــادئ وتطبيقها ؛ ولذلك فإن مثـل هـذا الكتـاب يسـتلزم مداومـة قراءتـه مـراتٍ ومرات بصفاء الذهن وروح الصلاة .

أما " الرسـالة إلى الراعـي " فمـع أنهـا تخـصّ بالدرجـة الأولى الرعـاة

والرؤساء الروحيين ، إلاّ أنها تفيد المرشدين الروحيين بصفة عامة، قادة الشباب ، والخدام ، والوالدين وأولياء الأمور ، بل قد يفيد منها القارئ العادي .

ومما تجدر الإشارة إليه ، هو أن درجات " السُلّم " لم تُكتَب أصلاً مقسَّمةً إلى فقرات . لذلك فعلى القارئ أن يلاحظ احتمال وجود ارتباط في المعنى بين الفقرة التي يقرأها والفقرة التي سبقتها ، أو التي تليها .

أما فهرس الموضوعات الملحق بنهاية الكتاب ، فهو بمثابة ملخّص لجميع مواده ؛ فمنه تكوّنت موضوعات روحية تشرح معنى كل كلمة من الكلمات المرتّبة ترتيباً أبجدياً وتوضّح العناصر المتعدّدة لكل موضوع من خلال ما ورد بين دفتي الكتاب .

ملاحظات : (١) ما وُضع بين [ ] ؛ هو إضافة من المترجم لتوضيح المعنى .
(٢) ما وُضع في الحاشية بعد " + " ؛ هو إضافة وردت بأحد أو بعض المصادر الأربعة لهذا الكتاب المرموز لها بالرموز ب ، م ، ل ، د .
(٣) ما وُضع في الحاشية بعد " – " ؛ لم يرد بأحد أو بعض هذه المصادر الأربعة.

لجنة التحرير والترجمة والنشر
بإيبارشية شبه جزيرة سيناء
١٩٩٧

مُقَدِّمَة

يشير هذا الكتاب إلى جميع الذين يسارعون إلى تسجيل أسمائهم في سفر الحياة في السماء ، نحو أفضل طريق يسلكونها .

فإذا رحلنا بمقتضى هَدْيه ، سنجده مرشداً وثيقاً للذين يقتفون آثار إرشاداته ، قائداً إياهم من الأرضيات إلى قدس الأقداس ، حيث يظهر الله في النهاية ، على ذروتها . وفي ظنّي إنها السُلّم التي شاهدها يعقوب مصارع الآلام ، حيث كان على المضجع النسكي راقداً[1] .

لذا أستعطفكم ، دعونا نتسلّق بغيرة وإيمان ، هذه السُلّم الروحية ، والدَرَج السمائي ، الذي تشير أولى درجاته ببيان ، إلى ماهية مسلكنا .

رتّب لنا الأب القديس بحكمة ، مِصْعَداً ، درجاته مساوية في العدد لسني عمر ربنا حسب الجسد ؛ لأنه على حذو الثلاثين سنة ، ملء عمر مخلّصنا ، وصف لنا سُلّماً من ثلاثين درجة للكمال الروحي . وعندما نبلغ بصعودنا عليها ، ملء عمر الرب ، نبلغ ناموس التأدُّب ونوجد بغير عثار . أما الذي لم يبلغ بعد هذه القامة ؛ فهو بعد طفل وفي نظر الجميع ناقص .

وقد رأيناه ضرورياً أن نضع في مستهلّ هذا الكتاب ، سيرة هذا الأب الحكيم ، لكي بعد التعرّف على أعماله ، لا يخامر القارئ شكّ في أصالة أقواله .

---

(١) قارن (تكوين ٢٨ : ١١ ، ١٢) .

نبذة وجيزة ، عن سيرة القديس أبا يوحنا ، أبي جبل سيناء المقدس المكنى بالتقليدي[١]

١ ـ إنني[٢] لا أستطيع أن أُحدِّد بالتأكيد ، ما هي المدينة الخالدة ، التي ولد فيها القديس ، قبل أن يبدأ حياته الجهادية والنسكية .

أما المدينة التي تونله الآن وتغذوه بالقوت الإلهي ، فإنني أعرفها . إن هذا الرجل العجيب يسكن الآن حقاً أورشليم السمائية ، التي قال عنها الرسول بولس العظيم صارخاً : " إن سيرتنا (وطننا) نحن ، هي في السموات[٣] ؛ حيث يَطعم من الخير الروحي الذي لا يُشبَع منه ، ويتأمل الجمال الذي لم تره عين ، نائلاً جعالة استحقاق جهاداته ، ومجد أتعابه ـ وما هي بأتعاب ـ أي الميراث السمائي . إنه متّحد إلى الأبد بأولئك الذين تقف أرجلهم في الاستقامة[٤] .

أما كيف أتخذ هذا القديس المُمجَّد منزلته بين الروحانيين ، فهذا ما سأبيّنه بعد :

٢ ـ لما صارت له ستة عشرة سنة في عمره الطبيعي ، قرَّب هذا المبارك نفسه للمسيح ، ذبيحة مقبولة مَرْضِيَّة ، وارتقى بجسده جبل سيناء[٥] ، بينما ارتفعت نفسه مُحلّقة في أعالي السماء . ولعله ترجَّى كما أظن ، من هذا المكان المنظور سمات تساعده على بلوغ غير المنظور[٦] وهكذا إذ قطع حرية

---

(١) التقليدي Scholastic ، وهو الشديد التمسّك بالتعاليم الأساليب والتقليدية لمذهب معين

(٢) كاتب هذه السيرة الموجزة دانيال راهب رايتو (٣) (فيلبي ٣ : ٢٠)

(٤) (مزمور ٢٦ : ١٢) (٥) د : وحمل على عاتقه نير الحياة الرهبانية بجبل سيناء

(٦) لأن سيناء تجدد ذكريات موسى حيث كان يتكلم مع الله

التكلّم التي لا تليق بالوحدة[1] ، أُم الولدان الروحانيين ، واقتنى تواضعاً لائقاً ، أطاح منذ بدء دخوله هذه الحياة بقصد راسخ ، بالعُجْب والثقة بالذات ، محنياً عنق الخضوع والأمانة لمرشد جليل[2] لأنه أحرز قصداً صالحاً أن يعبر البحر الخطر بغير مضرّة ، تحت قيادة أبيه ؛ وأن يبلغ حالة الاقتناع بأن يحيا جاحداً معرفته ومشيئته ، منسلخاً تماماً عن صفاته الطبيعية . لكن الذي يدعو إلى التعجّب أكثر ، أنه بسبب واسع معرفته ، أبرز غرور الحكمة البشرية ، التي تغاير الاتضاع تماماً ، الذي هو بساطة السمائيين .

٣ ـ ولما بلغ تسع عشرة سنة[3] ، شيّع معلمه سلفاً إلى الملك السمائي كشفيع ومحامٍ . وإذ تسلّح بصلوات ذاك الأب الكبير كما بسلاح قوي " لهدم حصون "[4] دخل في سلك الوحدة مختاراً لنضاله مكاناً منعزلاً ، يبعد نحو خمسة أميال عن كنيسة الدير يُدعى " تولا "، حيث قضى أربعين عاماً في الأتعاب[المقدسة] مضطرماً بالحب الإلهي مصطلياً على الدوام بناره .

٤ ـ من يقدر أن يصف في كلمات ، الأتعاب التي أنجزها هناك وكيف يمكن الإفصاح عنها ، مادام كل جهاده في أرض الخفية كان مزروعاً ؟ لكننا قد نستطيع من بعض تلميحات ، أن نعرف أقدس ما كان يقتنيه هذا القديس .

٥ ـ كان يأكل من كل شئ يسمح به النذر الرهباني ، لكنّ ما كان يأكله كان يسيراً جداً . فبتناوله من كل شئ ـ كما أظن ـ سحق بحكمةٍ قرن الكبرياء[5] ؛ وبقلّة الغذاء ، أذلّ تلك السيدة[6] التي لا تعرف الاكتفاء ،

---

(١) د : بالغربة (٢) الأب مارتيريوس

(٣) في العمر الرهباني أي كان سنه الحقيقي وقتذاك ٣٥ عاماً (٤) ٢ كو ١٠ : ٤

(٥) د : المجد الباطل (٦) المعدة

صارخاً فيها بغضب حقيقي : "اسكتي ، ابكمي"[1] ، وبالوحدة والانفصال عن مخالطة الآدميين أطفأ سعيرها ، حتى أنها خمدت في النهاية وأنطفأت .

وقد تجنّب هذا الناسك الشجاع بثباته ، التعبّد للأوثان[2] ، بالحنو[3] (على الآخرين) ، وبالعوز إلى الضروريات . وأنهض نفسه من الموت المتواصل ، الذي هو الضجر ؛ ومن الاسترخاء والتواني ، بنخسها على الدوام بمهماز تذكّر الموت كما فكّها من سلاسل الوَلَعَ بالماديات [القنية] ، بتقييد نفسه بأغلال الحزن[4] [الذي حسب مشيئة ا لله]

أما " طاغية " الغضب ، فقد سبق له أن ذبحه في نفسه بسيف الطاعة وبحفظ جسده دواماً داخل الحبس ؛ وبنُدرَة التكلم أمات " عَلَقَةَ"[5] السبح الباطل .

أي نوع من الجوائز قد أحرزه هذا الصوفيّ السامي لنصرته على الوجع الثامن[6] ؟ وماذا كانت تلك الدرجة السامية من النقاوة ، التي بدأها " بصلئيل "[7] الطاعة هذا ، وأكملها رب أورشليم السمائية عندما زاره بالروح ، تلك التي بدونها لايمكن أن يُذَلّ الشرير وأعوانه؟

٦ - وأين هذا التاج الذي نصنعه [لهذا القديس] ، مكان ذلك الينبوع من الدموع ، التي نراها في قليلين ؟ أماَ المكان المخفَي الذي أُذرفت فيه تلك الدموع ، فما يزال معروفاً إلى هذا اليوم إنه مغارة ضيقة للغاية في سفح

---

(١) مرقس ٤ : ٣٩ (٢) كولوسي ٣ : ٥ (٣) د : برأفة ا لله

(٤) أي حزن النوح على الخطايا (التوبة) . د : وبتحرره من كل ولع بالمقتنيات ، وبالحنين إلى غير المنظورات . حطم أغلال الغم . (٥) العلقة : ذييبة سوداء تمص الدم

(٦) الوجع الثامن حسب تعليم الآباء هو الكبرياء (٧) أنظر (خروج ٣١ : ٢ ، ٣)

الجبل ، تبعد عن مغارته وعن غيرها من قلالي ، بُعداً كافيـاً لأن يقـي السـمع من المجد الباطل ، لكنه جعلها قريبة من السماء بصرخات وصيحات ، كالتي يمكن سماعها من أولئك الذيـن يُطعنـو ن بالنصـال أو الذيـن يسـفعهم الحديـد المحمَّي ، أو الذين تُنزع عنهم أعينهم .

٧ ـ كـان يتنـاول مـن النـوم فقـط قـدر مـا يكفـي لأن يمنـع عقلـه مـن التشتّت. وقبل نومه كان يصلّي كثـيراً ويكتـب كتبـاً ؛ وهـذا كـان وسـيلته الوحيدة ليخفّف بها حدة الضجر .

إن حياته كلها كـانت صـلاة متّصلـة ، وحبـاً لله لا يمـاثَل لأنـه كـان في نقاوة كماله ، يتأمل في ا لله ليلاً و نهاراً ، كما في مرآه ؛ وما كـان يسـتطيع أبداً أن ينال مايشبعه من هذا التأمل .

٨ ـ حدث أن أحد أولئك المنخرطين في الحياة الرهبانية يُدعى ''موسى'' وُخِز من غيرة هذا الأب القديس[١] ، فاشتاق بشدّة أن يصير له تلميـذاً وأن يتلقّن منه الحكمة الحقيقيـة فحصـل علـى شـفاعة آخريـن لـدى الأب لينـال بغيته، وبسؤالهم أحرز موافقة الأب المبارك .

وفي ذات مرة أمر الأب تلميـذه ، أن يحضـر لـه كميـة مـن الأتربـة مـن مكان معين ، لتسميد أحواض الخضر . فبلـغ موسـى المكـان المرسـوم وأنجـز باجتهاد ما أُمِر بـه فلمـا اشـتدّت عليـه الحـرارة في منتصـف النهـار ، وكـان الشهر الأخير[٢] ، اضطجع موسى في ظل صخرة هائلة ونام ؛ لكن ا لله محب البشر ، الذي لايشاء انزعاج خادميه الخواص ، افتقده كالعـادة وأنقـذه مـن خطر وشيك .

---

(١) د + حامل الإله .
(٢) السنة الكنسية تبدأ بسبتمبر وتنتهي بأغسطس .

٩ ـ فبينما كان الأب الكبير يوحنا في قلاّيته، منحصراً في ا لله وفي ذاته، اختطف في نوم خفيف ، حيث رأى فجأة شخصاً عظيماً ذا هيئة وقورة يوقظه موبِّخاً على نومه قائلا : " يا يوحنا ، كيف تنام بلا همّ ، بينما موسى في خطر ؟ " وإذ قام لوقته من النوم أمسك يوحنا بسلاح الصلاة لأجل تلميذه . ولما حان المساء وعاد موسى ، سأله قائلاً : " هل ألمّ بك اليوم مكروه أو طارئ ؟ " فأجاب التلميذ: " إن صخرة عظيمة كادت تسحقني، إذ كنت نائماً تحتها في الظهيرة[١] ، إلا أنني قفزت عنها بعيداً عندما بدا لي أنك تناديني " أما المتضع بالحقيقة ، فلم يخبر تلميذه برؤياه لكنه بصرخات سرّية وتنهدات الحب القلبية، شكر الإله الرحوم .

١٠ ـ كان رجل ا لله شافياً كذلك للجراح غير المنظورة . فقد حدث مرة ، أن راهباً يُدعى اسحق ، انضغط بشدة من شيطان الجسد[٢] ، وسقط في الارتباك واليأس .

فذهب إلى الأب الكبير وأخبره عن ضيقته بدموع . فقال له الأب العجيب متعجّباً من إيمانه[٣] : " دعنا يا أخي نقف لنصلّي معاً[٤] " وعندما انتهت الصلاة ، بينما كان اسحق جاثياً بعد ووجهه في التراب ، تمّم ا لله مشيئة خادمه ليظهر صدق داود[٥] ؛ وهكذا إذ ضُربت الحيَّة[٦] بعصا الصلاة المقتدرة ، وَلَّت مُجبَرةً على الفرار وإذ رأى المريض نفسه معافى ، اشتمله

---

(١) د : + نوماً عميقاً (٢) ل : الشره (٣) المقصود بالإيمان هنا إيمان اسحق بالأب يوحنا

(٤) د : + ولا شك أن الإله الصالح الرحيم لن يرذل توسّلنا (٥) قارن (مزمور ٤٥ : ١٤)

(٦) د : حية الزنا .

الانذهال[1] وقدّم الشكر لله الذي اظهر مجده ، ولخادمه الذي تمجّد .

١١ ـ كان هذا الأب الجليل يُفيض كلمات النعمة بغزارة من فمه ، على من كانوا يأتونه ، ويوزّع عليهم بسخاء ووفرةٍ مياهَ تعاليمه ولكن بعض الأشرار ، منخوسين من الحسد ، دبّروا مكيدة ليمنعوا الخير الذي كان يعمله ؛ فوصفوه بأنه ثرثار مهذار . أما هو ، إذ كان عالماً أنه يستطيع كل شئ في المسيح الذي يقوّيه[2] ، وناشداً أن ينفع ويُثقّف من كانوا يقصدونه ـ ليس بأقواله فحسب ، بل بالأحرى بصمته وفلسفة أعماله أيضاً ـ أراد أن يقطع فرصة الذين كانوا يطلبون عليه فرصة [لإظهاره بمظهر من يتكلّم كثيراً دون أن يعمل بما يُعَلّم به] كما هو مكتوب[3] ، فلزم الصمت سنة[4]، وأوقف مياه تعاليمه التي كانت في حلاوة العسل ، إذ حسب أن إلحاق ضررٍ هيِّن بالذين كانوا ينتفعون منه ـ مع إفادتهم من جهة أخرى بقدوة سكوته ، أفضل من أن يضايق بالأكثر أولئك الذين أدانوه عن سوء قصد ، ويثير حقدهم . حينئذ لما خجلوا من رؤيته منعزلاً بتواضع ، فهموا أيَّ ينبوع للتعاليم والمنافع قد أنضبوه وأيّه خسارة أصابت الجميع قد سبّبوها . فأتوا إليه متوسلين وانضموا إلى جميع الآخرين ليسألوه أن يوزّع من جديد تعليمه، وألاّ يُضِرّ بصمته من كانوا يريدون الخلاص بفضل أقواله . أما هو ـ فإذ لم يكن يعرف أن يجادل ـ أذعن سريعاً لسؤالهم ، واستأنف تصرّفه السابق .

١٢ ـ إذ كان متفوّقاً على الجميع في كل صلاح ، اتّفقت كلمتهم وأجبروه ـ كأنه موسى الجديد ـ على الاضطلاع بمهمة قيادة الإخوة .

---

(١) ل : الخشوع (٢) فيلبي ٤ : ١٢

(٣) كورنثوس الثانية ١١ : ١٢ ـ ١٥ . (٤) د : مدة من الزمن

وهكذا لم يخطئ ظن الذين عرفوا حق قـدره ، عندما وضعوا السراج فوق المنارة .

لقد صعد مثل موسى على الجبل ، ودخل ، الخفاء غير المقترب ، وبارتقائه درجات روحية استلم الشريعة المكتوبة بأصبع الله والتأمل ؛ فتح فمه للتكلّم فاجتذب الروح ، وأطلق الكَلِمَ من كنز قلبه الصالح .

١٣ ـ وهكذا بلغ نهاية العمر المنظور قائداً أولئك " الاسرائيليين " ، أي الرهبان [مثل موسى] . إنما لم يماثل موسى في أمر واحد ، وهو أنه ارتحل إلى اورشليم العليا بينما خاب موسى من بلوغ أورشليم السفلى .

١٤ ـ كثيرون يشهدون لتعاليم القديس يوحنا الروحية ، هم جميع الذين اقتبلوا أقوال الروح القدس من فمه ، وأولئك الذين خلصوا على يديه، بل أيضاً هؤلاء الذين مازالوا يخلصون .

هناك أيضاً شاهد ممتاز لحكمة ذلك الحكيم مخلّص النفوس ، هو داود . شاهدٌ آخر هو راعينا الصالح يوحنا ، الذي بتوسلاته الدائمة جعل نبي سيناء الجديد هذا، ينزل بفكره من العلو إلينا، لكي يسلّمنا ـ كناظر آخر للإله[1] ـ الألواح التي كتبها الله ، تشتمل من الوجه على التوجيهات المختصة بحياة العمل ، ومن الظهر على تلك التي تخصّ التأمل .

وقد حاولت في كلمات قليلة أن أذكر أموراً كثيرة ، وذلك لأن الإيجاز ممدوح حتى من الخطباء .

---

(١) أي مثل موسى النبي

بشأن أبَا يوحنا السُلَمي
رئيس رهبنة جبل سيناء

١ ـ مرة أتى أبّا مرتيريوس بصحبة أبّا يوحنا، إلى أناستاسيوس الكبير فنظر القديس أناستاسيوس إليهما وقال لأبّا مرتيريوس : '' أخبرني يا أبّا مرتيريوس من أين أتى هذا الفتى ، ومن الذي رهَّبه ؟ '' . '' إنه خادمك يا أبتِ ، وأنا الذي قبلت نذوره '' أجاب أناستاسيوس '' هذا رائع أبّا مرتيريوس ! '' واستطرد أناستاسيوس '' من كان يظنّ أنك قد رهّبت رئيس رهبنة سيناء ! '' ولم يكن الرجل مخطئاً، إذ بعد أربعين عاماً صار يوحنا أبانا .

٢ ـ في فرصة اخرى ، أصطحب أبّا مرتيريوس تلميذه يوحنا ، ذاهبين إلى القديس يوحنا سابا ، الذي كان يقيم وقتذاك في صحراء جّدة . وعندما لمحهما الشيخ قام وصبّ قليلا من ماء ، وغسل قدمي يوحنا ، وقبّل يده لكنه لم يغسل قدمي ابّا مرتيريوس . فلما سأله بعد ذلك تلميذه ستفانوس لماذا فعل هذا ، أجابه الشيخ : '' صدّقني يابنيّ ، إنني لست أعرف هذا الصبي لكني استقبلت رئيس رهبنة سيناء ، وغسلت رجليه '' .

٣ ـ وحدث في نفس اليوم الذي ترهّب فيه يوحنا ، عندما بلغ من العمر عشرين عاماً ، تنبّأ عنه أبا ستراتيجيوس أنه سيكون منارة عظيمة .

٤ ـ وحقاً في نفس اليوم الذي صار فيه يوحنا ، رئيساً لنا ، أتانا نحو ستمائة من الحجاج ، وعندما كانوا جميعاً جالسين يأكلون طعاما، رأى يوحنا رجلا ذا شعر قصير لابساً رداءً كهنوتياً أبيض (تونية) مثل يهودي ، يدور ويلقي أوامر قاطعة إلى الطبّاخين ، والخدم والمضيفين ، ومسؤول الضيافة ؛ ولما أنفضّ القومُ ، وجلس الخدم على المائدة ، جعلوا يجيلون أنظارهم هنا

وهناك ، باحثين عن الرجل الذي كان يدور ويصدر أوامره، لكنهم لم يجدوه. عندئذ قال لنا خادم الله أبونا القديس يوحنا : " كُفّوا عن البحث عنه . إن عاهلنا موسى[1] لم يأت أمراً غريباً بالخدمة في هذا المكان لأنه يخصّه " .

٥ ـ في إحدى السنوات حدث قحط وجفاف في فلسطين ؛ وإجابة لسؤال المواطنين ، صلى أبّا يوحنا فأمطرت مطراً ثقيلاً . وليس في هذا الأمر غرابة ، لأن الرب يعمل مشيئة خائفيه ، ويسمع تضرعهم[2] " .

٦ ـ يجب أن يعُرف أن أبّا يوحنا السُلّمي ، كان له أخ بالطبيعة ، وهو أبّا جاورجيوس العجيب الذي عيّنه رئيساً لسيناء حتى أثناء حياته ، والذي أحب أيضاً الوحدة واعتنقها من البداية عينها . وعندما رحل موسى الجديد إلى الرب ، وقف به آنذاك أبّا جورج وقال له بدموع : " وهكذا ستتركني أنت وتمضي . كنت أصلّي لكي تدفنني أولاً ، لأن رعاية هذا المجمع بدونك ياسيدي أمرٌ يفوق قدراتي ، لكن عوضاً عن ذلك صار عليَّ أن أدفنك " فقال له أبّا يوحنا : " لا تحزن ولا تهتمّ . لأنني إن نلت نعمة في عينيّ الرب، لن أتركك تكمل سنة واحدة بعدي " ، وهذا ما حدث تماماً إذ في غضون عشرة أشهر رحل أبّا جورج كذلك إلى الرب .

---

(١) هو النبي القديس ، موسى معطي الناموس (٢) مزمور ١٤٥ : ١٩

رسالة أبا يوحنا رئيس دير رهبنة رايتو[1] ،
إلى البارع أبا يوحنا رئيس رهبنة سيناء

إلى أبي الآباء الملائكي الذي بلغ ما فوق الطبيعة، والمعلّم الذي لا يُقارَن؛ من الخاطئ يوحنا ، أبي رايتو ، راجيا لك الفرح في الرب .

إذ نعلم[2] نحن الخلائق الفقيرة ، طاعتك التي لا يشوبها ريب ، في كل الأمور في الرب ، أنت الذي زُوّدت بكل فضيلة ، لا سيما عندما يكون السؤال متعلقاً بزيادة الوزنة الموهوبة لك من الله . لهذا نكتب إليك في توسّل متواضع ، ذاكرين ما قد قيل : " اسأل أباك فيخبرك ، ومشائخك فيُعْلموك[3] " .

لهذا السبب نوجّه أنفسنا نحوك ، كما إلى الأب العام لجميعنا ، ورئيسنا في النسك والفهم ، وأفضل المعلّمين ؛ سائلين برسالتنا هذه ، فضيلتك الرائدة ، أن تصف لأغبياء القوم مثلنا ما قد رأيته في الرؤية المقدسة ، كموسى في القديم على نفس الجبل . وأن تبعث إلينا كتاباً مثل الألواح الإلهية المسطورة ، لتعليم اسرائيل الجديد الذي - يمكنني القول - قد هرب منذ قريب ، من المصريين ومن بحر الدهر الحاضر .

وبما أنك لم تستعمل عصا - كما كان الحال في ذلك الخضمّ . بل أتيت بالله

---

(١) يرجح أنها الآن " الراية " التابعة لمدينة الطور ، التي تبعد عن دير سانت كاترين بنحو ١٦٠ كيلومتراً . وقد كانت الطور ميناءً هاماً على البحر الأحمر في العصر البيزنطي ، وفي القرنين الثالث والرابع كانت مركزاً رهبانياً . وتوجد هناك إلى اليوم بقايا دير أنشأه أيضاً الامبراطور يوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) .

(٢) يتكلم المرسل بلغة الجمع ، نائباً عن جميع رهبانه المشتركين معه في السؤال

(٣) تثنية ٣٢ : ٧

العجائب ، بواسطة لسانك الملهم ؛ فنسألك الآن ألا تزدري بمطلبنا ، وأن ترسّخ دون إبطاء وبوضوح العبارة ، ترتيب ماهو ضروري لخلاصنا ، نحن الذين التجأنا لنمسك[1] بسعي الحياة الرهبانية ، كقائد عظيم حقاً لجميع الذين اختاروا هذه الحال الملائكية .

ولا تنظرن إلى ما قلناه كأنه إطراء أو تملّق ، لأنك تعلم أيها الأب الطاهر حقاً ، أن المداهنة غريبة عن مسلكنا ، وأننا إنّما نكرّر ما يتكلم به كل أحد ويقوله ، بل ما يراه الجميع بجليّ البيان .

لذلك نثق في الرب أننا سوف نتسلم سريعاً ونعتنق نقشك الثمين على الألواح التي ترتقبها ، وهي ستقود حقاً دون ريب ، كل الراغبين أن يتبعوا المسيح ؛ ومثل سُلّم منصوبة ستؤدي بالتائقين إلى أبواب السماء ، أنقياء وبلا لوم ؛ لكي يعبروا بلا معوق ، أرواح الشر ، وولاة ظلمة هذا العالم ، وسلاطين الهواء[2] .

لأنه إذا كان يعقوب الذي كان راعياً للأغنام ، قد رأى بواسطة سُلّم ، هذه الرؤية المروّعة ، فبكل تأكيد نستطيع أن نتوقع لمرشد الخراف الروحية أن يُظهر للجميع لا بالرؤية فقط ، بل بالحقيقة الجليّة ، الصعود الحقيقي إلى الله .

وداعاً في الرب أيها الأب الجليل

---

(١) قارن عب ٦ : ١٨ (٢) أفسس ٦ : ١٢

الــرد

يوحنا يرجو ليوحنا الفرح . . .

لقد تقبّلت رسالتك الكريمة، اللائقة بسيرتك المقدسة البريئة من الآلام ، وبقلبك النقي المتواضع ، التي أرسلتها إليَّ أنا المتسوّل والفقير إلى الفضائل . أو بالأحرى تسلّمت سؤالك ؛ بل أمرك الذي يفوق طاقتي . وتلك سِمة نفسك المقدسة ، أن تسأل مني - أنا الغبي غير المتأدّب فعلاً وقولاً - أقوالاً للتعليم والإرشاد ، لأن هذه قد جعلتها سجيّتك ، لكي توضح لنا مثال التواضع .

ولولا جزعي من الخطر الجسيم ، الناجم عن طرح نير الطاعة المقدسة ، أُمّ سائر الفضائل ، لما خاطرتُ بتهور للاضطلاع بعمل لا طاقة لي به . وقد كان يليق بك أيها الأب الباهر ، أن تسأل عن هذه الأمور ، الآباءَ المختبرين حسناً ، لا مني أنا ، الذي ما أزال في صفوف التلاميذ المبتدئين . لكن كما يقرّر أباؤنا الملهَمون والمطّلعون على المعرفة الحقيقيّة ، أن الطاعة هي أن يخضع الإنسان بلا تردّد للذين يأمرونه ، حتى في الأمور التي تفوق القدرة ؛ فهأنذا قد أغفلت نقص مقدرتي ، وبجسارة الطاعة قد وضعت بداية لما يفوقني . لكني لست منجزاً هذا العمل بفكر إيراد منفعتك ، أو شرح ما أعرفه دونك ، أيها الأب القديس الموقّر ، لأنني مقتنع مثل كل ذي فطنة ، أنك قد حرّرت نفسك من كل ما هو أرضي ، ونقّيت ناظر قلبك من ظلمة الآلام ، فصار ينصبّ إليه النور الإلهي بلا معوّق ، فيستنير منه . لكني . كما قلت - خاشياً

موت المعصية، ومنه مدفوعاً إلى الطاعة، قد تقدّمت بخوف وحب، لا بخزٍ أمركم العادل، كخادم أمين وكعبد غير مستحق، لفنان ماهر. ومعرفتي الهزيلة المتنافرة، وعباراتي المتلعثمة، رسمت بالمداد فقط، أشكالاً مجرّدة للكلمات الحيّة؛ تاركاً لك يا أفضل المعلمين ومرشدهم، أن تنمّق وتوضّح ما نقص منها، كمن يستتم صحائف ناموس روحي، ويملأ ثغراتها. وحاشا لي أن أُصدّر هذا العمل إليك، لأن هذا علامة غاية الجهل، لأنك قادر في الرب أن تثبّت في القديس وشرائعه، ليس آخرين فحسب، بل إياي كذلك. إنّما أوجّه هذا المجهود إلى أعضاء المجمع المدعوين من الله، المتتلمذين معي تحت قدميك. فبك أستهلّ هذا العمل، محمولاً على صلواتك مع توسلاتهم، غاضاً عن جهلي الطرف، بنوع من الرجاء بالروح، باسطاً شراع قلمي بكل طلبة، مسلّماً سفينة الكلم للمسيح المدبّر الصالح؛ سائلاً جميع الذين يطّلعون على هذا الكتاب، كل من وجد فيه شيئاً مستجلباً نفعاً، أن يعزو ذلك لمعلمنا الأوحد الصالح؛ وأن يبتهل أن أُعطَى من الله المكافأة، على ما بدأت به فقط، دون إمعان النظر إلى المقولات، فإنها بالحقيقة دنيّة، ومملوءة من كل جهل وأميّة، وأن يقبل نيّة مقدّمها كما قبل تقدمة الأرملة[1]؛ لأن الله جلّ ثناؤه، لا بحسب وفرة القرابين والأعمال يؤتي المجازاة، بل بحسب حرارة النيّة وكرم القصد.

(١) مرقس ١٣ : ٤٢، لوقا ١١ : ٣

الدرجة الأولى

الاعتزال عن العالم

١ إنّ الأصوب أن نبدأ الكتابة إلى عبيد الله، عن الله. إلهنا وملكنا صالحٌ، فائق الصلاح، كلّيُّ الصلاح.

الكائنات العاقلة التي خلقها الله، وشرّفها برتبة الإرادة الحرّة، بعضها مَن هم رفقاؤه، وبعضها مَن هم خُدامه الحقيقيون، والبعض عديمو القيمة، والبعض متغرّبون عن الله تماماً، وآخرون رغم أنهم مخلوقات ضعيفة، لكنهم مقاوموه على حدٍ سواء.

٢ أحبّاء الله، أيها الأب العزيز القديس، نعني بهم بدقة، نحن القوم السذّج، أولئك الكائنات العقلية غير المتجسّدة، الذين يطوّقون الله.

خُدّام الله الحقيقيون، نعني بهم جميع الذين عملوا مشيئته ويعملونها بلا كلل أو فتور. أمّا الخُدّام عديمو الجدوى، فهم أولئك الذين يظنّون في أنفسهم أنهم قد أُهِّلوا للمعمودية، لكنهم لم يحفظوا بأمانةِ النذور[1] التي نذروها لله.

---

(١) " أم تجهلون أننا كلّ من اعتمد ليسوع المسيح، اعتمدنا لموته. فدُفنّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من بين الأموات بمجد الأب، هكذا نسلُك نحن أيضاً في جدّة الحياة.. عالمين أن إنساننا العتيق قد صُلب معه [بالمعمودية] ليُبطَل جسد الخطيئة، لكيلا نعود نستعبد من جديد للخطيئة... احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطيئة ولكن أحياءً لله بالمسيح. إذن لا تملكن الخطيئة في جسدكم المائت [بالمعمودية] لكي تطيعوها في شهواته. ولاتقدموا أعضائكم آلات اثم للخطيئة. بل قدّموا ذواتكم لله كأحياء من بين الأموات، وأعضاءكم آلات برٍّ لله. فإن الخطيئة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس، بل تحت النعمة [التي اقتبلتموها بالمعمودية] "(رومية ٦:٣-١٤)

أما المتغرّبون عن الله ومتجنبوه ، فهم غير المؤمنين والهراطقة . أما أعداء الله ، فهم الذين ما رفضوا وصية ربنا وطرحوها عن أنفسهم فقط ، بل يحاربون من يتمّمها أيضاً محاربةً شعواء .

٣ فإذا كان لكل فئة من الفئات التي ذكرنا ، رسالة تخصّها ، فليس نافعاً لنا نحن معشر السذّج ، في هذا الصدد ، أن ندخل في مثل هذه الاستقصاءات المستطيلة .

فهاتِ الآن ، نمد يدنا الخائبة من الاستحقاق ، بطاعة خالية من الارتياب، إلى عبيد الله الحقيقيين الذين اغتصبونا بتقواهم وكلّفونا بإيمانهم ، أن نأتمر بأمرهم . دعنا نكتب هذه الرسالة بقلم من غزير معرفتهم ، مغموس في مداد الاتضاع الخاضع البهي ، ونكتب به على أوراق قلوبهم البيضاء الرقيقة ، بل بالأحرى ، دعنا ننقش الكلمات الإلهية على ألواح الروح (أو بالحري نبذر البذار) ونبدأ هكذا :

٤ الله يخصّ كل الكائنات الحرة . فهو حياة الكل وخلاص الكل : المؤمنين وغير المؤمنين ، الأبرار والأثمة ، المقسّطين[١] والظَلَمة ، الأتقياء والدنيويين، الرحومين والقساة ، الرهبان والعلمانيين، الحكماء والساذجين ، الأصحاء والسقيمين ، الصغار والمسنّين ؛ كما أن انتشار الضوء ومعاينة الشمس وابتدال الطقس ، هي للجميع مشاعة ؛ " لأن ليس عند الله محاباه"[٢] .

٥ الملحد كائن مائت ذو طبيعة عاقلة ، يعطي ظهره للحياة بإيثاره ، ويحتسب جابله الدائم الوجود ، كأنه غير موجود .

(١) أي العادلين (٢) رومية ٢ : ١١

٦ متجاوز الشريعة هو الذي يعتنق شريعة الله حسب رأيه الفاسد[١] ، وببدعةٍ في الدين مضادّة لله ، يظنّ أنه يؤمن بالله .

٧ المسيحي ، إنسان يقتدي بالمسيح ـ قدر ما يمكن لطبيعة البشر ، فكراً وقولاً وعملاً ؛ ويؤمن بالثالوث الأقدس إيماناً صحيحاً غير ملوم .

٨ محب الإله هو الذي يعيش في مشاركة مع كل ما هو طبيعي[٢] وخالٍ من الخطيئة ، وبأقصى ما يمكنه لا يغفل عن شئ من الصلاح

٩ الضابط نفسه، هو الذي في وسط التجارب والأشراك والاضطراب، يكافح بكل قوّته ، ليقتفي طرق مخلصنا، الذي هو حرٌّ من جميع أمثال هذه .

١٠ الراهب هو الذي من داخل جسده الملوَّث ، يكدح نحو مرتبة غير الجسديين وحالتهم .

١١ الراهب هو الذي يغصب بحزمٍ طبيعته، ويحرس بلا توّقف حواسه.

١٢[٣] الراهب هو المتعلّق بوصايا الله وكلماته ليس إلاّ، في كل وقتٍ، وكل مكان ، وكل شئ .

١٣ الراهب هو الذي يحفظ جسده طاهراً ، وفمه نظيفاً وعقله مستنيراً .

١٤ الراهب نفس نائحة تهذّ بلا توّقف ـ في النوم وفي اليقظة بتذكُّر الموت .

١٥ الانسحاب من العالم بُغضٌ اختياري لاقتناء الماديّات ، وجحدٌ للطبيعة لإحراز ما فوق الطبيعة .

---

(١) رومية ١ : ١٨ ، ٢ تي ٣ : ٨ (٢) د · الذي يستعمل كل ما هو طبيعي (٣) ل : -

١٦ من البيّن أن الذين أهملوا أشياء العالم طواعيةً ، قد فعلوا ذلك

- إمّا لأجل الملكوت العتيد .
- أو بسبب كثرة خطاياهم .
- وإمّا لأجل حبّ الله .

أمّا إذا لم يكن الباعث على انصرافهم من العالم ، واحداً من هذه الدوافع ، فإن خروجهم بلامبرِّر . لكن الله واضع جهادنا الصالح ، ينتظر غاية سعينا ماذا يكون .

١٧ ليماثِلْ من خرج من الدنيا ـ ليطرح عنه وسق خطاياه ـ أولئك الذين يجلسون خارج المدينة بين المقابر ، ولا يكفّ عن ذرف الدموع الحارة الحامية ، واستمرارِ تنهّد قلبه المسكوب دون صوتٍ يُبديه ؛ حتى يبصر يسوع جائياً إليه ، مدحرجاً عن قلبه حجر عماه ، حالّاً لعازر عقله من حبائل خطاياه ، موعزاً إلى خدامه الحاضرين أنْ حِلُّوه ودعوه يمضي إلى النجاة السعيدة بغير ألم من الآلام . إن لم تكن هذه الحال حاله ، فذلك ما انتفع من تركه العالم بشئ .

١٨ فكلّنا الذين نريد أن نخرج من مصر ونهرب من فرعون نحتاج بوجه التأكيد إلى ثمّة موسى آخر ، وسيطاً من الله ولدى الله ، لكي بوقوفه من أجلنا فيما بين العمل والتأمّل[١] يمدّ ذراعي الصلاة إلى الله ، إلى أن يعبر الذين يقتادهم بحر خطاياهم ، ويقهروا عماليق أسقامهم[٢] ، وينصب راية الغلبة . فقد انخدع إذاً من يسلّم ذاته لهذا الطريق[٣] ، ويتوهّم أنه لن يحتاج إلى من يقتاده أو يرشده .

(١) ب ، م بين العمل والعلم . (٢) خروج ١٧

(٣) ل : لله ـ المقصود بـ"هذا الطريق" : الطريق الرهباني . د : من يثقون في ذواتهم ، ويتوهمون ...

١٩ إذا كان الذين خرجوا من مصر ، قد اتخذوا موسى النبي مرشداً إيّاهم ، والذين هربوا من سدوم كان قائدهم ملاكاً . فالذين خرجوا من مصر يماثلون الذين يُشفَون باهتمام الأطباء من أسقام النفس[١] ، والذين خرجوا من سدوم يشابهون الذين يشتاقون أن ينزعوا [عنهم] نجاسة هذا الجسم الشقي ، فلذلك يحتاجون أن يكون الذين يعينهم ملاكاً[٢] ـ أو على الأقل ـ يحتاجون إنساناً نظير ملاك ، لأن على قدر تقيّح قروح خطايانا ، نحتاج مرشداً ماهراً وطبيباً حاذقاً .

٢٠ يحتاج بالضرورة الذين يرتادون أن يصعدوا إلى السماء بجسدهم تغصّباً ومعاناةً بغير توقّف ، ولاسيما في بداية زهدهم عينهـا ، إلى أن يتمكّن في طبعهم الوادّ اللذّةَ وقلوبهم الفاقدة الحسّ ، خلقٌ وادّ لله وللعفّة والقداسة، بنَوْح[٣] واضح .

٢١ نحتاج بالحقيقة تعباً كثيراً ، وجهوداً نبذلها سرّاً ـ لاسيّما إذا كنا عائشين قبلا بالتواني والتهاون ـ لكي بالبساطة وبإماتة الغضب والاهتمام ، نجعل عقلنا الكَلِب الذي يماثل كلب المطبخ النبّاح الشره ، محباً للعفّة والتيقّظ .

لنتشجع نحن مهما كنا ضعفاء ومقهورين من الآلام ولنقدِّم يدنا اليمنى للمسيح بإيمان غير ناقص معترفين بانحلالنا وضعف طبيعتنا ، فسنحصل بالتأكيد على معونة منه تفوق استحقاقنا ، إذا حططنا أنفسنا بغير توقّف في عمق لجّة التواضع .

---

(١) ل : أنفسهم (٢) تكوين : ١٩ (٣) د : بخشوع

٢٢ وليعلمْ جميع الذين تقدّموا إلى هذا الجهاد الخشن الصعب ، الحلو الخفيف[١] ، أنهم تقدَّموا يطفرون إلى النار ، إن كانوا يريدون أن تسكن فيهم النار غير المادية . [إذاً] ليمتحن كل واحد ذاته ، ومن بعد ذلك فليأخذ من خبز الزهد أي الرهبانية ، المخلوط [بأعشاب] المرارة ، ويشرب من كأسه بالدموع ؛ لئلا تُضْحِي جنديتُه دينونةً لنفسه . فإن كان ليس كل من اعتمد يخلص ، فسأصمت عما يتلو ذلك[٢] .

٢٣ فالذين يَلِجُون هذا الصراع ، سبيلهم أن يجحدوا كل شيء ، وأن يتضاحكوا على كل شيء ، وأن يرفضوا كل شيء ؛ وأن يضعوا أساساً جيِّداً أساساً متيناً نافعاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة أعمدة : وهي البراءة والصوم والتعفّف :

فجميع الأطفال في المسيح ، عليهم أن يبتدئوا بهذه الفضائل ، نعم ويتّخذوا من جميع الأطفال الطبيعيين مثالاً . إذ ليس يوجد فيهم شرّ ، أو تصنّع أو فعل خبيث أو بالغش مبطّنٌ ، ولا شبعٌ . قد سُلِبَ الشبع ، ولا بطن لاتشبع ، ولا جسم ملتهب بالشهوة ، ولا خلقٌ وحشي ؛ لكنهم بقدر ازدياد مأكولهم ، يكبرون ويعرفون هذه النيران الطبيعية[٣] .

٢٤ إنه ممقوت بالحقيقة ومؤذٍ للخطر ، أن يسترخي المصارع في مستهلّ دخوله إلى الصراع ، إذ يخوّل لكل من يبصره دليلاً على هزيمته . لا

(١) رغم وعورة الطريق الرهباني وصعوبته ، إلاّ أن النير حلو وخفيف بالنسبة للمتواضعين ، الذين ينالون من الله نعمة خاصة . انظر (متى ١١ : ٢٩ ، ٣٠ ؛ يعقوب ٤ : ٦) .

(٢) أي إن كان ليس كل من اعتمد يخلص ، فبالمثل يُقال ليس جميع الذين قدّموا النذور الرهبنية ، هم رهبان حقيقيون ويخلصون .

(٣) ل : وتزداد فيهم كذلك الآلام [آلام الخطيئة] الطبيعية .

شك أن البداية القوية الحازمة ستفيدنا جداً ، حتى إذا حدث فيما بعد أن استرخينا . لأن النفس الجَلِدة في الابتداء ، عندما تنحلُّ وتتوانى ، ينخسها تذكّر حرصها الأول كما بمهماز . وبهذا التذكرّ استعاد البعض غالباً حرارتهم ، ونالوا أجنحة جديدة[١] .

٢٥ متى خدعت النفس ذاتها وأضاعت حرارتها الأولى السعيدة ، وتاقت إليها ، فلتفحَصْ بأوفر اهتمامها من أيّة علّة عَدِمتها ولتتسلّح حيال تلك العلة بكل شوقها وحرصها وغيرتها ، لأنه لن تستعيدها من مدخلٍ آخر سوى الباب الذي منه خرجت .

٢٦ من يزهد في الدنيا خوفاً من العقوبة ، يشبه البخور المحرَق ، يبتدئ برائحة طيبة ثم ينتهي إلى دخان . ومن زهد فيها رجاءً في مكافأة[٢] ، فذاك يماثل رحى الحمار[٣] التي تتحرك دائماً على حالٍ واحدة[٤] .

أمّا من جعل انصرافه عن الدنيا من حبٍ إلهي ، فيكتسب منذ البداية ناراً ، ناراً ألقيت في وقيدٍ فاشتد لهيبها اضطراماً .

٢٧ ثمة قوم يبنون فوق حجارة لبناً ، وغيرهم من قد يُشيِّدون فوق الأرض أعمدة ، وآخرون يمشون قليلاً[٥] ثم إذ تدفأ أوصالهم ، يزيدون سرعتهم . ومن يفهم فليفهم ، قولاً باطنه غير ظاهره[٦] .

(١) ب : + كما تجدد النسور شبابها . انظر (مزمور ١٠٣ : ٥) (٢) ب : في الثواب والمجازاة . م : في الأجرة
(٣) اي رحى يديرها الحمار (٤) أي تدور حول نفسها، وترمز إلى المتمركز حول ذاته، الذي يعمل بغير حماسة ، وتكون تعزيته وأجرته قليلتين . (٥) د : زمناً (٦) د (حاشية) البعض لايبنون على الأساس الراسخ ـ الذي هو حياة الشركة الرهبانية ـ إلا مبنى روحياً متوسطاً في | الارتفاع | بسبب نقص شهامتهم | وبذلهم لذواتهم | وعزيمتهم . آخرون يريدون أن يشيدوا دون تريّث ، البرج الشامخ لحياة التوحّد والتأمل ، ولكن على الأرض ذاتها من غير أساس الإتضاع والطاعة | التي ينبغي تلقُنها أولا في مجمع الشركة | وأخيراً هناك من يبدأون بداية متواضعة تحت ارشاد أبٍ روحي، مواصلين زيادة حرارتهم .

٢٨ بما أن من دعانا هو إلهنا وملكنا ، فينبغي أن نسعى بـأوفر نشـاطنا لئلا ـ والعمر قليل ـ نوجد في يوم موتنا غير مثمرين ، فنهلك جوعاً نادمين .

✠ ولنَسُرَّنّ ربنا مسرّة الجند لمليكهم ، لأننا سنطالب بعد انتهاء الحملة ، بتقديم حسابٍ دقيق عن خدمتنا .

٢٩ لنتقِّ الرب بقدر اتقائنا للوحوش ، لأنني رأيت رجالا لا يخافون الله ذهبوا ليسرقوا . فالله عزّ اقتداره ماخافوه ، وإذ سمعوا في ذلك المكان نباح كلاب ، للحال رجعوا وتركوه ؛ فما لم تستطع مخافة الله أن تعمله ، أكمله الخوف من الحيوان .

٣٠ لنحبَّ الرب ونعتبره ، كما نحب أصدقاءنا ونعتبرهم ؛ لأنني كثيراً ما رأيت أناساً قد أهانوا الله دون أن يغتمّوا لذلك ولو قليلاً . ومع ذلك ، فإذا مسّوا أحاسيس أصدقائهم ، ولو قليلاً ، أوردوا لتلافي ذلك كل مهارتهم وحيلتهم ، وغاية أسفهم واعتذارهم ، سواء بأنفسهم أو بواسطة أصدقائهم وأقربائهم، متقرّبين بهداياهم[1] ليكتسبوا من جديد سالف حبّهم.

٣١ من البيّن أننا في بداية تزهدنا ، إنما نمارس الفضائل بتعب وكلفة ومرارة ، ولكن متى أحرزنا تقدّماً قليلاً فلن نعاني فيما بعد تعباً ، وإن تعبنا فسيكون تعبنا يسيراً . فمتى ابتلعت الغيرة ذهننا الأرضي[2] وسادت عليه ، حينذاك نعمل الفضائل بكثير من الفرح ، والنشاط والحب ، وبلهيب إلهي .

٣٢ بقدر ما يكون الذين ، منذ بدء تزهدهم ، يقتفون آثار الفضائل ويكمّلون الوصايا بفرح ونشاط ، جديرين بالمديح ؛ بقدر ما يستحق الرثاء أولئك الذين ، بعد طول زمان في سيرة النسك ، لا يمارسون الفضائل والوصايا إلاّ بالجهد ، هذا إذا كانوا يمارسونها .

---

(١) ب : + ودموعهم
(٢) ب : إرادتنا المائتة .

٣٣ وما سبيلنا أن نمقت صنوف التزهد الناشئة عن مجرد الظروف . فقد رأيت أناساً قد هربوا هاجرين وطنهم ، وفي الطريق التقوا مصادفة بملكهم ، فالتحقوا آنذاك بحاشيته ، ودخلوا قصره ، واشتركوا في وليمته .
رأيت بذاراً واقعاً على الأرض بغير قصدٍ ، وقد أينع ثمراً جيّداً جزيلاً .
لاحظت أيضاً العكس ، رأيت في مستشفى رجلا قد جاء إليها في حاجة من الحوائج أخرى ، فضبطتْه فِطنَةُ الطبيب وكياسته ، فعالجه بمرهم قابض ، أزال به ظلمة الغشاوة التي كانت على عينيه وهكذا صار العمل غير المقصود من البعض أبلغ تحقيقاً وكفاءة ، مما كان مقصوداً من آخرين باختيارهم .

٣٤ لا يوردن أحدُنا ثقلَ خطاياه وكثرتها حجّة ليحتسب ذاته غير مستحق لاسكيم الرهبانية ، ظاناً أنه بذلك يمارس الإتضاع ، مع أنه ، بسبب حبه للذّة ، " يحتج بعلل عن خطاياه[١] " لأنه أينما يكون تقيّح كثير فالحاجة هناك ماسة إلى مداواة فعّالة[٢] ؛ لأن " الأصحاء لا يحتاجون إلى طبيب بل المرضى "[٣] .

٣٥ ولو استدعانا ملك أرضي وشاء أن ينظّمنا جنداً للخدمة لديه ، لما كنا نتصبّر ونتعلّل، لكنّا نترك كل شئ ونتوجّه بشغف إليه . فلنحرص إذن ، لئلا عندما يدعونا ملك الملوك[٤] ورب الأرباب وإله الآلهة إلى خدمته السماوية، نعتفي بسببٍ من كسلنا وجباننا ، فنوجد بلا عذر قدام منبره العظيم .

---

(١) مزمور ١٤١ : ٤ (٢) ب ، م : + وحيثما يثقل الحمل فالحاجة ضرورية إلى مساعد . وحيث يكون وسخ في النفس ، فحاجتها للإغتسال منه إلى دموع . (٣) متى ٩ : ١٢
(٤) د : عندما يدعونا ملك الملوك

٣٦ إنه يمكن لمن يكون مغلولاً بأشياء الدنيا واهتماماتها الحديدية أن يمشي ، ولكن بصعوبة ؛ لأن الذين قد وُضعت القيود في أرجلهم يستطيعون أيضاً أن يمشوا ، إلاّ أنهم يتعثرون تعثّراً متّصلاً ويتجرّحون، لأن غير المتزوج المرتبط بأمور[١] الدنيا وحدها قد يشبه من تُقيّد الأصفادُ[٢] يديه فقط . فمتى شاء أن يجري نحو الحياة الرهبانية فليس أمامه من عائق . أما من تزوّج فيماثل من قُيِّدَت يداه ورجلاه .

٣٧ سمعت أناساً عائشين في العالم بالتواني والتهامل يقولون لي : " كيف يمكننا ـ وكلٌ منا صاحب زوجة ، تحدق بنا الاهتماماتُ الزمنية ـ أن نسلك حياةً رهبانية ؟ " فأجبتهم : كافة الصالحات التي يمكنكم افتعالها اعملوها ، ولا تسبّوا أحداً ، لا تسرقوا من أحد ، ولا تكذبوا على أحد ، لا تتشامخوا على أحد ، ولا تبغضوا أحداً ، ولا تتخلّفوا عن الصلوات العامة . ارثوا لذوي الحاجة ، ولا تُعثِروا أحداً[٣] ولا تقتربوا من نصيب غيركم واكتفوا بعلائفكم ، أعني بنسائكم[٤] . فإذا سلكتم هكذا لن تكونوا بعيدين عن ملكوت السموات[٥] .

٣٨ سبيلنا أن نسعى بفرح وحب في هذا الجهاد الحسن ، دون أن نَرهب أعداءنا ، لأنهم يلاحظون وجه النفس ـ مع أنهم غير منظورين ، فإن رأوه متغيّراً من الخوف ، حينئذ يتدرّعون سلاحهم علينا بضراوةٍ أشد ، إذ يفطن الخبثاء أننا خائفون . فينبغي أن نتقلّد السلاحَ بشجاعة ؛ لأن من يحارب بثبات لن يحاربه محارب[٦] .

(١) ل : بأشغال . (٢) أي القيود (٣) ب : لا تغتابوا أحداً ل : لا تؤذوا أحداً
(٤) قارن لوقا ٣ : ١ ـ ١٤ (٥) قارن (متى ١٩ : ١٦ ـ ٢٠) (٦) د : لن يهزمه أحدٌ منهم .

٣٩ بأوفر السياسة خفّف الرب ـ بحسب تدبير عنايته ـ عن المبتدئين ، خشية أن يرجعوا للتوّ إلى العالم . فلذلك افرحوا كلّ حين بربّكم يا جميع عبيده ، واعرفوا بهذا أولَ علامة على حب سيّدكم إياكم ودليلاً على أنه هو قد دعاكم .

٤٠ معروف أيضاً أن الله يتصرّف غالبا هكذا : عندما يرى نفوساً شجاعة ، يطلق عليها القتالات منذ البدء مريداً أن يكلّلها سريعاً[1] .

٤١ لكن الرب يُخفي عن العائشين في الدنيا صعوبة هذه المعركة ـ أو بالحري سهولتها ـ لأنهم لو عرفوا صعوبتها ما كان يزهد في الدنيا أحد[2]

٤٢ أعطِ المسيح أتعاب شبابك بأوفر نشاطك ، فمتى شخت تفرح بكنز البُرء من الآلام . لأن ما يُجمع في الحداثة يغذو ويعزّي الذين قد ضعفوا في الشيخوخة

سبيلنا أيها الأحداث أن نتعب بحرارة ، ونسعى بسرعة، ونجتهد بتيقظ ؛ فإن ساعة موتنا غير معروفة ؛ ولنا أعداء خبثاء أردياء ، خطرون، ماكرون ، غدّارون أقوياء ، لاينعسون أبداً ، غير منظورين وغير ماديين ، ممسكون بأيديهم ناراً محاولين أن يحرقوا بلهيبها هيكل الله .

٤٣ لا يسمعن أحد في شبابه من أعدائه الشياطين الذين يقولون له : ” لا تُنهك جسدك مخافة أن يسقط في أمراض تُضعِف “ ـ لأن بالجهد تجد أحداً لاسيّما في الجيل الحاضر ، قد عقد العزم على إماتة جسده ؛ فبالكاد

---

(١) هذا مبدأ روحي مسلّم من الآباء ؛ لذلك فإن التقدّم الروحي لا يعتمد كثيراً على كثرة السنين ، بقدر ما يعتمد على استقامة القصد وحرارة النيّة ، كما يقول القديس مقاريوس الكبير : ”إن نيّات الناس مختلفة ، حتى أنه ممكن لإنسان ذي نيّة نشيطة وحارة أن يتقدّم في ساعة واحدة ما لايمكن لغيره أن يبلغه في خمسين سنة إذا كانت نيّته متوانية “ بستان الرهبان ص ٢٤٣

(٢) ب : جسد

يحرم أحد نفسه عن الأطعمة الكثيرة واللذيذة ـــ إن قصد هذا الشيطان أن يجعل دخولنا بعينه في معركة الزهد رخواً متهاملاً ، ثم يعمل بعد ذلك أن تكون النهاية ملائمةً للبداية .

٤٤ ينبغي للذين عزموا أن يخدموا المسيح خدمة حقيقية أن يختاروا قبل كل شئ - بمعرفةِ ورأيِ آباء روحانيين ، وبحسب معرفتهم الخاصة لأنفسهم - المكان وأسلوب السيرة[١] ؛ ونوع الحياة والتداريب التي تناسبهم ، لأن أديرة الشركة لا تلائم الجميع بسبب النَهَم ، ولا مساكن السكون والتوحّد أيضاً تلائم كل الناس بسبب الغضب . فسبيل كل واحد أن يتفحَّص في أي مكان يجد ما يوافق احتياجاته [الروحية] .

٤٥ وطريقة الرهبانية كلها تنحصر بصفة عامة في ثلاثة أشكال من الحياة :

- إمّا اعتكاف المصارع المنفرد .
- وإمّا التوحّد في سكون ، مع إنسان واحد أو مع اثنين .
- وإما الإقامة بالصبر في شركة .

وقد قال سليمان الحكيم ، جامع آراء الناس ، " لا تجنح إلى الجهة اليمنى أو اليسرى[٢] ، بل اسلك في الطريق الملكيّة[٣] " ، لأن النوع الثاني من الأنواع الثلاثة المقدم ذكرها ، يلائم كثيرين ، لأنه قال : " ويلٌ للمتفرّد وحده لأنه إذا سقط " في ضجر أو توانٍ أو نُوام أو إياس " فليس مِن الناس مَن ينهضه[٤] " وقد قال الرب " أينما يجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي ، فهناك أكون في وسطهم[٥] " .

---

(١) أي أسلوب الحياة : التوحُدية أم المشتركة .
(٢) أمثال ٤ : ٢٨
(٣) عدد ٢٠ : ١٧
(٤) جامعة ٤ : ١٠
(٥) متى ١٨ : ٢٠

٤٦ من هو إذاً الراهب الأمين الحكيم ، الذي قد حفظ حرارته دون أن تخمد ، وإلى نهاية حياته يضيف يوماً بعد يوم على ناره ناراً ، وعلى حرارته حرارةً وعلى رغبته رغبةً ، وإلى حُبِّه حُبّاً ، وإلى حرصه حرصاً ، دون أن يتوقّف .

هذا مطلعٌ أول . فيا من ارتقيته ، لا ترجعن إلى الوراء[١] .

---

(١) قارن (لوقا ٩ : ٦٢) .

الدرجة الثانية

الزهد في الأشياء

١ من يحب الرب حقاً ، ويطلب بالحق أن يرث الملكوت الآتي ، من قد ابتدأ بالحق أن يتوجَّع من أجل هفواته ، وبلغ حقاً ذكرَ العقوبة والدينونة الأبدية ، وأثاره حقاً الخوفُ من رحيله من الدنيا ؛ فذلك لن يُحِبَّ ولن يتشاغل ولن يهتمّ ؛ لا بأموال ولا بأملاك ، ولا بمجد العالم ، لا بوالديه ، ولا بإخوته ولا بشيء أرضي البتّة ؛ لكنه قد رفض وأبغض كل تعلّق واهتمام بكل هذه . بل أبغض جسده أيضاً ، تابعاً المسيح عارياً من كل شيء فاقداً الهم[1] ، رافعاً إلى السماء طرفه دائماً مترجياً من هناك معونته، كقول الملك القديس : " نصقت نفسي وراءك ، ويمينك عضدتني[2] " ، والنبي الآخر دائم الذكر الذي قال : " إنني ما تعبت في اللحاق بك ، ولا اشتهت نفسي يارب يوم إنسان[3] ".

٢ إنه خزيٌ عظيم ـ بعد أن دُعِينا هذه الدعوة ، التي دعانا إياها الربُّ لا إنسان ، وزهدنا في كل ما تقدَّم ذكره ـ إذا اهتممنا بشيء لا يقدر أن ينفعنا في ساعة احتياجنا ، أعني في وقت موتنا ؛ لأن هذا هو ما سمّاه الرب " الإلتفات إلى الوراء " : إن النظر إلى الوراء ، هو عدم استحقاق ملكوت السموات[4] .

٣ إذ علم الرب جيّداً سرعة تقلّبنا نحن المبتدئين ، وبأيّة سهولة ـ إذا

---

(١) ب + والكسل ل + والتردد

(٢) مزمور ٦٣ : ٨

(٣) إرميا ١٧ ١٦

(٤) لوقا ٩ ٦٢

أقمنا بين العلمانيين أو خاطبناهم - نرجع من جديد إلى العالم ؛ لذلك قال حين سأله واحد : " إئذن لي أن أذهب لأدفن أبي " ، أجابه بقوله : " دعْ الموتى يدفنون موتاهم "[1] .

٤ بعد اعتزالنا العالم ، يهجس لنا الشياطين أن نطوِّب الرحومين المتحنّنين من العلمانيين ، وأن نُوَيِّل[2] ذواتنا لكوننا عادمين مثل تلك الفضائل . يقصد أعداؤنا من ذلك ، إمّا أن يدفعونا بهذا التواضع المغلوط إلى العودة إلى العالم ، وإمّا - إن ثبتنا في الرهبانية - أن يسقطونا في الإياس[3] .

٥ يحدث أحياناً ، أن بعضاً منا يحتقرون الذين في العالم بتكبّر وعُجب ، بينما يفعل ذلك آخر في - غيبتهم - لاجتناب اليأس أو التسلُّح بالرجاء .

٦ دعنا نصغي لما قاله الرب لذلك الشاب الذي أكمل كل الوصايا تقريباً : " يعوزك شيءٌ واحد : بع كلّ مالك واعطه للمساكين[4] " ، واجعل نفسك مسكيناً ، للصدقة مقتبلاً .

٧ لنتفطّن نحن الذين عقدنا العزم على متابعة سعينا بحرارة وسرعة ، كيف حكم الرب أن الذين يعيشون في العالم هم موتى، مع أنهم أحياء، عندما قال لواحد من الناس : " دعِ الموتى " الذين في العالم " يدفنون الموتى " بالجسد[5] .

٨ إن الغِنى لم يمنع ذلك الشاب قط عن نيل المعمودية ، فعبثاً يقول

(١) متى ٨ : ٢٢ (٢) أي نعطي الويل (٣) هي اللفظة الصحيحة لليأس ! أيس إياساً
(٤) متى ٨ : ٢٢ (٥) مرقص ١٠ : ٢١

البعض إن الرب أمره أن يبيع ثروته ليستطيع أن ينال المعمودية ، ــ وهذا[1] يزيد عما يكفينا من دليل أكيد على مجد دعوتنا الفائق .

٩ إنه لجديرٌ أن نفحص لماذا يحدث أن البعض وهم عائشون في العالم ، يفنون ذواتهم في أسهارٍ ، وأصوامٍ ، وأتعاب من كل نوع ؛ لكنهم حالما ينسحبون من وسط الناس لكي يسلكوا السيرة الرهبانية ، يكونون كمن أُدْخِلوا في تجربة ووُضِعوا في ساحة التهذيب ، إذ ما يواصلون بعد نسكهم الأول ، الذي لم يكن إلاّ قشرة كاذبة .

١٠ رأيت غروساً من الفضائل عديدة ومتنوعة ، قد اغترسها العائشون في العالم ، وكان يسقيها المجد الباطل كأنه قناة حمأة ، ويفلّحها التباهي ويسمّدها المديح ؛ ولكن عندما نُقِلت هذه الغروس ونُصبت في أرض قفر لا تصل إليها أقدام العلمانيين ، لم تعد بعد تُسقَى من مياه المجد الباطل المنتنة ، فذبلت سريعاً . وذلك أن الغروس المُحبّة للماء ، لا تستطيع أن تثمر في أراضي النسك الجافة المجدبة .

١١ الرجل الذي بلغ أن يمقت الدنيا قد هرب من الغم ، أما من تعلّق بأي شيءٍ من الأشياء التي تُرى ، فلن ينجو بعد من الغم ؛ لأنه كيف يقدر ألاّ يغتمّ على فقده ما يحبّه ؟

١٢ تلزمنا في جميع الأمور إفاقة كبيرة . لكنه ينبغي علينا أن نركّز انتباهنا بفطنةٍ وحذرٍ على هذا قبل كل شئ : رأيت أناساً عائشين في العالم انفلتوا من طغيان الشهوات الجسدية بالإهتمامات والأتعاب والمحادثات والأسهار في المشاغل الأرضية ؛ ولكنهم حالما دخلوا السيرة الرهبانية ،

(١) أي قصة الشاب الغني

وانعتقوا من كل اهتمام ، دنّسوا أنفسهم تدنيساً يستوجب الرثاء ، بواسـطة حرارة الجسد .

١٣ لنسهر على أنفسنا ، لكـي لا ننخـدع بـأن نظـن أننـا سـائرون في الطريق الضيّقة الضاغطة ، بينما نكون سالكين الطريق الرحبة الواسعة .

أما علامات سيرك على الطريق الضيّقة ، فهي هذه :

✠ إماتة جوفك[١] .
✠ الوقوف طوال الليل .
✠ شرب الماء بكيل ومقدار .
✠ نقص الخبز .
✠ شرب جرعات الهوان المطهِّرة[٢] .
✠ احتمال الاستهزاءات والسخريات والتهكّمات، والضحكات .
✠ قطع المشيئة الخاصة ، واحتمال المضادّات .
✠ عدم التذمّر إزاء الفضائح ، عدم اعتبار الشتائم ، واحتمال إغفال العادة .
✠ الصبر بشجاعة على المظالم .
✠ عدم الاغتياظ إزاء المثالب[٣] .
✠ عدم الغضب عند التعرّض للمذلّة .
✠ الثبات في التواضع عند الإتهامات[٤] .

طوبى للذين يسلكون هذه الطريق ، لأن لهم ملكوت السموات[٥] .

---

(١) أي النهم في المآكل .

(٢) أي ممارسة الأعمال الحقيرة ، واحتمال التحقير من الغير ، طوعاً أم كرهاً . والقصد من قبول الهوانات هو ممارسة التوبة وأقتناء التواضع وطول الروح .

(٣) المثلبة . هي الوقيعة ، أي ذم إنسان لإنسان في غيبته ؛ الإغتياب

(٤) قارن (أعمال الرسل ١٤ : ٢٢ ، عبرانيين ١٢ : ١ - ٤)

(٥) متى ٥ : ٩ - ١٢

١٤ لن يدخل أحدٌ إلى الخدر السماوي لابساً إكليله ، ما لم يكن قد زهد الزهد الأول والثاني والثالث .

+ فالزهد الأول أعني به هجر كل شغل، وكل شخص، والوالدين .
+ والزهد الثاني هو قطع المشيئة .
+ والزهد الثالث هو جحد المجد الباطل ، الذي يتعقب الطاعة .

١٥ يقول الرب : " اخرجوا من بينهم واعتزلوا عنهم ، ولا تلمسوا نجاسة العالم "[1] . لأن مَن مِن أولئك[2] إجترح عجائب ، من أقام أمواتاً ، من طرد شياطين ؟! لا أحد ، لأن هذه كلها هي جوائز فوز الرهبان التي لا يستطيع العالم أن ينالها ، لأنه إن استطاع ، فما هو لزوم النسك ، أو ما هي منفعة التوحُّد ؟

١٦ متى أحمت الشياطين - بعد تزهّدنا في الدنيا - قلوبنا بذكر والدينا وإخوتنا ، ينبغي لنا أن نتذرع بالصلاة سلاحاً عليهم ، ولنضرم بدورنا أنفسنا بتذكّر النار الدهرية ، لنخمد بتذكّرها تلك النار المندلعة في غير محلّها وغير وقتها .

١٧ من يظنّ أنه غير منجذب لشيء من الأشياء ، ويغتمُّ قلبه على فقده إياه ؛ فهو مخدوع تماماً .

١٨ جميع الشباب الذين كانوا منكبّين على محبة الأجسام والتنعّم ، ويريدون أن يلجوا في الحياة الرهبانية ، ينبغي أن يغتصبوا أنفسهم بكل صوم

---

(١) كورنثوس الثانية ٦ : ١٧ (٢) أي أهل العالم

وصلاة ، وكل تيقظ وحرص ، وأن يحملوا على أنفسـهم أن يتجنبـوا التنعّـم والرذيلة ، وإلاّ تصير لهم أواخرهم شراً ؛ من أوائلهـم[1] ، فـإن المينـاء يمكـن أن يكـون سبباً للنجـاة ، أو علّـةً للتـورّط في الخطـر . وهـذا المعنـى يعرفـه المُبحِرون على هذا البحر الروحي . وهذا بالحقيقة مشهد يستوجب الرثـاء ، أن يُرَى الذين نجوا من أخطار البحر تتحطّم سفينتهم في الميناء .

هذا مطلع ثانٍ ، فيا من تحاضر في السبَق ،
لا تتشبه بإمرأة لوط ، بل اهرب
مثل لوطٍ عينه .

✣ ✣ ✣
✣ ✣
✣

(١) متى ١٢ : ٤٥ .

الدرجة الثالثة

الاغتراب[1]

١ الاغتراب هو هجر بلا رجعة ، لكل شئ في وطننا ، يعوقنا عن بلوغ غاية التقوى .

الغربة هي خُلقٌ متواضع[2] ، حكمة تظلّ مجهولة ، فطنةٌ لا تظهر في الخارج ، تدبير سرّي ، عيشة مُخفاةٌ ، قصدٌ غير منظور ، فكرٌ غير واضح ، ارتياح إلى الاستحقار، شهوة إلى الضيقة، عزم ثابت[3] على الشوق إلى الله، هجر الودّ ، جحود المجد الباطل ، لجّة صمت .

٢ هناك فكرٌ ، عادةً ما يُلحّ على محبّي الرب منذ البداية ، إلحاحاً دائماً مكثّفاً كما لو كانوا يتأججون بنار إلهية ؛ هو فكر الابتعاد عن ذويهم الذي يستحث عُشّاق هذا الكمال ، لكي يعقدوا النيّة على أن يسلكوا حياة المشقة والزهد والبساطة .

ومع أن هذه النيّة جليلةٌ وممدوحة بهذا المقدار ، إلاّ أن الأمر يستلزم تبصّراً وإفرازاً كبيراً ، لأن ليس كل اغتراب طوعي يتّسم بالتطرّف جيداً .

فإن كان كل نبيّ بلا كرامة في وطنه كما قال الرب ، فلنحرص ألاّ تصير لنا الغربةُ فرصة للمجد الباطل .

٣ الغربة هي الانفصال عن كل شئ، لجعل الفكر غير منفصل عن الله. الغربة هي عاشقة النَوْح أو مسبِّبته .

---

(١) د : + الإرادي . (٢) ب ، م : خلق بعيد عن الدالة (٣) ل : علة كل حب الله

الغريب هو الهارب من كل ارتباط بأهله[1] أو بالغرباء عنه .

٤ يا من تسارع نحو الاغتراب أو التوحُّد ، لا تترقَّب النفوس المُحبّة للعالم، لأن اللص يأتي بغير توقّع .

كثيرون ارتادوا أن يخلّصوا متوانين وكسالى ، فهلكوا معهم ، إذ خمدت مع الوقت نار نفوسهم

حالما كان اللهيب مشتعلاً في داخلك ، فاركض عَدْواً ، لأنك لا تعلم متى ينطفئ ويتركك في الدياجي

أمَّا تخليص آخرين فليس جميعنا مطالبين به، لأن الرسول القديس يقول: " إن كلاً منّا أيها الإخوة ، سيعطي لله حساباً عن نفسه[2] " ويقول أيضاً: يا من يعلّم آخرين ، أما تعلّم ذاتك[3] ! " ؛ كما لو كان يقول : إننا ما نُطالَب كلنا بتعليم غيرنا، لكن كلنا مطالبٌ بالتأكيد أن يُعلّم ويخلّص نفسه .

٥ إذا تغرّبت فاحترس من شيطان التجوّل ومحبة اللذّات ، فإن الغربة تُفيده فرصةً وسبباً .

٦ الزهد في جميع الأشياء جيّد ، والغربة هى أُمه .

٧ من يتغرَّب من أجل الرب لا ينبغي أن يكون عنده أيّ تعلّق بأي شئ مهما كان ، لئلاً يظهر جوّالاً لإرضاء أسقامه .

٨ هل تغرّبت عن العالم ؟ لا تمسّ العالم بعد ، لأن الآلام لا تطلب إلاّ أن تعود إلى عادتها .

---

(١) ن : الهارب من كل مناسبات أهله والغرباء عنه (٢) رومية ١٤ : ١٢ (٣) رومية ٢ : ٢١

٩ طُردت حواء من الجنّة كرهاً ، أما الراهب فقد هرب من وطنه طوعاً . تلك كانت معرّضةً لاشتهاء شجرة المعصية من جديد ، وهذا بلا امتراء[١] يعرّض نفسه كل يوم للخطر من أهله[٢] بالجسد .

١٠ اهرب من أماكن السقطات ، كهروبك من سياط[٣] ، فمادامت الثمرة غائبةً عن بصرك ، فلن تشتهيها اشتهاءً متّصلاً[٤] .

١١ لا يخفَ عنك خداعُ اللصوص ومكرهم ، لأنهم يهجسون لنا ألاّ ننفصل عن العلمانيين ، مؤكدين لنا أننا ننال ثواباً عظيماً إذا أبصرنا النساء وبقينا أعفّاء ، ما ينبغي أن نقبل منهم ، بل الأَولى أن نعمل عكس قولهم .

١٢ بعد انفصالنا عن أهلنا سنةً أو سنتين ، اقتنينا فيهما قليلاً من تقوى ، ويسيراً من تخشع أو ضبط نفس ، حينئذ تُحدِّقُ بنا أفكار المجد الباطل ، موعزةً إلينا أن نعود إلى وطننا لبناء كثيرين مقدِّمين ذواتنا لهم قدوة ، ومنفعة لأولئك الذين عاينوا حياتنا المنحلّة وأعمالنا الأثيمة [السابقة] ولأجل القليل الذي تزوّدنا به من كلامٍ ومعرفة ساذجة[٥] ، تدفعنا الأفكار إلى العودة إلى العالم كمخلّصين للنفوس ومعلّمين ؛ وذلك لكي نبدّد في طمطام البحر[٦] ما قد جمعناه جيّداً في الميناء

١٣ لنجتهد أن نشابه لوطاً ، ولا نماثل امرأته ؛ لأن نفساً ترجع إلى المكان الذي منه خرجت تماثل الملح عندما يزول طعمه ، وتبقى فيما بعد بلا حراك[٧] .

(١) أي بلا شك (٢) د : من والديه (٣) د : من وباء . (٤) ؟ : حاراً .
(٥) ن . ل : وإن كنا أصحاب كلام . وقليل من معرفة (٦) أي في وسط البحر . (٧) ل : بلا منفعة .

١٤ اهرب من مصر بغير رجعة ، فإن القلوب التي رجعت بمشاعرها ، ما عاينت أورشليم أرض السلامة[١] من الأوجاع[٢] .

١٥ قد يَعوض أن أولئك الذين منذ بدايتهم تركوا وطنهم وهم في بساطةٍ طفولية ، ثم تنقّوا تماماً ، ربما تكون عودتهم إلى هناك مُربحةً ، بقصد تخليص آخرين ، بعدما خلّصوا أنفسهم. ومع ذلك ، فإن موسى ناظر الإله ، الذي أرسله الله لأجل خلاص شعبه الخاص لاقى من الأخطار في مصر ما ليس بقليل ، أعني ليالي داكنة في العالم وحالكة .

١٦ أفضل لنا أن نُحزِن والدينا ولا نحزن ربنا ، لأن ربنا خلقنا وخلّصنا برحمته أما الوالدان فغالباً ماكانا سبب هلاك الذين كانا يحبونهما ، وأسلماهم إلى العقوبة .

١٧ الغريب هو ذاك الذي رغم ماله من معرفة ، يجلس كذي لغة أخرى فيما بين أناس ذوي لسان آخر .

١٨ ليست البغضة هي التي تفصلنا عن ذوينا ومواضعنا التي ألِفْناها ، حاشا لله ! ، بل لكي نجتنب الأضرار التي يمكن أن تصيبنا من جانبهم .

١٩ إن الرب قد صار لنا في هذا الأمر - كما في جميع الأمور - معلّماً ، لأنه واضحٌ أنه كثيراً ما ترك والديه حسب الجسد ، وعندما قيل له : " إن أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك[٣] " . علّمنا معلّمنا الصالح للحين ، ما هي

---

(١) لأن أورشليم تعني مدينة السلام .

(٢) لأن السلام الحقيقي للنفس ، الذي تكلم عنه الرب قائلا : " سلامي أنا أعطيكم ، سلامي أترك لكم " هو التحرر من آلام الخطيئة ، التي تنزع من النفس السلام . انظر (يوحنا ١٤ : ٢٧) .

(٣) متى ١٢ : ٤٧

البغضة الخالية من خطيئة أو سقم من اسقام العزم ، بقوله : " إن أمي وإخوتي هم الذين يعملون مشيئة أبي الذي في السموات[1] " .

٢٠ + ليكن إذاً أباك من يشاء ويقتدر أن يتعب معك في حمل نير خطاياك .

+ ولتكن أمك هي النوح ، القادر أن يغسلك من أوساخك

+ أما أخوك ، فهو من يتعب معك ويصارع بجانبك في سعيك نحو السماء .

+ اتّخِذ لك قرينةً لا تنفصل ، ذِكرَ موتك .

+ وليكن أولادك المحبوبون تنهداتِ قلبك .

+ وليكن جسدك لك عبداً .

+ أما أصدقاؤك ، فهم القوّات المقدسة[2] القادرة أن تنفعك في ساعة موتك ، إن جعلتهم أصدقاءك فهذا هو " جيل الذين يطلبون الرب[3] " .

٢١ محبة الله تُطفئ محبة الوالدين . فمن يدَّعي أنه يمسك كليهما معاً يخدع نفسه ؛ وليسمع من قال : " لا يستطيع أحدٌ أن يخدم سيدين[4] ".

٢٢ قال الرب : " ما جئتُ لألقي سلاماً على الأرض " ، أعني حبّ الوالدين لأولادهم، والإخوة لإخوتهم الذين وطّدوا العزم على أن يخدموني، لكني جئت لألقي" حرباً وسيفاً[5] " أعني لأفصل الذين يحبّون الله عن الذين يحبّون العالم ، الجسدانيين عن الروحانيين ، وأُقصي محبّي المجد عن المتواضعين .

(١) متى ١٢ : ٤٩ (٢) أي الملائكة وغيرهم من الرتب السمائية . (٣) قارن (مزمور ٢٤ : ٦)
(٤) متى ٦ : ٢٤ (٥) متى ١٠ : ٣٤ .

لأن الرب يُسَر بالنضال والفراق النابعين عن الحب نحوه .

٢٣ احذر ! لئلا تُصطاد بحبّ خاصتك[١] ، فربما ترى حينذاك كل شئ مغطىً بمياه دموعهم ويجرفك معهم طوفان محبة العالم . لاتدع نفسك ترثي لدموع والديك أو أصدقائك ، إن كنت لا تريد أن تبكي بكاء أبدياً .

٢٤ متى أحاط بك أهلك كالنمل أو بالحري - مثل الدبابير — وأراقوا عليك الدموع ، فلا تتردّد إلى لحظة ، بل ثبِّت على الفور نظر نفسك على سابقة أعمالك ، وتأمَّلْ موتك ، دون أن يطيش عن ذلك فكرك ، ليمكنك أن تطرد ألماً بألم .

٢٥ بالوعود الغاشّة يعدنا ذوونا — وهم بالحقيقة ليسوا بذوينا — أن يعملوا كل شئ لإرضائنا ، هادفين من ذلك أن يعوّقوا سعينا الفائق ، وبهذه الوسيلة يستميلونا فيما بعد إلى مآربهم .

٢٦ لنختر لاعتزالنا مواضع أقل تعزيات، وأقل تعرّضاً للمجد الباطل، وأكثر تواضعاً ؛ فإن لم تكن كذلك ، فسنهرب بصحبة أوجاعنا .

٢٧ اكتم شرف أصلك وأخفِ شهرتك ، لئلا تكون بأقوالك شيئاً وبأعمالك شيئاً آخر .

٢٨ ما بذل ذاته للغربة أحد ، مثل ذلك العظيم رئيس الآباء الذي قيل له : " اخرج من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك[٢] " ، ومع هذا ، كان مدعواً إلى أرض غريبة ، لغة أهلها غير لغته .

(١) أي الأهل والأصدقاء - أنظر (تيموثاوس الأولى ٥ : ٨)

(٢) تكوين ١٢ : ١ .

٢٩ يخلع الله أحياناً مجداً ليس بقليل ، على من يتوغل في الغربة ، مترسماً خُطى رئيس الآباء ابراهيم . ولكن ، مع أن هذا المجد موهوب من الله ، جيّدٌ أن يُردّ بترس التواضع .

٣٠ متى مدحنا الناس أو الشياطين على غربتنا ، مديحاً كأنه على نجاح عظيم ؛ فلنتفكّر فيمن تغرّب من السموات لأجلنا وانحدر إلى الأرض ، فسنجد أنفسنا لا يمكننا إلى أبد الدهر أن نعمل ما يكافئ ما عمله .

٣١ خطرٌ هو التعلّق بأحد أقربائنا ، أو حتى بأحد الغرباء ، لاقتداره أن يجتذبنا إلى العالم قليلاً قليلاً دون أن نشعر ، وأن يطفئ فينا تماماً نار الخشوع .

٣٢ كما أنه يستحيل أن يتطلّع أحدٌ بإحدى عينيه نحو السماء ، وبالأخرى إلى الأرض ؛ فكذلك يستحيل بالمثل ألاّ يعرّض نفسه للخطر من لا يجعل نفسه غريباً تماماً بالفكر والجسد معاً، عن جميع الأقرباء والأصدقاء .

٣٣ بكثير من التعب والجهد ، تنمو وتتوطّد فينا عادات صالحة ؛ لكن العادة التي تُحكَم بتعبٍ جزيل يمكن أن تُفقَد في لحظة واحدة لأن « المعاشرات الرديئة تفسد العادات الصالحة[1] » وتصبح على الفور عالمية وبلا ترتيب .

٣٤ من يصادق أهل العالم بعد تزهّده ، أو يكون بقربهم ، فإمّا يسقط ولا مراء في مواهقهم[2] ، أو يدنّس قلبه بالتفكير في أحوالهم[3] ؛ أمّا إذا لم يتدنّس بهذه الكيفية ، فبإدانته المتدنّسين ، يتدنّس هو بدوره .

(١) كورنثوس الأولى ١٥ : ٣٣
(٢) حبائلهم : جمع أحبولة وهي شرك من الحبال
(٣) د في الأشياء العالمية

أحلام المبتدئين

٣٥ يستحيل عليَّ أن أخفي أن عقلي لايسع إلاّ معرفة ناقصة للغاية، ممتلئٌ من كل أنواع الجهالة .

وكما أن الحلْق يميّز كل الأطعمة ، والسمع يعرف الأفكار ، والشمس تكشف ضعف البصر ، هكذا الكلمات توضّح جهل النفس . لكن ناموس الحب يغصبنا أن نباشر حتى الأعمال التي تفوق طاقتنا ، وهكذا يلوح لظنّي أنه من المفيد ـ دون أن أدَّعي أنني أفرض فرضاً ـ بعد التكلّم عن الغربة ، أن أرتّب أقوالاً موجزة عن الأحلام ، حتى لا نكون غير مطّلعين على حيل أعدائنا الماكرين .

٣٦ إن الحُلم هو حركة العقل أثناء انعدام حركة الجسد .

٣٧ التخيّل[١] هو توهّم العينين أثناء هجوع[٢] العقل . التخيّل هو اختلال العقل أثناء انتباه الجسم . التخيّل هو رؤية[٣] لا تنتمي إلى الحقيقة.

٣٨ العلّة التي من أجلها ارتأينا أن نتكلّم عن الأحلام هنا واضحة . لأننا إذا تركنا لأجل الرب منازلنا وأهلنا ، وبعنا أنفسنا للغربة لأجل حُب الرب ، حينئذ يجتهد الشياطين أن يزعجوننا بالأحلام ، ويصوّرون لنا أهلنا ينوحون[٤] ، أو يموتون ، أو مقبوضاً عليهم، أو صاروا بسببنا في عوز وفاقة. فمن يصدّق هذه الأحلام شبيه بمن يعدو خلف ظلّه محاولاً أن يمسكه .

(١) التخيّل يسمى في المخطوطات والكتب الرهبانية القديمة " الفنطسة " phantasy

(٢) الهجوع هو النوم (٣) ل : رؤية شئ (٤) م : + من أجلنا

٣٩ شياطين المجد الباطل يتنبّأون أثناء نومنا ، فلكونهم ملتوين وبارعين يحدسون[١] على ما يُنتظر كونُه ، ويسبقون فيعلنونا به . وعندما تتحقّق هذه الأحلام ، نندهش نحن ونترفّع لفكرة أننا قد صرنا قريبين من موهبة العلم بالمستقبلات .

٤٠ إن هذا الشيطان يتنبّأ غالباً للذين يَقبلون منه ، أما الذين يزدرونه فهو عندهم دائماً كذّاب . ولكونه روحاً فإنه يبصر ما يحدث في الفضاء السفلي[٢] ، فإذا لاحظ واحداً يموت ، أخبر بذلك سلفاً في الحلم للناس السُذّج .

٤١ لا يعرف الشياطين شيئاً من المستقبلات ، عن سبق معرفة ، وإلاّ فقد كان يمكن للسحرة[٣] أيضاً أن يسبقوا فيخبرونا موتنا[٤] .

٤٢ في أحيان كثيرة يغيّر الشياطين شكلهم إلى ملائكة نور ، أو يتّخذون مظهر شهداء ، ويُظهرون لنا في نومنا أننا في شركة معهم ؛ وعند استيقاظنا يغمروننا بفرحٍ[٥] وعُجب .

٤٣ هذه علامة لاكتشاف خدعتهم : إن الملائكة يصوّرون لنا عقوبات ومحاكمات وانفصالات ، وعند انتباهنا ، يجعلوننا مكتئبين ومرتعدين .

٤٤ حالما نبدأ في تصديق الشياطين في أوقات نومنا ، يلعبون حينئذٍ بنا في حال يقظتنا . فمن يصدّق الأحلام ، فهو عديم الخبرة ، أما من ينكرها تماماً فهو حكيم .

---

(١) الحَدْس : هو سرعة الانتقال في الفهم والاستنتاج (٢) د : + المحيط بنا

(٣) المقصود بالسحرة هنا ، الذين يتحدثون مع الشياطين .

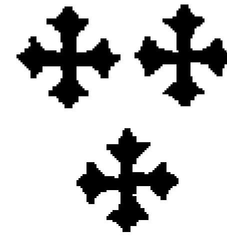
(٤) د : فالأطباء يستطيعون أيضاً أن يخبرونا مسبقاً بموت المرضى. (٥) ل : + غير مقدس

٤٥ صدِّق فقط الأحلام التي تنبئك بالعقوبات والدينونة . ومع ذلك ، إن لامسك يأسٌ لإزعاجك ، فاعلم أن ذلك أيضاً من الشياطين .

هذه هي الدرجة الثالثة ، التي تحمل رقم الثالوث ،

فمن اعتلاها لا يحولنّ أنظاره

يمنة أو يسرة .



الدرجة الرابعة

الطاعة المغبوطة ، والدائم ذكرها

١ يتناول بحثنا الآن بوجه خاص ، أولئك المصارعين الذين للمسيح . وذلك أن كل ثمرة يتقدّمها زهرها ، وكل طاعة يتقدّمها الاغتراب ، الاغتراب عن الجسد وعن المشيئة ؛ لأن بهاتين الفضيلتين ـ كما بجناحين ذهبيين[1] تصعد الطاعة البارة[2] إلى السماء بنشاط . ولعل عن هذا ترنّم ذاك الذي اقتبل الروح قائلاً : " من يعطيني جناحين كالحمامة ، فأطير ـ بالعمل ـ واستريح بالتأمّل والتواضع[3] " .

٢ فإن رغبتم ؛ لا نغفلن مُعْرِضين عن وصف أسلحة هؤلاء المقاتلين الشجعان ؛ كيف يمسكون تُرس إيمانهم بالله وبمروّضهم[4] ، ويدفعون به ـ إن جاز التعبير ـ كل فكر من عدم الإيمان أو عدم الثبات ، ويُشهرون سيف الروح المسلول دواماً ، يذبحون به كل مشيئة خاصة تقترب منهم ؛ ويتدرّعون درعاً حديدية ، درع الوداعة والصبر ، يصادمون به كل محقرة وظلم وقذف ويحجزونها عنهم ؛ وقد حازوا خوذة خلاص هي حماية رئيسهم له بصلاته ؛ وما يقفون البتّة بأرجل مقترنة ، لكنهم يمدّون رجلاً في الخدمة حافظين الأخرى بغير حراك في الصلاة .

٣ الطاعة جحودٌ كاملٌ للنفس ، معبّر عنه جهراً بالأعمال الجسدية . ولعلها بخلاف ذلك ، هي إماتة الأعضاء بينما العقل بعدُ حي. الطاعة تحرّكٌ

---

(١) قارن : مزمور ٦٨ : ١٣

(٢) د ، ل : النفس القديسة .

(٣) مزمور ٥٥ : ٦

(٤) الكلمة الأصلية تعني مدرّب المصارعين

بغير فحص ، موت طوعي ، حياة بغير تعقيد[1] ، خطر خال من الهمّ . دفاعٌ تلقائي أمام الله . فقْدُ مخافة الموت . سفرٌ في البحر خالٍ من الخطر ، سيرٌ أثناء النوم . الطاعة قبر المشيئة وقيامة التواضع . الميّت لا يجادل ، ولا يحكم على ما هو صالح أو على ما يبدو رديئاً ؛ لأن الذي أمات بتقوى الله نفس التلميذ ، هو يعتذر عنه في كل شئ .

٤ الطاعة هي ترك الإفراز بغنى الإفراز .

٥ إبتداء الإماتة ، سواء بالنسبة لأعضاء الجسد ، أو لمشيئات النفس ، يتضمن عملاً مؤلماً .

ومتوسط الإماتة ، يتضمّن أحياناً عملاً شاقاً ، وأحياناً يكون بغير ألم . أما كمال الإماتة ، فهو عدم التأثر بالألم ، وزوال الإحساس به . ولا يتألّم هذا الميت الحي المغبوط ، إلاّ متى رأى نفسه عاملاً مشيئة ذاته ، لأنه يخاف من حمل عقوبته .

٦ فيا كافة الذين قرّرتم أن تتعرّوا للدخول في معركة الاعتراف الروحي[2] ، يا جميع الذين آثرتم أن تحملوا على أعناقكم نير المسيح ، يا من سارعتم أن تضعوا حملكم على كتفي آخر ، يا كافة الذين بادرتم طوعاً أن توقّعوا على صك بيعكم أنفسكم عبيداً ، مؤثرين أن يُكتَب لكم بدلاً منه تحرّركم . يا من في عبوركم هذا البحر الخضمّ تَسبحون محمولين على أيدي غيركم ؛ اعلموا أنكم قد شرعتم أن تسلكوا طريقاً من الطرق وجيزةً لكنها وعرة ، لا يوجد فيها علّة لضلالٍ إلاّ واحدة. هذه المَضَلّة تُدْعَى اتّباع الهوى.

---

(١) ل : حياة بساطة

(٢) ليس المقصود بالاعتراف هنا الإقرار بالخطايا ، بل آلام الشهادة التي يكابدها "المعترفون" ، أو بتعبير الكنيسة "الشهداء بغير سفك دم".

أما من جحد اتباع هواه جحوداً تاماً، حتى فيما يبدو له صالحاً روحياً مُرضياً لله ، فذلك قبل بدء مسيره قد بلغ الغاية . ذلك أن الطاعة هي ألاّ يثق الإنسان بذاته في جميع الأشياء ، مهما كانت صالحة ، إلى نهاية حياته .

٧ حين نحني عنقنا ونأتمن آخرَ في الرب ، قاصدين اكتساب التواضع ، ولاسيما الخلاص ، فقبل دخولنا في ذلك إن كان لنا قليل فطنة وإفراز ينبغي أن نفتّش من نريده أن يسوسنا ونفحصه ـ إن جاز التعبير ـ لئلا نسقط عند بحّار كأنه ربّان ، وعند مريض كأنه طبيب ، وعند مستعبَد للآلام كأنه حُرّ منها ، وفي لجّة كأنها ميناء ؛ فنصادف غرقاً مهيّأ.

٨ أما بعد دخولنا مذ ذلك في معركة التقوى والخضوع ، فلا نَدِن البتّة حكَمَنا الصالح ، في فعل من أفعاله ، حتى إذا رأينا فيه أيضاً ـ إذ أنه إنسان ـ بعضاً من زلاّت حقيرة . وإلاّ ، فلن نحصّل من طاعتنا أيّة منفعة ، بجعلنا أنفسنا قضاة .

٩ يلزم بالضرورة ، الذين يريدون أن يكون لهم كل حين ثقةٌ خالية من ارتياب بمعلّميهم ، أن يحفظوا في قلوبهم ما أحكموه من الفضائل ، ويتذكّرونه تذكّراً دائماً لا يُمحى ، حتى إذا بَذَرَ الشيطان فيهم زوال إيمانهم بهم ، يُسكتوه بفضائلهم التي يكرّرون تذكّرها ؛ لأن بقدر ما يزدهر الإيمان في القلب ، بقدر ما ينشط الجسد في خدمته . أما من عثر في عدم الإيمان [بمرشده] فقد سقط مقدَّماً ، لأن كل ما ليس من الإيمان هو خطيئة[1] .

١٠ إن هجس في فكرك أن تفحص مرشدك أو تدينه ، فاطفر منه كما تطفر من الزنى ، ولا تخوِّلن هذه الحيّة رخصةً ، ولا موضعاً ولا مدخلاً ولا

---

(١) رومية ١٤ ٢٣

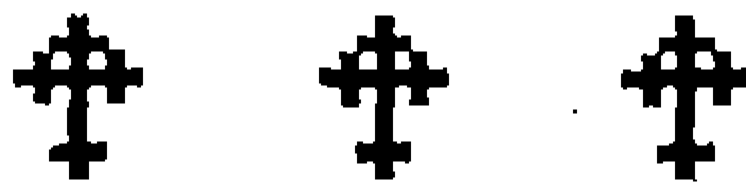
بدايةً . وقلْ للتنّين : " أيها المحتال ، إنه ليس لي أن أدين رئيسي ، ولكنه هو الذي له أن يدينني ؛ لست أنا ديّانَهُ ، بل إنه هو ديّاني " .

١١ وضع لنا آباؤنا أن التسبيح سلاحٌ ، والصلاة سور ، والدموع غير الدنسة مَغْسَل ؛ وحكموا أن الطاعة السعيدة اعتراف بالإيمان ؛ بدونه لن يعاين الربَّ أحدٌ[1] الخاضعين للآلام .

١٢ المطيع هو الذي يصدر الحكم على ذاته . إن كان لأجل محبّة الرب يطيع إطاعة تامة ، فحتى إن بَدَت[2] غير تامة ، فقد نجا من الحُكم . أمّا إذا كان يتمم هواه في شيء من الأشياء ظانّاً أنه يطيع ، فإنه يحمل تبعته بنفسه ؛ فإن كان الرئيس لا يكُفّ عن توبيخه ، فكل شئ على ما يُرام ، أمّا إن سكت عنه فلست أعرف ماذا أقول .

١٣ إن المطيعين في الرب ببساطة خُلقُهم ، يكملون سعيهم دون أن يثيروا على أنفسهم خُبث الشياطين من جراء استقصائهم الكثير وفضوليتهم.

١٤ قبل كل شئ ، ينبغي أن نعترف بخطايانا لقاضينا الصالح ، له وحده . فإن أمرنا أن نعترف بها لكل الناس ، فعلنا ؛ لأن الجروح إذا كُشفت وأُشهِرت ، فلن تصير إلى أسوأ بل وتُشفى .



(١) قارن : عبرانيين ١٢ : ١٤ (٢) د : + في عينيه

لصٌّ تائب

١٥ لما جئت إلى موضع من المواضع ، شهدت في دير شركة مجلسَ محاكمة مريعة لقاضٍ صالحٍ وراعٍ . أثناء إقامتي هنالك ، اتفق أن واحداً من طبقة اللصوص تقدّم إلى السيرة الرهبانية . فأمر ذلك الراعي الفاضل ، الطبيب الحاذق ، أن يتمتع سبعة أيام براحة كاملة ، لمعاينة نوع الحياة في ذلك المكان .

وبعد اليوم السابع ، استحضره الراعي على انفراد وسأله إن كانت مساكنته إيّاهم ترضيه . فإذ أبصره مرحِّباً بذلك بكل إخلاص ، سأله عن الشرور التي أتاها في الدنيا . فلما رآه معترفاً بكافة أفعاله ، ولاسيما من قلب صالح ، قال له أيضاً ليختبره أكثر : " أريدك أن تُشهر أفعالك هذه بحضرة كافة الإخوة " . فوعده ذاك الذي كان بالحقيقة قد مقت خطاياه ، واستهان بكل هوان[1] ، وعداً خالصاً من تردّد ، وقال : " إن شئتَ اعترفتُ في وسط مدينة الاسكندرية " .

بعد ذلك جمع ذلك الراعي إلى الكنيسة غنمه الناطقة كلّها ، وكان عددهم مائتين وثلاثين راهباً .

وفي حين احتفالهم بخدمة القداس ، لأنه كان يوم أحد ، بعد مطالعة الإنجيل ، أُحضِر ذلك المجرم البريء ، يجرّه بعضٌ من إخوة الدير ويضربونه برفق ، واقتادوه مكتوف اليدين إلى خلفه ، لابساً مسحاً من شعر ورأسه

(١) قارن : عبرانيين ١٢ : ٢

مغطىً بالرماد حتى أن الجميع أنذهلوا من ذلك المشهد ، وأجلبوا[1] للوقت بزفرات وتنهّدات ، لأن أحداً منهم ما كان يعرف ما كان يحدث . وإذ وصل إلى باب الكنيسة صوّتَ به ذلك الرئيس القديس ، القاضي الممتلئ من محبة البشر ، بصوتٍ عظيم قائلاً : " قف ! لأنك لست مستحقاً الدخول إلى هاهنا ! " .

فانذهل خائفاً من صوت الراعي الذي وافى من الهيكل ، لأنه كان يظنّ ـ كما أكّد لنا فيما بعد بقسَم ـ ، أنه ما سمع صوت إنسان بل صوت رعد ، فخرّ لساعته على وجهه ولبث مرتعداً، وكان كل جسمه من خيفته مرتعشاً؛ وإذ كان هكذا طريحاً يبلّ الأرض بعبراته ، أوعز إليه أيضاً ذلك الطبيب العجيب الذي لم ينشد من هذه كلّها سوى خلاصه ، وجعْلِه للجميع مثالاً للتواضع الواضح المخلّص ، أمره أن يقول لدى الحاضرين جميعاً ، كل ما كان قد فعله تفصيلاً وإذ كان مرتاعاً مرتعداً اعترف بكل ما عمله واحداً فواحداً ، بين استغراب الناظرين وانذهالهم. إذ لم تكن فقط خطايا جسمانية، بحسب الطبيعة ، وبخلاف الطبيعة[2] مع أناس ناطقين ومع الحيوان ، بل غيرها أيضاً من دسّ السم وجرائم القتل ، وأفعال أخرى كثيرة لا يليق سماعها أو الكتابة عنها . وبعد هذا الاعتراف ، أمر الأب أن يقصّ شعره ويُحصَى مع إخوة ديره .

١٦ إذ عجبت من حكمة ذلك الرجل القديس ، سألته على انفراد : " لماذا عرضت يا أبانا هذا المشهد المستغرَب ؟ " فقال لي ذلك الطبيب

(١) من الجلبة : أي الضوضاء .

(٢) خطايا السدوميين ؛ أنظر : تكوين ١٩ : ٥

الحقيقي : " فعلتُ ذلك لسببين : أولاً لتخليص التائب من الخزي المنتَظَر[1] بالخزي الحاضر ، وقد كان ذلك حقاً ؛ لأنه ما نهض من على الأرض يا أخي يوحنا حتى حظى بالصفح عن جميع خطاياه ؛ ولا ترتابنّ من هذا ، لأن واحداً من الإخوة الذين هنالك قد ائتمنني على هذا السرّ إذ قال إنه رأى شخصاً مرهوباً ماسكاً لوحاً مكتوباً وقلماً . ومع ما كان ذلك طريحاً يعترف بجرائره[2] ، كان ذلك الشخص يمحوها من على اللوح . وذلك حقٌ لأنه مكتوب : " قلتُ أعترف على ذاتي للرب بخطيئتي ، فصفحت أنت عن إلحاد قلبي[3] "

والسبب الثاني أن عندي بعضاً من الإخوة عليهم خطايا لم يعترفوا بها ، فبهذه الطريقة ، أريد أن استحثّهم إلى الاعتراف، الذي بدونه لن ينال أحد مغفرة .

مآثر أخرى للفضيلة

١٧ لقد رأيت عند ذلك الراعي الجليل وعند رعيّته مآثر أخرى كثيرةً وعجيبة ، جديرة بالذكر ، وسأحاول أن أوضّح لكم أكثرها ، لأنني أقمت عندهم زماناً لم يكن قليلاً ؛ متفحِّصاً سيرتهم ، متعجِّباً منها كثيراً ، كيف كان أولئك الأرضيون يماثلون الأحياء السمائيين .

١٨ في ذلك القطيع ، كانوا مرتبطين معاً برباط الحبّ الذي لا ينحلّ ، والأعجب من ذلك ، أن ذلك الرباط كان حُراً من كافة الدالّة ومن الكلام الباطل . لأنهم كانوا قد أحكموا هذه المحمَدة قبل أي شئ آخر ، ألاّ يجرحوا باطلاً ضمير أحد من الأخوة . وإذا أظهر واحدٌ منهم بغضةً لآخر ، كان الراعي ينفيه كمجرمٍ ، إلى الدير المعزول .

---

(١) ب + في القيامة .   (٢) جمع جريرة ، وهي الجريمة .   (٣) مزمور ٣١ : ٥ .

وقد حدث يوماً أن اغتاب أحدهم قريبه لديه[1] ، فللوقت أمر المغبوط بطرده قائلاً : " إنه لا ينبغي[2] أن يكون في الدير شيطان منظور وآخر غير منظور " .

١٩ قد رأيت بين أولئك الأبرار أفعالاً نافعة حقاً وعجيبة ، رأيت مؤاخاةً منظّمة ومتّحدة في الرب ، تمارس العمل والتأمل [معاً] . ذلك أنهم كانوا يعكفون على الأعمال المقدسة ويتدرّبون عليها جيّداً ، حتى أنه نادراً ما كانوا يحتاجون إلى تنبيهات من الرئيس ، بل من إرادتهم الخاصة كانوا يستحثّون بعضهم بعضاً على التيقّظ الروحي ؛ لأنه كانت لهم تداريب روحية وممارسات مقدسة محدّدة ، ثابتة ، متّفق عليها فيما بينهم .

٢٠ فإذا حدث أن واحداً منهم بدأ يتفوّه بألفاظ رديئة، أو يدين غيره، أو يتكلّم مجرد كلام باطل ، كان أخٌ آخر ينبهه إلى ذلك سرّاً بإشارة غير مفهومة ، فيكفّ عن ذلك ؛ فإن عرض أنه لم ينتبه ، كان من نَبَّهَهُ يسجد له سجدة ثم ينصرف . فإن كانت ثمة ضرورة لمحادثة ما ، كان موضوع الحديث الدائم المعتاد هو تذكّر الموت والتفكّر في الدينونة الدهرية .

٢١ ولست أسكت عن أن أصف لكم عملاً معجزاً اعتاده طبّاخ[3] ذلك المجمع ، إذ رأيته أثناء خدمته حافظاً فكره جامعاً حواسه ، باكياً ، فتضرّعت إليه أن يخبرني كيف أُهِّل لمثل هذه النعمة . فلما غصبته أجابني قائلاً : " إنني ما فكرت أبداً أنني أخدم الناس ، بل الله ؛ وإذ حكمت على ذاتي أنني غير مستحق إطلاقاً للهدوء[4] ، فقد صار لي النظر إلى هذه النار مذكّراً لا ينقطع باللهيب المُنتظَر .

(١) ب ، د : قرّف قريبه في حضرته . (٢) د : إنني لا احتمل . ب ، ل : إنني لا أسمح . (٣) ل : خبّاز
(٤) المقصود بالهدوء هنا ، ليس هدوء الوحدة ، بل الهدوء الداخلي ، أي ممارسة الصلاة التأملية الداخلية .

٢٢ وينبغي أن نسمع عن فضيلة عجيبة أخرى أحكموها ، وهي أنّهم ماكانوا يكفّون عن العمل العقلي[١] ، وحتى إذا كانوا لدى المائدة . بل كان أولئك المغبوطون يُذكّرون أحدهم الآخر بالصلاة الداخلية ، بإشارات تعوّدوها وإيماءات . ولم يكونوا يعملون هذا العمل في المائدة فقط ، بل في كل مناسبة يتقابلون فيها ويلتئمون[٢]

٢٣ ومتى اجترم أحدهم خطأ كان إخوته يتضرّعون إليه تضرّعاً جزيلاً أن يسمح لهم بالإجابة عن ذلك لدى راعيهم واقتبال العقاب منه . فلذلك ؛ إذ عرف ذلك العظيم تصرّف تلاميذه كان يوقّع عليهم عقوبات أخفّ صرامةً ، لعلمه أن محتملَ العقوبة بريءٌ من تبعتها[٣] ؛ كذلك لم يكن يهمّه أن يعرف حتى من الذي أخطأ فعلاً .

٢٤ أكان يمكن أن يوجد بين أولئك في وقت من الأوقات قليلٌ من كلام باطلٍ أو من مزاح ؟ وإذا بدأ واحد منهم خصومة مع قريبه ، وحدث أن اجتاز آخر ، عمل مطانية وبدّد الغضب ، أما إذا شعر أيضاً أنهما حاقدان ، أخبر للوقت الرجلَ الثاني بعد الرئيس فيهيّئهما للصُلح قبل غروب الشمس[٤] أما إذا تقسّيا وتصلّبا فكان يعاقبهما إمّا بألاّ يتناولا طعاماً إلى وقت اصطلاحهما ، وإمّا بأن يطردهما من الدير .

٢٥ لم يكن باطلاً أن يمارَس بينهم هذا الاستقصاء في الاحتراس ، المستوجب المديح بل على العكس ، قد كان ينتج ويُظهر ثماراً وفيرة ، لأن

(١) تعبيرٌ عن الصلاة الداخلية .

(٢) أي يجتمعون .

(٣) التبعة ، هي المسئولية

(٤) أنظر (أفسس ٤ : ٢٦) .

كثيرين من أولئك المغبوطين تفوّقوا في حياة العمل والتأمّل معاً ، في الإفراز والتواضع معاً . وكان يمكن للناظر أن يشاهد بينهم منظراً مرهباً يليق بالملائكة ، وشيوخاً موقّرين ذوي شيبة مقدسة يركضون كالأطفال إذا دعا داعي الطاعة ، واجدين في تواضعم هذا مجدهم الأعظم[1] .

٢٦ رأيت هنالك رجالاً قد لبثوا في الطاعة قرابة خمسين عاماً ، ولبثت أتضرع إليهم أن أعرف منهم أيّة تعزية استفادوها من تعبٍ شاقٍ بهذا المقدار ؛ فمنهم من قالوا إنهم بلغوا عمق لجّة الاتضاع ، الذي به فيما بعد كانوا يدفعون تماماً كل الهجمات . وقال غيرهم إنهم قد حازوا بإزاء الشتائم وأنواع الهوان ، زوال الإحساس بها والتوجّع منها .

٢٧ أبصرْت آخرين من أولئك المستحقين ذكْراً أبدياً ، قد بلغوا مع شيبتهم وملائكية طلعتهم ـ بعمل الله فيهم وبسخاء إرادتهم ـ إلى براءةٍ متأصّلة وسذاجةٍ[2] وبساطةٍ عظيمة . لكن بساطتهم لم تكن خالية من تعقّلٍ وحكمة ، كبساطة الشيوخ العائشين في العالم ، الذين أَلِفَ الناس أن يسمّوهم خَرِفين ؛ على النقيض ، كانوا من الخارج يبدون ودعاء ، عطوفين منيرين ، لا يوجد في كلامهم أو خُلُقهم شيء من التصنّع أو التحيّل ، أو الغش ، أمرٌ ليس له في الكثيرين نظير . أما في باطن أنفسهم ، فكانوا يتنفّسون تنفّس أطفال أبرياء ، يهمسون به اسم الله نفسه ورئيسَهم[3] ، مُثبّتين أعين نفوسهم على الشياطين والأوجاع .

(١) ل : مبتهجين في تواضعهم ابتهاجاً عظيماً .

(٢) ل : + كما أن الرجل الشرير يكون إلى حدّ ما مزدوجاً ، ظاهره مخالف لباطنه ؛ فإن الرجل البسيط ليس فيه ازدواج ، بل وحدة واحدة .

(٣) د : ينتظرون كل شئ من رئيسهم

٢٨ إن عمري لا يكفيني ، أيها الأب القديس الجليل ، وأيتها الجماعة المُحبة لله ، لكي أصف فضائل أولئك المغبوطين وحياتهم السمائية[١] ؛ ومع ذلك ؛ فالأفضل على كل حال أن أزيّن خطابي إليكم ، الذي به أنهض غيرتكم لحب الله، بسرد أتعابهم وأعراقهم ، أفضل من [إنهاضها] بنصائحي الحقيرة ، فبدون أدنى مناقضة ، " القول الأدنى يزيّنه القول الأفضل[٢] " ، لكني لا أسألكم سوى هذا فقط ، ألاّ تتوهّموا أنني أكتب إليكم أخباراً ملفّقة ، لأن عدم التصديق من شأنه أن يفسد المنفعة . دعونا نعود إلى مواصلة الكلام فيما تقدّم ذكْره :

إيسيذوروس

٢٩ قبل هذا الوقت بقليل ، زهد في الدنيا رجل اسمه إيسيذوروس ، من رتبة رئاسية بمدينة الإسكندرية وترهّب في دير الشركة ، المذكور ؛ وقد تقابلت معه . بعد أن اقتبله ذلك الراعي القديس، لاحظ أنه كان خبيثاً فظاً، عاتياً مستكبراً ؛ لكن ذلك الحكيم استطاع أن يقهر مكْر الشياطين ببراعة إنسانية . قال لإيسيذوروس : " إن كنتَ قد قرّرت أن تحمل نير المسيح ، أريد أن تتدرّب على الطاعة قبل كل شئ " فقال له : " كما يطيع الحديد الحدّاد ، هكذا قد بذلت أنا ذاتي لطاعتك ، أيها الأب القديس " . فانتفع الرئيس بمثله هذا وسلّم إلى إيسيذوروس " الحديدي" ، في ذلك الحين ، العمل الذي يروّضه[٣] ، قائلاً : " أريدك يا أخي في الطبيعة أن تقف عند باب ديرنا ، وتركع ساجداً لكل من يدخل أو يخرج ، قائلاً : صلِّ من أجلي

---

(١) د : + تماماً

(٢) قارن (عب ٧ : ٧) ، ويقصد القديس بهذا النص الكتابي أنه يزين قوله الأدنى بالكتابة في جهادهم الأسمى .

(٣) د : وضع إيسيذوروس تحت الاختبار .

يا أبي ، فإنني مصروع '' . فأطاعه كما تطيع الملائكة الرب .

ولما أكمل سبْع سنين على تلك الحال ، وبلغ خشوعاً مكيناً وتواضعاً راسخاً ، أراد الأب المجيد بعد السنين السبْع القانونية[1] وصبر الرجل الذي لا يُقارَن ، إذ محلُّه عنده محلُّ من قد فاق الاستحقاق ، أن يعدّه في عداد الإخوة ـ الأمر الذي كان مستحقّاً له تماماً ، وأن يؤهّله لكرامة الكهنوت . لكن إيسيذوروس تضرَّع إلى الراعي مرات كثيرة ، بواسطة آخرين ، وبي أنا الحقير ، أن يتركه ليتمم سعيه في نفس الموضع ، وعلى نفس الحال مشيراً بقولٍ غامضٍ إلى أن نهايته قد اقتربت ، وأنه عما قريب سيُستدْعَى . وهذا ما حَدث فعلاً ، لأنه بعد أن ترَكَه المعلّم على ما كان عليه بعشرة أيام ، انتقل من رتبته الحقيرة في مجدٍ إلى الرب . وفي اليوم السابع لرقاده أُخِذَ إلى عند الرب بواب الدير ، لأن ذلك المغبوط كان قد قال له '' إنني إن رُزقْتُ لدى الرب دالةً فستكون عما قريب هنالك معي بلا افتراق '' . وقد كان ذلك أيضاً ، شهادةً لطاعته التي لم تخزَ ولتواضعه المُشابه لله .

• ٣٠ وقد سألت إيسيذوروس الكبير هذا ، حين كان بعد حيَّاً ، فيمَ كان عقله مشغولاً أثناء مقامه لدى باب الدير ، وإذ رغب أن ينفعني بمنفعةٍ ، لم يُخفِها ذلك المجاهد المجيد عني ، فقال : '' بداية وقوفي هنالك وضعْت في نفسي أنني قد بعتُ[2] عبداً بسبب خطاياي لذلك كنت أسجد السجدة بكل مرارة وجهد جهيد ، بل كأنها بالدم . لكنني بعد انتهاء عام ، لم يعد قلبي يعاني بعد من اغتمام ، بل كنت أنتظر من الله ثواباً عن طاعتي[3] .

(١) د : بعد سنوات الاختبار السبع القانونية

(٢) بعتُ : فعلٌ ماض مبني للمجهول ، أي احتسب نفسه أنه مُباعٌ كعبد (٣) د : عن صبري .

وبعد سنة أخرى ، حكمت على نفسي بإحساس قلبي ، أنني غير مستحق للإقامة في الدير ، ولمعاينة الآباء أو مخاطبتهم ، وغير أهل لتناول الأسرار المقدسة ، ولم أجرؤ حتى على النظر إلى وجه أحد ؛ بل كنت أتضرّع إلى الداخلين في الباب والخارجين منه ، مخفضاً إلى أسفل عينيَّ ، مذلّلاً بالأكثر فكري ، سائلاً صلاتهم لأجلي ".

لورنس

٣١ عند جلوسنا لدى المائدة يوماً ، انعطف المعلم الكبير نحوي ، وأدنى فمه المقدّس من أذني وقال لي : " أتشاء أن أُريك حكمة إلهية في شيخوخة بالغة ؟ " فسألته على الفور أن يمنّ عليّ بذلك . فصوَّت الصدّيق مستدعياً من المائدة الثانية راهباً اسمه لورنس ، قد قضى في الدير ثمانية وأربعين سنة ، وكان الكاهن الثاني للدير . فجاء وسجد للرئيس سجدة وأخذ بركته . ولما نهض ، ما قال له شيئاً البتّة ، لكنه تركه واقفاً قدام المائدة بلا أكل . كان تناول الغذاء قد بدأ للتو ، فلبث ساعة كبيرة أو ساعتين واقفاً ، فاستحيْت أنا من أن أنظر إلى وجه ذلك العمّال ، لأنه كان كامل الشيب ، قد أسلف ثمانين عاماً ، وظلّ هكذا إلى أن انتهينا من الأكل خائباً من جواب . ولما قُمنا ، أرسله الرئيس المغبوط إلى إيسيذوروس الكبير الذي قدّمنا ذكره ، ليتلو له مطلع المزمور التاسع والثلاثين[1] .

٣٢ وبما أني كنت خبيثاً للغاية ، لم يفُتني أن أختبر الشيخ وأسأله عما كان يفكر فيه عند وقوفه لدى المائدة ، فقال : " إنني كنت أنظر إلى الراعي

(١) " انتظاراً انتظرت الرب . فمال إليّ وسمع صراخي " (مزمور ٤٠ : ١)

كأنه صورة المسيح، لذلك ما افتكرت أبداً أنني أتلقى منه أمراً، بل من الله .

كذلك يا أبانا يوحنا كنت واقفاً هناك ، لا كواقف لدى مائدة بشريّة ؛ بل كواقف أمام مذبح الله مصلّياً . إنني ما افتكرت البتّة في راعيَّ فكراً واحداً خبيثاً بسبب الإيمان به، والحب الذي أختبره نحوه، لأنه مكتوب : " إنّ المحبة لا تفتكر في الشر[1] " فضلاً عن ذلك، اعرِفْ هذا جيداً يا أبانا : إن كان أحدٌ يسلّم نفسه طوعاً للبساطة والبراءة ، فلن يعطِ بعدُ لإبليس الخبيث موضعاً أو وقتاً ليهاجمه " .

أمين الدير

٣٣ كما كان ذلك الراعي مُخلّص الخراف الناطقة بنعمة الله عادلاً حقاً ، كذلك كان أيضاً ذلك المدبّر الذي أرسله الرب لأجل الدير ، متعفّفاً - ليس له في ذلك نظير ، وديعاً على أن الودعاء مثله قليلون - . هذا الفاضل لأجل منفعة آخرين ، تظاهر الشيخ الكبير بالاحتداد عليه في الكنيسة بغير سبب ، وأوعز بطرده. فإذ عرفته أنا بريئاً من عيبٍ في الزلل الذي نسبه الراعي إليه ، حاميت عنه لدى الرجل العظيم حالما كنا معاً على انفراد ؛ فأجابني الحكيم قائلاً : " إنني أعرف ذلك أيضاً يا أبانا ؛ ولكن إذا كان قبيحاً وجائراً أن يُنتزع الخبز من فم طفل جائع؛ كذلك يضّر نفسه مدبّر النفوس ، ويضرّ العامل الروحي[2] ، إذا لم يسبّب له في كل ساعة أكاليلاً ، في كل ما يراه قادراً على احتماله بالشتائم وبالهوانات، بالاحتقار ، أو وبالسخريات . ما لم يفعل ذلك يجلب ثلاث مظالم :

الأولى: أن يحرم المرشد نفسه من نيل المكافأة المتعلقة بتصحيح الآخرين.

---

(١) كورنثوس الأولى ٥ : ١٣

(٢) ل : الناسك .

الثانية : مع أنه كان يستطيع أن ينفع آخرين بفضيلة إنسان واحد ، لكنه لم يفعل .

الثالثة : وهي أخطرها ضرراً ، أن أولئك الذين يبدون أنهم أكثر من غيرهم صبراً واحتمالاً للتعب ، إذا مكثوا زماناً دون أن يوبَّخوا أو يُلاموا من رئيسهم ـ بحجة أنهم قد صاروا أصحاب فضائل ـ غالباً ما يفقدون وداعتهم وجلادتهم اللتين كانتا لهم قبلاً . وبيان ذلك أن الأرض الجيّدة الدسمة الخصيبة ، إذا أعوزها ماء الهوان ، يمكن أن تعود بوراً ، وتنتج شوك الكبرياء والعُجب وحسك الخبث[1] وإذ عرف الرسول العظيم ذلك ، كتب إلى تيموثاوس قائلاً: " وبخّ، انتهر ، عظ، في الأوان وفي غير الأوان[2] "[3].

٣٤ فنازعت ذلك المرشد الحقيقي ،محتّجاً بضعف جيلنا ، وقلت : " لعل كثيرين من التوبيخ بغير حق ، أو حتى من التوبيخ الحق ينفصلون عن القطيع " . فأجابني هيكل الحكمة قائلاً : " إن نفساً متحدة براعيها لأجل المسيح ، بُربُط المحبة والثقة ، لا تعرف الانفصال عنه ، ولا إلى الدم ، ولا سيمّا إن كان قد أحسن إليها في مداواة جراحاتها ، متذكّرة القول : " لا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا أي خليقة أخرى ، تقدر أن تفصلنا عن محبة المسيح "[4] .

أما النفس التي لم ترتبط هذا الارتباط براعيها ، ولم تتمكّن في الالتصاق والاتحاد به ، فإنني أعجب إن كانت لا تقيم في المواضع باطلاً ، إذ هي

---

(١) ل : أشواك العجب والجبانة والوقاحة. ب ، م أشواك الصلف والزنا وزوال مخافة الله.

(٢) ب : بحجة واضحة ، وبحجة غير واضحة . (٣) تيموثاوس الثانية ٤ : ٢ . (٤) رومية ٨ : ٥٨

مقترنة بالراعي بطاعة رِيائية زائفة . وحقاً لم يكذّب هذا العظيم ذاته ، بل أرشد وقاد إلى الكمال ، وقدّم للمسيح ذبائح بلا عيب .

أبّاكير

٣٥ فلنصغِ إلى حكمة الله الموجودة في آنية خزفية[١] ولنستعجبها . أثناء إقامتي في ذلك الموضع ، أدهشني إيمان الإخوة المبتدئين وصبرهم ، وثباتهم الذي لا يُقهر ، كيف كانوا يحتملون الانتهارات ، والشتائم ، بل والطرد أيضاً ، ليس من رئيسهم فحسب ، بل أيضاً من أولئك الذين كانوا أدنى في الرتبة كثيراً . سألت لأجل بناء نفسي ؛ واحداً من الإخوة يدعى أبّا كير ، كان قد أمضى في الدير خمسة عشر عاماً ، كنت ألاحظ أنه خاصةً مظلوم ، ومن الجميع تقريباً . وأحياناً كان الخدام يطردونه من المائدة ، لأن هذا الأخ كان بطبيعته غير ضابط للسانه بكفاية؛ فقلت له : " أيها الأخ أباكير ، لِم أراك كل الأيام مطروداً من المائدة ، وغالباً ما تذهب للرقاد خلواً من عشاء ؟ " فأجابني : " صدقني يا أبي إن آبائي يختبرونني ليروا إن كنت راهباً حقاً ، لكنهم لا يتصرفون معي هكذا بجدّية حقيقية وإذ أعلم هدف أبينا الكبير وقصدهم ، أصطبر على ما ينالني بغير تألّم . وها إن لي خمسَ عشرة سنة مفتكراً هذا الفكر ، لأنهم قالوا لي عند دخولي إلى الدير ، إن الذين يزهدون في الدنيا يُختَبرون إلى ثلاثين سنة ، وهذا حقّ يا أبانا يوحنا لأن الذهب لا يمكن أن يتنقى خلواً من امتحان[٢]

٣٦ لبث هذا الجَلِدُ أباكير في الدير بعد وصولي إليه مدة سنتين ثم

(١) كورنثوس الثانية ٤ : ٧

(٢) بطرس الأولى ١ : ٦ ، ٧ .

سافر إلى الرب . وحين شارف على الانتقال قال للآباء : " إنني شاكر ، إنني شاكرٌ الربَّ وإياكم ! لأنكم اختبرتموني هكذا لأجل خلاصي . هوذا سبع عشرة سنة ، لم أُجرّب فيها من الشياطين " .

أما الراعي العادل فقد أمر أن يوضع جثمانه ـ كواحد من المعترفين ـ مع أجساد القديسين الراقدين هناك .

مكدونيوس رئيس الشمامسة

٣٧ إنني أكون ظالماً في حق الغيورين للخير[1] إن دفنت في قبر الصمت مآثر وجهاد مكدونيوس أول الشمامسة الذين هناك ، هذا لما اقترب عيد الظهور الإلهي المقدس[2] ؛ وبوجه التحديد قبله بيومين ، سأل هذا الرجل المحبوب من الرب بهذا المقدار ، سأل الراعي أن يأذن له بالذهاب إلى مدينة الاسكندرية[3] في حاجة من الحوائج تخصّه ، واعداً إياه أن يعود بأسرع ما يمكن لأجل ترتيبات العيد وخدمته . لكن الشيطان ـ ماقت الخير عاق رئيس الشمامسة بعد ما أطلقه الرئيس ، بحيث لم يستطع أن يعود إلى الدير لأجل يوم العيد في الموعد المحدد من الرئيس . وإذ لم يعد إلاّ في اليوم التالي ، أفرزه الراعي من خدمته ، وجعله في رتبة الأخيرين ، من المبتدئين . لكن خادم الصبر الصالح هذا ، رئيس شمامسة الثبات ، اقتبل قرار الأب وقوله هكذا بغير اغتمام ، كأن غيره قد عوقب وليس هو . وبعدما لبث في تلك الرتبة أربعين يوماً رفعه الحكيم إلى درجته الخاصة . وبعد يومٍ واحد توسل إليه رئيس الشمامسة أن يعيده أيضاً إلى رتبة العقوبة الحقيرة ،

---

(١) ل : للكمال (٢) ل : + هذا الذي كُرسَ لله ، قبل عيد الظهور الإلهي .

(٣) هذا دليل آخر على أن الدير الذي يشيد القديس بفضائل رهبانه ؛ مصري : انظر (٤ : ١٥ ، ٢٩) .

قائلاً له : " إنني أثناء إقامتي في المدينة قد اجترمت ذنباً لا يُغفر " فإذ أدرك المغبوط أنه لم يكن يقول الحقيقة، بل كان يطلب حَجة لأجل حبّه للتواضع ، أذعن لرغبة الفاعل الصالح[1] المقدسة . وكان يمكن أن يرى في صف المبتدئين ذلك الشيخ - الموقر لأجل شيبته - متوسلاً بإخلاص لدى كل أحدٍ أن يصلّي لأجله ، لأنه كان يقول : " إنني سقطت في زنى المعصية " . أما أنا الذليل غير المستحق ، فقد أسرَّ إليّ مكدونيوس العظيم هذا موضحاً القصد الذي لأجله بادر طوعاً لاعتناق تلك الحالة المتذلّلة إذ قال لي : " إنني ما أبصرت فيَّ أبداً قبل الآن ، تخفيفاً بهذه الصفة من كل قتال ، وحلاوة نور إلهي مثل هذه " .

٣٨ إن عدم السقوط خاصّية تخصّ الملائكة ، بل ربما لا يستطيعون ذلك هم أيضاً - كما يؤكّد البعض - أما خاصية البشر فهي أن يسقطوا ثم ينهضوا من جديد ، بعد كل مرة يسقطون فيها . أما خاصّية الشياطين - التي تخصهم وحدهم - فهي أن يسقطوا مرة واحدة ولا يقومون بعدُ أبداً .

أخ آخر

٣٩ إن المؤتمن على حاجيات الدير[2] وثق بي فقال : " حين كنت شاباً - وكنتُ آنذاك مكلفاً بالاعتناء بالبهائم - عرض أنني انهبطت إلى سقطة؛ سقطة مهلكة لنفسي شنيعة ، وإذ لم أكن معتاداً أن أخفي حيّة في باطن قلبي ، أمسكت بها من ذَنَبها ، وذنبها أعني به نهاية العمل ، وللحال أريتها للطبيب . فقال لي مبتسماً ، بعد أن لطم خدّي لطمة خفيفة :

(١) ل : الناسك .

(٢) أي أمين الدير .

" اذهب يا ولدي ، وتابع خدمتك كما سلف ، ولا يروعّنك شيء قط " فقبلت أنا قوله بثقة متوقّدة ، وبعد أيام يسيرة نلت إيقاناً بشفائي ، وتابعت مسيرتي بفرح ومخافة معاً .

• ٤٠ إن كل رتبة من البرايا المخلوقة ـ كما اعتاد البعض أن يقولوا ـ لها مميزاتها التي تفترق فيها عن غيرها ؛ هكذا كان أيضاً في مجمع أولئك الإخوة فوارق في نزعاتهم وفي ضروب تقدّمهم . فمتى كان ذلك الطبيب يَسِمُ منهم بعضاً يحبّون أن يُظهروا أنفسهم عند حضور العلمانيين إلى الدير ، كان يشتمهم قدام أولئك الزائرين ، شتائم فادحة ، ويلحقهم بخدمات أشد هواناً من غيرها ؛ حتى أنهم صاروا فيما بعد ينصرفون عَدواً حالما يحضر قومٌ من العلمانيين . فكان يمكن أن يُرى أمر عجيب ، وهو أن المجد الباطل يطارد ذاته ويهرب من الناس .

القديس مينا

٤١ إذ لم يشأ الرب أن يُعدمني صلوات أب قديس في ذلك الدير عينه، إذ حدث قبل اعتزامي على الرحيل من ذلك المكان الطاهر بأسبوع ، أن استدعى الرب إليه رجلاً عجيباً اسمه مينا، كان الرجل الثاني بعد الراعي، وقد أقام في ذلك الدير تسعة وخمسين عاماً ، التحق فيها بسائر الخدمات المتنوعة . وفي الثالث من نياحة ذلك المغبوط ، بينما كنا نصلّي عليه صلوات الخدمة المعتادة ، فجأةً امتلأ المكان الذي رقد فيه ذلك القديس ، امتلأ كله برائحة الطيب . فلما أذِنَ الأب الكبير لنا بفتح النعش رأينا كلّنا المرّ العطر يسيل من باطني قدميه المكرّمتين مثل ينبوعين . حينئذ قال المعلم لجميع

الحاضرين : " انظروا ! فها هي أعراق أتعابه[1] وجهاداته ، قد قدمت لله مرّاً طيّباً ، وقد قبلها الله حقاً " .

٤٢ وقد قصّ علينا آباء ذلك المكان كثيراً من فضائل مينا المغبوط هذا، منها هذه :

شاء رئيس الدير في وقت من الأوقات أن يختبر صبره الذي وهبه الله إيّاه ، فحين أتى مينا إلى قلاية الأب ذات مساء ، سجد أمامه وسأله بركته[2] كالمعتاد . إلاّ أن الأب تركه على هذه الحال طريحاً على الأرض إلى أن حانت ساعة الخدمة[3] . حينئذ باركه بعد ذلك وأنهضه بعد أن وبّخه بشدة على أنه مُحبٌّ للتظاهر وخالٍ من الصبر ـ وإذ كان المغبوط يعلم أن مينا يستطيع أن يحتمل بجلادة كلّ هذا، لذلك فعل به هذا الفعل ، لبناء الجميع . وقد أكد لنا : تلميذ مينا البار ، ما قيل لنا عن معلمه ، وقال لنا : " لقد كان عندي فضولٌ لأسأله عما إذا كان قد انغلب من النوم على مدى سجدته قدام الرئيس ؛ فأكّد لي أنه تلا سِفر المزامير كله من قلبه أثناء انطراحه على الأرض " .

٤٣ لست أهمل أن أُجَمِّل إكليل كلامي بهذه الزمردة . فتحتُ يوماً محادثةً عن هدوء الصمت مع بعضٍ من أولئك الشيوخ ذوي الشجاعة الوافرة[4] فقالوا لي بوجهٍ مبتسم وخُلُق مستبشر : " إننا يا أبانا يوحنا كائنات مادّية ، وقد اخترنا سيرةً للحياة مادّية . وقد آثرنا أن نشرع في قتال يناسب ضعفنا ، واعتبرنا أن الأفضل هو أن نصارع الناس الذين يكونونَ عنفاء أحياناً ، أو يندمون ويتوبون عن ذلك أحياناً ، من أن نصارع شياطين

---

(١) د : أعراق أعضائه وأعماله (٢) ب : سأله كعادته أن يأخذ إطلاقاً [أي حِلاً] ل : سأله أن يعطيه تعليماتٍ كالمعتاد . م : ليستأذنه كالعادة . (٣) ب : + يعني نصف الليل . (٤) ل : المختبرين .

مهتاجين كلّ حين علينا ، شاهرين سلاحهم على الدوام مقابلنا .

٤٤ إنّ واحداً من أولئك المستحقين ذكراً أبدياً ، وكان يُكّن لي كثيراً من الحب في الرب ، ويكلّمني بصراحة تامة ، قال لي مرةً بعطف ورقّة : " إن كانت فيك أيها الحكيم ، القوة الفعّالة التي كانت لذاك الذي قال بحسّ نفسه : " إنني أستطيع أن أفعل كل شئ في المسيح الذي يقويني "[1] ، وإن كان الروح القدس قد حلّ عليك بندى النقاوة كحلوله على البتول ، وإن كانت قوة العلي قد ظللتك بالصبر ؛ حينئذ :

+ اشدد حقويك بإزار الطاعة كما أتزّر به المسيح إلهنا ، وكقائم عن عشاء الصمت ، اغسل أقدام الإخوة بروح منسحق ، أو بالحري تمرّغ تحت أقدام الجماعة بفكر متذلّل .
+ أقم حراساً صارمين لاينعسون على باب قلبك[2] .
+ احفظ في جسم متجاذب عقلاً لا يُجذَب ؛ وسط الأعمال وحركات أطرافك ، مارس هدوءاً داخلياً .
+ أما المضادّة الفائقة فهي : احفظ في وسط الضجة نفساً لا تفزع .
+ اكبح لسانك بحدّة عن المجادلات ، صارع هذا المستبدّ سبعين في سبع مرات كل يوم .
+ ثبّت عقلك إلى نفسك كما إلى خشبة الصليب ليكون مضروباً مثل سندان بمطرقة ، ضربةً تتلو ضربة ، مستهزَءاً به ومشتوماً ، مرذولاً ومظلوماً دون أن ينسحق أو ينكسر[3] ، بل يكون دائماً بإزاء كل هذه هادئاً بلا حراك .

---

(١) فيلبي ٤ : ١٣ (٢) أمثال ١٤ . ٢٣ (٣) قارن كورنثوس الثانية ٤ : ٧ ، ٨

+ تعرَّ من مشيئتك كما من لباس الخزي ، وادخل ساحة الجهاد[1] عارياً منها ، وهذا أمرٌ نادر عسر وجوده
+ البس درع الإيمان برئيس جهادك[2] ، لا تدعه ينكسر أو ينجرح بشيء من الارتياب [فيه] .
+ اضبط بلجام التعفف حاسة اللمس التي تندفع[3] بوقاحة خالية من حياء .
+ بالهذيذ في ذكر الموت اكبح عينيك اللتين تتفحصان بفضول في فخامة الأجساد وجمالها
+ باهتمامك بنفسك ضع كمامة لعقلك ، الذي ينشغل كثيراً بما لا يخصّه ، ويميل رغماً عن توانيه إلى إدانة أخيك ، مظهراً بأفعالك كل ما يمكن من الحب والإشفاق لقريبك

بهذه كلها ، يعرف جميع الناس حقاً ، أيها الأب الأعزّ ، أننا تلاميذ المسيح ، أي إذا كان لنا في حياة شركتنا معاً حبٌّ بعضنا لبعض[4] . وقد كان الصَديق الصالح يقول لي : " هلمَّ هلمَّ . تعال اسكن معنا ، واشرب في كل ساعة الهوان كأنه ماءٌ حي . إن داود بعدما اختبر جميع الملذّات الممكنة تحت السماء ، سأل نفسه في النهاية متحّيراً : " لننظر الآن ماذا يوجد من خير أو ماذا يكون حلواً ؟ لا شئ إلاّ أن يسكن الجميع معاً كإخوة[5] " .

فإن كنا لم نُمنَح بعد هذا الخير ، أعني مثل هذا الصبر وهذه الطاعة ، فالأفضل لنا على الأقل أن نعرف ضعفنا ، ونعيش بعيداً عن ساحة الجهاد ،

---

(1) د . ل : التدريب
(2) ل : مدربك الروحي
(3) ب . ل : التي تقفز إلى الأمام
(4) يوحنا ٨ : ٣٥
(5) مزمور ١٣٣ : ١

ونطوّب المجاهدين وندعو لهم بالصبر ".

فانغلبت أنا لكلمات ذلك الأب الصالح والمعلم الفاضل ، الذي حاربني بأسلحة الإنجيل والأنبياء ، أو بالحري ، لكلمات محبته . وبغير تردُّد ، سلَمت بأن تُعطى المكانة الأولى للطاعة المغبوطة .

والآن بعد أن ذكرت لأجل منفعتكم تلك الفضيلة الفريدة لأولئك الآباء المغبوطين ، يجب عليّ أن أخرج من الفردوس ، وأعود إلى تقديم أشواك [أقوالي] الخالية من جمال ومنفعة .

٤٥ لاحظ الراعي مرة ، أن بعضاً من الإخوة يتحدثون معاً أثناء اجتماعنا في الصلاة ، فوضع عليهم أمراً أن يلازموا باب الكنيسة سبعة أيام وأن يسجدوا لكل الداخلين إليها والخارجين منها سجدةً مع أنهم كانوا شمامسة، بل كان بعضهم كهنة .

٤٦ رأيت واحداً من أولئك الإخوة واقفاً أثناء التسبيح بحسّ القلب أكثر من الآخرين . وكان يبدو ـ لاسيّما في بداية التسابيح ـ كأنه يخاطب بحركاته وتعبيرات وجهه أحداً . فسألت ذلك ماذا كانت تعني هذه السَجيّة التي صارت لديه عادة ؛ وإذا كان عارفاً ألاّ يُخفِي ما ينفع سامعه ، قال لي : " يا أبي يوحنا ، قد أَلِفْتُ أن أجمع منذ بداية الخدمة أفكاري وعقلي ونفسي، وأستدعيها وأصيح بها : هلم نسجد ، ونركع للمسيح ملكنا وإلهنا[1] " !

٤٧ إذ لاحظت بشغفٍ وانتباه ضروب نشاط خادم المائدة ، أدهشتني

(١) قارن (مزمور ٩٥ : ٦) . وأيضاً مقدمة صلاة باكر .

منه هذه العادة : رأيت أنه يحمل دواماً في منطقته لوحاً صغيراً معلّقاً ، وعلمت أنه يسجِّل فيه كل يوم أفكاره ويعترف بجميعها للراعي ؛ وأدركت أنه لم يكن وحده ، بل كثيرون آخرون من الإخوة كانوا يحذون حذوه . وكان ذلك كما فهمت وصيةً من الراعي الكبير .

٤٨ طرد [الأب] يوماً واحداً من الإخوة ، لأنه وشى إليه بآخر[١] أنه كثير الكلام ومهذار . فلبث المطرود[٢] عند باب الدير طوال سبعة أيام ، ثم توسّل إليه أن يستمدّ له العفو والدخول . فلما سمع محبّ النفوس ، وأقلقه الأمر وعلم أن الأخ لم يأكل شيئاً منذ ستة أيام مأكولاً ، حينئذ قال له[٣] : " إن كنتَ قد قررت بحزمٍ أن تبقى في الدير فسأرتّبك في منزلة التائبين " . فإذ قَبِلَ التائب ذلك مسروراً ، أوعز الراعي باقتياده إلى الدير المخصّص للنائحين على سقطاتهم ، وقد تم ذلك . وإذ قد ذكرنا ذلك الدير، ينبغي أن أصفه بأقوال وجيزة .

٤٩ على بعدٍ من الدير الكبير بنحو ميل واحد ، موضع يُسمّى الحبس خالٍ من تعزية[٤] لأنه ما كان يُرى هناك أبداً دخان ، ولا خمر ، ولا زيت لمأكول ، بل فقط : خبز وبقول ساذجة[٥] . هناك كان يحبس الراعي ـ بغير تصريحٍ بالخروج ـ الذين بعد أن قُبلوا في الشركة ، سقطوا في الخطيئة[٦] ولم يكونوا يسكنون معاً ، بل كلٌّ على حدة ، في قلاية خاصة ؛ أو على الأكثر اثنان اثنان ، وكان يتركهم هناك إلى أن يؤكد له الرب ما يختص بكل واحد[٧] . وأقام عليهم نائباً عنه ، شيخاً كبيراً اسمه اسحق ، وقد كان هذا

(١) د : لأنه غير آخر قدامه . (٢) د : المذنب (٣) ب : راسله قائلاً . (٤) ب : + جسدية

(٥) أي غير مطبوخة . د، ل: خضروات ساذجة. (٦) د . في واحدة من خطايا خطيرة . (٧) ل : تحسن كل واحد

يطالب الذين كانوا يثقون فيه ، بصلاة شبه دائمة . ولتلافي الضجر ، كان يضع كمية كبيرة من الخوص . مثل هذه هي الحياة ، مثل هذا هو الترتيب ، مثل هذه هي السيرة ، سيرة الطالبين حقاً وجه إله يعقوب[1] .

٥٠ إن الإعجاب بأتعاب القديسين جيّد نافع ، والاقتداء بهم يُنيل الخلاص ؛ أماّ الرغبة في مماثلة سيرتهم في كل شيء دفعة واحدة ، فهذا غير معقول وغير ممكن .

٥١ حين نُلدغ بالتوبيخات ، ينبغي علينا أن نتذكّر خطايانا ، إلى أن يبصر الرب اغتصابنا لذواتنا من أجله فيمحوها[2] ، ويتحول الوجع الذي ينخر قلبنا إلى فرح ، لأنه قال " بقدر كثرة أوجاعي في قلبي ، تعزياتك ملأت بالفرح نفسي[3] " . ولا ننْسَ الذي قال للرب : " كم من شرور وضيقات أريتني ، لكنك عُدتَ فأحييتني ، ومن أعماق الأرض أيضاً (حيث كنت ساقطاً) أصعدتني "[4] .

٥٢ ✢ مغبوطٌ من يكون كل يوم مهاناً محتقراً ، ويغصب لأجل الرب نفسه ؛ ذلك سينضم إلى صفوف[5] الشهداء ويتحدث بدالة مع الملائكة .

✢ مغبوط الراهب الذي يحتسب ذاته كل ساعة مستوجباً كل الهوانات والاستحقار .

٥٣ ✢ طوبى لمن أمات تماماً إرادته ، وسلّم لمعلّمه في الرب الاهتمام به ، لأنه سيوضع عن يمين المصلوب .

---

(١) قارن مزمور ٢٤ : ٦) . (٢) د . فيغصب نفسه أيضاً ويمحوها . (٣) مزمور ٩٤ : ١٩

(٤) مزمور ٧١ : ٢٠ . (٥) حرفياً خوارس

٥٤ + من يرفض قبول التوبيخات الواجبة ، أو غير الواجبة ، فهذا قد جحد بنفسه خلاصه .

٥٥ + من يقتبل التوبيخات بتوجّع ، أو بسهولة ، فسينال سريعاً اغتفار ذنوبه .

٥٦ أظهر لله بروحك إيمانك بأبيك وحبّك الخالص نحوه ، حينئذ سيقنعه ا لله فيما بعد بوسيلة غير معروفة أن يتعلّق بك ويميل بحنوٍ نحوك ، كمثل ميلك إليه .

٥٧ من يشهر كل حيّة[١] فقد أظهر إيماناً حقيقياً[٢] ، أما من يخفي حيّات أفكاره ، فسيظل[٣] تائهاً في قفر بلا طريق .

٥٨ من يشاء أن يعرف أن عنده مودّة أخوية ومحبة حقيقية ، إنما يعرف ذلك إذا رأى نفسه نائحاً على خطايا أخيه وابتهج مسروراً بتقدّمه وبالمواهب التي ينالها .

٥٩ من يريد أن يقيم أثناء المحادثة رأيه ، حتى إن كان ما يقوله حق ، فليعلم أنه سقيم بداء إبليس . إن كان يسلك هكذا مع الذين يساوونه ، فلعله يمكن أن يُشفى من توبيخات من يكبرونه . أمّا إن كان هذا تصرّفه مع من يفوقونه سناً وحكمة ، فداؤه يتعذّر شفاؤه بواسطة الناس .

٦٠ من لا يُظهر خضوعاً في أقواله ، فواضحٌ أنه ولا في أعماله يتواضع ، لأن غير الأمين في القليل ، غير أمين أيضاً في الكثير[٤] ؛ عنيدٌ ، يتعب تعباً باطلاً ولا يجني من الطاعة المقدسة إلاّ دينونة لنفسه .

---

(١) د : + لأبيه الروحي (٢) د : + به (أي بأبيه الروحي) (٣) د : + حالاً (٤) لوقا ١٦ : ١٠

٦١ إن كان أحد يحفظ ضميره نقيًّا تماماً من جهة طاعته لأبيه الروحي، فذاك ينتظر الموت كل يوم كأنه نوم ، أو بالحري كأنه حياة ولن يرتاع منه ، لأنه يعرف يقيناً أنه في ساعة رحيله لن يُحاسب ، لكن مرشده هو الذي سيُحاسب [عنه] .

٦٢ إن كان أحدٌ قد قَبِلَ من أبيه ـ دون إلزام ـ خدمةً من الخدمات ، فأصابته فيها عثرة ، فلا ينسبْ علّة عثرته إلى الذي أعطى السلاح ، بل ينبغي أن ينسبها إلى الذي تسلّمه ؛ لأنه أخذ سلاحاً لمحاربة عدوّه ، فأداره نحو قلبه . فإن كان قد اقتسر ذاته لأجل الرب على قبول ذلك العمل ، رغم أنه سبق فشرح ضعفه ومرضه لمن فرض عليه ، فليتشجع ، لأنه وإن كان قد سقط فلن يموت .

٦٣ نسيت يا أحبائي أن أقدم لكم خبز الفضيلة اللذيذ . رأيت في ذلك الدير مطيعين في الرب يُخضعون للهوانات أنفسهم طواعيةً ويتذلّلون لأجل الله ، ليكونوا مستعدين للهوانات التي كانت توافيهم من الخارج دون أن يضطربوا ، لكونهم متعَودين على قبول الشتائم .

٦٤ النفس التي تفتكر في الاعتراف[1] ، يضبطها هذا التفكّر ويحجزها عن الخطاء ، كأنه لجام ، لأن ما لا نريد الاعتراف به ، نرتكبه بلا مخافة كأنه في الظلام .

٦٥ إن كنا في غياب الرئيس نتمثّل وجهه ، ونتصوّر أنه حاضر على الدوام بجانبنا ، متلافين كل لقاء ، وكل كلام ، وكل طعام ، وكل نوم ،

---

(١) د . + بخطاياها .

وكل شيء آخر نظن أنه يكدّره بالحق ، حينئذ نكون قد اقتنينا الطاعة الحقيقية . إن النغول من الأولاد[1] يعتدّون غيبة معلمهم مسرّة ، أما البنون الحقيقيون فيعتبرون ذلك خسارة .

٦٦ سألت يوماً ، واحداً من الآباء ذا خبرة وفيرة ، كيف أن الطاعة تنيل التواضع ؟ فأجابني : إنَّ الراهب المطيع ذا الرأي الحسن[2] ، حتى لو كان يقيم أمواتاً ، أو كانت له موهبة الدموع ، أو كان حرّاً من كل قتال ، فليحسب أن صلاة أبيه الروحي هي التي صنعت كل هذه ، ويظلّ هو غريباً عن كل عُجب باطل ، لأنه كيف يمكنه أن يتشامخ بما يعرف أنه قد أكمِلَ بمعونة أبيه ، وليس بجهاداته الخاصة ؟

٦٧ إن المتوحد لا يعرف هذه الخبرة التي تكلّمت حالاً عنها، لأن ظنّه الباطل يهجس إليه أن أعماله الفاضلة هي ثمرة صرامته وجهوده الخاصة .

٦٨ الذي يعيش في الطاعة قد فَلتَ من شَركَينْ ، وهو يبقى فيما بعد عبداً مطيعاً للمسيح .

الشرَك الأول

٦٩ يلاكم الشيطان المطيعين ، أحياناً ليدنّسهم بنجاسات جسدية ، ويجعلهم قساة القلوب ، وأحياناً بأن يثير عليهم قلقاً يفوق المعتاد وضجراً ، وفي أوقات أخرى يجعلهم جافين غير مثمرين[3] ، كسالى في الصلاة ، نوّامين وغائصين في ظلمة[4] ؛ هذا لكي ينتزعهم من جهادهم ، كأنهم لم يستمدّوا من طاعتهم نفعاً بل يرجعون إلى خلف ، لأنه لا يَسَمح لهم أن يفطنوا أنه

---

(١) النغول : مفردها نغل ، وهو الابن غير الشرعي .

(٢) ل : ذو الإفراز

(٣) د : + نهمين

(٤) ل : + روحية

غالباً ما يصير انتزاع الأمور التي فينا ونظن أنها صالحة ، بتدبير العناية ، مسبباً لنا تواضعاً عميقاً .

• ٧ وعلى أي حال ، فإن كثيرين قد طردوا هذا الشيطان الخدّاع[1] بفضل صبرهم . لكن بينما هو لايزال يتكلم ، يقف بنا رسول آخر ، محاولاً أن يخدعنا بعد قليل بحيلة أخرى :

الشَرك الثاني

قد رأيت رهباناً عائشين في الطاعة ، كانوا ـ بفضل ستر[2] أبيهم الروحي ـ ممتلئين من الخشوع ، ودعاء ، ضابطين هواهم ، غيورين ، أحراراً من القتالات الداخلية ، وحارّين ، لكن الشياطين بذروا للوقت فيهم فكراً أنهم قد صاروا قادرين فيما بعد على هدوء الوحدة ، وأنهم بواسطته سيظفرون بالجائزة التامة وهي التحرُّر من الآلام ، فانخدعوا بذلك وفارقوا الميناء وحصلوا في اللجّة ، فدهمتهم العاصفة، وإذ لم يكن لسفينتهم مدبّر تورّطوا تورطاً جديراً بالرثاء في خطر هذا البحر الوسخ المالح[3] .

٧١ يلزم بالضرورة أن يختبط البحر ، ويهتاج ويجيش هادراً ، ليلفظ عنه إلى الشاطئ ما صبّته فيه أنهار الآلام من خشبٍ وفضلات وأعشاب . لكن دعنا نتأمل فنتحقق أنه بعد العاصفة العاتية ، يأتي هدوء عظيم !

٧٢ من يطيع أباه أحياناً ويخالفه أحياناً ، شبيه برجل يقطر في عينيه مرة شيافاً[4] ، ومرة ينثر فيها جيراً حيّاً ، لأنه قيل : " عندما يبني واحد وآخر ينقض ، أيّة منفعة لهم سوى التعب ؟[5] " .

(١) د : + الذي تكلمت حالاً عنه (٢) ل : إرشاد (٣) لمعرفة نظام التوحد الرهباني ، انظر "سكون" في فهرس الموضوعات (٤) أي غسولاً (٥) ابن سيراخ ٣٤ : ٢٣

٧٣ أيها الابن والعبد المطيع للرب ، لا تنخدع بروح الظن الباطل[١] إذا كشفت لمعلّمك ذنوبك كما لو كانت لشخص آخر . لست تقدر أن تهرب من الخجل إلا بالخجل[٢] لأن للشياطين غالباً عادة ؛ إما أن يقنعونا بعدم الإعتراف بزلاّتنا ، وإما بأن نعترف بها كما لو كانت تخصّ غيرنا ، أو بأن ننسب مسئولية خطايانا إلى غيرنا . اكشف ؛ اكشف لطبيبك جرحك عارياً . قل ولا تخجل : " يا أبي ؛ هذا الجرح جرحي ، هذه الضربة ضربتي، تكوّنت من توانيّ وحدي وليس من غيري . لا يُلام عليها أحد سواى ، لا إنسان ولا روح ولا جسم ولا شئ آخر سوى تهاملي " .

٧٤ عند اعترافك ، كن في خُلُقك وفي مظهرك وفي أفكارك ، مثل مجرم مُدان مطرقاً إلى أسفل ، وإن كان ممكناً بلّل بدموعك قدمي طبيبك وقاضيك ، كأنهما قدمي المسيح .

٧٥ إن كان كل شئ يتوّقف على التعوّد ويتبعه ، فهذا هو الحال بالنسبة للأعمال الصالحة بالأكثر ، بما أن لنا معيناً قديراً عليها ، هو الله نفسه .

٧٦ يا بنيّ ؛ لن تتعب سنواتٍ كثيرة لتجد في نفسك الراحة[٣] المغبوطة، إذا أسلمت منذ البدء ذاتك بكليّة نفسك للهوانات .

٧٧ لا تظن أنه منافٍ للصواب ، أن تجعل اعترافك لمعينك بخُلُق متذلّل كأنه لله . فإنني قد رأيت مجرمين بأسى طلعتهم وباعترافهم الكامل وتوسّلهم الذليل[٤] ، قد ليّنوا صرامة القاضي وحوّلوا غضبه عليهم إلى ترأف . ولهذا

---

(١) د : الكبرياء
(٢) أي لن تنجو من الخطية المخجلة ، إلاّ بالإعتراف المخجل ؛ أو من الخجل قدام الله في الدينونة إلا بالخجل قدام أبيك
(٣) ل : السلام الداخلي
(٤) د : المُلحّ .

السبب فإنه حتى يوحنا المعمدان كان يطالب الذين يتقدّمون للاعتماد منه بالاعتراف قبل اصطباغهم ، ليس لأنه كان محتاجاً لأن يعرف خطاياهم لكنه كان مهتماً بخلاصهم[1] .

٧٨ لا يدهشنا تواتر القتال علينا بعد اعترافنا ، لأنه أفضل لنا أن نصارع أدناساً[2] من أن نصارع العُجب[3] .

٧٩ لا تشغف بزيادة ولا تتحمّس بسماع حكايات عن الآباء المتوحّدين والسائحين ، فإنك تسير في جيش الشهيد الأول[4] جندياً ماشياً .

٨٠ إذا سقطتَ ؛ لا تترك أرض المعركة ، لأننا عندئذ نحتاج بالأكثر إلى طبيب . من عثرت رجله بحجر رغم وجود من يساعدونه ، فبكل تأكيد لن يعثر فقط خلواً من هذه المعونة ، بل ربّما يموت .

٨١ عندما نسقط يهاجمنا الشياطين للوقت ، متمسّكين علينا بحجة معقولة ـ أو بالحري غير معقولة ـ مقترحين علينا أن نسعى إلى الوحدة ، أمّا غرض أعدائنا من ذلك ، فهو أن يزيدوا على سقطتنا جرحاً .

٨٢ إذا صرّح الطبيب بعجزه عن مداواتنا ، تدعونا الضرورة حينئذ إلى أن نمضي إلى غيره . لأنّ الذين يبرأون بلا طبيب قلائل . من تراه يقاومني في القول إن كانت كل سفينة يقودها ربّان مختبر تتعرض للغرق ؛ فإن لم يكن هناك مدبّر ، ستهلك لا محالة ؟

٨٣ من الطاعة يتكون التواضع ، ومن التواضع يتأتى البرءُ من الأوجاع لأن " الله ذكرنا في تواضعنا وخلّصنا من أعدائنا[5] " . إذن لا

---

(١) انظر (متى ٣ : ٦) (٢) د . ل الأفكار (٣) د : الكبرياء

(٤) ب . م : + اسطفانوس (٥) مزمور ١٣٦ . ٢٣ . ٢٤

شئ يمنعنا أن نقول إن من الطاعة يتكون البرءُ من الآلام ، الذي منه يكون غاية التواضع . فالطاعة هي[1] مبدأ البرء من الآلام ، كما أن موسى هو مبدأ الناموس . وتكمّل الابنة الأم ، كما أكملت مريم[2] المجمع[3] .

٨٤ يستحق كلَّ عقاب من الله ، المرضى الذين بعد أن اختبروا طبيبهم وانتفعوا منه ، يتركونه مفضلين عليه آخر ، قبل اكتمال شفائهم .

٨٥ لا تهرب من يدي ذاك الذي قدّمك للرب ، لأنه طوال حياتك ، لا ينبغي عليك أن توقّر أحداً مثله .

٨٦ خطرٌ على الجندي غير المختبر ، أن ينفصل عن جماعة الجند ، ويُفرد ذاته للمبارزة . كذلك لن يكون خالياً من خطر ، أن يعتزل الراهب ناشداً هدوء التوحّد قبل أن ينال خبرة وتدرّباً طويلاً على الصراع قبالة أدواء النفس . الأول يكابد خطراً جسمانياً ، والثاني يعرض نفسَه للخطر . يقول الكتاب[4] : ” اثنان خيرٌ من واحد “ أي أنه أفضل للابن أن يكون مع أبيه ، وأن يجاهد أبوه معه ضد مناقصه السالفة ، بقوة الروح القدس الإلهية .

٨٧ الذي يحرم الأعمى مرشده ، والرعيّة راعيها ، والضال قائده

---

(١) د ، ل : فالتواضع هو (٢) ب : + والدة الإله .

(٣) يرجح أن المقصود بهذه العبارة ، أن مريم العذراء بحياة الطاعة للناموس عن تواضع - مع أنها كانت أحياناً حرّة من الالتزام بما ينص عليه الناموس من شرائع لا تنطبق عليها (انظر لوقا ٢ : ٢٢ ، ٣٩) - قد ولدت الرب الذي لم ينقض الناموس بل بلّغه الكمال (راجع متى ٥ : ١٧- ٤٨) . أو بتعبير آخر ، إن الذي وُلِد من مريم تحت الناموس (غلاطية ٤ : ٤) ، وفي إخلائه لنفسه خضع للناموس الموسوي (راجع متى ١٧ : ٢٤ ــ ٢٧ ، رومية ١٥ : ٨ ، فيلبي ٢ : ٨) قد افتدى الذين تحت الناموس ووهبهم التبني (غلاطية ٤ : ٥) ، لأن ”الناموس بموسى أُعطى ، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا “(يوحنا ١ : ١٧) وهكذا فإن ” غاية الناموس (أو موسى) ، هي المسيح للتبرير ، لكل من يؤمن “ (رومية ١٠ : ٤) .

(٤) جامعة ٤ : ٩ .

والطفل أباه ، ، والسقيم طبيبه ، والسفينة مدبّرها ؛ يوقع الجميع في خطـر . والذي يشرع في مصارعة الأرواح خِلواً من معونة ، يقتلونه .

٨٨ الذين يدخلون المستشفى[١] ، ينبغي أن يُظهروا أوجاعهم ؛ والذين يدخلون في الطاعة ينبغي أن يُظهروا اتضاعهم[٢] . أمّا الأولون ، فالاستراحة من سالف توجعهم هي علامة شفائهم ؛ أما الأخيرون ، فازدياد لومهم لأنفسهم بيّنة أكيدة وفريدة على استعادة صحتهم .

٨٩ ليكن ضميرك مرآةً لطاعتك ، فإن في هذا الكفاية .

٩٠ الذي يعيشون في السكون ، خاضعين لأب روحي[٣] ، ليس لهم أخصام سوى الشياطين . أما الذين يعيشون في شركة ، يصارعون مع الشياطين والناس سوية . الأولون ، لكونهم تحت نظر معلمهم كل حين ، يحفظون وصاياه بكثير من العناية والتدقيق ؛ أما الآخرون فلكونهم ليسوا دائماً في حضرته ، ينقصون في الطاعة قليلاً . مع ذلك ، فإن الحريصين الكادحين يسدّون هذا النقص[٤] بوفرة ، بصبرهم على المحن والمصادمات ويحصّلون أكاليلاً مضاعفة .

٩١ ينبغي أن نتيقظ بأبلغ التيقظ ، فإن الميناء إذا امتلأ بالسفن ،

---

(١) د ، ل : + لأول مرة

(٢) د : الذين يدخلون عند الطبيب لأول مرة ، يعلمون مقدار تألمهم ؛ والذين يلتحقون بحياة الطاعة ينبغي أن يعلموا مقدار اتضاعهم .

(٣) يقصد المؤلف القديس بهذا النوع من الرهبان ، الذين كانوا يعيشون حياة التلمذة مع أب متوحد ، إذ كان لبعض المتوحدين تلميذ أو اثنان مقيمان معه طول الوقت ، أو بعض الوقت ـ مثل القديس أرسانيوس . لزيادة الاستيضاح انظر ١ ـ ٢٧ ، ١ ـ ٤٤ .

(٤) أي غياب معلمهم والحرمان من توجيهه واشرافه .

يسهل أن ترطم بعضها بعضاً وتتكسر ولا سيّما إذا كانت تثقبها سراً دودة الغضب[1] .

٩٢ سبيلنا أن ندرب أنفسنا على أن نحفظ صمتاً بالغاً ونظهر جهلاً تاماً[2] في حضور رئيسنا ؛ فإن الرجل الصامت ابن للحكمة ، يكتسب على الدوام معرفة أوسع .

٩٣ رأيت راهباً تحت الطاعة ، قد اعتاد أن يقاطع معلّمه أثناء كلامه ، فأيست من طاعته التي عوض أن تصّيره أكثر تواضعاً ، صارت علّة لتكاثر كبريائه .

٩٤ ينبغي أن نسعى بكل تعقّل ، وأن نتفحّص بكثير من الحرص ونعتبر بيقظة بالغة ، في أيّ وقت وفي أيّة مناسبات يكون مفيداً تفضيل الخدمة على الصلاة ، لأنك لا تستطيع أن تعمل ذلك في كل وقت ، وكيفما اتفق[3] .

---

(١) هنا يتعرّض المؤلف القديس لشرح واحدة من المضار التي يمكن أن تحدث للراهب في حياة الشركة الديرية ، لا سيما في حالة ازدياد عدد الرهبان وقلة اهتمامهم بأنفسهم ونقص رعايتهم . وهو يعبّر بالارتطام الذي يحدث نتيجة ازدحام الميناء بالسفن ، عن المصادمات التي قد تجد لها موضعاً سهلاً في علاقات العمل والمعاملات المختلفة بين رهبان الشركة ؛ وقد ذكر في الفقرة السابقة أن التحذّر من هذه المصادمات وتجنّبها بالاتضاع والصلاة والصبر واليقظة ، علّة الحصول على أكاليل مضاعفة ، وثواب قد يفوق ثواب الناجح في حياة الوحدة . أما الغضب - شأنه شأن باقي خطايا اللسان - الذي يجد مكاناً مناسباً لنموه وتكاثره بين رهبان المجمع ، فيشبهه القديس بالدودة التي رغم كونها صغيرة إلاّ أنها تستطيع أن تهلك سفينة عظيمة بهذا المقدار - كما يقول القديس يعقوب الرسول (انظر يعقوب ٣ : ٤) - بكل ما تحمله من ثروات ، لا في طمطام بحر العالم ، بل داخل ميناء الخلاص - الذي يقصد به القديس يوحنا السلّمي في غير موضع من كتابه ، مجمع الأخوّة الملائكية .

(٢) ب : تؤدة .　　　(٣) ل : لأنك لا تستطيع أن تعمل كل الأشياء في كل الأوقات .

٩٥ انتبه لنفسك حين تكون مع اخوتك ، ولا تجتهد البتّة أن تبدو أفضل منهم في أي شيء مهما كان ، لأنك إن فعلت ذلك ترتكب شرّين : تجرحهم بغيرتك الكاذبة الريائية ، وتثير على نفسك سبباً لاستعلاء ظنّك بنفسك .

٩٦ كن غيوراً في داخل نفسك ، دون أن تظهر حرصك بجسدك ، لا بعلامة ظاهرة ولا بكلمة ، ولا بإشارة مبهمة . تعمل هذا فقط إن كنت قد كففت عن الازدراء بقريبك . أما إن كنت جانحاً إلى هذا الداء ، فكن شبيهاً بإخوتك ؛ وإلاّ ، فلن تكون متميزاً عنهم إلا بالتشامخ والعُجب .

٩٧ رأيت تلميذاً غير مختبر ، إذ افتخر قدام أناسٍ بفضائل معلمه ، وإذ كان يظن أن ينال مجداً من حَصْدِهِ حنطةً ليست له ، ما اكتسب من ذلك إلاّ خزياً ، لأن الجميع قالوا له : " كيف أمكن لشجرة جيّدة أن تحمل غصناً عقيماً[1] ؟ " .

٩٨ لا يمكننا أن نحكم على أنفسنا بأننا صبورون ، حين نحتمل بشجاعة استهزاءات أبينا ، بل حين نكون محتقرين ومكلومين[2] من كل أحد ونحتمل . لأننا نحتمل كل شيء من أبينا بداعي التوقير والواجب .

٩٩ اشرب الاستهزاء بشغف[3] كأنه ماء الحياة ، اشربه من كل إنسان مهما كان ، كأنه ممن يريد أن يسقيك دواءً مطهّراً يخلّصك من الزنا ؛ حينئذ يشرق كوكب طهارةٍ عميقةٍ في نفسك ولن ينطفئ سراج الله بعدُ في قلبك .

---

(١) عقيم : غير مثمر (٢) الكلم هو الجرح (٣) د : طواعية

١٠٠ لا يفتخرنّ أحد في قلبه إذا أبصر أن جماعة الإخوة[1] قد استراحت بسببه ، فإن السُرّاق محيطون به .

تذكر على الدوام قول القائل : " إذا عملتم كافة ما أُمرتم به ، فقولوا إنّا عبيد غير نافعين ، إنما عملنا ما كان عمله واجباً علينا[2] " ، والحكم على أتعابنا سنعرفه في ساعة موتنا .

١٠١ دير الشركة ، سماء أرضية . فينبغي أن تتوافق قلوبنا مع طباع ملائكةٍ يخدمون الرب . أحياناً تكون قلوب الذين يعيشون في هذه السماء [الأرضية] قاسية مثل الحجر وأحياناً تكون في عزاء بفعل الخشوع . يكون الحال هكذا ، لكي من جهة يتجنبّوا العُجب ، ومن جهة أخرى لكي تَخفَّ بالدموع أتعابهم[3] .

١٠٢ نارٌ قليلة تليّن شمعاً كثيراً ، وهوانٌ يسيرٌ غالبا ما يليّن فجأة كل وحشيّة القلب ويزيل انعدام حسه ، ويمحو قساوته[4] .

١٠٣ رأيت مرةً اثنين جالسيْن في خفيةٍ يتسّمعان من المجاهدين أنّات تحسّرهم ويراقبان أتعابهم ، إلاّ أن أحدهما كان يفعل ذلك ليتشبه بهم ، أما

---

(١) ب : نيّح جماعة من إخوته (٢) لوقا ١٧ : ١٠ .

(٣) أي أن قساوة القلب تأتي نتيجة العُجب ، ويلزم في حالة تقسّي القلب ، أن نعيده إلى حال الليونة بممارسة الأتعاب للحصول على الخشوع ، وعندما يتم ذلك يحصل للقلب العزاء ، وبالعزاء تخف الأتعاب وتمارس الجهادات الروحية بسهولة ، فيتعلّم الإنسان أن يتلافى العُجب والكبرياء بالاتضاع الداخلي : فلا ينسب لنفسه الفضل في شيء من فضائله ومنجزاته، وبالاتضاع الخارجي : فلا يدين غيره ويحتمل أثقال إخوته ويعاملهم باللطف والوداعة .

(٤) هذه الفقرة مرتبطة بالسابقة . ومنها نتعلم أنه حين نشعر أن قلوبنا باردة متلّبدة، ينبغي أن ننتبه ونتهيأ لما قد تسوقه النعمة علينا من إهانات ومحقرات ، لكي بقبولها تعود إلينا النعمة (انظر بطرس الأولى ٥ : ٥) والعزاء (انظر كورنثوس الثانية ٧ : ٦) .

الآخر فلكي حين تتوافر له فرصة يُشهرهم هازئاً بهم ، ليردّ بهذه الوسيلة فاعل الله عن عمله المحمود .

١٠٤ ✢ لا تصِرْ صامتاً غير ناطق ، إلى حدٍّ يسبّب لآخرين ضيقاً ومرارة .

✢ لا تكن متباطئاً في مشيَتك وأعمالك، حين تُأمر بأن تسارع؛ وإلاّ فتكون أردأ من المجانين والمتمردين . وقد رأيت هذه كما يقول أيوب : إن نفوساً تعاني من تباطؤ خُلقُها ، وأحياناً من لهفتها . فاندهشت أنا من تنوّع الشر .

١٠٥ من ليس بمفرده بل مع آخرين ، لا يقدر أن يحقق من التسبيح ربحاً هذا مقداره ، مثلما يربح في الصلاة ، لأن ضجّة اختلاط الأصوات ، تشتّت الانتباه أثناء التسابيح .

١٠٦ ناضل مع فكرك على الدوام ، وعندما يطيش استَدْعِهِ إليك ، فإن الله لا يطالب العائشين في الطاعة بصلاة خالصة تماماً من الطياشة والطموح . لا تغتمّ[١] إذا سُرِقْت [بطياشة الفكر] بل اثبت واسترجع عقلك إليك بغير توقّف ؛ فإن الملاك وحده في مأمن من الطياشة .

١٠٧ من عَزَمَ في مكنون سريرته ألا يترك الصراع إلى النفس الأخير، بل بالحري يحتمل[٢] ألف ميتة للنفس وللجسد ، لن يسقط بسهولة في واحدة من هذه العثرات وأمثالها . لأن عدم ثبات القلب ونقص الأمانة للموضع ، يسبّبان على الدوام العثرات والمصائب . الجامحون بسهولة إلى

(١) د : لا تصغر نفسك

(٢) ب : ولا ينتقل من

الانتقال من موضع إلى آخر ، يفشلون[1] تماماً ، لأن ليس شيء يمنع النفس عن الإثمار مثل قلة الصبر .

١٠٨ إن وصلت إلى طبيب ومستشفى لا تعرفهما ، تصَرفْ كأنك عابر سبيل ، واختبر سرّاً جميع الذين هناك[2] . فإن شعرت من الأساتذة وغلمانهم[3] بمنفعة لأمراضك ، ولاسيّما في الحصول على الدواء الذي تفتّش عنه لانتفاخ نفسك[4] ، فتقدّم حينئذ واشترِ إياه بذهب التواضع واكتب العقد على رقّ الطاعة بحروف الخدمة وبشهادة الملائكة ، ومزّق في حضورهم تمزيقاً صكّ مشيئتك ، لأنك إن كنت تمضي من موضع إلى موضع[5] ، تنقض الثمن الذي اشتراك به المسيح . وليكن لك الموضع قبرَك قبل قبرِك ، فإنه لا أحد يخرج من قبره قبل القيامة العامة وإن كان البعض قد خرجوا من قبورهم ، فانظر إنهم موتى. فلنتوسل إلى الرب كيلا يصيبنا هذا.

١٠٩ حين تكون الأوامر بالخِدم المحسوسة ثقيلة ، يروم الأوْفَرون كسلاً أن يفضّلوا الصلاة ، أما إذا كانت الأوامر بالخِدم خفيفة ، يهربون من الصلاة كما من نار

١١٠ يوجد من يباشرون عملاً ، فيتركونه عند الطلب لإراحة واحد من الإخوة . ويوجد من يتركونه بسببٍ من كسلهم ، ويوجد أيضاً من لا يتركونه بسبب عُجبهم ، ويوجد من لا يتركونه بسبب اجتهادهم .

١١١ إن كنت قد ارتبطت بالعهود[6] ، وأبصرت عين نفسك لا تحقّق

(١) ب : غير متهذبين .

(٢) ل : اختبر سيرة جميع العائشين هناك وخبرتهم الروحية .

(٣) د ، ل : والمترضين .

(٤) ل : للكبرياء الروحية

(٥) د : إن كنت تهيم هنا وهناك

(٦) أي بالنذور الرهبانية .

تقدّماً[1] ، فلا تتردد في الانفصال[2] . ومع ذلك[3] فالأصيلُ أصيلٌ[4] حقاً في كل موضع ، والعكس صحيح كذلك .

١١٢ في العالم تتولّد انقسامات كثيرة من الكلام الجارح والافتراءات؛ أما في مجامع الرهبان فالشَرَه يُنتج كافة السقطات والتنافرات . إذا ترأسْتَ على هذه السيدة [بطنك] فكل موضع تُقيم فيه ينيلك التحرّر من الأوجاع، أما إذا كانت هي تترأس عليك ، فستتورط في الخطر في كل مكان خارجاً عن قبرك .

١١٣ الرب يحكّم العميان ، أعني المطيعين بأن يريهم فضائل مرشديهم ويعميهم عن نقائصهم ، أما باغض الخير فيفعل العكس .

١١٤ ليكن لنا أيها الفضلاء من المسمّى زئبقاً، نموذجاً لكمال الطاعة. فإنه إذا دُحرِج مع أيّة مادة يجري إلى المكان الأسفل دون أن يختلط بأي دنس فيها[5] !

١١٥ سبيل الحريصين أن ينتبهوا بصفة خاصة لأنفسهم لئلا من تلقاء إداتتهم المتهاملين ، يوجبون على ذواتهم دينونة أسوأ . يلوح لي أن لوطاً لأجل هذه الفضيلة تبرّر ، إذ كان يعيش بين أناس تلك الحال حَالُهُم ولا يبدو أنه أدانهم البتّة .

---

(١) أي دون أن تزداد معرفة واستنارة وإفرازاً روحياً .

(٢) ب : لا تستعفِ من الانفصال . ل : لا تستأذن في الافتراق م : لا تمتنع عن الافتراق

(٣) ل : ـ ومع ذلك (٤) د : الراهب الجيّد جيد في كل مكان . (٥) أي أن المطيع يمارس خضوعاً شاملاً . دون أن تمتزج طاعته بأفكار بشرية أو ظنون سيئة تلوّث نقاوة قلبه وفكره .

١١٦ في كل وقت ، ولاسيما أثناء التسبيح بالكنيسة ، ينبغي أن نتمسك بالهدوء ونتجنب التشتت ، لأن الشياطين يهدفون أن يفسدوا بالتشتت صلاتنا .

١١٧ خادم الله هو الذي يقف بين الناس بجسده ، أما عقله ففي السموات يقرع بابها بصلاته .

١١٨ الشتائم والإهانات وأمثالها ، لها في نفس المطيع[١] مرارة الأفسنتين . بينما المدائح والتكريمات والاستحسان تولّد في محبيّ اللذّات كل حلاوة كحلاوة العسل . فينبغي لنا أن نتفحص طبيعة كليهما . فالأفسنتين ينقي الجسم من الأوساخ الباطنة ، أما العسل فيزيد عادة إفراز المرارة .

١١٩ ينبغي أن نأتمن الذين تقلّدوا في الرب قيادتنا دون أن نهتم بشيء ، حتى لو أمرونا بشيء يبدو أنه مضادّ أو حتى متعارضٌ مع خلاصنا . لأن ثقتنا فيهم تُمتحن في ذلك الحين في بوتقة التواضع . أما علامة الأمانة الصادقة الوافرة ، فهي أن نطيع الذين يأمروننا ، بغير ارتياب حتى إذا رأينا الأمور تسير عكس ما نرجوه .

١٢٠ من الطاعة يتولّد التواضع ـ كما قلنا فيما سلف ـ ومن التواضع يتولّد الإفراز ، على ما أوضح كاسيان الكبير[٢] بفلسفة جميلة سامية في فصله عن الإفراز . ومن الإفراز تأتي حدّة البصيرة ، ومن البصيرة هبة رؤية المستقبلات .

(١) ل : المبتدئ

(٢) يقول يوحنا كاسيان في "المناظرات" إن الإفراز الحقيقي ، لا يُقتنى إلاّ مكافأة على اتضاع حقيقي "
CASSIEN. Conf. 2. 10: Sources Chrétiennes 42. p.120

فمن لا يريد إذن أن يجري في طريق الطاعة الجميل هـذا ، بمعاينته هـذه البركات المعدّة له ؟ قال المرنّم الجليل في وصف فضيلة الطاعة السامية هذه : " في صلاحك ، هيّأت يا الله لنفس المسكين المطيع، حضورك في قلبه[1] " .

١٢١ اذكر طيلة حياتك ، ذلك المجاهد يوحنا القصير ، العظيم ، الذي ما سمع بأذنيه الظاهرتين من معلمه ـ طوال ثمانية عشر عاماً ـ : " تَخلُص " ، لكنه كان يسمع من الرب كل يوم بأذنيه الباطنيتين ، لا كلمة " تخلُص " ـ التي هي أُمنية غير أكيدة ـ بل : " قد خلُصْت " التي هي قول محدّد أكيد .

١٢٢ هناك بين العائشين في الطاعة من يخدعون أنفسهم . لأنهم إذ يلاحظون الرئيس وتساهله ، يسألونه خِدَماً[2] مناسبةً لهواهم[3] . أولئك فليعلموا أنهم حين ينالون رغبتهم ، يحرمون أنفسهم تماماً من إكليل اعترافهم، لأن الطاعة غريبةٌ بالكلية عن الرياء والمشيئة الذاتية .

١٢٣ هناك من يستلم خدمة ، لكنه إذ يشعر أن آمِره لا يروم في الحقيقة إنجازها ، يستعفي منها . ويوجد آخر يشعر بذلك أيضاً ، لكنه مع ذلك يطيع بغير تردّد . فينبغي أن نسأل من منهما عمل بأكثر تقوى ؟

١٢٤ يستحيل أن ينقض إبليس مشيئته . يقنعك بذلك أن الذين يعيشون بالتواني سواء في أماكن التوّحد أو في دير شركة ، يدومون في مواضعهم . ولتكن التجربة التي تقاتلنا بترك مواضعنا ، برهاناً لنا أن حياتنا فيها مرضية لله . فكوننا نقاتَل علامة على أننا نُقاتِل أعداءنا .

---

(١) قارن (مزمور ٦٨ : ١٠)　　(٢) د : أحكاما　　(٣) ل : تصريحاً لهم باتباع هواهم

القديس أكاكيوس

١٢٥ لست أريد أن أكون كتوماً ظالماً ، مُخفياً ـ بوحشيةٍ ـ عنكم ما ينفعكم إذ أصمت عما لا يجب الصمت عنه .

حدّثني الشهير يوحنا المسمى أبّا سابا ، عن أمور تستوجب السماع . أمّا أن هذا الرجل قد بلغ التجرّر من الآلام ، طاهرٌ من كل كذبٍ ، بريءٌ من كل كلام أو عمل شرير ، فهذا تعرفه أنت أيها الأب القديس[1] من خبرتك به ؛ وهذا ما قصّه عليّ :

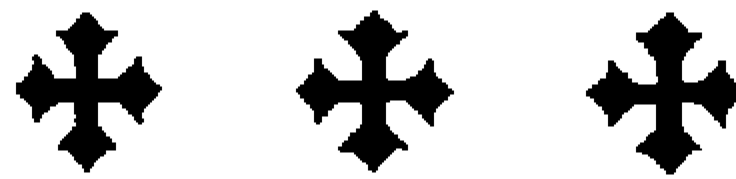
" كان في ديري الذي في بلد آسيا ـ لأن هذا الصدّيق كان من هناك ـ كان شيخٌ ما غير متهذب ومتوان[2] . أقول هذا دون إيجاب الدينونة عليه ، بل لمجرد ذكر الحقيقة . كان لهذا الشيخ ـ ولست أعلم كيف ـ تلميذٌ شاب اسمه أكاكيوس ، بسيط القلب لكنه كان فَطِناً في فكره . قد احتمل من شيخه أموراً هذا مبلغها ، لعلها تبدو للكثيرين لا تُصدَّق . ذلك أنه ما أهانه بشتائم وإهانات فقط ، لكنه عذّبه أيضا كل يوم بالضرب . ولم يكن صبره مجرد استسلام بهيمي . كان يُرى كل يوم شقّياً مثل عبد مُشترى ؛ وعندما كنت أقابله كنت أقول له : " ما حالك يا أخي أكاكيوس ؟ كيف كنت اليوم ؟ " وللحال كان يريني أحياناً عينه مكمَّدة وأحياناً رقبته مجروحة أو رأسه مرضوضة . ولعلمي أنه عمّال فضيلة ، كنت أقول له على الصواب : حسناً جيداً . احتمل فتنتفع " وإذ أقام مع ذلك الشيخ العديم الرحمة تسع

(١) الأب يوحنا رئيس دير رايتو .

(٢) ب : + قد عدم أن يمنع غيظه .

سنين ، مضى إلى الرب . وبعد دفنه في مرقد الآباء بخمسة أيام ، ذهب معلم أكاكيوس إلى شيخ كبير من الشيوخ الذين كانوا هناك، وقال له : " يا أبانا إن الأخ أكاكيوس قد مات " . فإذ سمع ذلك الشيخ قوله، قال له: " يا شيخ صدقني لست أؤمن بهذا ". فقال له : " تعال وانظر ". فقام الشيخ ؛ مسرعاً وبلغ إلى المدفن مع إمام المصارع السعيد ، وصاح كمَن يصيح بحيٍ ، إلى الحي بالحقيقة حتى في رقاده ، وقال: " أيها الأخ أكاكيوس، هل مُتَّ ؟" فأوضح المطيع الصالح ، حفاظه على طاعته حتى بعد موته ، وأجاب الشيخ الكبير بقوله : "يا أبانا، كيف يمكن أن يموت إنسانٌ، كان للطاعة فاعلاً ؟!" عند ذلك استولى الرعب على الشيخ الذي كان فيما سلف[1] معلّمه ، وسقط بوجهه على الأرض مرتاعاً باكياً . ثم طلب من رئيس الدير قلاية متاخمة لذلك القبر . وأقام هنالك فيما بعد بأوفر الورَع والنحيب ، وكان يكرّر للآباء دائماً : إنني ارتكبت قتلاً " .

ويلوح لظني يا أبانا يوحنا ، أن ذاك الذي كلّم الميت ، هو يوحنا العظيم نفسه ، لأن نفسه المغبوطة حدّثتني حديثاً آخر كان يحكيه كأنه عن غيره ، مع أنه كان يخصّه ، كما أمكنني أن أتحقق من ذلك فيما بعد باستقصاء بليغ .



(١) د : كان يدّعي أنه معلمه .

يوحنا سابا ، أو أنطيوخوس

١٢٦ قصَّ عليَّ أيضاً : " وهناك كان آخر في نفس الدير بآسيا من صار تلميذاً لراهب[1] وديع ، هادئ سميح[2] . وإذ أبصر ذاته أن الشيخ يكرمه ويريحه ، ميَّز تمييزاً صائباً أن هذه المعاملة قد تكون مميتة لكثيرين . فتوسّل إلى الشيخ أن يطلق سبيله ـ وحيث أنه كان للشيخ تلميذ آخر معه ، فما كان افتراق ذاك عنه محزناً له كثيراً ـ وهكذا خرج من عنده ؛ وبرسالة من معلمه التحق بدير شركة في البنطس . وفي الليلة الأولى التي فيها دخل ذلك الدير ، أبصر في منامه أناساً كثيرين يحاسبونه . وبعد كمال تلك المحاسبة المريعة جداً ، تأمَّلَ ذاته مديوناً مطالَباً بدين مبلغه مائة رطل ذهب .

فلما استيقظ ، تفطَّن فيما أبصره وقال لنفسه : " أيها المسكين أنطيوخُس ـ لأن هذا كان اسمه ـ يعوزك كثيرٌ لإيفاء دينك " ثم قال : إنني لما أقمت في ذلك الدير ثلاث سنين في طاعة بلا تقسمّ أو ارتياب[3] ، مثقلاً بالمطالب ، محتقَراً مغموماً من الجميع كغريب ـ لأنه ما كان هناك راهبٌ غريب سواي ـ أبصرت أيضاً في نومي شخصاً دافعاً إليَّ براءة سدادٍ عن دفع عشرة أرطال من دَيني . فلما انتبهت وتأمّلت ما رأيته قلت : " إلى الآن فقط عشرة أرطال . فمتى تُراني أنتهي من تسديد باقي ديني ؟ " حينئذ قلت لذاتي : " يا أنطيوخُس المسكين ، الحاجة بك ماسّة إلى تعب أوفر من الأول ، وإلى هوانات تفوق العاديّة " . فبدأت منذ ذلك الحين أتظاهر بالبلاهة ، ومع ذلك دون أن أهمل شيئاً من خدَمتي . فلما رآني آباء ذلك الدير القساة ، في مثل تلك الحال من الخدمة طواعيةً ، ألزموني بأعمال

(١) د : لمتوحّد .
(٢) ب : صموت .
(٣) د : بلا إفراز .

الدير الثقيلة كلّها . فلبثت في السيرة التي هذه الصفة صفتها ثلاث عشرة سنة . ثم رأيت من جديد أثناء نومي الذين جاءوني قبلاً ، وكتبوا لي براءةً كاملة من دَيني . وهكذا حين كان أهل الدير يَغمونني، فبتذكّر دَيني كنت أحتملهم بشهامة ".

هذه الأخبار يا أبانا يوحنا، حدثنيها يوحنا ، الممتلئ حكمة ، كأنها عن آخر غيره ؛ مغيِّراً اسمه إلى أنطيوخُوس لكن الحقيقة أنه كان هو نفسه الذي بشجاعته وجلادته ، مزَّق الصك المكتوب بيده[1] .

١٢٧ لنسمع أي إفرازٍ وُهِبَ لهذا المغبوط من طاعته الكليّة . لما كان في دير القديس سابا ، قصده ثلاثة رهبان شبان مؤثِرين أن يتتلمذوا له . فاستقبلهم بسرور ، واستضافهم على الفور ، مرتاداً أن يريحهم بعد أتعاب سفرهم . وبعد ثلاثة أيام ، قال لهم الشيخ : " هكذا يا إخوتي ، إنني رجل أُغلب من الزنا[2] ، ولست أقدر أن أقبل أحداً منكم " . فلم يتشكك أولئك لأنهم كانوا يعرفون أعمال الشيخ . لكن ، على الرغم من أنهم تضرّعوا إلى الشيخ كثيراً وألحّوا عليه ، ما استطاعوا البتّة أن يستميلوه إلى مرادهم . حينئذ ألقوا ذواتهم على قدميه متوسّلين إليه أن يرسم لهم على الأقل كيف وأين ينبغي أن يقيموا . فأذعن الشيخ لسؤالهم ، وإذ عرف أنهم يقتبلون قوله بتواضع وطاعة ، قال لأحدهم : " الرب يريد يا ولدي أن تقيم في مكان من أماكن الهدوء المنفرد تحت طاعة واحد من الآباء" . وقال للثاني : " اذهب وبِعْ مشيئتك لله ، واحمل صليبك واثبت في دير شركة ، برفقة إخوة ، وسيكون لك بالتأكيد كنزٌ في السموات " . وقال للثالث :

(١) قارن (كولوسي ٢ : ١٤) .

(٢) ل : ميال بالطبيعة للزنا .

" استنشق مع نَفَسك خلواً من انفصال قول الذي قال : « من يصبر إلى المنتهى فهذا سَيخلُص »[1] اذهب وإن كان ممكناً فاختر من ذوي الطبيعة الإنسانية ، أشدّهم فظاظةً[2] ، وأوفرهم صرامةً[3] ليكون مروّضك في الرب. اثبت واشرب كل يوم الاستهزاء والاحتقار كمن يشرب لبناً وعسلاً " فقال ذلك الأخ ليوحنا الكبير : " إن وجدت معلّمي متصرّفاً في التواني ، فماذا أفعل يا أبي ؟ " فأجابه الشيخ : " ولو رأيته زانياً فلا تنتزح عنه . لكن قل في ذاتك " يا صاحب ، اهتمّ بما قد حضرت لأجله[4] " . حينئذ ستبصر الشهوة قد ذبلت فيك ، وكل الصلف زائلاً عنك " .

١٢٨ سبيلنا نحن المؤثرين أن نخاف الرب ، أن نجتهد بكافة قوّتنا ، حذرين ألاّ نكتسب لأنفسنا في ساحة الفضيلة خبثاً من هنالك وشراً ، وعتواً ومكراً ، وفضولاً وغضباً ؛ وهذا يحدث ولا غرابة ! لأنه مادام الإنسان عاميّاً أو نوتيّاً أو فلاحاً ، فلن يتدرّع أعداء الملك عليه سلاحهم لمقاتلته بهذا المقدار ، لكنهم إذ أبصروه قد أخذ الختم الملكي واستلم الترس والسيف والحربة والقوس ولباس الجنديّة ، حينئذ يصرّون عليه بأسنانهم ، ويرتادون بكل قدرتهم أن يهلكوه . لذلك دعنا لا نرقد هاجعين .

١٢٩ رأيت أطفالا وديعين سليمي الطويّة قد جاءوا إلى المدرسة ليتعلّموا حكمةً وأدباً ونفعاً ، فما استفادوا من هناك إلاّ شرّاً ومكراً من اختلاطهم بالصبيان الآخرين . فمن له عقل فليفطن[5] .

---

(١) متى ١٠ : ٢٢ (٢) الفظاظة هي القسوة . (٣) ب : توبيخاً ل : تدقيقاً م : تبكيتاً .

(٤) هذا القول كان يقوله لنفسه القديس أرسانيوس . ل ، د : " ياصاحب لماذا جئت (قارن متى ٢٦ : ٥)

(٥) انظر الحاشية الخاصة بالفقرة ٤ - ٩١ .

١٣٠ يستحيل على الذين يتعلّمون صناعةً ما بكل قلوبهم ، ألاّ يحرزوا كل يوم تقدّماً فيها . إلاّ أن بعضهم يدركون تقدّمهم ، أمّا الآخرون فوفقاً للتدبير الإلهي يجهلونه .

١٣١ المصرفي الماهر لا يفوته أن يحسب كل ليلة ربحه وخسارته عن يومه . لكنه لا يمكنه أن يعرف ذلك بالضبط ما لم يسجّل حسابه كل ساعة في دفتره ، لأن حساب كل ساعة يمكّنه من إجمال حساب كل يوم .

١٣٢ الجاهل إذا عُيِّر أو شُتِم ، يلذعه ذلك ويروم أن يجاوب ، أو للحال يعمل مطانية لموبّخه ، ليس لأجل تواضعه بل لإيثاره أن يكفَّ عنه مكاره التعيير .

إذا ضُربت بلاذع الكلام فاصمت ، هدِّئ نفسك واقتبل المكاوي ، أو بالحري لُهُب التنقية بصبر . وعندما ينتهي الطبيب[1] ، حينذاك تُبْ إليه[2] واستغفره ، لأنه أثناء غضبه قد لا يقبل توبتك .

١٣٣ ينبغي لنا نحن الذين في الجماعات ، أن نقاتل كل ساعة مقابل جميع الآلام ، لكن لنجاهد خصوصاً بإزاء هذين الداءين : وهما نهم البطن ، والغضب ؛ لأنهما يجدان في الجماعة وافر طعامهما .

١٣٤ يوعز إبليس للذين في الطاعة باشتهاء فضائل ممتنعة عليهم ، كذلك يهجس للذين في هدوء الوحدة بفضائل[3] لا تناسبهم .

أمعن النظر في قلوب المطيعين[4] غير المختبرين ، تجد فيها فكراً منخدعاً

---

(١) يرجّح أن القديس باخوميوس الكبير ، هو أول من لقّب الشاتم بلقب الطبيب ، والشتيمة بالكيّ ، وكان في الماضي إحدى وسائل العلاج الطبي الذائعة .

(٢) د : اعمل له ميطانية (الميطانية حرفيّاً : هي التوبة) .

(٣) ل : بأفكار .

(٤) ل : المبتدئين

بشهوة الهدوء ، والصوم الشديد والصلاة الخالية من الطياشة ، والتحرّر الكامل من العُجب ، والتذكّر الدائم للموت والخشوع المستمر ، والسيادة التامة على الغضب ، والصمت العميق ، والطهارة الفائقة على الطبيعة فإذا حُرموا بتدبير إلهي من هذه كلها في مبادئ تزهّدهم ، يندفعون متهوّرين نحو سيرة أخرى ، مخدوعين من العدو . وإذ يحثّهم الشرير على طلب هذه المحامد قبل أوانها ، يعوقهم عن الحصول عليها في أوانها بثباتهم . ويطوّب العدو عند المتوحدين في السكون ، إضافة الغرباء ، والخدمة ، والمودّة الأخوية ، وحياة الشركة ، والعناية بالمرضى ؛ حتى يجعل الخَدّاعُ هؤلاء مثل أولئك جزعين غير صابرين .

١٣٥ إن ممارسة هدوء الوحدة بمعرفة ، هي بالحقيقة لفرادى من الرهبان قليلين ؛ وهم الذين اقتنوا العزاء الإلهي لتسليتهم في أتعابهم ، ولمعاونتهم في نضالاتهم .

١٣٦ بحسب طبيعة أوجاعنا ، ينبغي أن نتفطّن في انتخاب من ينبغي علينا الخضوع له :

فإن كنت ميالاً إلى الفسق ، اختَر لك ، مروِّضاً ناسكاً لا يسمح بأطعمة معزّية ، بدلا من أن يكون صانعاً للعجائب ، مستعداً كل حين لاستقبال كل أحد وتقديم المائدة .

إن كنت شامخ العنق مترفّعاً ، ليكن لك مروّضٌ صارم[1] لا يتسامح ، ولا يكونن وديعاً متعطّفاً . لا نطلبن معلّمين ذوي علم بالمستقبلات ، أو ناظرين الخفايا . بل لنطلب بالحري معلّمين يكونون قبل كل شيء متواضعين تماماً ، وملائمين من جهة خُلقهم ، وموضع إقامتهم لمداواة أسقامنا .

(١) ب ، م : حاد .

١٣٧ ليكن لك مثالاً ، ذلك الصدّيق أبّا كير الذي قدَّمنا ذكره ، واتّخذ مذهبه الحسن لممارسة الطاعة : أن تفتكر دائماً أن رئيسك يختبرك ، فما تضلّ عن الطريق أبداً .

١٣٨ إذا لبث رئيسك يوبّخك بغير توقّف، وأنت بذلك تزداد إيماناً به وحبّاً له ، فاعلم آنذاك أن الروح القدس قد سكن في نفسك سكنى غير منظورة ، وأن قوة العلي قد جلّلتك .

١٣٩ لكنك إذا احتملت الشتائم والهوانات بشهامة ، فلا تفتخر ولا تفرح ؛ بل الأولى بك أن تنوح ، لأنك أتيت عملاً يستوجب سبّاً وكدَّرت عليك نفس مرشدك .

١٤٠ لا تدهش فيما أقوله لك ؛ فإن موسى نفسه يؤيّدني : إنه أفضل لك أن تخطئ إلى الله ، من أن تخطئ إلى أبيك لأننا إذا أغضبنا إلهنا ، يقتدر معلّمنا أن يصالحنا معه ؛ أما إذا كدَّرنا معلّمنا فلن يكون لنا بعد من يتوسّط ليصالحنا . لكنه[1] يبدو لي أن الحالتين متساويتان .

١٤١ ينبغي أن نفحص بعناية ونميّز وننتبه ، لنعرف متى يجب علينا إذا اتُّهمنا لدى راعينا ، أن نحتمل شاكرين صامتين ، ومتى ينبغي علينا أن نخبره بالحقيقة ونوضّحها .

يلوح لي أنه ينبغي لنا أن نصمت في كل ما يولّد لنا هواناً ، فهذا وقت ربح لنا ومنفعة . أما في الحالات التي فيها يخصّ الاتهام غيرنا ، فينبغي علينا أن نوضّح الحق ، لكي نحتفظ برباط الحب والسلام غير محلول .

---

(١) قارن (خروج ٣٢ : ١١ - ١٤ ، ٣٠ : ٣٥ ؛ وعدد ١٦ : ١٦ - ٣٥) .

١٤٢ جميع الذين طفروا بعيداً عن الطاعة، قادرون أن يخبروك بنفعها، لأنهم حينذاك فقط عرفوا ، في أيّة سماء كانوا مقيمين .

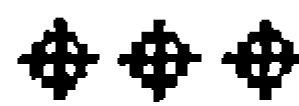
١٤٣ من يعدو إلى الله وإلى النجاة من الآلام ، فكل يومٍ لا يُثلب فيه يعتبره خسارة عظيمة[١] .

١٤٤ كما أن الأشجار إذا هَزتها الرياح تُعمِّق أصولاً راسخة ، كذلك المقيمون في الطاعة يقتنون أنفسهم قوية لا تتزعزع .

١٤٥ من كان مقيماً في هدوء الوحدة ، وإذ عرف ضعفه عاد فباع للطاعة نفسه ، فذلك كان أعمى ، وعاد فأبصر المسيح بغير عناء .

١٤٦ قفوا ، قفوا ، وأقول أيضاً قفوا يا إخوتي المجاهدين ؛ اركضوا ، واسمعوا الحكيم هاتفاً من أجلكم " إن الرب امتحنهم امتحان الذهب في الكور ، أو بالحري في دير شركة ، ومثل ذبائح محرقة في حضنه[٢] " له المجد والقدرة الأبدية ، مع أبيه الأزلي والروح القدس المسجود له آمين .

هذه الدرجة تساوي في عددها عدد المبشّرين ، فواصل أيها المجاهد سعيك
بلا خوف . الدرجة الرابعة ؛ على مثال الصليب بأربعة أركان ،
فيا من ارتقيتها لا تَملّ من الطاعة[٣] ، وكن مصلوباً
عن جميع مشيئاتك[٤] .



(١) يُثلَب : يُلام ، يُغتاب ، يُسَب ـ نفس هذا القول قاله القديس ماراسحق السرياني غير مرة في ميامره الشهيرة .

(٢) حكمة ٣ : ٦ . (٣) الصليب هو الحد الأقصى للطاعة : " فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً ، الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب مساواته لله غنيمةً ، لكنه اخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس . وإذ وُجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب " (فيلبي ٢ :٥ ـ ٨).

(٤) "الدرجة الرابعة . . . مشيئاتك " : ب فقط .

الدرجة الخامسة

مثابرة التوبة الحقيقية

١ سبق يوحنا بطرس في جريه[١] : لذلك تـأتي الطاعـة قبـل التوبـة لأن الذي وصل أولاً هو مثال الطاعة[٢] ، أما الآخر فمثال التوبة[٣] .

٢ * التوبة هي تجديد المعمودية .
* التوبة هي ميثاق مع ا لله لعيشة ثانية .
* التائب هو مشتري التواضع .
* التوبة هي فقد الثقة على الدوام في راحة الجسد .
* التوبة فكر إدانة الذات . اهتمام بالنفس خالٍ من الاهتمام[٤] .
* التوبة هي ابنة الرجاء ، وجحد انعدام الرجاء .
* التائب مجرم لا يخجل .
* التوبة هي مصالحة الرب بعمل الصالحات المضادة للخطايا[٥] .
* التوبة تطهيرٌ للضمير[٦] .
* التوبة صبر طوعي على جميع الضوائق .
* التائب هو مُبدِع العقوبات لنفسه .
* التوبة ضغط[٧] قوي على البطن .
* التوبة توبيخ للنفس محسوسٌ بقوة .

---

(١) يوحنا ٢٠ : ٤ (٢) انظر (لوقا ٢٢: ٦١، ٦٢) (٣) انظر (يوحنا ١٣ : ٢٣)

(٤) أي اهتمام بحالة النفس الروحية ، ورفض الاهتمام بسواها . (٥) د : + المرتكبة .

(٦) قارن (عبرانيين ٩ ١٤) . (٧) ل : اضطهاد

٣ بادروا واقتربوا . تعالوا واسمعوا ، فأخبركم يا كافة الذين قد أغظتم الله فأعلّمكم[١] . اجتمعوا وانظروا ما أظهره لنفسي لأجل بنيانكم . ينبغي أن نرتّب المكانة الأولى والمجد الأسمى للحديث عن الفعلة المهانين ، بل المكرَّمين . سبيلنا نحن الذين قد كابدنا سقطةً مفاجئة خسيسة أن نسمع ونحفظ ونعمل[٢] .

انهَضوا واجلسوا يا من طرحتكم سقطاتكم إلى الأرض . اصغوا يا إخوتي إلى قولي . أميلوا آذانكم إليّ يا جميع المؤثرين أن تتصالحوا مع الله من جديد بصادق رجعتكم .

٤ سمعت أنا الضعيف عن السيرة السامية للمقيمين في الدير المنفرد المسمى "الحبس" ـ المرتَّب تحت يد نور الأنوار ، ذلك الرئيس المقدَّم ذكره ـ، وعن تذلّلهم المستغرَب . حين كنت هنالك ، توسلّت إلى ذلك البارّ أن يسمح لي أن أزور ذلك المكان فأجاب الكبير إلى توسّلي ، إذ كان ما يشاء أبداً أن يغمّ نفساً البتّة .

٥ فلما حصلت في دير التائبين ، ومحلّة النائحين الحقيقية ؛ رأيت بالحقيقة ـ إن لم يكن في قولي جسارة ـ أفعالاً لم ترها أبداً عينُ إنسان متوان ، ولا سمعتها قط أذنٌ متهامل ولا طلعت على قلب متكاسل[٣] ؛ أفعالاً وألفاظاً مقتدرةً أن تقتسر الله اقتساراً ؛ وأشكالاً من شأنها أن تُحني محبته للبشر سريعاً .

٦ رأيت بعضاً من أولئك الذين تحت التبعات ، المجرمين بل الأبرياء ؛

(١) قارن (مزمور ٦٦ : ١٦)　　(٢) د : ونقتدي بهم　　(٣) قارن (١ كو ٢ : ٩)

رأيتهم وقوفاً تحت السماء ما طال ليلهم ، حتى الصباح، أرجلهم لا تتحرّك، وإذ ينغلبون للنوم يقتسرون طبيعتهم اقتساراً يُرثى له ، ومع ذلك ما كانوا يمنحون ذواتهم من الراحة صنفاً ، بل كانوا ينتهرون ذواتهم ويظلّون ساهرين ، معاقبين أنفسهم شاتمين .

٧ غيرَهم رأيت ، يظلّون رافعين نحو السماء أعينهم، في هيئةٍ يُرثى لها ، يستدعون من هناك المعونة بعويلهم وأنينهم[١] .

٨ آخرون كانوا يقفون في الصلاة كاتفين أيديهم وراء ظهرهم مثل الجناة ، يُحنون إلى الأرض وجوها متكدّرة ؛ قد حكموا على أنفسهم أنهم لا يستحقون أن يرفعوا إلى السماء ألحاظهم ، وفي اكتئاب أفكارهم وضمائرهم ، ما كان لهم ما يقولونه ، أو يبتهلون به ، ولا يجدون كيف أو بماذا يوجّهون تضرعهم ، لكنهم ما استطاعوا أن يقدّموا للخالق سوى نفساً بكماء، وعقلاً فاقداً صوتاً ، مملوءاً ظلاماً وقنوطاً[٢] يسيراً .

٩ غير هؤلاء وأولئك ، مَن جلسوا على الأرض في مسوح ورماد ، ساترين وجوههم بين رُكَبِهم ، يقرعون الأرض بجباههم .

١٠ آخرون كانوا يقرعون دواماً صدورهم ، يستغيثون من سالف حياتهم وحال نفسهم ، منهم من يبلّون الأرض بعبراتهم ؛ ومنهم من إذا امتنعت عليهم الدموع كانوا يلطمون ذواتهم . بعضٌ كانوا يولولون على أنفسهم كما تولول الثكلى على وحيدها ، لا يستطيعون أن يحتملوا كربة قلوبهم ، وبعضٌ كانوا يزأرون في القلب منهم ، يمنعون أن يتجاوز حَلْقَهم

---

(١) قارن (مزمور ١٢٣)

(٢) القنوط هو اليأس أو الإياس

صوتُ أنينهم؛ وحين لا يمكنهم بعد أن يضبطوه تفلت منهم فجأةً صرخاتهم.

١١ أبصرت هنالك بعضاً ، من سلوكهم وأفكارهم كأنّهم ساهون ، زائغون عن ذواتهم . وبكثرة اكتئابهم وقلقهم صاروا مثل الصُمّ في ظلام دامس ، ذاهلين غافلين عن كل ما يخصّ هذه الحياة ، غائصة عقولهم في أعماق التواضع والتذلّل ، فقد أحرقوا بنار الاغتمام دموع أعينهم .

١٢ عاينت آخرين جلوساً منجمعةً عقولُهم ، مُطْرقين إلى الأرض يحركون الرأس منهم تحريكاً لا يهدأ . يزأرون زئير السباع ويُصعدون من صميم قلوبهم إلى أسنانهم تأوّهاتِهم . وقوم في رجائهم الحسن كانوا يستميحون صفحاً كاملاً ، وغيرهم من تواضعٍ لا يوصف حكموا أنهم غير مستأهلين عفواً ، هاتفين أن ليس في استطاعتهم أن يتبرّروا لدى الله . وقومٌ كانوا يتوسّلون أن يُعاقَبوا هاهنا ويُرحَموا هنالك . وآخرون مسحوقين من ثقل ضمائرهم كانوا يقولون بأخلص سريرةٍ : " نَجنا من العذابات الدهرية، دون أن نؤهَّل للملكوت ، وهذا يكفينا " .

١٣ رأيت هناك نفوساً ذليلة منسحقة بالتوبة ، رازحةً منحنية تحت نيرها ، مقتدرةً أن تحرّك الحجارة الصماء عينها إلى الرحمة ، بنغماتهم وصيحاتهم الهاتفة إلى الله ، لأنهم كانوا يقولون مطرقين إلى الأرض : " إنّا عارفون ، إنّا عارفون أننا أهلٌ لكل عقاب وعذاب وذلك بالعدل ، إذ ليست فينا كفاية لإيفاء كثرة ديوننا ، ولو استدعينا المسكونة كلّها للبكاء معنا . وإنما سؤالنا الوحيد ، وطلبتنا الوحيدة وتضرّعنا الوحيد ، ألاّ توبّخنا بغضبك ، ولا تؤدّبنا بغيظك[١] ، لا تعاقبنا بعدل حكمك لكن بوفور

(١) مزمور ٦ : ١

إشفاقك . يكفينا أن ننعتق من كثرة وعيدك ، ومن تعاذيب خفيةٍ لا يعبَّر عنها ، لأننا ما نستجرئ أن نستميحك صفحاً مطلقاً . لأن كيف نستطيع ذلك نحن الذين لم يحفظوا وعودهم ، بل دنّسوها بعد تعطفك الأول عليهم وصفحك عنهم ؟ " .

١٤ هنالك بالحقيقة يا أحبَّتي ، كان يمكن أن يعايَن تحقيقُ كلمات داود النبي بوضوح ؛ فأناسٌ يكابدون المشقة منحنين إلى نهاية عمرهم ، يسلكون مكتئبين طول نهارهم ، قاحت جروح جسمهم بالنتن[1] ، دون أن يهتموا بها ناسين أن يأكلوا خبزهم ، يمزجون شراب الماء ببكائهم ، ويخلطون بالخبز تراباً ورماداً ، عظامهم كانت ملتصقةً بلحمهم ، ومثل العشب قد يبسوا[2] .

وما كان يُسمَع منهم لفظ سوى هذا : " ويلي ويلي " ، " ويحي ويحي " ، " بعدلٍ بعدلٍ " ، " أغضِ عنا يا سيد . أغضِ عنا ". والبعض كانوا يقولون : " ارحمنا ارحمنا " وآخرون كانوا يقولون بأكثر نحيب : " اغفر لنا يا سيدنا. اغفر لنا إن أمكن " .

١٥ وكان يُرى في أولئك ألسنةً ملتهبة خارجة من أفواههم كألسن الكلاب . وكان بعضهم يعرّضون أنفسهم لحرارة الشمس اللافحة ، والبعض كانوا يعذّبون ذواتهم بالبرد . ومنهم من كانوا يذوقون قليلا من الماء بمقدار ما يجعلهم لا يموتون من العطش ثم يكفّون . ومنهم من كانوا يتناولون يسيراً من الخبز ، ويرمون الباقي بعيداً عنهم ، قائلين إنهم غير مستحقّين طعام الناطقين ، بما أنهم قد عملوا أعمال البهائم .

---

(١) مزمور ٣٨ : ٥، ٦، ٧ (٢) مزمور ١٠٢ : ٤ - ١٢

١٦ هل كان يُرى من أولئك ضحك ، أو كلام باطل أو غضب أو غيظ ؟ إنهم ما كانوا يعرفون حتى أنه يوجد بين الناس غضب ، لأن نوحهم[١] قد أباد بالكمال الغضب منهم . هل كان بينهم مجادلات ، أو شئٌ من طربٍ ، أو من كلام باطل ؟ أو اهتمام جسدي[٢]، أو قليلٌ من عُجب أو رغبة في راحة ؟ هل كانوا يفكرون في نبيذ ؟ أو أن يذوقوا فاكهة ؟ أين كان لهم عزاءٌ من قِدرٍ أو طعوم لذيذة ؟ إن الرغبة في هذه كلها كانت قد انطفأت تماماً عندهم .

هل كان يوجد بينهم أقل اهتمام بشيء أرضي ، أو إدانةٌ لأحدٍ من الناس ؟ كلاّ البتّة .

١٧ هكذا كانت التعبيرات والصيحات عند أولئك يهتفون بها إلى الرب : فبعضهم قارعين صدورهم شديداً كأنهم واقفون عند باب السماء ، كانوا يقولون لله : " افتح لنا أيها الديّان افتح لنا . إننا بخطايانا قد أغلقنا الباب على أنفسنا ، افتح لنا " . آخرون كانوا يقولون : " ليُضِء علينا نور وجهك ، فسنخلص[٣] " . وآخر يقول : " فلتدركنا سريعاً رأفتك ورحمتك يا ربنا[٤] فإنّا قد هلكنا . قد يئسنا . قد فنينا بالكلية . " وغيره يقول : " أضِء على الذليلين الجالسين في الظلام وظلّ الموت[٥] " . وكان البعض يقولون : " هل سيُظهِر الرب نور وجهه من جديد علينا ؟[٦] " وآخرون : " أتُرى جازت نفوسنا الدّيْن الذي لا نِهاية له[٧] " وآخر يقول : " أيتحرك الرب أخيراً بالرحمة علينا؟[٨] أسنسمعه قائلا لنا : " أيها المربوطون بأغلال

(١) د : خشوعهم (٢) د : اهتمام بالجسد (٣) مزمور ٨٠ : ٤ (٤) مزمور ٧٩ : ٨
(٥) لوقا ١ : ٧٩ (٦) مزمور ٦٧ : ١ (٧) مزمور ١٢٤ : ٥ (٨) قارن (قضاة ٢: ١٨)

لا تنحلّ ، اخرجوا[1] " وللذين في جحيم التوبة : قد غُفِـرَ لكـم ؟ هـل بلـغ ضجيجنا أذنَيْ ربنا ؟ "

١٨ كلهم كانوا يعيشون ناظرين دائماً الموت أمام أعينهم ، يقولـون : " تُرى ماذا سيكون لنا ؟ ما هو الحكم علينا ؟ مـاذا ستكون آخرتنـا ؟ هـل يكون لنـا إنقـاذ ؟ أيوجـد صفـحٌ لمن في الظلمة ، للبائسـين المجرمين ؟ هـل اقتـدرت صلاتنـا أن تبلـغ إلى حضـرة الـرب ، أم بـالحري رُفضـت فـارتدّت بالعدل مستخزية ؟ وإن كانت قد دخلت ؟ كم نَفَعَتنا ؟ كم استعطفَتْه لنـا ؟ كم اقتدرت وفعلت ؟ لكنها إذ قد خرجت من أفواهٍ وأجسام نجسة ، فلعلّها لم تتأيّد بكثير من القدرة . أتُراها صالحتنا مع قاضينا تماماً ، أم اقتـدرت علـى ذلـك جزئيـاً ؟ أتُراهـا استـمدّت صفحـاً لنصـف جراحتنـا ، لأنهـا بالحقيقـة جراحات فادحة محتاجة أعراقاً كثيرة وأتعاباً ومعانـاةً جزيلـة ؟ أتُـرى اقـترب إلينـا ملائكتنـا الحـافظون[2] أم مـا زالـوا نـازحين عنـا ؟ لأن أولئـك مـاداموا بعيدين عنا ، فكل أتعابنا باطلة وغير نافعة ، ذلك لأن صلاتنا ليس لها قـدرةٌ على الصعود ، ولا جنـاحي طهـارة للوصـول إلى الـرب ، إذا لم يقـترب منـا ملائكتنا ويقدّموها لديه .

١٩ البعض كانوا يبوحون غالباً بشكوكهم إلى إخوتهم فيقول أحدهـم لصاحبه " أتظن أننا سنصل إلى شئ ؟ هل ننـال مطلوبنـا ؟ أتـراه يقبلنـا مـن جديد ويفتح لنا؟ " فيجيبه آخر: " من يعلم - كما قال إخوتنا أهل نينوى - لعل الله يندم[3] ويخلّصنا حتى من عذاب هذا مقداره . علـى أي حـال دعنـا

(١) قارن (أشعياء ٤٩ : ٩)   (٢) ب : حافظونا   (٣) يونان ٣ : ٩

نعمل ما هو علينا ، فإن يفتح لنا ، فحسناً . وإلاّ ، فمباركٌ الرب إلهنا الـذي في عدله أغلق علينا ، لكنّا سنظلّ قارعين إلى نهاية عمرنا فلعلّه في صلاحـه ، لكثرة وقاحتنا ولجاجتنا يفتح لنا "[1] .

ولهذا كانوا يُشجِّعون بعضهم بعضاً ، ويقولون : " فلنركض يا إخـوة ، لنركض بكل قوانا . إذ قد تخلفنا عن رفقائنا الصالحين . ينبغـي أن نعـدو ولا نشفقنّ على جسمنا هذا الوسخ الشرير لكنَ ، بل لنقتله كما قتلنا .

٢٠ وهذا ماكان شأن أولئك الجناة المغبوطين ، كـان مـن ينظـر إليهـم يرى رُكَبهم يابسة قاسيةً مـن كـثرة السـجدات[2] ، وعيونهـم ذائبـةً غائصـة بعمـقٍ داخـل تجاويفهـا عادمـة أشـفارها[3] ، وخدودهـم متجرِّحـةً بســخونة دموعهم، ووجوههم ذابلة صفراء لا تتميز عـن وجـوه الموتـى ، وصدورهـم داكنة مزرّقةً من قرعها ، تبصق دماً من لكمها لكمات متواترة .

أين كـان لأولئك ترتيـب فـراشٍ[4] أو نظافـة ملبـوس ؟ الكـلّ كــانت ملابسـهم ممزّقـة وسـخة يسـترها القمـل . مـا هـو شـقاء الممسوسـين[5] ، أو النادبين موتاهم ، بجانب شقاء أولئك ؟ ما هـو ضنـك المخلّديـن في النفـي أو عقوبات سافكي الدماء بالنسبة إلى ضَرّاء أولئك ؟

بالحقيقة إن تعذيب هؤلاء الكرهى ، ليس شيئاً بالمقارنة إلى معاناة أولئك الطوعية . أسألكم يا إخوتي ألا تحسبوا ما وصفته أحدوثة .

٢١ لقد كانوا يتوسلون غالباً إلى قاضيهم ، أعني راعيهم ، ذلك الملاك

(١) لوقا ١١: ٨
(٢) د : المطانيات
(٣) شعر الجفن
(٤) د . ل: رقاد على أسرّة
(٥) أي الذين عليهم أرواح شريرة .

بين الناس ، أن يوثق أرجلهم في المقطرة[1] ، وأن يقيِّد أيديهم وأعناقهم بالأغلال ، ولا يحلّهم منها قبل أن يقتبلهم قبرهم ، بل ولا يفكّهم منها حتى عند قبرهم .

٢٢ لأنني لست أريد أن أُخفي عنكم تذلّل أولئك المغبوطين بالحقيقة ، الذي يحرّك إلى الرثاء ، وتوبتهم ومحبتهم لله ؛ فمتى كان أحد أولئك المواطنين الصالحين لأرض التوبة يوشك أن يمضي إلى ربّه ويمثل لدى منبر النّزاهة ، عندئذٍ كان يتوسل إلى الرئيس ـ بلسان القيِّم عليهم ـ بيمين ، ألاّ يؤهِّله لدفنٍ إنساني ، بل أن يُلقَى في مجرى النهر ، أو أن يُطرَح فريسةً للوحوش . وغالباً ما أذعن مصباح الإفراز لهذا المطلب ، وأمر أن يُطرَحوا خارجاً بغير ترتيل أو تكريم[2] .

٢٣ أيّ منظر محزن يستحق الرثاء ، كان منظر أولئك في ساعتهم الأخيرة . لأن أولئك الرفقاء في العقوبة ، حين كانوا يشعرون أن أحدهم سوف يسبقهم في انقضاء الأجل ، كانوا يحيطون به وهو بعد حاضر الذهن ، ويسألونه بخُلُق أحق بالترثّي وبكلام كئيب، عطاشى نائحين هازّين رؤوسهم، قائلين له متحرِّقين بالحنوّ عليه : " ما حالك يا أخانا وقريننا في الإجترام ؟ ماذا عندك لتقوله ؟ ماذا تؤمِّل وماذا ستنال ؟ أوصلتَ من أتعاب هذا مقدارها إلى مطلوبك ، أو ما قدرت على ذلك ؟ هل فُتِح لك الباب أم ما تزال تحت الحكم ؟ أبلغت مرادك أم ما نلتَ بعد مطلوبك ؟ هل حصَّلت

(١) قارن : أعمال الرسل ١٦ : ٢٤ .

(٢) حدث أمر مشابه لهذا عند وفاة أحد رهبان القديس باخوميوس ، كذلك في قصة جار البستاني في بستان الرهبان ص ٢٦٤ .

الإيقان بخلاصك أم مازال رجاؤك غامضاً ؟ هل تسلّمت عِتقك أم أن فكرك ملبَّدٌ بغيوم الشك؟ أأحسست باستنارةٍ ما في قلبك أم ما يزال مظلماً خجلاً؟ هل سمعت صوتاً في داخلك ، " ها أنـت قـد برئـت "[1] أو " مغفـورة لـك خطاياك "[2] أم " إيمانك قد خلّصـك"[3] ؟ أم على العكس سمعت صوتاً كهذا : " ليرجع الأشرار إلى الجحيـم "[4] و " اربطـوه مـن يديـه ورجليـه واطرحوه في الظلمة الخارجية "[5] و "لِيُقْصَ المنافق لئلا يعاين مجد الرب"[6] ماذا تقول بالصدق يا أخانا ؟ نتضـرّع إليـك أن تخبرنـا لنعلـم نحن أيضاً أيّـة نهاية تنتظرنا . لأن زمانك منذ الآن قـد مضـى ، ولـن تجد إلى الدهـر زمانـاً غيره" . فكان بعض الراقدين يجيب هكـذا : " مبـارك الـرب الـذي لم يُبعِـد صلاتي ولا رحمته عني "[7] وبعضهم كـان يقـول : " تبـارك الـرب الـذي لم يدفعنا فريسةً لأسنانِهم "[8] وآخرون كانوا يقولون بتوجّع : " أترى سـتعبر أنفسنا ماء[9] أرواح الهواء[10] الذي لا يُعْبَر ؟ " . إذ لم يكونوا واثقين لكنهم كانوا يترقّبون ما يكون في تلك المحاسبة . آخرون كانوا أيضاً باكتئـاب أكـثر يجيبون قائلين : " الويل لنفس لم تحفـظ نذرهـا غـير منتهَـك . أَجَـلْ ، إنه في هذه الساعة فقط ستعرف ما قد أُعِدّ لها " .

٢٤ فإذ أبصرت أنا هذه الأفعال بين أولئك ، وسمعت أقوالهم أشـرفت على الإياس إلاّ قليـلاً ، عندمـا نظـرت ونِيَـتي[11] وقايسـتها بجميـع مـا كـان يكابده أولئك .

---

(١) يوحنا ٥ : ١٤ (٢) متى ٩ : ٢ (٣) مرقس ٥ : ٣٤ (٤) مزمور ٩ : ١٧

(٥) متى ٢٢ : ١٣ (٦) أشعياء ٢٦ : ١٠ (٧) مزمور ٦٦ : ٢٠ (٨) مزمور ١٢٤ : ٦

(٩) مزمور ١٢٤ : ٥ (١٠) قارن (أفسس ٢ : ٢ ؛ ٦ : ١٢) (١١) أي تكاسلي .

أيّ مكان وأيّة مساكن كانت لأولئك ، لقد كـانت مظلمـة تماماً كلهـا عفِنة وسِـخة ، نتنـة الرائحـة . فبـالحق كـان الموضـع يُسـمَّى حبساً ومعتقـل التائبين[1] ، حتى أن معاينة المكان فقط كانت للتوبة والنـوح معلِّماً . إلاّ أن مـا لا يُطـاق عنـد قـوم ، يصـير عنـد الذيـن سـقطوا مـن الفضيلـة والـثروة الروحانيـة سـهلاً ومحتمـلاً . أَجَـلْ ، إنّ النفـس الـتي عَدِمـت دالتهـا الأولى وسـقطت مـن رجـاء بلـوغ زوال أسـقامها ، وفضّـت خـاتم عفتهـا وتركـت للسـلب كـنز مواهبهـ ، واغـتربت عـن العـزاء الإلهـي ، وجحـدت وصايـا سيِّدها[2] ، وأطفأت نـار دموعهـا الجيـدة ، وأمسـت مجروحـة مطعونـة على الدوام بتذكّر كلِ هذه ، لن تقبل فقط أن تمارس طواعية الأتعاب الـتي تقَدَّم ذكرها ، بل أيضاً تعزم على تسليم ذاتِها للموت بالنسك عن تقـوى ، فقـط إذا كان فيها بقيّة من شرارة حب الرب أو مخافته .

هكذا بالحقيقـة كـان أولئـك المغبوطـون . وإذ حفظـوا في فكرهـم هـذه كلها، واعتبروا من أي علوٍّ للفضيلة قد سقطوا ، كانوا يقولون : " تذكّرنـا الأيام الأولى ، ونار حرصنا السالف[3] "، وغيرهم كانوا يصرخون إلى ا لله : " أين مراحمك الأُوَل يارب ، مراحمـك الـتي أوضحتهـا لأنفسـنا في حقـك ؟ اذكر تعييرات عبيدك وأتعابَهم[4] " ، وآخر كان يقـول : " ليتـني أُرَدّ كمـا في الشهور السالفة والأيام التي حفظني ا لله فيها ، حين كـان سـراج نـوره يلمع فوق رأسي ، فوق قلبي[5] " .

٢٥ كيف كانوا يتذكرون فضـائلهم الأولى الـتي أحكموهـا ويندبونَهـا

---

(١) ل : المجرمين (٢) د : ونقضت عهدها مع الرب (٣) مزمور ١٤٣ : ٥
(٤) مزمور ٨٩ : ٤٩ ، ٥٠ (٥) أيوب ٣٩ : ٢ - ٣

كأبناء مفقودين ، قائلين : " أين نقاء صلواتنا ودالّتها ؟ أين دموعنا الحلوة بدل هذه العبرات المرّة ؟ أين رجاء العفّة الكاملة والطهارة التامة ؟ أين انتظار زوال الأسقام المغبوط ؟ والثقة التي كانت لنا في راعينا ؟ أين فاعلية صلاته لأجلنا ؟ ضاعت كل هذه وزالت كأنها لم تظهر ، كل هذه تغيّبت وكأنها لم توجد " .

٢٦ كان بعضهم يتمنّون أن يُجَنّوا ، وبعضهم يتضرعون أن يصيبهم الصرع[١] ، ومنهم من كانوا يسألون أن يفقدوا أبصارهم وأن يصيروا إلى حالة توعز إلى الجميع بالرثاء لهم ، وغيرهم كانوا يبتهلون أن يصيروا مشلولين[٢] ؛ إن كانت هذه تجنّبهُم مقاساة العذابات الآتية .

أما أنا يا أحبائي ، فكنت أنسى ذاتي بمعاينة خشوع أولئك ، وإذ كان عقلي داهشاً ؛ ما استطعت أن أضبط ذاتي .

٢٧ بعد أن مكثتُ في ذلك السجن ثلاثين يوماً وعُدْتُ ـ أنا الناقص صبره ـ إلى الدير الكبير حيث الراعي العظيم . فإذ أبصرني وتأمّل حالي ، متغيّراً بجملتي مشدوهاً ، أدرك بحكمته علّة تغيّري . وقال لي : " حسناً يا أبانا يوحنا ، هل عاينت جهادات الفعلة الصالحين ؟ " فأجبته : " عاينتُه يا أبتِ واستعجبته ، وطوّبت الذين سقطوا وناحوا ، أكثر من الذين ما سقطوا ولا ناحوا ، لأنهم بسقطتهم قد نَهضوا نَهضةً لا يدانيها بعدُ خطرٌ " . فقال لي : " إن الأمر هكذا حقاً " .

٢٨ حدثّني ذلك الفم غير الكاذب وقال : " منذ عشر سنين ، كان

(١) ب : الجذام

(٢) د : + أو طريحي الفراش

عندي هنا أخ ممتلئٌ بالحماس عَمّالٌ بهذا المقدار ، وإذ رأيته في حرارة روحه هكذا ، كنت أرتعد من أجله خائفاً عليه من حسد إبليس ، لئلا في كثرة عَدْوِهِ تعثُرَ بحجرٍ رجلُه . كما يحدث عادةً للذين يسعون سعياً حاداً سريعا . وقد حدث ذلك فعلاً ، فقد أتاني ذات مساء متأخراً، وأراني جرحه عارياً ، وطلب ضماداً وابتغى كيًّا وارتجف ارتجافاً .

ثم إذ كان أهلاً للترفّق ، ورأى طبيبَه لا يميل إلى استعمال دواء لاذع ، ألقى بنفسه على الأرض وأمسك بقدميَّ وبلّلهما بدموع غزيرة ، واستماحني حكماً عليه بذلك الحبس الذي عاينت ، وصاح : " إنه مستحيلٌ ألاّ أذهب إلى هناك ، إنه مستحيل ! " وفي النهاية أجبر طبيبه محوِّلاً تحنّنه عليه إلى جفاوة ، وذلك أمر نادر في المرضى ومُعْجِز . وسريعاً توّجه إلى التائبين وصار شريكهم، متوجعاً معهم . لقد جرح قلبَه الغمُّ الناتج عن حبّه لله كأنه سيف . وفي اليوم الثامن سافر إلى ربه مستميحاً ألاّ ينال دفناً . لكنني أحضرته إلى هاهنا ، ودفنته مع آباء الدير كما كان يستحق ، لأنه بعد أسبوع من عبوديته في اليوم الثامن صار حراً[1] . وهناك واحدٌ عرف هذا السر بتأكيد أنه لم ينهض من فوق رجليّ الحقيرتين الوسختين ، قبل أن نال رضا الله عليه . وليس ذلك بعجيب، لأنه اتخذ في قلبه إيمان تلك الزانية[2] . وبنفس الثقة ، بلَّ قدميَّ الذليلتين[2] . حقاً قال الرب : " إن كل شئ مستطاع لمن يؤمن[3] " .

٢٩ رأيت نفوساً نجسةً هائمة بحب الأجساد أشد هيام[4] وإذ انتهت

---

(١) تثنية ١٥ : ١٢

(٢) لوقا :٧: ٣٧ - ٥٠

(٣) مرقس ٩ : ٢٣

(٤) الهيام : هو الجنون من العشق

بهن تجربة العشق إلى التوبة ، نقلن إلى الرب عشقهن . وإذ ارتفعن في الحين فوق كل خوف ، طَعَنَّ أنفسهن بحب الله بغير شبع . فلهذا السبب قال ربنا عن تلك الزانية العفيفة : " لأنها أحبَّت كثيراً " ولم يقل : " لأنها خشيته كثيراً " واستطاعت بسهولة أن تطرد حُباً بحب .

٣٠ إنني أدرك تماماً أيها الأصدقاء الصالحون ، أن جهادات أولئك المغبوطين التي وصفتها ستبدو للبعض عديمة التصديق ، ولغيرهم صعبة التصديق ، ولآخرين تنتج إياساً . أما الرجل الشجاع فسوف يستمدّ من هذه الأمثلة منخاساً وسهماً من نار ، ويمضي حاملاً في قلبه غيرةً . أمّا من هو دون الشجاع حرارةً فسيتحقق بواسطتها من ضعفه ، وإذ يقتني الاتضاع بسهولة من جراء توبيخه لنفسه ، سيجري وراء الأول ولست أعلم إن كان لا يلحقه . أما الرجل المتواني ، فيجب عليه أن يترك أقوالي جانباً مخافة أن ييأس ويبدِّد حتى القليل الذي أنجزه ، وهكذا يصير نظير الذي قيل عنه : " أمّا الذي ليس مستعداً أن يعمل ، فحتى الذي عنده سيؤخذ منه "[1] .

٣١ يستحيل علينا نحن الذين سقطنا في جب المعاصي أن نُجتذَبَ منه، ما لم نهبط إلى عمق لجة اتضاع هؤلاء التائبين .

٣٢ اتضاع التائبين الأسيف[2] شئ ، ولوم الضمير عند أولئك الذين ما يزالون في الخطية واتضاعهم شئ آخر ، وثروة الاتضاع المغبوطة التي يحرزها الكاملون بعمل الله ، شئ آخر تماماً . فلا ينبغي أن نسرع ، في وصف هذا النوع الثالث من الاتضاع ، كيلا يصير جهدنا باطلاً .

---

(١) متى ٢٥ : ٢٩

(٢) الأسيف هو الحزين

أما علامة الثاني ، فهي احتمال تامٌ للهوان[1] فغالباً ما تَغتصبُ العـاداتُ المزمنة حتى الذي أدركه الخشوع ، وليس ذلك بعجيب .

٣٣ تفسير أحكام ا لله وأسباب السقطات ، أمرٌ يغطيـه الظـلام ، إذ لا يمكن أن نعرف السقطات التي تعـرض لنـا مـن وِنْيَتنـا[2] ، وتلـك الـتي تـأتي عندما يتخلى ا لله عنا بتدبير حكمته ، وتلك الـتي تحدث مـن انصـراف ا لله وتحوّله عنا ، إلا أن واحداً من الناس شرحَ لي أن السقطات الـتي تعـرض لنـا بالتدبير الإلهي ، ننهض منها سريعاً ، لأن الذي أسلمنا إليهـا ، لا يسـمح أن نُمسَك منها طويلاً .

٣٤ عقب سقوطنا ، ينبغـي علينـا أن نصـارع ، قبـل كـلِّ الشـياطين ، شيطانَ الغم ؛ فإنه يقف بنا في وقت صلاتنا وإذ يُذكّرنا بدالتنا السابقة لـدى ا لله ، يحاول أن يُنهي على صلاتنا .

٣٥ لا تدهش إذا سقطت كل يوم ، ولا تستسلم تاركاً الصراع ؛ بـل قف وقوف الشجعان ، فالملاك الذي يحفظك سيمجّد بالتأكيد صبرك .

٣٦ مادام الجرح طرياً دافئاً ، فشفاؤه متيسِّر سـريعاً ، أمـا الجراحـات المزمنـة ، المهمَلـة المتقيحِّة فشـفاؤها صعـب ، وتسـتلزم تعبـاً كثـيراً وقطعـاً وتضميـداً وكيّـاً بالنـار لمداواتِهـا . كثير مـن الجراحـات ، بسـبب الإهمـال الطويل يتعذّر شفاؤها ، لكن " كل شئ ممكن لدى ا لله[3] " .

٣٧ قبل السقطة يقول الشياطين إن ا لله محب للبشـر ، وبعـد السـقطة يقولون إنه صارمٌ لا يرحم .

(١) د : لجميع الهوانات (٢) الونْية : هي الكسل ومنها " التواني " . (٣) متى ١٩ : ٢٦

٣٨ عقب سقطتك[١] ، لا تصدّق القـائل لـك عـن المنـاقص الصغـار : " ليتك ما اجترمت ذلك الخطأ الجسيم، أما هذا فليس بشئ بالمقارنة بـذاك"، لأن الهدايا الصغيرة غالباً ما تسكّن غضبَ قاضٍ كبيراً .

٣٩ من يعتبر على الـدوام أفعالـه ، فكـل يـوم لا ينوح[٢] فيـه يحتسبه ضائعاً ، أيّاً كان الصلاحُ الذي عمله فيه .

٤٠ لا ينتظرن أحدٌ من النـائحين أن يقتبـل الإيقـان بـالصفح في سـاعة رحيله ، فإن غيرَ المعروف غيرُ مؤكّد . " اسمح لي بالإيقان لأسـتريح قبـل أن أذهب من ها هنا خائباً من يقينٍ بخلاصي "[٣] .

٤١ أينما يكون روح الرب ، فرباط الخطيئة محلـول[٤] وأينمـا يوجـد تواضعٌ عميق ، فالرباط محلول[٥] . فالذين يعدمون هذين التـأكيدين ، ينبغـي ألاّ ينخدعوا ، فإنهم مربوطون .

٤٢ الذين يعيشون في العالم ، هم وحدهم غرباء عن هذين التأكيدين ، ولا سيما الأول . لكن بفضل الصدقات يعـدو بعضهـم هكـذا في السـاحة ، حتى أنهم يعرفون في أوان رحيلهم ربحهم .

٤٣ من ينـوح على ذاتـه لا يعـرف نـوحَ الآخريـن . أو سـقطاتِهم أو ملاماتِهم .

٤٤ كلبٌ عضّه وحشٌ ضارٍ يتكاثر غضبُه عليه ، ويزيدُ ألمُ جرحه مـن اهتياجه عليه بلا سكوت !

---

(١) د : عقب سقطة جسيمة
(٢) د : لا يتخشع
(٣) قارن (مزمور ٣٩ : ١٣)
(٤) حيث روح الرب فهناك حرية (٢ كو ٣ : ١٧)
(٥) اتضعت فخلصني (مز ١١٦ : ٦)

٤٥ إذا توقّفت ضمائرنـا عـن توبيخنـا ، ينبغي أن نـأخذ حذرنـا لئـلا يكون ذلك لا بسببٍ من نقاوتنا ؛ بل لأننا غائصون في شرّنا .

٤٦ علامة الخلاص من سقطاتنا ، اعترافنا المتواصل بمديونيتنا .

٤٧ لا شئ يساوي رأفات إلهنا أو يفوقها . لذلك فإن الـذي ييـأس ، يقتل نفسه بنفسه .

٤٨ علامة التوبة الحقيقية هي أن نحسب أنفسـنا مسـتحقين لجميـع مـا يعرض لنا من الضوائق المنظورة وغير المنظورة ، بل وأعظم منها أيضاً .

٤٩ إن موسى بعد أن عاين ا لله في العوسجة ، رجع إلى مصـر أيضـاً ، أعني إلى الظلام ، وعاد إلى صناعة لَبِن فرعون - رمز فرعون العقلـي - لكنـه صعد من جديد إلى العوسجة[1] ، وما صعد إلى العوسجة فقط ، بل إلى الجبل أيضاً . فمن فهم هذا التأمل ، ما ييأس قط مـن نفسـه أبـداً . تمسكن أيـوب حتى صار متسوِّلاً ، إلاّ أنه أثرى بعد ذلك ثراءً مضاعفاً .

٥٠ السقطات بعد الدخول في الرهبانية مستصعبة عند الكسالى وغـير الشجعان ، لأنهـا تسـلبهم رجـاءَ بلـوغ الـبُرء مـن الآلام ، لأنهم يحتسـبون نُهوضَهم من حفرة خطاياهم نصيباً كافياً مباركاً .

٥١ لننظر ولنحترس ، فإننا لا نستطيع أن نعود إلى ا لله من الطريق الـتي ضللنا فيها ، بل لنتخذ طريقاً أخرى وجيزة .

٥٢ رأيت اثنين ساعيين إلى الرب ، في وقـت واحـد وبطريـق واحـد ،

---

(١) هي العليقة : شجيرة صغيرة شائكة برية . أنظر (خروج ٣ : ٢) .

كان أحدهما شيخاً وفي الأتعاب متقدّماً ، ولم يكن الآخر إلاّ تلميذاً . لكنه سرعان ما سبق الشيخ وجاء أولاً إلى قبر التواضع[1] .

٥٣ ينبغي لنا كلّنا أن نتيقّظ لأنفسنا ، أمّا الذين سقطوا فسبيلهم أن يكونوا أكثر تيقّظاً . ولنحذر أن نتسقم في قلوبنا بسقم أوريجانوس العادم التقوى[2] ، لأن هذا السقم النجس باستعمال محبة الله للبشر عذراً ، مقبول تماماً عند محبّي اللذّات .

٥٤ في هذيذي[3] - وبالأحرى - في توبتي تتوقّد نار صلاتي ، حارقة مادة خطاياي .

٥٥ فليكن لك أولئك المجرمون القديسون - السالف ذكرهم - قاعدةً ومثالاً ، ونموذجاً ، وصورةً حيّةً لتوبتك[4] ؛ فلن تحتاج بعد في كل حياتك مُصحَفاً ، إلى أن ينيرك المسيح إلهنا ابن الله في قيامة التوبة الحقيقية . آمين .

درجةً خامسةً قد ارتقيتَ أيها التائب ، لانك بالتوبة قد طهّرت
حواسك الخمس وبقبولك طوعاً الدينونة والعقاب ،
أفلتَّ من العقاب الأبدي .

---

(١) يوحنا ٢٠ : ٤

(٢) هذا المبدأ يتضمن أن الجميع - أخياراً وأشراراً - سيخلصون أخيراً برحمة الله ومحبته للبشر .

(٣) الهذيذ هو ترديد عبارة أو أكثر من عبارات المزمور (أو آية من الكتاب المقدس) أثناء الصلاة ؛ وهو المعبَّر عنه في المزمور الأول باللهج : " وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً " . انظر (مزمور ٣٩ : ٣) .

(٤) هاجم أحد الكُتّاب الغربيين المحدثين ، كتاب " السلّم " ، معتبراً أن جهادات أولئك التائبين - وهي حقيقية برغم كونها نادرة - هي نوعاً من البلاهة أو التطرّف . لكن تاريخ الكنيسة زاخر بسير بعض القديسين الذين مارسوا أتعاباً مقدسة وإماتات تفوق طاقة البشر ، رغم أنهم لم يمارسوها كتوبةٍ على سقطة؛ بل حبّاً في الصليب أو اقتداءً بآلام الشهداء ، أمثال القديسين بلامون السائح وبولا الطموهي وسمعان العمودي وهرمينا السائح وميصائيل السائح وبرسوما السرياني والأنبا رويس وغيرهم . وحتى إن كانت ممارسات بعض القديسين قد عملوها بسذاجة ، فالله يرى نية فاعليها ، وبحسبها يكافئهم . انظر ٢٦ : ١١٨ ، ١٦٣ .

الدرجة السادسة

تذكّر الموت

١ كل كلمة يتقدّمها الفكر ، وذكر الموت والسقطات يسبق البكاء والنوح ، لذلك يجئ هذا الموضوع في مكانه الصحيح في هذا الفصل

٢ الخوف من الموت خاصية طبيعية أتت من المعصية[١] ، أما رعدة الموت فهي دلالة على سقطات مفتقرة إلى توبة .

٣ حَزِن[٢] المسيح من الموت ، لكنه ما ارتعد ، ليظهر خواص بشريته إظهاراً بيِّناً .

٤ ذكر الموت هو موت يوميّ ، وذكر الرحيل تحسّر وأنين كلَّ ساعة .

٥ كما أن الخبز ضروريٌّ أكثر من جميع الأطعمة ، كذلك فكر الموت ضروري أكثر من كل الأعمال .

٦ ذكر الموت يولّد في العائشين في الشركة أتعاباً وإماتاتٍ ، وبالأكثر احتمال الهوانات[٣]، أمّا للذين يعيشون بعيداً عن الضجَّة ، فيُنتج طرح الاهتمامات ، ودوام الصلاة ، وحراسة العقل ، وهذه الفضائل الثلاث هي أمهات ذكر الموت وبناته .

---

(١) د : خاصية من خاصيات الطبيعة ، أضيفت عليها بفعل المعصية.

(٢) د ، ل : خاف . انظر ٦ : ١٦

(٣) ب : أتعاباً وهذيذاً . وبالأكثر احتمالاً للهوان دائماً . ل : غما وطيشاً بل أيضاً إياساً (قارن كورنثوس الأولى ١٥ : ٣٢ ب)

٧ كما أن القصدير ظاهر مميَّز عن الفضة ، مع أنه يشبهها في المنظر ، كذلك عند ذي الإفراز فرقٌ واضح بين مخافة الموت الطبيعية والتي بخلاف الطبيعة .

٨ هذه علامة صادقة للذين يتذكّرون الموت بحسٍّ قلبهم ، اعتزال طوعي عن كل خليقة ، وإعراض كامل عن المشيئة الذاتية .

٩ عظيمٌ من يتوقّع الموت كل يوم ، أما من يُسلِّم للموت نفسه[1] كل ساعة فهو قديس .

١٠ ليست كل رغبة في الموت صالحة فالبعض إذ تجذبهم العادة قسراً إلى الشر بلا انقطاع ، باتضاعٍ يرجونه . وآخرون إذ لا يؤثرون أن يتوبوا يطلبون الموت من إياسهم ، والبعض لا يخافون الموت[2] بعد ، لأنهم في عُجْبهم يظنون أنهم تحرَّروا من الآلام ، وقومٌ ـ إن كان يوجد مثل هؤلاء الآن ـ بفعل الروح القدس يتوقون إلى الرحيل .

١١ البعض يسألون متعجّبين : " إن كان ذكر الموت يُحسن إلينا هذا الإحسان الجسيم ، فلِمَ كتم الله عنا معرفة ساعة الموت ؟ " هؤلاء يجهلون أن الله يتصرّف هكذا لخلاصنا بكيفية عجيبة ؛ فما من أحد قد سبق فعرف موته ، كان سيبادر إلى المعمودية أو إلى السيرة الرهبانية ، بل كان كل أحد يجيز أيامه كلها في المعاصي ، وفي يوم موته فقط كان يقترب إلى المعمودية والتوبة . وبالحري ، لتأصُّله في الشر من جراء طول العادة ، يظلّ إلى النهاية دون تصحيح .

(١) د : يتوق إليه كل ساعة

(٢) ل : + إلى فترة .

١٢ عندما تنوح على خطاياك[١] ، لا تمِل أذنك إلى ذلك الكلب الذي يهجس لك أن الله محبّ للبشر (هذا الفكر نافع فقط عندما تبصر ذاتك مسحوباً إلى عمق الإياس) لأن قصد عدوك أن يسلبك نوحك[٢] ومخافتك التي تطرد كل مخافة[٣] .

١٣ من يشاء أن يضبط في نفسه على الدوام ذِكرَ الموت والدينونة وذِكرَ الله[٤] ، ويسلّم ذاته لاهتمامات ماديّة ومشاغل ، يشبه سبّاحاً يريد أن يصفّق بيديه .

١٤ تذكُّر الموت الواضح الناشط ، يقطع[٥] الأطعمة . وإذا انحسمت[٦] الأطعمة بتواضع ، انقطعت الآلام كذلك .

١٥ انعدام حسّ القلب يُعمي العقل ؛ وكثرة الأطعمة تجفّف ينابيع الدموع . العطش والسهر يَغمُّان القلب ، وإذا اغتمّ القلب طفرت منه مياه الدموع . هذه الأمور التي قلتها تبدو قاسية عند النَهِمين[٧] ، عديمة التصديق عند المتهاملين . أما الرجل العمول[٨] فيختبرها بإسراع ؛ والذي اختبرها سيبتسم لها ، أما الذي لا يزال يسعى إليها فسيكون أكثر اكتئاباً .

١٦ يقرّر الآباء أن المحبّة الكاملة حرّة من كل سقطة[٩] ، كذلك أستطيع أنا أن أعلن أن الوعي الكامل للموت خالٍ من كل مخافة .

---

(١) د : حين يدركك الخشوع (٢) د : خشوعك (٣) أي يسلب من قلبك مخافة الله الصالحة ، التي تطرد كل مخافة خاطئة (مثل الخوف من الناس ، أو الشيطان ، أو المرض، أو الفقر، أو الأتعاب ، أو الضوائق)

(٤) د ، م : ذكر الموت ودينونة الله (٥) د : يؤدي إلى حصر الأطعمة (٦) د : انحصرت

(٧) ل : عند الابيقوريين (المنغمسين في اللذات الحسّية) ؛ انظر (أعمال الرسل ١٧ : ١٨) (٨) العمول : العمّال : المطبوع على العمل ، النشيط (٩) ل : الحب الكامل لا يعرف خطيئة. انظر (١كو ١٣ : ٨).

١٧ كثيرة هي أعمال العقل العمول . فمنها فكر الحبّ لله ، تذكّر الله، تذكرّ الملكوت ، تذكرّ غيرة الشهداء القديسين ، تذكرّ الله نفسه حاضراً ، طبقاً لقول القائل : " أرى الرب أمامي في كل حين "[1] ، تذكّر القوات الروحانية المقدسة ، تذكّر الرحيل ، تذكّر المحاكمة ، والحُكم ، والعقوبة . لقد بدأنا بالأمور السامية ، لكنا انتهينا إلى التي لا يتطرّق إليها خداع .

١٨ حدَّثني راهب مصري ذات مرة : " إنه بعد تمكّن ذكر الموت في حسّ قلبي، أردت يوماً أن أعزّي التراب[2] قليلاً إذ شعرت بحاجة إلى ذلك . فمنعني ذكر الموت عن ذلك منعَ قاضٍ صارم ؛ والعجيب أنه رغم أنني أردت أن أطرده بعيداً[3] ، ما استطعت ذلك " .

١٩ آخر كان يعيش هنا في المكان المسمَّى " تولا " كثيراً ما كان يقع في دَهَش ويخرج عن نفسه عند التفكرّ في الموت .

في تلك الأحيان كان كمغشيٍ عليه أو كمصروع . والإخوة الذين كانوا يجدونه على تلك الحال ، كانوا يرفعونه ويحملونه وهو بالكاد يتنفّس .

٢٠ لست أستطيع أن أصمت عن سرد قصة هيزيخيوس الحوريبي ، الذي كان يحيا على الدوام في توانٍ كامل ، دون أدنى اهتمام بنفسه . لقد مرض يوماً مرضاً خطيراً ، وترك جسده مقدار ساعة كاملة ، ولما عاد إلى ذاته تضرَّع إلى جميعنا أن ننصرف من عنده حالاً . وابتنى باب قلايته ولبث داخلها اثنتي عشرة سنة ، لا يخاطب أحداً بكلمة ، ولا يتغذّى داخلها بشيءٍ

(١) مزمور ١٦ : ٨ (٢) د : جسد الطين هذا . (٣) أي أراد أن يطرد فكر الموت

سوى الخبز والماء . كان جالساً وحده مخطوف العقل إلى ما كان قد أبصره في دهشته ، مبتَلِعاً هكذا حتى أنه ما كان يغيّر أبداً موضعه ، بادياً على الدوام خارجاً عن نفسه ، ذارفاً بغير صوت دموعاً حارة .

وحين شارف على الموت ، نقرنا باب قلاّيته ، ودخلنا إلى عنده ، وإذ تضرّعنا إليه كثيراً أن يقول لنا كلمة ، ما سمعنا منه سوى هذه الكلمات فقط : اغفروا لي ، من اقتنى ذكر موته ، لا يستطيع أن يخطئ أبداً ". فكنا نعجَبَ من ذلك الرجل ، الذي كنا نراه قبلاً متهاملاً بهذا المقدار ، كيف تبدلّت صورته هكذا بغتة ، وتغيّر تغيّراً مباركاً ، ثم دفناه في المدفن القريب من الحصن ، دفن الأبرار الموقّرين . وبعد بضعة أيام ، إذ أردنا أن نرى رفاته المقدسة ، ما وجدناها . وهكذا أراد الرب ـ بتوبة ذلك المغبوط الخالصة والجديرة بالثناء ـ أن يؤكّد أنه يقبل الذين صمّموا على التوبة حتى بعد طول إهمال .

٢١ كما أن لجّة البحر غير محدودة ، ولا يُدرَك عمقها ، كذلك فإن فكر الموت ينتج في النفس طهارةً واجتهاداً لا يدركهما فساد . ويحقّقُ ما قلته أمثال ذلك القديس الذي تقدَّم ذكره ؛ فإنهم يضيفون على الدوام إلى مخافتهم مخافةً إلى أن تفني قوّة عظامهم عينها .

٢٢ فضلاً عن ذلك ، ينبغي أن نعلم تماماً أن فكر الموت موهبةً من الله مثل غيرها من الصالحات . وإلاّ فكيف نفسر أننا كثيراً ما نكون في المقابر نفسها قساةً وبلا دموع ، بينما يعرض لنا كثيراً أن يدركنا الخشوع بعيداً عن مثل ذلك المنظر[١] ؟

(١) أي منظر المقابر وجثث الموتى .

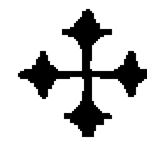
٢٣ من قد مات عن كل شئ[١] ، يقتني حقاً ذكر الموت . أما الذي تقيّده الارتباطات ، فهو ينصب الفخاخ لنفسه .

٢٤ لا تشأ أن تؤكـد بالكلمات حبّك لكل أحد[٢] ، بل الأَوْلى أن تسأل الله أن يُظهر لهم ذلك بغير كلام . وإلاّ فلن يكفيك زمانك للتودّد إليهم ، وللبكاء على خطاياك[٣] .

٢٥ لا تنخدع أيها الفاعل الطائش ، إذ تظنّ انك تستطيع أن تعوِّض وقتاً بآخر . فإن كل يوم لا يكفي لتسديد دينه للرب بغير نقص .

٢٦ مستحيل تماماً ـ كما قال واحدٌ ـ أن نجيز اليوم الحاضر بتقوى ، ما لم نحتسبه آخر أيام حياتنا . وإنه عجيب حقاً أن اليونانيين أنفسهم قد قالوا قولاً مماثلاً ، إذ عرّفوا الفلسفة بأنها الهذيذ في الموت .

المرقى السادس ، من صعد عليه لن يخطئ بعد أبداً.
إذ قيل " اذكر آخرتك ، فلن تخطئ
إلى الدهر[٤] ".



(١) د : عن كل إنسان

(٢) د : لأحبّائك .

(٣) ل : وللتخشّع

(٤) يشوع ابن سيراخ ٧ : ٣٦

الدرجة السابعة

النَوْحُ المؤدِّي إلى الفرح

١ النوح ـ بحسب الله ـ هو اغتمام النفس ، وتوجّع قلب يسعى دواماً باهتيام نحو ما هو ظمآن إليه . فإذا أخفق في طلبه يتابع سعيه بعناء مقتفياً أثره متنهّداً حزيناً .

٢ أو بتعبير آخر ، النوح مِنخَسٌ ذهبي يعرّي النفس من كل تعلّق[١] وكل ارتباط ؛ ويثبّتها[٢] بالحزن المقدس للسهر على القلب .

٣ الخشوع توبيخٌ دائمٌ للضمير ، يبرِّد نار القلب بالاعتراف الروحي[٣] .

٤ الاعتراف هو نسيان الطبيعة ، إن كان حقاً أن واحداً بسببه[٤] قد نسي أكل خبزه .

٥ التوبة هي حرمان مبهجٌ من كل ما يعزّي الجسد .

٦ خاصيّتا الذين يبدأون التقدّم في النوح المغبوط ، هما التعفّف وصمت الشفتين . وخاصيّتا الذين تقدّموا فيه ، هما الانعتاق من الغضب واحتمالٌ جَلِد للمظالم والأذى . أما مميّزات الكاملين فهي التواضع ، والعطش إلى الإهانات ، الجوع الطوعي إلى الضيقة الكرهيّة[٥] ، ورفض إدانة المخطئين ، وإشفاق[٦] يفوق الطاقة . فالأوّلون مقبولون ؛ والثانون

---

(١) ب : من كل سمر ووداد (٢) د : + أبداً (٣) د : + إلى الله (٤) أي بسبب اعترافه بخطاياه

(٥) أي الجوع الإرادي إلى الضيقة التي تأتي بغير إرادتهم . (٦) د : + عليهم

يستوجبون المديح ؛ أمّا الجيّاع إلى الشدّة العِطاش إلى الهوان فمغبوطون . لأنهم سيشبعون من طعام لا يُشبع منه أبداً .

٧ إذا ضبطت موهبة النوح ، فاضبطه بكل قوّتك ، لأنه إذا لم يتأصّل ، يضيع بسهولةٍ . فالجَلَبة والاهتمامات الجسدية ، والتنعّم ، ولا سيما كثرة الكلام والمزاح تُذيبه ، كما تُذيب النار الشمع .

٨ ينبوع الدموع هذا ، الذي يتدفّق بعد المعمودية ، أعظم من المعمودية نفسها ، مع أن في هذا القول جسارة . إنّ المعمودية اغتسالٌ من الخطايا التي سبقتها ، أما ينبوع الدموع فهو يمحو الخطايا الحادثة بعدها . بما أننا ننال المعمودية في طفولتنا ، فنحن جميعاً ندنّسها فيما بعد ، لكننا بواسطة الدموع نجدّد نقاوتها الأولى . ولولا أن الله ، في محبته للبشر ، قد أعطاهم الدموع ، لكان الذين يخلصون قليلون حقاً عسرٌ وجودُهم .

٩ إن الاكتئاب والتنهّدات صراخٌ إلى الرب . الدموع التي تنتج عن المخافة تشفع فينا ؛ أما الدموع الكائنة من الحب الأقدس فهي بيّنةٌ أن صلاتنا قد قُبلت .

١٠ إن كان لا شئ يوافق التواضع إلاّ النوح ، فمن البيّن أنه لا شئ يضادّه بالأكثر مثل الضحك .

١١ احفظ بكل تحفّظ هذا الحزن المفرح المغبوط الذي للخشوع المقدّس ، ولا تكفّ عن ممارسته ، إلى أن يرفعك فوق جميع أشياء هذا العالم ، نقيًّا ، قدّام المسيح .

١٢ لا تكفّ عن تصوّر وتفحّص هاوية النار الأبديّة ، وخدّامها

الأفظاظ ، والقاضي الذي لا يرثي آنذاك ولا يرحم ، الوهاد التي تكتنف لهب الجحيم ، والمهابط الضيّقة نحو المواضعْ السفليّة المرعبة ، والفوهة المنفغرة للهاوية السحيقة . تصفّح صور هذه المفزعات كلّها وأمثالها ، لكي تختنق الشهوانية[1] التي فيك من جراء الارتعاب الكثير ، وتأتلف نفسك بالطهارة التي لا تفسد ، إذ تقتبل تألُّق النور غير المادي الذي يُشّع أكثر من كل لهيب .

١٣ عندما تتضرّع في صلاتك ، قِفْ مرتعداً كمجرم ماثلٍ لدى القاضي ، لكي بهيئتك الظاهرة ، وبسجيّتك[2] الباطنة تُخمد غضب القاضي العادل . فإنه لن يحتمل الإعراض عن نفس مترمّلة واقفة لديه مثقلةً بالحزن ، تُزعج الذي لا ينزعج[3] .

١٤ من اقتنى الدموع النفسانية ، فكل مكان ملائمٌ لنوحه ، أما الذي له البكاء الظاهر ، فلا يكْفُف عن تمييز المواضع المناسبة والأسلوب الموافق .

١٥ وكما أن الكنز المُخفَى يبقى في أمان أكثر من المعروض في السوق، فكذلك ينبغي أن نطبّق هذا المثال على ما قلناه تواً[4] .

١٦ لا تكن مثل الذين حين يدفنون موتاهم ينوحون أولاً عليهم وبعد ذلك يسكرون لأجلهم . بل كن كالمعتقلين في المناجم الذين يقرّعهم السجّانون بالسوط كل ساعة .

---

(١) ب : الفسق (٢) السجيّة هي الطبيعة والخلق (٣) لوقا ١٨ : ٥

(٤) أي أنه ينبغي على من وهبته النعمة فرصةً ومشاعر للنوح . ألاّ يُظهر ذلك لأحد ، لئلاّ يفقدها ، بل يجتهد في حفظ السكوت والوحدة .

١٧ من ينوح حيناً وينغمس في التنعم والضحك حيناً ، فهو شبيه بمن يرجم كلب الشهوانية بخبزٍ . فهو في الظاهر يطرده ، لكنه في الحقيقة يشجّعه على البقاء معه[١] .

١٨ كن جامعاً عقلك في غير تظاهر ، مسحوباً إلى قلبك . فإن الشياطين يخافون جمع العقل ، بقدر ما يخاف اللصوص الكلاب .

١٩ ليس لنا هنا وليمةُ عرس يا أحبّاء ، ليس لنا . لكن الذي دعانا ، إنّما دعانا إلى نوحٍ على أنفسنا ها هنا .

٢٠ هناك من يكلّفون أنفسهم بخلاف الواجب على البكاء ، دون أن يفكّروا في ذلك الوقت المبارك في شيء . غير فاهمين أن الدموع التي لا يصاحبها تفكّر ، إنما هي خاصّية الكائنات غير العاقلة . فالدموع وليدة التفكّر ، والتفكّر وليد العقل المدرِك .

٢١ ليكن لك اضطجاعك على مرقدك، صورةً لاضطجاعك في قبرك، فستنام أقلّ . لتكن لك متعة مائدتك ، تذكرةً بمائدة الدود الكئيبة ، فستكون أقل تنعماً . عند شربك الماء ، لا تنسْ عطش ذلك اللهيب ، فستغصِب بالتأكيد طبيعتك .

٢٢ عندما نعاني من الرئيس ذلك الهوان المكرَّم[٢] ، أو التوبيخ والعقاب ؛ ينبغي أن نتفكّر في نُطق الديّان المروِّع ، فبذلك نذبح تماماً الغمّ الأحمق والمرارة ، المزروعَيْن فينا بالضرورة ، بسيف ذي حدّين هما الوداعة والصبر .

---

(١) يقصد المؤلف القديس أن الراغب في التحرر من الشهوانية ، يلزمه أن يكون جادّاً في ملازمة النوح ، قاطعاً كل فرصة للتنعمّ أو الضحك .

(٢) د : عندما يختبرنا ربنا بالهوانات التي تجلب لنا الكرامة الحقيقية .

٢٣ في زمان طويل ينضب البحر ، كما ذكر أيوب[١] ؛ وبالزمن والصبر تتكوّن فينا السجايا التي ذكرناها وتتكامل قليلاً قليلاً .

٢٤ ليرقد معك كل ليلة تذكّر النار الدهريّة ، ولينهض معك أيضاً ؛ حينذاك لن يستولي عليك التواني قط في أوان ترتيلك وتسبيحك .

٢٥ وليحثّك على النوح ، زيُّك نفسه . لأن جميع الذين ينوحون على موتاهم إنما يتجلّلون ثياباً سوداء فإن كنت ما تنوح ، فَنُحْ من هذا الوجه . وعندما تنوح ، انتحب بالأكثر لأنك بخطاياك ، قد أحدَرت نفسك من حالة السلام إلى حالة الآلام .

٢٦ في حالة الدموع ـ كما في كل شئ آخر ـ سيحكم قاضينا العادل الصالح بقدر قوة طبيعتنا ، لأنني رأيت قطرات من الدموع يسيرةً منهملة بتعب كقطرات دم ، كما أبصرت ينابيعاً من العبرات منهملة خلواً من صعوبة فحكمتُ على أولئك الفعلة لا بحسب دموعهم ، بل بحسب تعبهم وأظن أن الله يحكم هكذا أيضاً .

٢٧ التكلّم في اللاهوت لا يلائم النائحين ، لأنه بطبيعته يحلّ نوحهم . لأن التكلّم في اللاهوت يليق بالجالس على كرسي التعليم ، أما النوح فيلائم المقيم على مزبلة مكتسياً بالمسوح . ولهذا السبب ـ كما أظن ـ أجاب داود ـ مع أنه كان معلّماً وحكيماً ـ الذين سألوه حين كان نائحاً : " كيف أسبّح تسبيحة الرب في أرض غريبة ؟ "[٢] أي في أرض الآلام .

٢٨ في الخشوع كما في الخلائق ، يوجد ما يتحرك تلقائياً من ذاته ،

(١) أيوب ١٤ : ١١

(٢) مزمور ١٣٧ : ٤

وما يحرّكه غيره . حينما تصير أنفسنا ـ دون حرصٍ أو مجهودٍ منّا ـ ليّنة دامعة وديعة ، فينبغي علينا أن نركض[1] ، فإن الرب قد جاءنا على غير دعوةٍ ، واهباً لنا اسفنجة غمٍّ محبوبٍ لديه ، وماءاً مريحاً من دموعٍ مقبولةٍ عنده[2] لمحو صك خطايانا[3] . احفظ هذه الدموع كحدقة عينك إلى أن تنصرف عنك . عظيمةٌ هي قدرة هذا النوع من الخشوع ، وأسمى مما يتكون من حرصنا وتأمّلنا[4] .

٢٩ الذي ينوح عندما يريد ، ما قد بلغ إلى حُسن النوح ، بل بالأحرى الذي ينوح على ما يريده ، أو بأكثر دقة من ينوح كما يشاء الله .

٣٠ غالباً ما تمتزج بالنوح الذي يؤثره الله ، دموعُ العجب التي لا ترضيه . فإذا تخشّعنا نكتشف هذا فينا ، إذ نرى أنفسنا ننوح وما نزال نفعل الشر .

٣١ الخشوع الأصيل هو توجّع نفسٍ متجردةٍ تماماً من كل عُجب[5] ، لا تعطي ذاتها تفرّجاً وتلطُّفاً ، بل كلَّ ساعة تتصوّر انحلالها ، وتنتظر ـ كالماء البارد ـ عزاء الله الذي يعزّي الرهبان المتضعين[6] .

٣٢ جميع الذين اقتنوا نوحاً في عمق حس قلوبهم ، يمقتون حياتهم نفسها ، كأنها شيءٌ متعب مسببٌ الدموع والأوجاع ؛ أما أجسادهم ـ فينفرون منها كما من عدوّهم .

---

(١) ب : + في نوحنا .

(٢) ل : دموع التقوى والتخشع

(٣) قارن : كولوسي ٢ : ١٤)

(٤) لاحظ هنا سمو عمل النعمة على الجهاد البشري .

(٥) د : من كل تشتت (طياشة الفكر)

(٦) قارن (كورنثوس الثانية ٧ : ٦)

٣٣ حين نلاحـظ الغضـب والكبريـاء في الذيـن يبـدون أنهـم ينوحـون بحسب ا لله ، ينبغي أن نعتبر دموعهم كريهةً لدى ا لله ، لأنه مكتوب: " أيّـة شركةٍ للنور مع الظلمة "[1] .

٣٤ الخشوع المغشوش ، يُنتج العُجب[2] ؛ أما ثمـرة الخشـوع الحقيقـي فهي العزاء .

٣٥ كما أن النار مُبيدة للقصب ، كذلك فإن الدموع النقيّة تبيد كـل الأوساخ الظاهرة والخفيّة .

٣٦ يقرر كثير من الآباء ، أن سؤال الدموع - لاسيّما عند المبتدئـين - هو أمر غامض عسر التحقق منه ، إذ أن الدمـوع تتولـد مـن أسـبابٍ كثـيرة مختلفـة . فهنـاك مثـلاً دمـوعٌ مـن الطبيعـة ، ودمـوعٌ مـن ا لله ، ومـن ضيقـةٍ مرفوضة ، أو من معاناة ممدوحة ، ودموع من المجد البـاطل ، ومـن الفسـق ، ومن المحبة ، ومن تذكّر الموت ، ومن أسباب أخرى كثيرة .

٣٧ إذ قد فحصنا في نور مخافة ا لله ، جميع أنـواع الدمـوع فلنكتسـب لأنفسنا الدموع النقية الخالصة ، التي تتولّد من فكر رحيلنا ؛ فهذه لن يكون فيها خـداع أو ظنّ بـاطل أو ريـاء ، بـل فيهـا تطهـير وتقـدّم في حبّ ا لله . واغتسـال من الخطايا وتسامٍ بالآلام إلى عدم التألّم .

٣٨ ليس غريباً أن يبتدئ النوح بدمـوع صالحـة ، وينتهـي إلى عـبرات رديئة . أما أن يُبدأ من دموعٍ مشجوبة أو طبيعية إلى دموع روحانيـة ، فهـذا مستوجب مديحاً . والجانحون إلى المجد الباطل يعرفون هذا جيداً .

(١) كورنثوس الثانية ٦ : ١٤ .
(٢) د : الكبرياء

٣٩ لا تثق في ينبـوع دموعـك قبـل أن تتطهَّـر نفسـك تمامـاً ، فإنـه لا يمكن التأكّد من جودة النبيذ حال خروجه من المعصرة .

٤٠ لا جدال أن كافة دموعنا التي بحسب الله نافعة ؛ ولكننا في ساعة الموت فقط ، سنعرف مقدار منفعتنا منها .

٤١ من يتابع سعيه في نوح دائم يرضي الله ، لـن يكـفّ يومـاً واحـداً عن التعييد . أمّا من يُعيِّد كل يوم تعييداً جسدانياً ، فينتظره بكاءٌ دهري .

٤٢ لا يوجـد عنـد المذنبين ابتهـاجٌ في سـجنهم ، ولا يوجـد للرهبـان الحقيقيين عيدٌ على الأرض . ولعله لهذا السبب قـال ذلـك النـائح المغبـوط متنهّداً : " اخرجْ من الحبس نفسي "[1] . لأبتهج فيمـا بعـد في نـورك غـير الموصوف .

٤٣ كن كملكٍ في قلبك ، مستوياً على عرش الاتضاع السامي ، وقُلْ للضحك " اذهـب ، فيذهـب " وللبكـاء الحلـو " إئـتِ ، فيـأتي " ، وإلى الجسد عبدنا وطاغينا " إفعلْ هذا ، فيفعل "[2] .

٤٤ من لَبسَ النوح المبارَك الموهوب في النعمة كمنطقة وثوب عرس ، فهذا يعرف الضحك الروحاني للنفس .

٤٥ أتُرى يوجد أحدٌ قد أمضى هكذا كـل زمانـه في السـيرة الرهبانيـة بتقوى ، حتى أنه ما خسر قطّ يوماً ، ولا ساعة ، ولا لحظة ، لكنـه صرفهـا بالكمال للرب ، مفتكراً أن يوماً واحداً من العمر لن يُرى مرتين ؟

---

(١) مزمور ١٤٢ : ٨

(٢) قارن (متى ٨ : ٩)

٤٦ مغبوط بالحقيقة هو الراهب الـذي يمكنـه أن يعـاين بعيـني نفسـه ، القوّات الروحانية[١] . لكنه في مأمن مـن كـل سـقطة حقـاً ، مـن يبـلّ دائمـاً خدّيه بالدموع الحيّة التي تسيل من عيني جسده من ذكر موتـه[٢] وخطايـاه . لا يصعب عليَّ أن أصدّق أن الحالة الثانية توصّل إلى الأولى[٣] .

٤٧ رأيت سائلين وشحّاذين وقحين ، قد استمالوا بكلمـات الفطنـة ، قلـوب الملـوك عينهـا إلى التحنّـن . ورأيـت مسـاكين وفقـراء مـن الفضـائل صائحين ، بكلماتٍ بليغةٍ ، بل بـالحري بألفـاظ متواضعـة غامضـة متلعثمـة ، يصرخون بلجاجة ووقاحة ، مـن أعمـاق قلـب يـائس إلى الملـك السـماوي ، واقتسروا باغتصابهم تحنّن طبيعته[٤] .

٤٨ من يتشامخ في نفسه بدموعه وفي قلبه يدين سراً الذين لا يبكـون، يشبه رجلاً التمس من الملك سلاحاً لمقاتلة عدوّه ، فقتل به نفسه .

٤٩ إن الله يا أحبّائي لا يسـأل ولا يرغـب أن ينـوح أحـدٌ مـن توجّـع قلبه، بل يرغب بالحري أن يبتهج الإنسان ويضحك في نفسه من جـراء حبِّـه لله .

٥٠ انزع الخطية ، تصير الدموع المتوجّعة التي تذرفها الأعين المحسوسة فضلةً غير لازمة . فما فائدة الأربطة حيث لا يوجد جرح ؟ ما كان آدم قبل معصيته يعرف دموعاً ، كما أنه بعد القيامة لن توجد دموع ؛ إذ عندما تبطل الخطيئة يهرب الحزن والكآبة والتنهد[٥] .

---

(١) ب : + الملائكية .   (٢) ب : سقطاته   (٣) د : أنه ينبغي اجتياز الحالة الثانية للوصول إلى الأولى .

(٤) قارن (متى ١١ : ١٢ ، لوقا ١٦ : ١٦)   (٥) أشعياء ٣٥ : ١٠ ، رؤيا ٧ : ١٧ ، ٢١ : ٤

٥١ رأيت بعضاً ينوحون، ورأيت غيرهم لأجل إعواز النوح ينوحون . فهؤلاء مع أنهم قد ملكوا النوح ، كانوا كمن لم يملكوه . وقد جعلهم جهلهم الحَسن في مأمن من السلب[١] . وهؤلاء هم الذين قيل فيهم : " الرب يجعل العميان حكماء[٢] " .

٥٢ غالباً ما يحدث أن الدموع تصلّف الأخفّاء[٣]. الفارغين من الحزم. ولهذا السبب لا تُوهب لهم . مثلُ هؤلاء إذ يبتغون الدموع باطلاً ، يعذّبون أنفسهم ويدينونها متنهّدين مكدودين ، ممتلئين غمّاً وفزعاً ، لا يعلمون ماذا يفعلون . فهذه الأفعال كلها تحلّ محلَّ الدموع دون أن يتعرّضوا لأدنى خطر حتى إذا كانوا يحتسبونها بلا فائدة .

٥٣ إذا انتبهنا بحرصٍ ، سنلاحظ أن الشياطين غالباً ما يسخرون بنا بالطريقة التالية : عندما نكون شباعى يخشّعون قلوبنا ، وإذا صُمنا يقسّونها ، لكي إذ ننخدع بالدموع المغشوشة ، نستسلم للتنعم الذي هو أمُّ جميع الأوجاع . فما ينبغي أن نقبل منهم ، بل بالأولى نعمل عكس رأيهم[٤] .

٥٤ حينما أتأمل في طبيعة الخشوع ، أندهش تعجّباً : كيف يُدعَى نوحاً وغمّاً ما يمكن أن يحتوي في باطنه فرحاً وسروراً ، كقرص شمعٍ يُخفي داخله عسلاً ؟

ما الذي ينبغي أن نتعلّمه إذن ؟ إن مثل هذا الخشوع بصفةٍ خاصّة ، هو

(١) أي في مأمن من الاعتجاب بفضيلة النوح (٢) مزمور ١٤٦ : ٨ . (٣) جمع خفيف ، أي غير رزين

(٤) أي نرفض الخشوع المؤقت الذي يصاحب التنعمّ، ونثبت على الصوم الذي سيصاحبه الخشوع الحقيقي الدائم. انظر (مرقس ٩ : ٢٩) .

موهبة من الرب ، لن يوجد بعد في النفس حينذاك سرورٌ خالٍ من السرور ، لأن الله يعزّي في الخفية منسحقي القلوب[1].

٥ ٥ للتحريض على هذا النوح الحقيقي وهذا الاغتمام المخلّص ، لنسمعْ هذه القصة النافعة للنفس والمثيرة للرثاء : كان راهبٌ يُدعى اسطفان ساكناً ها هنا ، معتنقاً الحياة التوحديّة الهادئة . وإذ أمضى في معركة الرهبانية سنين كثيرة ، كانت نفسه متزيّنةً على وجه الخصوص بأصوامه ودموعه ، وبأعمال صالحة أخرى كثيرة . وكانت قلايته على هذا الجبل المقدّس في منحدر إيليّا القديس معاين الله . لكن ذلك الرجل الشهير ، عزم فيما بعد على توبةٍ أكثر قسوةً وفاعليةً وأوفرَ ضيقة ، فذهب إلى مكان المتوحدين المسمى " سِديم " ولبث هناك أعواماً متّصلة في سيرةٍ أشد حرارةً وأقصى زهداً . وإذ كان ذلك المكان خالياً من كل تعزية بشرية ، إذ كان في الغالب لا تطأه قدمُ إنسان ، لأنه كان نازحاً عن الحصن بنحو سبعين ميلاً ، وقُرب نهاية عمْره رجع الشيخ إلى قلايته في الطور المقدس . وكان له تلميذان من أهل فلسطين متورِّعَيْن جداً ، وكانا يعتنيان بقلاية الشيخ . فإذ أقام هناك أياماً قليلة ، مرِضَ المرضَ الذي منه رحل وقبل يومٍ واحد من رحيله ، خُطِف عقله وكانت عيناه مفتوحتين ، وجعل يتأمّل على يمين سريره وعلى

---

(١) هذه قاعدة عامة لا تخطئ أبداً : فمسرات العالم التي يعرضها علينا الشيطان أيّاً كانت ، خالية من المسرة الحقيقية والسلام ، بينما الأحزان المقدّسة والضوائق التي يحثنا الروح القدس على الدخول فيها واحتمالها بالصبر والرجاء ، اقتفاءً لآثار رئيس خلاصنا - الذي تألم من المهد إلى اللحد (انظر عبرانيين ٢ : ١٠ ، بطرس الأولى ٢ : ١٩ - ٢٥) - هي الطريق الوحيد إلى الفرح الوحيد وقيامة المجد (انظر كورنثوس الأولى ١٥ : ٤٣) والملكوت الأبدي (انظر تيموثاوس الثانية ٢: ١١ ، ١٢) . وقد عبّر أحد القديسون عن هذه الحقيقة قائلاً : " إن أمور العدو حلاوات تعقبها مرارات ، أنوار تعقبها ظلمات ، مفرحات تعقبها محزنات . أما أمور الرب فهي مرارات تعقبها حلاوات . ظلمات تعقبها أنوار ، محزنات تعقبها مفرحات " (بستان الرهبان) .

يساره ، وقال كأن بعضاً يحاسبونه ، وجميع الحاضرين عنده كانوا يسمعون : " نعم؛ هذا بالحقيقة صدق، إلاّ أنني قد صُمت من أجل هذا سنين كثيرة "، ثم قال بعد ذلك : " لا ، إنكم تكذبون ، هذا ما عملْته ". وقال أيضاً : " أَجَلْ ، هذا حقٌ تماماً ، لكنني قد بكيت من أجله وخدمت الإخوة[1] " . ثم قال : " لا ، إنكم تفترون عليَّ " وقد قال أيضاً في ذنبٍ ذكروه : " نعم بالحقيقة نعم ، ولست أعرف ما أقول في هذا . لكن الرحمة هي من عند الله " . لقد كان ذلك مشهداً مرعباً واستجواباً غير منظور خالياً من الإشفاق مرهوباً، وما هو أكثر إرهاباً ، أنهم كانوا يتجنّون عليه بما لم يفعله . يااللغرابة ! عن كثير من الخطايا قال المتوحّد السَكوت " لست أعرف ما أقوله عن هذه " ، مع أنه كان قد استكمل نحو أربعين سنة راهباً ، وأُعطي هبة الدموع . واحسرتاه ، واحسرتاه ! أين كان حينذاك قول حزقيال " في الحال الذي أجدك فيه أحكُمُ عليك[2] . إنه ما استطاع أن يقول شيئاً من هذا القبيل ليتبرّر ؛ وإن سئلتُ " لِمَ ذلك ؟ " لأجبتُ " المجد للذي وحده يعلم " ! وقد حدثني أناسٌ عنه خبراً قد حقّقوه كأنهم قدام الرب أنه قد أطعم في البرية بيده فهداً فعلى هذه الحال فارق الجسد محاسَباً وإن سألت " ماذا كانت دينونته ، أو آخرته ، أو حكمه ، أو كيف انتهت محاسبته ؟ " أجبتك : " إنه لم يبيّن لنا شيئاً من ذلك " .

٥٦ مثل أرملة قد فقدت رجلها ، وليس لها سوى ابنٌ وحيد ، تجد فيه بعد الرب عزاءها الوحيد ؛ كذلك النفس التي سقطت لن تجد تعزيةً أخرى في ساعة رحيلها سوى أتعاب صومها ودموعها .

---

(١) د : وأغمت خدمتي

(٢) حزقيال ٣٣ : ١٣ ـ ٢٠ .

٥٧ الذيـن حـالهم هكـذا ، لا يُبهجـون أنفسـهم بالألحـان أبـــداً ، ولا يرفعون أصواتهم في التسابيح ، لأن هذه الأفعال وأمثالها ، تبدّد النوح . فإن ظننت أنك تستدعي النوح بواسطتها ، فأنت بعيد كثـيراً عـن قصدك ؛ لأن النوح توجُّعٌ متمكّن في نفس ملتهبة .

٥٨ كان النوح عند كثيرين ، بشيراً سابقاً عـن زوال الآلام المغبـوط ، إذ سبق فأعدّ ، وحرث ، واستبعد مادة الخطيئة .

٥٩ حدّثني فاعلٌ مدرّب على هذه الفضيلة النفيسة قـائلاً : إنـني حالما أحاول أن أجنح إلى العُجب أو الغضب أو النهم يعترضني للوقت فكر النوح في باطني قائلاً : " لا تعتجب، وإلاّ فارقتك " كذلك ينهاني أيضاً عن الآلام الأخرى. أما أنا فأقول له: لن أخالفك أبداً، إلى أن توقفني بحضرة المسيح ".

٦٠ إنّ هاوية النوح تعاين التعزية ، ونقاوة القلـب تقتبـل الاستنارة . والاستنارة فعل لا يُنطق به ، يُعرَف بطريقـة لا تُعرَف ، ويُـرى بكيفيـةٍ غـير مرئية .

+ التعزية هي راحة لنفسٍ متوجعّة ، فيكون حالها مثل طفلٍ يشهق باكياً ويصرخ فرحاً في آنٍ واحد .

+ العون الإلهي هو تجديد النفس الـتي انهبطـت بـالغمّ ، يحوّل دموعهـا الموجعة ، بكيفية عجيبة ، إلى دموع خالية من توجّع .

٦١ الدموع التي يسبّبها فكر الموت تلد المخافةُ . ومتى وَلَدَت المخافـةُ زوال الخوف ، ظهر السرور . ومتى أُدْرِكَ السرور الذي لا نهاية له ، أينعت زهرةُ الحب المقدّس .

٦٢ ادفع السرور العابر بيد التواضع ، كأنك لست أهلاً له ، لئلا باقتباله سريعاً تستقبل ذئباً بدلاً من راعٍ .

٦٣ لا تسعَ وراء التأملّ حين لا يكون وقت التأمّل ، لكي [في أوانه المناسب] يتعقّب جمال تواضعك ويعانقه ، ويقترن بك بزيجة طاهرة إلى أبد الدهور .

٦٤ حالما يبدأ الطفل يتعرّف على أبيه ، يمتلئ كلّه فرحاً . وإذا تغيّب عنه أبوه عمداً مدةً من الزمان ثم عاد إليه بعد ذلك ، يمتلئ الصبي فرحاً وغمّاً ؛ فرحاً لأنه أبصر من جديد مَن يحبّه ، وغمّاً لأنه قد حُرِم زماناً هذا مقداره من حسن جماله .

٦٥ يحدث أن تختفي الأم عن طفلها ، فإذا رأته بأيّ حزن يفتقدها ويطلبها ، تفرح وتبتهج . وهكذا تعلّمه أن يتعلّق بها بلا انفصال وتضرم حبّه نحوها إضراماً شديداً؛ " من له أذنان للسمع فليسمع " يقول الرب[1].

٦٦ المجرم الذي تسلّم الحكم عليه بالموت ، لا يهتم أن يعرف كيف تُدار الملاعب . كذلك من ينوح نوحاً صادقاً ، لا يمكنه أن يلتفت إلى تنعّم ، أو مجدٍ أو غضب ، أو حدّة .

٦٧ النوح توجّعٌ متمكّنٌ في نفس تائبة تضيف إلى وجعها وجعاً ، كالتي تعاني آلام المخاض .

٦٨ إن الرب بارٌ وقدوس[2] ؛ فهو بمعرفةٍ يمنح التخشّع ؛ للذي يمارس

(١) لوقا ١٤ : ٣٥ (٢) مزمور ١٤٥ : ١٧ حسب الترجمة السبعينية .

السكون بمعرفة . ويَسُرّ كل يومٍ الذي يمارس الطاعة بمعرفة . أما الذي لا يسلك بإخلاصٍ أحد هذين الطريقين ، فقد حُرم من النوح .

٦٩ اَدفع كلب الجحيم الذي يوافيك حين تكون متعمِّقاً في النوح ، هاجساً لك أن الله ليس عنده إشفاق ولا رحمة . فإنك إذا رصدته بانتباه ، ستلاحظ أنه قبل [ارتكاب] الخطيئة يصوّر لك الله محبّاً للبشر رحوماً غفوراً .

٧٠ الممارسة [أي ممارسة النوح] تولّد التعوّدَ . والتعوّد يتأصَّل في الوجدان . وما يُعمَل عن حسٍّ [١] متأصّل في القلب لا يسهل انتزاعه .

٧١ مهما عظمت أعمال سيرتنا التي نمارسها ، ينبغي أن نعتبرها باطلة زائفة إذا لم نقتنِ قلباً منسحقاً متوجعاً ، لأن الذين تدنسوا أيضاً بعد حميم المعمودية يحتاجون بالضرورة ، بالضرورة الحتمية ، أن ينظّفوا أيدي أنفسهم من قار خطيئتهم ـ إن جاز التعبير ـ بنار قلبٍ لا تخمد وبزيت [رحمة] الله.

٧٢ رأيت في ذلك أناساً قد بلغوا أعلى قمة النوح ؛ إذ رأيتهم فعلاً يسكبون دماً من أفواههم لأن قلوبهم كانت متوجّعة مجروحة . فتذكّرت القائل : " قُطِعْتُ كالعشب ويَبِسَ قلبي[٢] " .

٧٣ الدموع التي من المخافة تحمل معها ما يحفظها . أما الدموع الحادثة من الحب الذي لم يكتمل بعد ـ كما هو حال البعض ـ فبسهولةٍ

---

(١) د : + يعلّق القديس يوحنا السلّمي أهمية كبيرة على هذا " الحسّ " أو على " حساسية النفس " ، التي تستيقظ في الإنسان المطهّر بالنسك والمستنير بالروح القدس ، والتي تمنحه الإحساس ، والتذوّق ، وإفراز (تمييز) ما هو من الله .

(٢) مزمور ١٠٢ : ٤

تُسرَق ، مـا لم يُشـغَل القلـب بتذكـر النـار الأبديّـة في أوقـات تـأثّره بهـذا التذكّر[1] . وإنه لعجيب كيف أن الطريق الأكثر اتضاعاً ، أكثر سلامة في أوانها[2] .

٧٤ توجد مواد تجفّف ينابيع دموعنا ، وأخرى تولّد حمأة وزواحف . فبالمواد الأولى[3] اقترن لوط بابنتيه اقتراناً محرّماً وبالمواد الثانية[4] ، هبط إبليس .

٧٥ إن أعداءنا أشرار للغاية خَطِرين حتى أنهم يحوّلون[5] أمّهاتِ الفضائل إلى أمّهاتِ رذائل ، والأشياء التي تساعد على التواضع إلى مسببات للتباهي والعُجب .

٧٦ غالباً ما تكون مواضع سكنانا ، ومظهرها نفسه ، مدعاةً لإثارة قلبنا إلى التخشّع . دَعْ يسوع وإيليّا ويوحنا، الذين كانوا يُصلّون في وحدةٍ، يقنعونك بذلك[6] .

٧٧ كثيراً ما رأيت دموعاً حادثةً في وسط المدن والجماهير ، وغرض أعدائنا الخبثاء من ذلك أن نعتقد أن الجماهير لا تضرّنا ، وأن يستميلونا للاقتراب أكثر من العالم .

٧٨ كثيراً ما نُقِضَ النوح بكلمة واحدة ، وعجيبةٌ حقاً إنْ يكن جمعه

(١) أي بالعودة إلى المخافة .

(٢) يقصد أن يقول أن دالة حب البنين الراسخ ، لا تأتي إلاّ تلقائياً بعد إيفاء الالتزام بواجبات مخافة العبيد .

(٣) ل. + المواد التي تجفف الدموع هي الخمر ، وزيادة المأكول ، أو عدم التعفف بصفة عامة .

(٤) المجد الباطل والقوة والسلطة هي وقود العظمة ؛ انظر (أشعياء ١٤: ١١ - ١٤) .

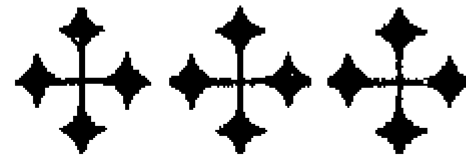
(٥) د : + الدموع هي التي

(٦) يقصد المؤلف القديس بهذه الفقرة ، أن السكنى في القفر على انفراد في مسكنٍ بسيط خالٍ من الزينة والراحة والأثاث الوثير ، يبعث على التخشع .

من كلمة واحدة !

٧٩ ما نُلام يا إخوتي حين تغادر أنفسنا هذا العالم ، لأننا لم نجترح عجائب . ولا لأننا لم نكن من اللاهوتيين ، ولا لأننا لم نبلغ التأمّل ، لكنّنا سنقدّم بالتأكيد لإلهنا حساباً على كوننا لم ننح نوحاً متصلاً .

هذه درجة سابعة ، من حُسِبَ أهلاً لارتقائها فلْيُغِثْني ،
لأنه هو قد أُغيث ، إذ أنه بهذه الدرجة السابعة
قد اغتسل من أوساخ هذا العالم .





رفات الناسك اسطفان
أنظر ٧ : ٥٥

الدرجة الثامنة

التحرُّر من الغضب ؛ والوداعة

١ كما أنّ سكب الماء على اللهيب قليلاً قليلا يطفئ لهيبه ، كذلك دموع النوح الصادق تطفئ كل لهيبٍ للغضب وحِدَّة الطبع . فلذلك رتبناه تاليًا له .

٢ زوال الغضب أو الهدوء ، هو شهوة للهوان لا تشبع ، مثلما أن أتباع المجد الباطل لا يشبعون من مديح . التحرّر من الغضب هو انتصار على الطبيعة ، وعدم التأثر بالشتائم ؛ مكتَسَبَيْن من جهاداتنا وأعراقنا .

٣ الوداعة حالة راسخة للنفس ، تبقى فيها غير متأثّرة سواء بالخبر الطيِّب أم بالخبر الرديء ؛ سواء بالإهانات أم بالكرامات .

٤ بداية التحرّر من الغضب هي صمت الشفتين مع اضطراب القلب . توسّط زوال الغضب هو صمت الأفكار مع مجرد اضطراب النفس . أما كمال الانتصار على الغضب هدوءٌ للنفس رصين وقت هبوب رياح نجسة .

٥ الغضبِ هو مذكّر ببغضةٍ خفيّة ، أعني ، تذكُّر الشر[1] . الغضب هو شهوة الإضرار بمن أساء إلينا .

---

(١) المقصود تذكُّر أخطاء الغير في حقّنا ، أي الحقد ، المُعَبر عنه في صلاة الصلح في القداس الباسيلي : " تذكّر الشر المُلبس الموت " .

٦ حِدّة الخُلق هي توقُّد القلب في غير أوانٍ وغير مناسبة .

٧ المرارة[١] هي حركة استياء مقيم في النفس .

٨ التذمّر حركة تقلّب في المزاج ، واضطراب في النفس .

٩ كما أنه بظهور النور يتبدّد الظلام ، كذلك من عبير التواضع تختفي كل مرارة وغضب .

١٠ البعض بسبب سرعة اهتياجهم ، يهملون في معالجة أنفسهم من هذا الداء. هؤلاء لا يفطنون قول القائل:" إن لحظة غضبه هي هلاكه ؟ "[٢].

١١ توجد حركة رحي سريعة ، تطحن في لحظة واحدة وتلاشي كميةً من حنطة روحية ومحصول ، أكثر مما تطحنه رحى أخرى في يوم كامل . هكذا ينبغي أن نتيّقظ لأنفسنا بتفّهم .

وقد يوجد توقّد لهيب ، تضرمه فجأةً ريحٌ شديدة ، فيُهلك حقلَ قلبنا أكثر من ذبالة متباطئةٍ في زمن طويل .

١٢ ما ينبغي أن يخفى عنا يا أحبائي أن الشياطين الخَبثة ، يبارحوننا فجأة في وقتٍ ، حتى نهمل أسقامنا الجسام كأنها ذات أهمية قليلة . وهكذا نزمن في أمراضنا ويتعذّر شفاؤنا .

١٣ كما أن حجراً حاد الزوايا مضرّساً ، إذ يصادم حجارةً أخرى ويقارعها ويتقلّب معها ، تتفتت كافة حدة زواياه ، وتزول صلابته ويصير مدوّراً ، هكذا النفس الحادة الجافية إذ تختلط بأناس صعبةٍ وحادةٍ أخلاقهم ،

---

(١) أفسس ٤ : ٣١ (٢) يشوع ابن سيراخ ١ : ٢٢

وتقيم معهم في شركة ، من شأنها أن تواجه أحد أمرين : إمّـا أن تَشـفِي مـن تلقاء صبرها جرحها ، وإمّا أن تنسحب فتتعرف تماماً على ضعفها ، إذ يُظهِر لها هربُها جبانَتها كما في مرآة .

١٤ الغضوب مصروعٌ بإرادته ، إذ بسـجيّة غاصبة يواصل السقوط والانجراح .

١٥ لا شيء يقاوم التائبين أكثر من اهتياج الغضب ، إذ أن رجعة التوبة تستلزم كثيراً من التواضع. وأما الغضب فهو دلالة على كثرة الوهم الباطل.

١٦ إن كانت هذه علامَة وداعةٍ فائقة أن يكون القلـب ممتلئـاً بـالهدوء والمحبة نحو من يسيئ إلينا، حتى في حضوره ؛ فمن البيِّن أن علامة الغضوب ، هي أن يواصل مشاجِراً محتدِماً على من أحزنه ، بأقوالـه وإيماءاتـه ، حتـى لـو كان وحده .

١٧ إذا كان الروح القدس هو سلام النفس ، كما قيـل عنـه ، وكمـا هو بالحقيقة . وإن كان الغضب هو اضطراب القلب ، كما قيل عنه ، وكما هو بالحقيقة ؛ فليس شيءٌ يمنع حضوره الإلهي فينا مثل الغضب .

١٨ إننا نعرف للغضـب أولاداً كثيرين لا يُطـاقون ؛ لكننـا نعـرف لـه ولداً واحداً وُلِدَ له بغير اختياره ؛ وهو وإن كان نغلاً[١] إلاّ أنه نافع :

رأيت أناساً قد استشاطوا بجنون ، فتقيّأوا حقداً كان مخزونـاً فيهـم منـذ زمن طويل، وهكذا تخلّصوا بدائهم عينه من داءٍ آخر. واستمدوا ممن غمّهم،

(١) النغل : هو الابن غير الشرعي ؛ انظر (عبرانيين ١٢ : ٨) .

إمّا توبته إليهم وإمّا شرح عذره لديهم عما كان يحزنهم منه زمنا طويلاً .

١٩ رأيت أناساً يَبدون أنهم طوال الأناة ، لكنه طول أناة بهيمي ، إذ يربّون في باطنهم تحت ستار الصمت حقدهم . فاعتبرتُ هؤلاء أكثر شقاءً من الغضوبين[١] ، لأنهم طردوا الحمامة البيضاء بالسواد[٢] .

٢٠ يجب علينا أن نحرص كثيراً في التخلّص من هذه الحيّة ، فإنها ـ شأنها شأن حيّة النجاسات الجسدية ـ تجد طبيعتنا معاونةً لها .

٢١ أبصرت أناساً قد أغتاظوا ، ومن مرارة غضبهم أبعدوا الطعام عنهم . فاستمّدوا بتقشّفهم غير المعقول سمّاً على سمّهم[٣]

ورأيت آخرين إذ أُسخطوا كأنه بحجةٍ معقولة ، أسلموا ذواتهم لنهم بطونهم ؛ فسقطوا من حفرةٍ إلى هاوية[٤] . رأيت أناساً عقلاء ، مثل أطباء حاذقين ، قد مزجوا صنفاً بآخر ، فانتفعوا أعظم المنافع من تعزيةٍ للجسم معتدلة .

٢٢ ينجح الترتيل المعتدل أحياناً في إزالة الغضب . لكنه أحياناً إذا تجاوز الاعتدال أو الوقت الملائم الموافق له ، يقود إلى التلذّذ . فإذا حدّدنا أوقاتاً معينّة للترتيل ، انتفعنا منه .

٢٣ عند خروجي يوماً خارج قلايتي ـ في حاجة من الحوائج ـ أقمت . بجانب بعض المتوّحدين . فسمعت من بينهم بعضاً يعاركون داخل قلاليهم

(١) ب ، م : من المجانين .
(٢) ل : بالحقد الأسود
(٣) أي ازداد انغلابهم للغضب .
(٤) أي من حفرة الغضب ، إلى هاوية النهم ـ وهو أشدّ خطراً من الغضب .

على انفرادهم من مـرارة غيظهـم وغضبهـم ، ومثـل حَجَـل[1] في أقفاصهـا ، كانوا يتوثّبون إلى وجه من يضادّهم كأنه حاضر لديهم . فأشرت أنـا عليهـم بتورّعٍ ألاّ يقيموا في الوحدة ، لئـلا يتحولـوا مـن بشـر إلى شياطين . رأيـت أيضاً ـ عكس ذلك ـ أناساً قلوبهم فاسقة فاسدة ، ودعاء مَلاّقـين بشوشـين ، متودّدين إلىٰ إخوتهـم ، يُغرمـون بـالوجوه الجميلـة . فنصحتهـم أن يلتحقـوا بالسيرة التوحّدية ، كدواءٍ مضادٍ للشهوانية والغذاء ، لئـلا ينحطّـوا انحطاطـاً محزناً من الطبيعة العاقلة ، إلى طبيعة الحيوانات الأعجمية .

لكـن لما قـال لي البعـض إنهـم لتعاسـتهم جـامحون إلى هذيـن الوجعـين كليهما[2] ، منعتهم تماماً عن أن ، يعيشوا عيشةً مستقلة حسـب مشـيئتهم ، واقترحت بمحبة على رؤسائهم أن يفسحوا لهم أن يسلكوا هذه السيرة حيناً ، وتلك حيناً آخر ـ إنما عليهـم أن يظلّـوا علـى الـدوام خـاضعين تمامـاً لقيـادة رئيسهم .

٢٤ إن محبّ لذّة الفسـق معرَّض لأن يضـرّ ذاتـه ، ولعلـه يضـرّ أيضـاً واحداً آخر ، صديقاً حميماً له . أما الغضوب ، فهو مثل الذئب يزعـج غالبـاً القطيع كلّه ويضرّ نفوساً كثيرة ويثبّط همّتها .

٢٥ إنه شرّ فادح أن تتكدّر عين القلب ، بحسب القـائل : " تكـدّرت من الغضب عيناي[3] . لكن الأردأ هو أن نُظِهرَ بشفاهنا اهتياج النفس . أمّا إظهاره بأيدينا ، فهو بالكلية غير ملائم وغريب عن السيرة الرهبانية الملائكية المقدسة .

---

(١) جمع حجلة : طائر في حجم الحمام ، أحمر المنقار والرجلين ، يعيش في مرتفعات الجبال . (انظر صموئيل الأول ٢٦ : ٢٠ ، أرميا ١٧ : ١١)

(٢) أي للغضب والشهوانية معاً .

(٣) مزمور ٦ : ٧

٢٦ إن كنت تريد، أو بالحري تدّعي أن تُخرج قَذىً من عين أخيك ، فلا تستعمل لاستخراجها قضيباً بدلاً من مِرْوَد، لئلا تدفعها إلى العمق أكثر. أما القضيب فهو الكلام الغليظ والحركات العنيفة . وأما المروَد فهو تعليم هادئ وتأنيب صبور . يقول الرسول ، " وبخّ ، انتهر ، عِظْ[1] " ، ولم يقل " اضربْ " . وحتى لو لزم هذا ، فلا تفعله إلاّ نادراً ، وليس بيدك .

٢٧ إذا تأملنا نرى أن كثيرين من الغضوبين يجتهدون في ممارسة الأصوام والأسهار والصمت[2] . لأن غرض الشياطين من ذلك هو أن يقترحوا عليهم بحجّة التوبة والنوح ، أن يمارسوا الأمور المنمِّية للغضب .

٢٨ إن كان ذئبٌ واحد ـ كما سبق أن قلنا ـ يستطيع بمساعدة الشياطين أن يزعج قطيعاً بأكمله ؛ فمن البيّن أن أخاً واحداً متفاضلاً في الحكمة ، يستطيع بمعونة ملاك أن يخفّف الأمواج ، ويجعل السفينة ساكنة ، كما لو كان زقّاً جيّداً ممتلئاً زيتاً فوق الأمواج[3] . بقدر ما تكون عقوبة الأول جسيمة ، بقدر ما تعظم مكافأة الثاني من ا لله ، إذ يصير للجميع رسماً للإعانة .

٢٩ ✠ ابتداء طول الروح السعيد هو اقتبال الإهانات بمرارة نفس وحزن قلب .

✠ ووسطه هو البقاء بلا اغتمام .

✠ وكماله ، إن كان ممكناً ، هو احتسابها كأنها مديحٌ وكرامة.

---

(١) تيموثاوس الثانية ٤ : ٢ (٢) د : السكون

(٣) يتكلم القديس هنا بالمجاز : فالزق يعني به الجسد ، والزيت يعني به الوداعة، والموج يعني به الكبرياء والغضب ، والسفينة ترمز إلى المجمع أو شركة الإخوة ، أو مجرد شخص مفرد .

فالأول من هؤلاء الثلاثة ، فليفرح ، والثاني ، فليتشدَّد . والثالث مغبوط ، لأنه أوفر ابتهاجاً في الرب .

٣٠ رأيتُ من الغضوبين منظراً يُرثى له ، يَعرض لهم نتيجة لترفّعهم ، الذي لا ينتبهون إليه ؛ فإنهم إذا اغتاظوا يصيرون بعد أكثر غيظاً لأجل انغلابهم للغيظ . فاندهشت إذا رأيت سقطةً يُعاقَب عليها بسقطةٍ ؛ ورثيت لهم حين رأيتهم ينتقمون من خطيئة بخطيئة ، وارتعبت من خداع الشياطين ، وأفضيت أن أقارب الإياس من حياتي .

٣١ إذا لاحظ أحدٌ أنه ينغلب بسهولة من العُجب[1] وحدّة الخلق والخبث والرياء ، وصمَّم على أن يتقلّد مقابل هذه الأدواء سيفاً ذا حدّين هما الوداعة وطول الأناة ؛ فسبيل هذا أن يذهب ـ كما إلى دكّان قصّار للخلاص ـ إلى مجمع إخوة يكونون خصوصاً أوفرَ قسوةً من غيرهم ، وأصعب مراساً ؛ إن كان يشاء أن ينعتق تماماً من تلك الأسقام ، لكي بشتائم الإخوة وإهاناتهم وعواصفهم الثائرة ضده، يُشَدَّ ويُضرب[2] روحياً ؛ أو لعلّه يُجْلَد أحياناً جلداً محسوساً ويُداس ويُرفَس ، وهكذا يغتسل من الوسَخ الكائن بعد في الجزء المدرِك من نفسه . يقنعك بهذا قول العامة إن تعييرات الناس هي المغسل لأسقام النفس . لأن أناس العالم حين يتباهون قدام الآخرين بأنهم رشقوا أحداً بالإهانات في وجهه يقولون : " إنني قد غسلته جيداً ! " وهذا صادقٌ تماماً .

٣٢ إنّ زوال الغضب الذي يوجد عند المبتدئين نتيجةً للنوح شيءٌ ؛

---

(١) د : الكبرياء (٢) " يُشدّ ... ويضرب " الإشارة هنا إلى عمل القصّار . انظر (مرقس ٩ : ٣) .

والهدوء الثابت الموجود في التأمّين شيءٌ آخر . فعند الأولين ، يكون الغضب مربوطاً بواسطة الدموع كما بلجام ، أما عند الكاملين ، فقد قتله زوال الأسقام ، كما تُقتل حيّة بسيف .

٣٣ رأيت مرة ثلاثة رهبان ، قد أهينوا في وقتٍ واحد بنفس الإهانة . الأول لذعه الهوان واضطرب ، لكنه سكت ؛ والثاني فرح بفائدة نفسه وأغتمّ على مَن أهانه . أما الثالث فبتفكّره في الضرر الذي أصاب قريبه بكى بكاءً حارّاً. وهكذا أمكن رؤية المخافة والثواب والحبّ ، كلاً في عمله .

٣٤ كما أن الحمّى التي تصيب الجسد هي واحدة ، لكن ليس لها دائماً سببٌ واحد ، بل يمكن أن تنشأ عن أسباب كثيرة . فكذلك غليان الغضب وحركة باقي الأسقام ، عللها كثيرةٌ ومختلفة . لذلك يتعذر أن يُفرَض بشأنها قانونٌ واحد .

لكنني أعطي بالحري رأياً، أن يبحث كل واحد من السقماء بعناية بالغة، عن الطريقة الواجب إتباعها لأجل شفائه من سقمه الخاص . فالخطوة الأولى من العلاج يجب أن تكون معرفة سبب المرض ؛ لأنه عندما يُكشَف هذا ، سينال المريض بعناية الله واهتمام طبيبه الروحي الدواء الفعال الملائم لسقمه.

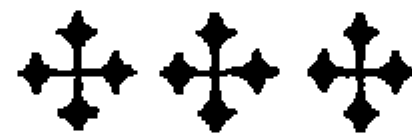
فالذين يريدون أن ينضمّوا إلينا في الرب ، عليهم أن يدخلوا هذه المحكمة الروحية ـ التي سأصّورها لهم رمزياً لكي نفحص معاً ما يختصّ بالآلام المتقدم ذكرها وبأسبابها .

٣٥ فليُربَط الغضب المستّبد بسلاسل الوداعة، وليُضربْ بطول الأناة،

ويُستحبِ بالحب المقـدّس . وإذ يستدعى للمثـول أمام محكمـة العقـل هـذه فليُستجوب استجواباً وافياً : " قُلْ لنـا أيهـا الأبلـه الخسـيس ، اسـم والـدك واسم والدتك الفاسدة ، وأسماء أبنائك وبناتك الأنجاس ؛ وليس ذلك فقط ، بل أوضح لنا أيضاً أسماء الذين يحاربونك ويقتلونك " . فقال لي مجيباً : " أمّا من ولدوني فكثيرون ؛ فلي أكثر من أب واحد . أمهاتي هن المجـد البـاطل ، ومحبّـة الفضـة ونهـم البطـن ، وأحيانـاً الزنـا . والـدي الـذي ولدنـي يُسـمّى العُجب[1] ، وبناتي هن الحقد والبغضة ، والعداوة ، والمنازعة .

أما الذين يعادونني وقد حصروني الآن أسيراً ، فهم الفضائل التي تضـادّ هذه الرذائل ، أي التحررّ من الغضب والوداعة .والذي يدبّر المكيدة ضـدي يُدعَـى التواضـع . أمـا عـن الـتي ولـدت الاتضـاع ، فاسـألها هـي في الوقـت المناسب .

على الدرجة الثـامنة من السلّم ، قد وُضع إكليل التحررّ من الغضب ، فمَن لـبسه مِن طبيـعته فـربـما لا يلبـس غـيره ، ومن لبسه من أعراقه ، فقد ارتقى كلاً من الدرجات السبع الأخرى[2] .



(١) د . م : الكبرياء

(٢) ب ، ل . م : فقد غلب الثمانية معاً

الدرجة التاسعة

الحِقْـــــــد[1]

١ تُشبَّه الفضائل المقدسة ، بسلّم يعقـوب[2] . أما الرذائـل الشـريرة ، فتُشبَّه بالسلسلة الواقعة عن بطرس[3] هامـة الرسـل . لأن الفضـائل إذ تقـود واحدة منها إلى أخرى ، تحمل من يختارها إلى السماء . أمـا طبيعـة الرذائـل فهي أن تلد إحداها رفيقَتها وتضمّها إليها . وإذ سمعنا الغضب الأبله ، يقـول توّاً إنّ الحقد ولده ؛ لذلك فمن المناسب الآن أن نقول فيه شيئاً .

٢ الحقد هو اكتمـال الغضـب ، حـافظ الخطايـا ، مقـت الـبرّ ، هـلاك الفضـائل ، سمّ النفس، دودة العقل ، استخزاء الصلاة[4] ، نُضُوب التوسّل ، إبعاد الحبّ ؛ إنه مسمارٌ مغروز في النفس ، إحساس خالٍ من لـذّة ، محبـوبٌ بلذّة المرارة ؛ خطيئةٌ متواصلة . هو إثم لا ينام ، وغيظٌ في كل ساعة .

٣ هذا الداء المظلم الكريه ، أعني الحقـد ، هـو مـن الأدواء المولـودة ، لكن ليس له ولد . لذلك لسنا نشاء أن نتكلّم فيه أقوالاً كثيرة .

٤ مَن وضع حدّاً للغضب[5] ، فقد استأصل الحقد أيضاً ؛ لأن الإنجـاب يستمر فقط ، عندما يكون الأب حيّاً .

٥ مَن اقتنى المحبّة فقد طرد الانتقام ، ومن يزرع العـداوة يجمـع لنفسـه أتعاباً بلا طائل .

---

(١) أو الضغينة أو الخبث أو تذكّر الشر . (٢) تكوين ٢٨ : ١٠ ـ ١٨ (٣) أنظر أعمال الرسل ١٢ : ٧

(٤) أي عدم استجابة الصلاة وعودتها مخزية إلى المصلّي . (٥) د : من سكّن الغضب

٦ مائدة الحبّ تبـدِّد البغضـة ، وهدايـا الإخـلاص تهـدّئ نفس قابلهـا وتُلَيِّنها . ومائدة خالية من احتراس ، هي أمّ الدالّة ؛ ومن نافذة الحب يَلجُ[١] نهمُ البطن .

٧ رأيت مقتاً يفسخ رباط زنىً دام طويلاً ، وحدث بعد ذلك أن الحقد - بوسيلة عجيبة - لم يدع الرباط المفسوخ يتجدّد ؛ فكان ذلك منظراً مستغرباً أن شيطاناً يشفي شيطاناً . ولعلّ هذا فعلٌ وتدبيرٌ إلهي حكيم ، وليس من فعل الشياطين .

٨ الحقد ينتزح بعيداً عن الحب الطبيعي الأصيل ، الذي يقترب منه الزنى بسهولة ؛ مثلما يمكن أن تُرى قملةُ مختفيةً في حمامة[٢] .

٩ إن حقدت فاحقد على الشياطين ، وإن عاديتَ فعادِ على الدوام جسدك، فإن الجسم صديق مخادع خائن؛ كلما اعتنيت به، كلما أساء إليك.

١٠ الحقد مفسّر يشرح معاني الكتاب ، من شأنه أن يعدِّل أقوال الروح[٣] بحسب آرائه الخاصة ؛ فلتُخزِهِ صلاة يسوع[٤] ربنا التي لا يمكننا أن نقولها معه : " اغفر لنا كما نغفر نحن " .

١١ إذا لم تستطع بعد نضالٍ كثير ، أن تستخرج هذه الشوكة ، فتُبْ[٥] لعدوّك ولو بالكلام فقط ؛ فربما تخجل بعد ذلك من طول مراءاتك إيّاه ، وإذ يلدغك ضميرك مثل النار ، قد تميل نحوه بالحب التامّ .

(١) أي يدخل (٢) ب : قملة الزنا في حمامة الحب. (٣) الروح القدس

(٤) " صلاة يسوع " المستعملة في الكنيسة الأرثوذكسية هي " يارب يسوع المسيح ابن الله ارحمني ، أو ياربي يسوع ارحمني " وما قيل في هذه الفقرة ينطبق كذلك على الصلاة الربيّة ، وبالتحديد ، على عبارة " اغفر لنا ما علينا ، لأننا نحن أيضاً نغفر لكل مَن لنا عليهم " (لوقا ١١ : ٤) .

(٥) د : فاعمل مطانية

١٢ تعرف أنك قد تخلَّصت تماماً من هذا الفساد ، ليس إذا صلَّيت من أجل الذي ساءك ، ولا إذا بادلته الهدايا ، ولا إذا أحضرته إلى مائدتك ، لكن فقط إذا سمعت أنه قد تكبّد مصيبةً روحيةً أو جسدية ؛ فتوجّعت وبكيت لأجله ، كتوجّعك وبكائك لأجل نفسك .

١٣ سكوتيٌّ[١] حقود ، أفعى في جحرها مشتملةً سمّاً مميتاً في باطنها .

١٤ تذكار آلام يسوع ربنا تشفي النفس من الحقد ، إذ تخزى بقوة من احتماله[٢] .

١٥ الخشبة النَخِرة يتولد في باطنها الدود ، والضغينة تقيم في ودعاء زائفين وهادئين بحسب الظاهر .

من طردها فقد وجد صفحاً ، ومن لاصقها فقد حُرِم من الرأفة .

١٦ البعضُ لكي ينالوا الصفح عنهم ، أسلموا ذواتهم للأتعاب والأعراق . لكن الإنسان الذي ينسى الأخطاء قد تفوّق عليهم ، إذ قيل : " اصفحوا سريعاً ، فيُصفح عنكم صفحاً وافراً جليلاً[٣] ".

١٧ نسيان الإساءات[٤] ، دليل على التوبة الخالصة . لكن من يُبقي عليها ويظنّ أنه يتوب ، فهو شبيه بمن يعدو في نومه .

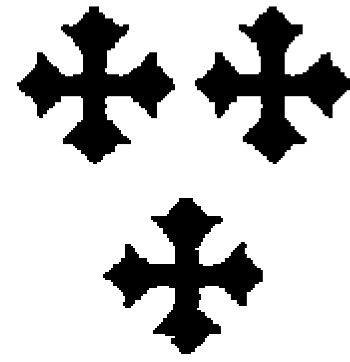
١٨ رأيت حقودين ينصحون غيرهم أن ينسوا الإساءات ، وإذ خجلوا من أقوالهم عينها ، تخلّصوا من دائهم .

---

(١) المقصود بالسكوتي هنا ، الراهب المتوحّد أو الحبيس في السكون .
(٢) د ، ل : وداعته .
(٣) قارن (لوقا ٦ : ٣٧ ، ٣٨) .
(٤) ب : زوال الحقد .

١٩ لا يتوهّمن أحدٌ أن هذا الحقد الأسود داء حقـير ، فإنه كثيراً ما ينجح في الوصول إلى الرجال الروحانيين .

هذه درجـةٌ تاسـعة ، من بلغـها
فليطلب بدالّةٍ من الإله مخلصنا
صفحاً عن خطاياه[1]



(١) ل : + عن المستقبل

الدرجة العاشرة

الوقيعة*

١ يلوح لي أن لا أحد من العقلاء يقاومنا في أن الوقيعة لا تتولّد إلاّ من البغضاء والحقد . لذلك تجئ في الترتيب تاليةً لأسلافها .

٢ الوقيعة هي نتاج المقت ، سقمٌ دقيق لكنه قاسٍ ؛ عَلَقَةٌ مندسّة غير محسوسة ، تستنزف وتبدّد دم الحب . إنها تظاهرٌ بالحبّ ، وهي تسود على قلب وسخ كئيب . الوقيعة إبادة للعفّة .

٣ كما توجد فتياتٌ يفعلن الشر بلا حياء ، وأخريات يتظاهرن بالإحتشام ويعملن في الخفاء أعمالاً أشرّ من أعمال الأوليات ؛ هكذا الحال مع الأوجاع المخزية[1] . هؤلاء الفتيات هن : الرياء والخبث ، والاغتمام ، والحقد ، والوقيعة التي تنبع من القلب[2] ؛ تدّعي أنّها تقصد شيئاً ، إلاّ أنّها تهدف إلى شئٍ آخر .

٤ سمعت البعض يغتابون قريبهم ، فوبّختهم . فأجابني فاعلو الشر مدافعين عن أنفسهم بقولهم إنهم يعملون هذا العمل من تلقاء حبّهم واهتمامهم بمن يغتابونه . فقلت لهم : " كفّوا عن مثل هذا الحبّ ، وإلاّ فأنتم تُكذّبون القائل : " الذي يغتاب قريبه سرّاً ، كنت أطرده[3] " . فإن

---

* هي السبّ والاغتياب (سبّ إنسان وتوجيه اللوم إليه في غيابه) .

(١) قارن رومية (١ : ٢٦) : " أهواء الهوان " .

(٢) هناك وقيعة ناتجة عن عدم معرفة أو عدم حرص ، يتوب عنها الواقع سريعاً ، حالما يعرف أنها خطيئة ، وهناك وقيعة نابعة من قلب يستوعب بغضة دفينة .

(٣) مزمور ١٠١ : ٥

كنت تحبّه كما تقول ، فصلِّ من أجله في الخفاء ، ولا تثلبه . لأن هذا هو نوع الحبّ الذي يقبله الله .

٥ لا يخفَ عليك هذا ، واحرص بعناية ألاّ تدين خاطئاً : كان يهوذا في عداد الرسل التلاميذ ، وكان اللص في عداد القاتلين . لكن أيّ تغيُّر عجيب حدث في لحظة[١] !

٦ إن شاء أحدٌ أن يقهر روح الوقيعة ، فلا ينسب اللوم إلى المذنب بل لينسبه إلى الشيطان الذي اقترحها. فلا أحد بالحقيقة يريد أن يخطئ إلى الله ، مع أننا جميعاً نأتي الخطيئة ، دون أن نكون مغصوبين .

٧ أعرف إنساناً قد أخطأ علانيةً ، لكنه تاب سرّاً فالذي أدنته على أنه زانٍ ، كان قدام الله عفيفاً ، إذ استعطفه برجعة صادقة .

٨ لا تستحِ قط ممن يغتاب[٢] لديك قريبه ، بل بالحري قلْ له : " كفاك يا أخي ! إنني في كل يوم أسقط في خطايا أخطر من هذه . فكيف أستطيع أن أدين ذاك ؟ " بهذا سَتربح فائدتين ، إذ بضمادة واحدة تشفي نفسك وتشفي قريبك . وهذه واحدة من الطرق الوجيزة المؤدّية إلى الصفح عن الخطايا ؛ أعني ألاّ ندين ، إن كان هذا القولُ صدقاً : " لا تدينوا فما تداتوا[٣] "

٩ النار غريبة عن الماء ، وكذلك إدانة الآخرين غريبة عمن يريد أن يتوب .

(١) ل : أيّ تغيير عندما جاءت المحنة ! (٢) ل : "لا تراعِ مشاعر من يغتاب" . (٣) لوقا ٦ : ٣٧.

١٠ لو رأيت واحداً يذنب في نفس لحظة موته ، فحتى في ذلك الحين لا تدِنه ؛ لأن قضاء الله غامضٌ على البشر .

١١ سقط أناسٌ في خطايا عظيمةٍ جهاراً ، لكنهم عملوا صالحات أعظم منها في السر مكتومة ، وبذلك انخدع الذين دانوهم إذ ضبطوا عوضاً عن الشمس دخاناً[١] .

١٢ اصغوا إليَّ يا كافة الحاقدين ، الناقدين أمور غيرهم ! اسمعوا إن كان هذا صدقاً ــ وهو بالتأكيد صادق ــ " بالدينونة التي بها تدينون ، تُدانون[٢] " . إذن أيّة خطايا نلوم عليها قريبنا ، إن كانت جسمانية أم نفسانية ، سنسقط فيها عينها . الأمر حقٌّ ويقين .

١٣ أولئك المسارعون إلى تفحّص خطايا قريبهم وإدانته بقسوة ، يسقطون في هذا الوجع ؛ لأنهم لم يبلغوا التذكّر التامّ والاهتمام الدائم بخطاياهم . لأنه إن استطاع أحد أن يعاين رذائله الخاصة كلها باستقصاء ، من غير حجاب حبِّه لذاته ، فلن يهتمّ فيما بعد بشيء آخر طوال حياته ، معتبراً أن ما يتبقى من عمره لا يكفيه للنوح على ذاته ، حتى ولو عاش مائة سنة ، وحتى ولو أبصر نهر الأردن كله منهملاً من عينيه دموعاً .

١٤ لقد تفحّصت النوح ، فما وجدت فيه أقلَّ أثرٍ لوقيعة أو لإدانة الآخرين .

١٥ إنّ الشياطين ، إمّا أن يستحثّونا على الإخطاء ، وإمّا ــ إن فشلوا في ذلك ــ أن يحثّونا على إدانة الذين يخطئون ، لكي يدنّس القتّالون بالرذيلة

---

(١) هنا تعبير مجازي ، فالمؤلف القديس يقصد بالشمس صالحات أولئك ، وبالدخان ذنوبهم الظاهرة التي أخفت شمس فضائلهم

(٢) متى ٧ : ٢

الثانية ، الفضيلة الأولى وهي عدم الإخطاء[1].

١٦ اعلم أن هذه علامة بها يُعرَف الحقودون[2] والمغتابون ، أن يُـرَوْن مغمورين في روح البغضة ، حتى أنهـم بتلـذّذٍ وسـهولة[3] يذمّـون ويحتقـرون تعاليم قريبهم أو أعماله أو فضائله .

١٧ رأيت أناساً قد اقترفوا في الخفاء بعيداً عن الأنظار، أخطر الخطايـا؛ وفي طهارتهم المزعومة كانوا يُسبُّون بشراسةٍ وعلانيـة ، مَـن كـانت لهـم زلّـة تافهة ؛ وبما يُتوهّم من طهارتهم، قد سبُّوا الذين أذنبوا ذنوباً حقيرةً في العلن، مستنكرين أفعالهم ومستهزئين بهم استهزاءً هذا مقداره .

١٨ إن الحكم على الآخريـن ؛ هـو اختـلاس وقـح لسـلطةٍ تخـصّ الله وحده[4] ؛ إدانة الرفيق إهلاك للنفس .

١٩ كما أن العجُب يقتدر أن يهلك الإنسان خلواً من أيّ داء آخـر ؛ كذلك الدينونة إذا تمكّنت فينا ، يمكنها وحدها منفـردة ، أن تهلكنـا هلاكـاً كاملاً . بما أن ذلك الفريسي ، بسبب هذا الأمر عينه حُكِم عليه[5] .

٢٠ مقتطف العنب يأكل الناضجَ منـه ، ولا يجمـع الحصـرم . والعقـل الودود الراجح ، يلاحظ بعناية كل ما يراه في الآخريـن مـن فضـائل ؛ لكـن الجاهل يتفحّص الزلات والمناقص . وعن مِثْلِهِ قيل : " تفحّصوا إثمـاً ، فَفَنـوا في تفحُّصِهم[6] " .

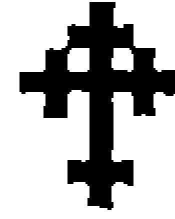
---

(١) ل: " لكي يلطّخونا بنفس الدنس الذي بسببه تدين غيرنا " . (٢) د ، م : الحسودون.

(٣) ل : ودون وخزٍ من ضمائرهم (٤) يعقوب ٥ : ٩ (٥) لوقا ١٨ : ١٠ - ١٤ (٦) مزمور ٦٤ : ٦

٢١ لا تدِنْ أحداً ، حتى إن رأيت بعينيك ، فإنهما كثيراً ما تنخدعان[١] .

هذا مطْلعٌ عاشر ، من وطأه
فهو فاعل الحب
أو النوح .



(١) الذي يحكم على الغير بمقتضى منطقه وحواسّه فقط ينخدع غالباً ، لأن الإنسان " الروحي | فقط هو الذي يستطيع أن | يحكم في كل شيء | بالروح القدس الذي فيه | " (راجع كورنثوس الأولى ٢ : ١٠ - ١٥) ؛ كذلك قيل في النبوّة عن الرب يسوع : " يحلّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب. ولذّته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه. بل يقضي بالعدل ... ويحكم بالإنصاف . ويكون البرّ منطقة متنيه والأمانة منطقة حقويه " . (أشعياء ١١ : ٢ - ٥)

الدرجة الحادية عشرة

إكثار الكلام والصمت

١ فيما سلف ، تكلمت بإيجاز عن كيف أنه خطرٌ جداً علينا أن ندين الآخرين ، وكيف أن هذه الرذيلة تتسلل حتى نحو الذين يبدو عليهم كثيراً أنهم روحيون ؛ أو بالحري ، كيف هو مخيفٌ أن يكون المرءُ نفسه مُداناً محكوماً عليه من جراء لسانه[١] .

يتبقّى الآن أن أقول ما هي علّة الإدانة ، وأن أوضّح الباب الذي منه تدخل ، أو بالحري الذي منه تخرج .

٢ إكثار الكلام هو العرش الذي عليه يحبّ المجد الباطل أن يستعرض ذاته متباهياً . إكثار الكلام دليل على الجهالة ، وهو باب الوقيعة ، ومُرشِد إلى المزاح ؛ خادم الكذب، وهادم الخشوع ؛ مُبدِع الضجر ، وسابق النوم ؛ مشتّت انجماع العقل ، إبطال التحفّظ ، مبرِّد الحماسة ، وإظلام الصلاة .

٣ الصمت بمعرفة هو أمُّ الصلاة ، استرجاع من السبي ، حفظ الحرارة[٢] ؛ رقيب الأفكار ، راصِدُ الأعداء ؛ سجن النوح ، وخليل الدموع؛ صانع ذكر الموت، ومصوّر العذاب؛ محبّ الهذيذ في الدينونة، معينُ للهمّ[٣] وهو عدوّ الدّالة ، قرين الهدوء ، ومعاندٌ لحبّ التعليم ؛ زيادة المعرفة،

---

(١) أي أن يضع المرء نفسه تحت طائلة الدينونة الإلهية بسبب لسانه الذي يدين الآخرين ويغتابهم ، غير عالم أنه بذلك يدين نفسه ويحكم عليها، كما قال الرسول بولس: " في ما تدين غيرك ، تحكم على نفسك "(رومية ٢ :١)

(٢) د : النار

(٣) المقصود به الهمّ الذي يؤدي إلى الخلاص. انظر (كورنثوس الثانية ٧ : ٩ - ١١ أ)

ومُبدِعُ التأمل ؛ تقدُّم غير ملحوظ ، وصعود سرّي .

٤ من وعى خطاياه ضَبَط لسانه ؛ أمّا الثرثار ، فلم يعرف ذاته بعد كما يجب .

٥ صديق الصمت يقترب من الله ، وإذ يناجيه في الخفاء يستنير منه .

٦ سكوت يسوع أخجل بيلاطس[١]،وهدوء الرجل يُبطِل المجد الباطل.

٧ بطرس إذ قال كلمةً ؛ بكى بكاءً مرّاً ، إذ نسي قول القائل " قلت أراقب طُرُقي لئلا أخطئ بلساني "[٢] ، والآخر القائل " السقوط من علوّ شاهق إلى الأرض ، أفضل من السقوط باللسان "[٣] .

٨ لست أشاء أن أكتب كثيراً بشأن هذا ، إلاّ أن خداعات الأوجاع تحثّني على ذلك . مرةً سمعت من إنسان كان يحدّثني عن صمت الفم ـ أنّ إكثار الكلام يتولّد دائماً من هذه العلل : إمّا من البيئة[٤] ومن التعوّد الرديء ـ لأن اللسان باعتباره عضواً من أعضاء جسمنا ، يحتاج كباقي الأعضاء إلى تدريب العادة ـ ؛ وإمّا ـ لا سيما في حالة المجاهدين[٥] ـ يتولّد من المجد الباطل ، وأحياناً من نهم البطن ، لهذا يحدث غالباً أن الذين يسودون على المعدة، يلجمون اللسان أيضاً مع ثرثرته ، بفضل تغصّبهم وضعف قواهم .

٩ من اهتم برحيله ، فقد أوجز أقواله ؛ ومن اقتنى نوح النفس[٦] ،

(١) أنظر (يوحنا ١٩ : ٩ ـ ١٠) (٢) مزمور ٣٩ : ١ (٣) يشوع ابن سيراخ ٢٠ : ١٨
(٤) ب : من التربية (٥) ل: النساك . (٦) ل : نوحاً روحياً

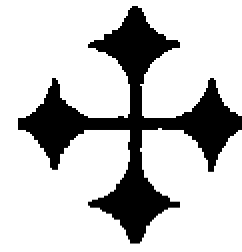
يهرب من الثرثرة كما من النار .

١٠ من أحبَّ هدوء الحواسّ[١] ، يغلق فمه ؛ أما من كانت مسرَّته في التجوّل خارجاً ، يطرده وجعُه[٢] خارج قلاّيته .

١١ من عرف شذا النار التي من فوق ، يهرب من لقاء الناس هرب النحلة من الدخان ؛ لأن النحلة يطردها الدخان، وذاك يتأذّى من الجماعة .

١٢ عسيرٌ أن يُضبط تدفُّق الماء بغير حاجز ، وأشدّ عُسراً أن يُقهَر لسانٌ غير مضبوط[٣] .

هذه درجة حادية عشر ؛ من قهرها
فقد حسم بضربة واحدة
كثرة من الشرور .



(١) د : السكون .
(٢) أي وجع الثرثرة
(٣) م : بغير إمساك : أي بغير تعفف (كالصوم وحفظ الصمت) .

الدرجة الثانية عشرة

الكـــذب

١ النار تتولّد من الحديد والحجر، والكذب وليد إكثار الكلام والمزاح.

٢ الكذب هو هلاك الحبّ وتغيّبه ، والحنث هو إنكار الله .

٣ لا يظنّ أحدٌ من العقلاء أن الكذب خطيئة صغيرة ، لأن الروح الأقدس ، قد حكم عليه حُكماً رهيباً ، أكثر من كل الخطايا[1] . فإن كان داود قد قال : " إنّك تهلك كل الناطقين بالكذب "[2] ، فماذا يكون حكم الذين يقرنون كذبةً بقسَم ؟

٤ رأيت أناساً يتباهون بمهارتهم في الكذب ، ويثيرون الضحك بمزاحهم وبباطل كلامهم ، وقد أبادوا ـ بكيفيةٍ تستوجب الرثاء ـ من السامعين عادة نوحهم .

٥ حين يرى الشياطين أننا عازمون على الانصراف عن استماع الأحاديث المضحكة لمحدِّث رديء منذ بداية أقواله ، كمن يبتعد عن مرضٍ مُعْدٍ ، حينئذ يرتادون أن يخدعونا بفكرين ، فإمّا يهجسون لنا : " لا تُحزِن المتحدّث " ، وإمّا : " لا تُظهر نفسك أكثر حبّاً لله من الحاضرين " . اهرب ، ولا تتعوّق ، وإلاّ ففي وقت صلاتك ستعود إلى ذاكرتك خواطر الضحك والمزاح. وليس فقط عليك أن تهرب، بل أَخْبِطْ بتورّعٍ ذلك المجمع الخبيث ، وفرِّقه بإحضارك إلى وسطه ذكْر الموت والدينونة . فإن الأفضل أن

---

(١) أنظر (أعمال الرسل ٥ : ١ ـ ١٠)

(٢) مزمور ٥ : ٦

تتلوّث - ربما - بقطرات قليلة من مجد باطل وتصير منفعةً لكثيرين .

٦ المراءاةُ أمُّ الكذب ، وربّما كانت هدفه ؛ لأن البعض يعرِّفونها بأنها ليست سوى احتراف الكذب[١] ، الذي يختلط بأيمان[٢] تستوجب عقاباً .

٧ الذي اقتنى مخافة الرب ، قد أبعد عنه الكذب ، لأن له ضميره قاضياً نزيهاً .

٨ كما نعرف أن لكلٍ من الأوجاع تنوّعاً في درجات ضرره ، فكذلك الحال أيضاً بالنسبة للكذب . فعقوبة الذي يكذب خوفاً من عقوبةٍ ، غير عقوبة الذي يكذب دون أن يتهدّده خطر .

٩ يوجد من يكذب لأجل خِفّته، وآخر يكذب بدافع من حبّ التلذّذ. وهناك من يكذب ليسبِّب للحاضرين ضحكاً ، وهناك أيضاً من يكذب لينصب لأخيه شَرَكاً ويلحق به ضرراً .

١٠ من عقوبات الرؤساء يتوقّف الكذب ، أمّا كثرة الدموع فتبيده تماماً .

١١ الذي يستعمل الكذب يتعلّل بالتدبير ، ويحتسب ما يُهلِك نفسه عملاً صالحاً[٣] . مختلق الكذب يدّعي أنه يتشبَّه براحاب[٤] ، ويقول إنّه يخلّص آخرين بإهلاك نفسه .

---

(١) ب ، ل ، م : المذيذ في الكذب .
(٢) الأيمان : جمع يمين ؛ وهو القسَم
(٣) ل : عمل محبة .
(٤) يشوع ٢ : ١ - ٢٣

١٢ بعد أن نتطهّر من الكذب تماماً ، فحينئذ فقط يمكننا أن نستعمله إنّما بمخافة وإذا استدعت الظروف ذلك[١] .

---

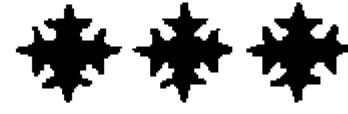
(١) لفهم هذه الفقرة، انظر (صموئيل الأول ١٦ : ١ - ٣) . وقد وردت ببستان الرهبان قصتان منهما نفهم أنه هناك تصرّفات لا تمكن أن نسمّيها كذباً ، بل هي حكمة من أجل خلاص النفس والآخرين وتكميل مشيئة الله وتمجيده ، تصرّفات لا تسيء إلى أحد ولا يلوم عليها الضمير أدنى ملامة : (أ) كان راهب بستانيّاً ، وقصد مرةً المضيّ إلى أحد الأديرة ، فقال لجاره الكاتب : " اعمل محبّة يا اخي واهتم بالبستان حتى أعود . " فأجابه الأخ : " صدّقني على قدر استطاعتي لن أتوانى عن الاهتمام به . " وبعد انصراف البستاني ، قال الكاتب لنفسه : " يا مسكين ؛ لقد وجدت خلوة ، فاهتم بالبستان ! " ثم إنه انتصب في قانونه من المساء إلى الصباح ولم يفتر عن الصلاة والتزمير بدموع . ومكث على هذه الحال طول النهار كذلك ، إذ كان يوم الأحد المقدس [الذي ينبغي فيه التعبّد فقط] فلمّا عاد البستاني عند المساء ، وجد البستان قد أفسدته القنافذ ؛ فقال للكاتب : " غفر الله لك يا أخي لأنك لم تهتم بالبستان ! " فأجابه ذاك : " يا معلّم ، عَلم الله إني قد بذلت كل قوّتي وحفظته ، والله قادر أن يعطينا منه ثمراً " ... وبعد وفاة الكاتب ظهر في رؤيا للبستاني، وقال له : " يا أخي ليرحمك الله كما رحمني .. ولقد طلبت إليه من أجلك ، لكن اترك البستان واهتم بالبستان الآخر؛ لأني في الساعة التي خرجت فيها نفسي، أبصرت دموعي قد أطفأت النار التي كانت تنتظرني " .

(ب) قيل عن راهب [شاب] إنه كان بليغاً في الإفراز، وسكن في قلاية خالية لأحد الشيوخ لأنه كان له قلاّيتان. ولكون الراهب من أهل الفضيلة ، كان يقصده بعض الرهبان لينتفعوا منه ، ويحملون إليه ما سهل عليهم حمله . فلمّا رأى الشيخ صاحب القلاّية ذلك بدأ يحسده بإيعاز من الشيطان ، وقال لتلميذه : " كم من السنين ونحن مقيمون هنا ، ولم يقصدنا أحد من أولئك الرهبان . أمّا هذا المحتال ففي أيام قلائل استمال إليه الكل ، امض اطرده من قلاّيتي . " فمضى التلميذ إلى الراهب ، وقال له : " إن معلّمي يسلّم عليك ويسأل عن صحّتك وأحوالك ، ويرجوك الصلاة لأجله لأنه مريض . كما يقول لك : إن كنت في حاجةٍ إلى شيء أقوم بتأديته لك " فقام الراهب وسجد للتلميذ ، وقال له : " أبلغه سلامي ، وقل له ، إنني بخير ببركة صلاتك ، وليس لي احتياج إلى شيء " . فعاد التلميذ إلى الشيخ وقال له : " إن الراهب يقبّل يديك ويسأل أن تصلّي لأجله ، وتمهله أياماً قلائل حتى يجد لنفسه قلاّية فيرتحل إليها. " فصبر الشيخ ثلاثة أيام ، وبعد ذلك أقلقه الحسد ، فقال لتلميذه : " اذهب وقل له : لقد صبرت أكثر من اللازم ، فاخرج من القلاّية ! " فأخذ التلميذ بركةً مما كان يوجد بالقلاّية ، وجاء إلى الراهب وسجد بين يديه ، وقال : " إن المعلّم يسلّم عليك ويسأل أن تقبل منه هذه البركة من أجل السيد المسيح ، وأن تصلّي من أجله لأنه مُتعب جداً ؛ ولولا توجّعه لكان حضر إليك . " فلمّا سمع الراهب ذلك أدمعت عيناه ، وقال

١٣ الطفل الصغير لا يعرف كذباً ، كذلك أيضاً النفس المتحرّرة من الخبث .

١٤ من أسكرته الخمر يقول الصدق بغير إرادته في كل ما يُسأل عنه، ومن أسكره الخشوع لا يستطيع أن يكذب .

المطلـع الثـــاني عشـر: من اعتلاه فقد اقتنى أصل الحسنات[٢].



'' إنني اشتهي أن أذهب وأبصره '' . فقال له التلميذ : '' لا يا أبت ، فإنه لا يحتمل أباً مثلك يرافقني إليه ، لئلا يلحقني من ذلك شر . ابق هاهنا وأنا ابلغه سلامك . '' ثم عاد إلى الشيخ قائلاً : '' إن الراهب يقول لك : لا يصعبْ عليك الأمر ولا تغضب ، ففي يوم الأحد سأخرج من قلاّيتك . '' فما زال الشيخ يترقّب ساعات الليل حتى يوم الأحد . فلمّا لم يخرج الراهب ، قام الشيخ وأخذ عصا وهو مسبي العقل طائر الفكر ، وقال لتلميذه : '' تعال معي إلى هذا المحتال ، فإن لم يخرج مختاراً ؛ طردته بالعصا مثل الكلب . '' فلمّا رآه التلميذ هائجاً ، وقد سلب العدو عقله ، قال له : '' أسألك يا أبي أن تسمع مشورتي بأن تبقى هاهنا ، وأنا أسبقك إليه وأبصر إن كان عنده رهبان ، لئلا إذا أبصروك على هذا الحال يطردونك عنه فلا تنال بُغيتك . أمّا إذا وجدتُه وحده أعلمتك لتمضي وتطرده . '' فاستصوب الشيخ كلام تلميذه ، وجلس يصرّ على أسنانه . ومضى التلميذ إلى الراهب وسجد له كعادته وقال : '' إن معلّمي يسلّم عليك ، ولمّا أعلمته أن جسمك ضعيف ؛ احترق قلبه ولم يستطع صبراً ، وقد جاء ليبصرك . '' فلمّا سمع الراهب ذلك خرج للوقت للقاء الشيخ بلا رداء ولا قلنسوة . فسبق التلميذ وقال لمعلّمه : '' هوذا الراهب قد ترك قلاّيتك ؛ وهاهوذا حاضر ليودّعك ويأخذ بركة صلاتك قبل انصرافه بسلام . '' فلمّا سمع الشيخ ذلك تذكّر كلامه السالف . وانكشفت عنه غمامة الحسد ، وظل حائراً لا يعلم ماذا يفعل ؛ ولشدّة خجله لم يقدر أن يرفع عينيه نحو الراهب ، فأخذ يولّي الإدبار . فلمّا رآه التلميذ على هذه الحال ، سجد له وقال : '' يا أبتاه ، التق بأخيك دون خجل ، فإن جميع ما قلته لي لم يصل إلى مسامعه قط . '' فلمّا سمع الشيخ ذلك فرح جداً ، والتقى بالراهب بفرح ورجع معه إلى قلاّيته ... فلمّا رجع الشيخ إلى قلاّيته ، سجد بين يديّ تلميذه ، وقال له : '' إنك منذ الآن أبي ، وأنا لا استحق أن أكون تلميذك ، لأنك بعقلك وسلامة ضميرك وحسن إفرازك خلّصت نفسي من الفضيحة . '' وهكذا فإن الله لا يفحص ويحكم على أقوالنا وأعمالنا ، بل يعتبر أيضاً إرادتنا ونوايانا .

(٢) د : أصل الفضائل .

الدرجة الثالثة عشرة

الضجَر[1]

١ إن الضجر ، كما قلنا قبلاً ، هو في الغالب غصنٌ من أغصان إكثار الكلام ؛ وهو ابنه البكر ؛ فلذلك خوّلناه[2] مكانه الملائم في سلسلة الرذائل

٢ الضجر هو ارتخاء النفس ، عدم اكتراث[3] العقل ، إهمال النسك ، مقت العهد المنذور[4] ، تطويب أهل العالم ، إتهام الله بانعدام الرحمة والمحبة نحو البشر ، فتور في التزمير[5] ؛ ضعفٌ في الصلاة . والضاجر حديديٌ في الخدمة [الخارجية] ، وفي عمل اليدين نشيط ، غير مستعدٍ للطاعة[6] .

٣ من يعيش تحت الطاعة لا يعرف ضجراً ، لأنه من خلال المحسوسات يبلغ إلى الروحيات[7] .

٤ دير الشركة عدوٌ للضجر ؛ أمّا الرجل الهادئ في السكون[8] ، فالضجر رفيقه الدائم ، لا يفارقه قبل موته . يصارعه كل يوم حتى وفاته . حين يرى الضجر قلاّية متوحدٍ ، يتبسّم ويقترب منه سرّاً ، ويسكن بجواره !

٥ الطبيب يعود مرضاه في الصباح ، أمّا الضجر ففي نصف النهار يفتقد النسّاك[9] .

---

(١) يشتمل معنى الضجر على الاكتئاب وما ينتج عنه من قلق وضيق النفس ، والوهن ، والكسل ، والملل واللامبالاة بالروحيات . (٢) خوّله الشيء : أعطاه إياه (٣) ب ، ل : إضعاف . (٤) د ، م : الرهبانية

(٥) أي ترتيل المزامير أو التسبيح م : المرض في المزامير . (٦) ب . د : استعدادٌ للطاعة .

(٧) ب : إذ أحكم بالأعمال المحسوسة ، المحامد المعقولة [الروحية] . (٨) المقصود به المتوحّد .

(٩) " . شيطان الظهيرة " (مزمور ٩١ : ٦)

٦ يشير الضجر على الراهب بإضافة الغرباء ، ويلحّ عليه بأن يعمل بيديه لأجل الصدقة . يحثّ بحرارة على عيادة المرضى ، مذكّراً بقول الرب : " كنت مريضاً فزرتموني[١] " ، ويشير بالذهوب لرؤية الضجرين وصغار النفوس ـ مع أنه هو نفسه ضجِر وصغير النفس ـ بقوله : " عزّوا صغار النفوس[٢] " .

٧ عندما نصلّي يذكّرنا الضجر بأعمالٍ ضرورية ، ويحتال الأحمق بكلّ حيلةٍ ليجد حجّة معقولة ليسحبنا من الصلاةٌ ، كما تُسحَب البهيمة بحبل !

٨ في الساعة الثالثة ، يُحدِث شيطان الضجر قشعريرةً ، وصداعاً ، وحتى مغصاً ، وعندما تقترب الساعة التاسعة يستشعر بقليل من العافية[٣]، فإذا أُعدَّت المائدة قفز من فراشه . لكن حين تحين ساعة الصلاة يثقل الجسم من جديد . إذا وقف في الصلاة يَغيصد في النوم ، ويخطف الآية من فمه بتثاؤبٍ في غير أوانه وبغير سبب !

٩ إنّ كلاً من الأوجاع يمكن أن يُهدَم بفضيلة معيَّنة ، إلاّ أن الضجر للراهب موتٌ مُحدِقٌ به من كلِ جانب .

١٠ نفسٌ شجاعةٌ تُنهض عقلها الذي شارف موته ؛ والضجرُ والكسلُ وأمّهُما[٤] ، تبدّد كل ثروتها .

١١ بما أن الضجر واحدٌ من أئمة الرّذيلة الثمانية، وهو أخطرها كلّها، فسنعامله ، كما عاملنا غيره ، لكن دعنا نضيف هذا فقط :

---

(١) متى ٢٥ : ٣٦
(٢) تسالونيكي الأولى ٥ : ١٤
(٣) ب : يرفع رأسه قليلاً
(٤) أي الثرثرة . د ، ل ، م ، : – وأمهما .

١٣ حيث لا ترمير ، لا يظهر ضجر ؛ وحالما تنتهي الخدمة[1] المحدّدة تنفتح الأعين !

في أوان الضجر يُعرف الغاصبون[2] ؛ إذ ليس شيء يسبب للراهب الإكليل مثل ظفره بالضجر[3] .

١٤ تأمَّلْهُ ، تلاحظ أنه عند وقوفك يحثّك على تغيير وضع قدميك ، وإذا جلست يقترح عليك بأن تستند إلى الحائط ، ثم إذ يُسمِعك جلبةً وإيقاع أقدامٍ يأمرك بالاستشراف[4] من النافذة[5] .

١٥ من ينوح على ذاته ما يعرف ضجراً .

١٦ فليُربَط هذا المغتصب المستبدُّ بتذكّرنا خطايانا ، ولنضربه بقسوةٍ بعمل أيدينا ؛ ولنسحبْهُ إلى المحاكمة بافتكارنا في الخيرات المنتظَرة ، وليُساءَل عند مثوله لدى المحكمة على نحوٍ وافٍ كما ينبغي : " قل لنا أيها المراوغ الجبان ، مَنْ هو الفاسد الذي ولَدك ؟ ومن هم أولادك ؟ ومن هم أعداؤك ؟ ومن يستطيع أن يقتلك ؟ " فأجابنا مُكرَهاً : " المطيعون الحقيقيون ليس لي عندهم مكان أسند إليه رأسي ؛ لكني أجد موضعاً عند الذين يمكنني أن أعيش معهم في السكون. أمّهاتي كثيرات، أحياناً يلدني زوال حس النفس ، وأحياناً زوال تذكّر النعم[6] العلوية ، وربما تلدني زيادة الأتعاب . أولادي المقيمون معي هم الانتقال من الموضع[7] ، وعدم إطاعة الأب الروحي ،

(١) أي خدمة الصلاة والتسبيح . سواء العامة أم الانفرادية . ب ، م : حين ينتهي القانون .

(٢) انظر (متى ١١ : ١٢)

(٣) د : + إذا التحم بعمل الله بلا ملل .

(٤) أي بالنظر (من الشرفة)

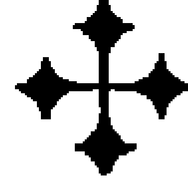
(٥) د : بأن تنظر خارج قلايتك

(٦) د ، ل : الأمور .

(٧) د : + بإيعازٍ مني .

ونسيان المحاكمة الأخيرة ، وأحياناً نقض[1] العهد . أما اللذان يقاومانني ، وقد قيّداني الآن ، فهُمَا التزمير وعمل اليدين . عدوّي هو فكر الموت . أمّا التي تلاشيني تماماً فهي الصلاة بالرجاء الثابت في الخيرات العتيدة . أما والد الصلاة فاسألوها عنه .

هذه غلبةٌ ثالثة عشرة ؛ من نالها حقاً ،
فقد صار في كل صلاح
متمرّساً مختبراً .



(١) أي ترك الحياة الرهبانية فعلاً ، بالعودة إلى العالم . أو السلوك اللائق بمتطلّباتها الخاصة بحياة التقوى والتعبّد والطهارة والتجرّد .

الدرجة الرابعة عشرة

السيدة الصخّابة(١) الخبيثة ، البطن

١ لقد كنّا نحمل على أنفسنا في كافة [الرذائل] التي تكلّمنا عنها فيما تقدّم من كلامنا ، لكن الأمر هكذا على وجه الخصوص عند تكلّمنا عن البطن ؛ فإنني أتعجّب من الذي ما سكن قبره فصار حرّاً من بطنه .

٢ النهَم هو رياء البطن ، لأنه إذ يكون شبعاناً يشكو مذيعاً نقصه، محمَّلاً بارزاً(٢) ويصيح إنه جائع .

٣ نهم البطن هو مبتكِر ألوان الأغذية وتتبيلها .

٤ إنه ينبوع الأطعمة اللذيذة ، إذا أبطلْتَ دَفْقَهُ(٣) أشرَفَ من ناحية أخرى ، فإذا سددت هذه الأخرى قهرتك جهة غيرها .

---

(١) الصخّابة : هي التي تكثر من الصخب أو الضجة. في هذا النعت إشارة ظريفة إلى البطن الغير منضبطة بالنسك، التي لا تنفك عن الصراخ طالبةً مأكولاً ؛ في الأوان وفي غير الأوان. لذلك جاء في بستان الرهبان عن ناسك حاذق، أن نفسه اشتهت الأكل مرةً قبل الموعد المحدّد، فرفض طلبها ، ولما حان وقت الأكل لم يأكل أيضاً ، بل قال لنفسه ، أو لبطنه : '' لأنكِ طلبتِ طعاماً في غير وقته ، فحتى في وقته لن تناليه ! '' كذلك فإن القديس يوحنا السلّمي نفسه، كان ينتهر نفسه ليحثها على الصوم أو التعفف بقوله لبطنه (الصخّابة) : '' اسكتي ابكمي '' (ص ٢٢) على مثال انتهار الرب للبحر '' ، الذي قال عنه الحكيم : '' كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن '' (جامعة ١ : ٧) . وقد قال الحكيم أيضاً : '' كل تعب الإنسان لفمه ، ومع ذلك فالنفس (التي تشتهي لذّة الأطعمة) لا تمتلئ'' . لذلك يحقّ للمؤلف القديس أيضاً ، كما نعت البطن بأنها صخّابة ، أن يدعوها أيضاً '' السيدة '' ؛ وهذا اللقب الأخير يمكّننا إدراك عمقه عملياً في نور النعمة، من سلوكنا حيال هذه السيدة ، التي دعاها بولس الرسول إلهاً حين قال: كثيرين ...ممن كنت أذكرهم لكم مراراً والآن أيضاً ، باكياً أعداء صليب المسيح ...الذين إلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم ، الذين يفتكرون في الأرضيات '' (فيلبي ٣ : ١٨ ، ١٩) .

(٢) ب. د : متعزّزاً

(٣) أي تدفّقه

٥ نهم البطن هو الخداع للعينين ؛ فمع أننا لا نستطيع أن نبتلع إلاّ بمقدار ، لكنه يدّعي أن يلتهم كل شيء في دفعة واحدة .

٦ الشبع من الأطعمة هو أبو الزنا ؛ وضغط[1] البطن مسبب الطهارة .

٧ من يلاطف أسداً ربما يدجّنه[2] ؛ ومن يُرضِي الجسد يجعله أكثر وحشيّة .

٨ يفرح اليهودي بسبْتِه وأعياده ، والراهب النهِم يُسرّ بيوْمَيْ السبت والأحد ؛ يحسب الفصح قبل وقته ويستعدّ للأطعمة قبل أوانه بأيّام . عبد البطن يحسب بأيّة أطعمة يعيِّد ، وعبد الله يتفكّر بأيّة مواهب يستغني[3] .

٩ عبد البطن إذا حضره غريب يدفعه النهم لعمل كل مودّة ، ويحتسب الحلاله[4] تعزيةً لأخيه . في حضور الآخرين يستصوب التسامح بقليل من النبيذ ؛ وإذ يظن أنه بذلك يُخفي فضيلته ، يصير عبداً لوجعه .

١٠ غالباً ما يُعادي العُجبُ الشرَهَ ، ويتخاصمان على الراهب الشقي كما على عبدٍ مُشترًى . الواحد يكلّفه أن يتراخى عن حميته ، والآخر العُجبُ يحضّه على إشهار فضيلته . الراهب الحكيم ينفلت من كليهما ، إذ يعرف في الوقت الحسن أن يدفع أحدهما بالآخر .

١١ مادام الجسد مُفعماً بالحيوية ، ينبغي علينا أن نحفظ الإمساك في كل وقت وكل موضع . عندما يهدأ الجسد ـ مع أني لا أظنّه سيهدأ قبل القبر ـ ينبغي أن نخفي ما أكملناه .

---

(١) د ، ل : إماتة

(٢) أي يجعله داجناً مستأنساً

(٣) قارن س ٢٠

(٤) ب : الخلال صومه .

١٢ رأيت قسوساً مسنّين يلعب بهم الشياطين ، فيحُلّلون ويباركون[١] لشبّان ليسوا تلاميذهم ، أن يعيّدوا بالنبيذ وبأشياء أخرى مماثلة .

فإن كان أولئك الذين يعطوننا الحِلّ لهم شهادة حسنة في الرب ، فيمكننا أن نحلّ قليلاً امتناعنا ، أمّا إن كانوا متهاملين فلا نعتبرن تبريكهم ، لاسيّما إذا كنّا محارَبين بنار الجسد .

١٣ لقد ظنّ إيفاجريوس[٢] أنه أحكم الحكماء في الفكر والكلام؛ لكن ذلك الشقي كان مخدوعاً ، وثبت أنه في أمور كثيرة أغبى الأغبياء ؛ لاسيّما حين قال: " متى اشتهت أنفسنا أطعمةً مختلفة ، فلنقلّل لها الخبز والماء " . فهذا الأمر شبيه بمن يفرض على طفل أن يصعد السلّم كلها في قفزة واحدة. وهكذا إذ نرفض هذه القاعدة، نقول : متى اشتهت أنفسنا أغذية مختلفة، فإنما تطلب ما يوافق طبيعتها لذلك ينبغي أن نستعمل الحيلة مقابل عدوّتنا المحتالة ؛ فما لم يكن علينا قتال شديد ، أو حدود عقوبة على سقطةٍ ما ، فينبغي أن نحسم عنا أول الأمر ما يُسمِّن من الأطعمة فقط ، ثم ما يعطي الجسم حرارة ، وأخيراً فقط ما يلذّ المذاق .

---

(١) لأن الطقس هو أن يقدّم الطعام أو الشراب ، قبل تناولهما ، للكاهن بالقول " بارك " (انظر صموئيل الأول ٩ : ١٣) ؛ وحتى على المائدة المنزلية يجب أن يصلّي رب الأسرة أو من ينوب عنه طالباً بركة الرب قبل البدء في تناول الوجبة ، ولازالت باقية بعض الصلوات الخاصة بتبريك الطعام منذ العصور الأولى ، بعضها مدوّن في نهاية بعض الخولاجيات ؛ ويا حبّذا لو أعطينا هذا الطقس ما يستحقه من اعتبار ، فيبارك الله ويقدّس أجسادنا وبيوتنا ومالنا (انظر أيوب ١ : ١٠)

(٢) ايفاجريوس البنطي (٣٤٥ - ٣٩٩) . جاء إلى مصر في ٣٨٣ م وتتلمذ للقديس مقاريوس السكندري في ٣٨٥ . لكنه كان عقلانياً يؤمن بالمعرفة القائمة على التأمل النظري والتصوّر العقلي المبني على الفلسفة ، محوّلاً المبادئ الروحية إلى معارف نظرية وتدريبات نسكية اجتهادية .

١٤ بقدر ما يمكنك أعطِ جوفك طعاماً مُشبعاً سهل الهضم ، لتُشبِع بالشبع شراهته التي لا تشبع ؛ وبسهولة الهضم ، تنجو من حرارته كما من سوطٍ .

وإذا تفحَّصنا أمر الأغذية وجدنا أن أكثر الأطعمة التي يتولَّد عنها انتفاخ تثير قتالاً .

١٥ اضحك على ذلك الشيطان الذي بعد الوجبة يحضّك على أن تطيل مستقبلاً صومك ، لأنه في الساعة التاسعة من اليوم التالي سينكر اتّفاق اليوم السالف .

١٦ الإمساك الملائم لذوي السيرة الخالية من اللوم ، غير الإمساك الملائم للذين تحت التبعات[1] ؛ فالأولون يتّخذون من حركة الجسد[2] إشارةً تدعوهم إلى الإمساك . أمّا الثانون فإلى موتهم وإلى آخر أنفاسهم ينبغي أن يتحفّظوا ، دون تعزية أو استرخاء .

الأولون ينشدون [بالإمساك] أن يحفظوا على الدوام انضباط[3] عقلهم ، والآخرون يجتهدون أن يستعطفوا الله باكتئاب نفسهم وإذابة جسمهم .

١٧ وقت الفرح والتّعزية عند الكامل ، هو التحرّر الكامل من الاهتمام[4] ، وأمّا عند المجاهد فهو أوان الصراع ، أمّا عند عبد الآلام فهو عيد الأعياد وموسم المواسم[5] .

١٨ قلوب النهمين لا تحلم إلاّ بالأغذية والمآكل ، أمّا قلوب النائحين

---

(١) ل : تحت الضعف م : تحت العقوبة .
(٢) د : حركة الشهوة
(٣) ل : سلام
(٤) ل : الآلام
(٥) أي عيد القيامة المجيد ، ومايتبعه من أيام الخماسين ، التي لا يكون فيها صوم .

فتصوّر العقوبات والمحاكمات .

١٩ اضبط جوفك قبل أن يضبطك هو ، وقبل أن تمارس الإمساك مُكرهاً بخزيك . يعرف ما أقوله أولئك الذين سقطوا في الهوّة[1] التي لا يمكن وصفها بكلمات ، أمّا الخصيان[2] فليست لهم خبرةٌ بذلك .

٢٠ ينبغي أن نحسم هوى جوفنا بتفكّرنا في النار الأبدية ، فإن أناساً أطاعوه فقطّعوا أعضاءهم أخيراً وماتوا موتاً مضاعفاً . إذا تأملنا سنجد أن البطن وحدها سبب كل غرق .

٢١ عقل الصوّام يصلّي بإفاقة ؛ أمّا عقل العادم ضبط هواه يمتلئ أصناماً[3] نجسة .

٢٢ شِبَع البطن يجفّف ينابيع الدموع ، فإذا جفّ هذا سالت المياه .

٢٣ من يخدم بطنه ويرضيه ويأمل أن يقهر روح الزنا ، هو شبيه بمن يُطفئ حريقاً بزيت .

٢٤ إذا انضغط البطن يتّضع القلب ؛ وبإرضاء البطن يتشامخ الفكر .

٢٥ فتّش ذاتك في الساعة الأولى من نهارك ، وفي منتصفه ، وفي الساعة التي تسبق أكلك ، فتعرفَ من ذلك منفعة الصوم . بالغداة يقفز الفكر ويتوه من شيءٍ إلى آخر وباقتراب الساعة السادسة من النهار يهدأ قليلاً ، وعند غروب الشمس يكون في غاية التواضع[4].

---

(١) ل : الهوّة المروِّعة

(٢) أي الأطهار الذين لم يختبروا الشر (متى ١٩ : ١٢)

(٣) د : صُوراً

(٤) ل : السلام

٢٦ اضغط جوفك فستغلق بالتأكيد فمك ، لأن اللسان يتقوّى من وفرة الغذاء . بكل همّتك صارع جوفك ، وبالغ التيقُّظ تيقَّظ مقابله ، فإنك إذا تعبت قليلاً يعضدك الرب سريعاً

٢٧ الزقاق الجلدية بنفخها تزداد في سعتها ، أمّا إذا أُهمِلت ينكمش حجمها . مَن يُلزم جوفه بالأكل يوسّع أمعاءه ؛ ومن يحاربه بالإمساك ، يضيِّقها ، وعندما تضيق البطن لن تستمد طعاماً كثيراً ، وعندئذٍ نصير صوّامين بالطبع .

٢٨ كثيراً ما يسكّن العطش عطشاً، أمّا أن يُطرَد الجوع بالجوع، فهذا عسير بل مستحيل .

٢٩ عندما تقهرك بطنك ، ذلّلها بالأتعاب ؛ فإن تعذّر عليك ذلك بسبب ضعفك ، فصارعها بالأسهار . إذا ثَقَلَتْ عيناك فتناول عملاً تعمله بيديك ، أما إذا لم يحضرك نومٌ فلا تمسّ عملاً ، فليس ممكناً أن تقف[1] عقلك لله والمال[2] ، أعني لله ولعمل اليدين .

٣٠ اعرف أن الشيطان كثيراً ما يقيم في المعدة ، ولا يدع الإنسان يشبع ولو التهم مصر كلها وشرب نيلها .

ولكن حالما ينتهي الأكل ، ينصرف ذلك النجس[3] ويرسل مقابلنا شيطان الزنا ، بعد أن يخبره بحالنا قائلاً : " اضبطْهُ ، أدركْهُ ، ضايقْهُ ، فإن جوفه ممتلئ فلن يستطيع أن يجتهد " . وإذ يوافينا روح الزنا مبتسماً ،

(١) وقف وقفاً وأوقافاً : حبسها في سبيل الله . (٢) د ، ل : شيطان محبة المال أو الثروة .
(٣) الروح النجس .

ويربطنا من أيدينا وأرجلنا بالنوم ، ويعمل بنا كلّ ما يشاء ، مدنّساً أنفسنا وأجسادنا بأدناسٍ وخيالات واستمناءات .

٣١ إنه لمدهش أن يُرى العقل الغير جسداني مدنّساً ومظلماً بواسطة الجسد ؛ وبالعكس ، فإن غير المادّي[١] يتطهّر ويتنقى بواسطة الطين .

٣٢ إن كنت قد عاهدت المسيح أن تسلك الطريق الضيّقة الكربة فضيِّق بطنك، لأنك إذا أرضيتها ووسّعتها فقد نَقَضْتَ عهودك. انتبه واصغِ للقائل إنّ " واسعة ورحبة هي طريق النهَم المؤدّية إلى هلاك الزنا وكثيرون هم السائرون فيها . ضيقٌ هو الباب ، وكَربةٌ هي طريق الصوم المؤدّية إلى حياة العفّة ، وقليلون هم الداخلون فيها[٢] " .

٣٣ رئيس الشياطين هو كوكب الصبح الساقط[٣]، ورئيس الآلام[٤] هو شَرَه البطن .

٣٤ متى اتكأت لدى مائدة مزدحمة بالأطعمة، تذكّر الموت والدينونة ؛ وحتى بهذه الوسيلة ، فبالجهد ستضبط داء الشرَه قليلاً . وعندما تتناول من شراب ، لا تكفّ عن التفكّر في الخلّ والمرّ اللذين شربهما سيدك ، فستضبط بالتأكيد هواك ، أو[٥] سوف تتحسّر وتجعل فكرك أكثر تواضعاً .

٣٥ لا تنخدع ، فإنك لن تنعتق من فرعون ، ولن تعاين الفصح السمائي ، ما لم تأكل كلّ حين الأعشاب المرّة والفطير . فالمرارة هي اقتسار

---

(١) ب . م . العقل غير المادي ل : الروح غير المادي . والمقصود هو أن العقل يتأثر سلباً وإيجاباً بالجسد ، كما ذُكر في الفقرة ٢٥ .

(٢) قارن (متى ٧ : ١٣ - ١٤) .

(٣) انظر (إشعياء ١٤ : ٤ - ١٩) (٤) د : الرذائل . (٥) د : + على الأقل .

الصوم وتعبه ؛ والفطير هو فكرٌ خالٍ من انتفاخ[١].

٣٦ ليلتصق بنفسك قول القائل : عندما ضـايقني الشـياطين " لبسـت مسحاً ، وأذللت بالصوم نفسي ، والتصقت صلاتي بحضن نفسي "[٢] .

٣٧ + الصوم هو غصبٌ للطبيعـة ، قطْـع مـا يستلذّه الحَلْق ، إطفـاء الحرارة[٣] ، اقتلاع الأفكار الشريرة ، نجاة من الأحـلام[٤] ، ونقاء الصلاة .

+ الصوم نور للنفس ، حراسةٌ للعقل، خلاصٌ من العمـى[٥]. هـو باب الخشوع، تنهّـدٌ متواضـع ، انسـحاقٌ بهيـج ، غفلـةٌ مـن الثرثرة ، وسبب الهدوء .

+ الصوم حافظٌ للطاعة ، تخفيف النوم ، عافية الجسم .

+ الصـوم وسـيلة[٦] لـزوال الأوجـاع ، غفـران الخطايـا ، بـاب الفردوس ونعيمهُ .

٣٨ فلنسأل إذن هذا العدو ، أو بالحري هـذا الرئيـس الأعلى لكافـة أعدائنا ، باب الآلام هذا، الذي تسبب في سقطة آدم[٧] ، وهلاك عيسو[٨] ، وإبادة الإسـرائيليين[٩] ؛ منظر نـوح المخجـل[١٠] مسـلّم أهـل عمـورة[١١] ، مذمّة[١٢] لوط[١٣]، وموت ابنيْ عالي الكاهن[١٤]، والمرشد إلى النجاسات[١٥]

---

(١) يشير إلى انتفاخ الخبز بفعل الخميرة (انظر كورنثوس الأولى ٥ : ٦ ـ ٨) .

(٢) قارن (مزمور ٣٥ : ١٥) . (٣) د : حرارة الزنا . (٤) أي الأحلام الشريرة .

(٥) د ، م : تحرر من القساوة . (٦) د : صائن (٧) تكوين ٣ : ١ ـ ١٩

(٨) تكوين ٢٥ : ٢٩ ـ ٣٤ ، ٢٧ : ١ ـ ٤٠ (٩) عدد ٢٥: ١ ـ ٩ (١٠) تكوين ٩ : ٢٠ ، ٢١

(١١) تكوين ١٩ : ٥ ـ ٢٥ (١٢) د : خطيئة . (١٣) انظر (تكوين ١٩ : ٣١ ـ ٣٥)

(١٤) صموئيل الأول ٢ : ١٢ ـ ٢٥ و ٤ : ١٧ (١٥) م : منجّس الجسد.

٣٩ دعنا نستخبره : "مَنْ الذي ولدك ؟ ومن هم أولادك ؟ ومن الذي يسحقك ؟ ومن الذي يبيدك تماماً ؟ "

" قُلْ لنا يا مغتصب جميع البشريين[١] ، يا من اشتريت جميعهم[٢] بذهب النهم الذي لا يشبع: كيف وجدت فينا مدخلاً ؟ وبعد دخولك مَنْ الذين تلدهم ؟ وكيف تخرج منا، وبأيّة وسائل نتخلّص منك ؟ " .

٤٠ أما النهم ، فإذ توجّع بشتائمنا ، أجابنا غاضباً مرتعشاً ومُزبداً : " لِم ترهقونني بشتائمكم ، أيها الخاضعون لي ؟ وماذا تفعلون للانفصال عني، بَيْنَا[٣] أنا مرتبط بكم بالطبيعة ؟ الأطعمة بطبيعتها هي بابي ، شراهتي التي لا تشبع هي العادة . ما يجعلني أصير وجعاً هي العادة المتأصّلة ، وزوال حِسّ النفس ، ونسيان الموت .

كيف تبتغون أن تعرفوا أسماء أولادي ، وأنا إن أعدّهم فهم أكثر من حبّات الرمل ؟ فاعرفوا - على الأقل - أسماء أبكاري وأبناتي المحبوبين . ابني البكر هو خادم الزنا ، والثاني بعده هو قساوة القلب، والثالث كثرة النوم[٤].

ومنّي ينشأ بحرٌ من الأفكار وأمواجٌ من الأدناس ولججُ نجاساتٍ يمتنع وصفها ومعرفتها . أمّا بناتي فهن الكسل ، والثرثرة ، الدّالة ، السخريات المُضحكة ، المزاح ، المعارضة ، صلابة العنق، العناد، العصيان ، فقد الحِسّ السبي[٥] ، العُجب ، الوقاحة ، الافتخار .

وبعد هؤلاء يأتي اتّساخ الصلاة ، ودوّامات الأفكار ، وغالباً تأتي

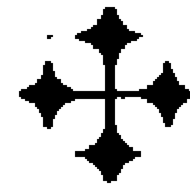
---

(١) د ، ل : المائتين . (٢) ب : اشتريت الخاضعين لك . (٣) بيْنا = بينما

(٤) ب ، د : النوم . (٥) أنظر الدرجة ١٥ - فقرة ٧٨ .

شرور مفاجئة غير متوقّعة ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفقد الرجاء ، الذي هو أشرّ أولادي . إنّ تذكّر السقطات يحاربني إلاّ أنه لا يقهرني ، فكْر الموت دائماً يعاديني ، لكنه لا يوجد سلاحٌ يستطيع أن يعتق الناس تماماً من نيري . من اقتنى الروح المعزّي يتوسل إليه في الاستظهار عليّ ، وبالتضرّع إليه لا يسمح لي أن أتصرّف بطريقة ترضي الأوجاع ، أمّا الذين لم يذوقوا حلاوة المعزّي ، فبالضرورة يطلبون أن يتلذّذوا بحلاوتي" .

غلبة تتطلّب شجاعة ، من تأيّد بها يستطيع أن
يسارع نحو زوال الأسقام
وإلى العفّة العليا .



الدرجة الخامسة عشرة

الطهارة والعفّة اللتان لا تبليان ، الحاصلتان في البالين من أعراقهم وأتعابهم

١ الطهارة تناسب طبيعة غير المتجسّدين؛ هي بيت يشتاق إليه المسيح، وسماء القلب الأرضية . الطهارة جحد للطبيعة فائق على الطبيعة، وهذا يعني أن جسماً مائتاً فاسداً يضارع الأرواح السماوية بطريقة معجزيّة .

٢ الطاهر هو من يطرد حبّاً بحب ، وهو من أطفأ النار الجسدية بالنار الروحية[١] .

٣ العفّة اسم عام لجميع الفضائل .

٤ إن العفيف هو من لا يحسّ حتى في نومه ، بحركة واحدة للغريزة .

٥ العفيف هو من اقتنى على الدوام زوال الحِسّ بالتمايز بين الأجسام.

٦ قانون الطهارة التامة وحدُّها ، هو أن يكون حِسّ المرء واحداً بالنسبة للأجسام الحيّة أو الجمادات، بالنسبة للخلائق العاقلة أو غير العاقلة.

٧ لا يحسبن أحد من الذين تدرّبوا تماماً على الطهارة ، أنه اقتناها من نفسه . لأنه يستحيل أن تتغلب طبيعتنا على ذاتها . حيثما تُقهَر الطبيعة ،

---

(١) أو : " الطاهر هو من يطرد محبة جسدية ، بحب إلهي ؛ وهو من أطفأ نار الألم بالنار السمائية (أي بالروح القدس)

فهذا دليلٌ على حضور ذاك الفائق على الطبيعة . لأنه يدون أدنى جدال ، الأقوى يُبطِل الأضعف .

٨ ابتداء الطهارة فكر لا يتفاوض مع الأفكار الشريرة ، واستمناءات بين الحين والحين خالية من تصوّرات[١] . منتصف الطهارة حركات طبيعية ناتجة عن زيادة الطعام ، لكنها خالية من التصوّرات والاستمناءات . نهاية الطّهارة هي ميتوتة الجسد نتيجة إماتة الأفكار .

٩ سعيدٌ حقاً من اقتنى على الدوام زوالَ حِسٍّ كاملاً بإزاء كل جسم، ولونٍ وحُسْن .

١٠ ليس مَنْ حَفِظ طين جسمه بلا اتساخ هو الطاهر ، بل من اخضع لنفسه أعضاء جسمه إخضاعاً كاملاً[٢]

١١ عظيمٌ من يظلّ حراً من [انفعال] الألم عندما يُلمَس ؛ وأعظم منه من لا ينجرح من نظرة ، وبهذيذه في جمال العلويّات قد قهر النار المتولّدة من النظر[٣] .

١٢ من يدفع هذا الكلب[٤] بالصلاة ، فقد شابه من يحارب أسداً ؛ ومن يُخضعه بمعارضة أقواله يشبه من لا يزال يطارد عدوّه ؛ أما من احتقر هاجسه[٥] احتقاراً حاسماً ، فهو مع كونه لا يزال في الجسد ، إلاّ أنه قد قام من قبره .

---

(١) ل : أحلام ب : من أشباح الفسق
(٢) د : ... أعضاء جسمه هو الكامل
(٣) م : من جمالات الأرض
(٤) ب : كلب الزنا
(٥) د : هجماته .

١٣ إن كانت دلالة الطهارة الصادقة ، ألاّ يختبر المرء أيّة حركة بفعل الأحلام أثناء النوم ؛ فهذه بالتأكيد علامة الشهوانية ، أن يعاني الاستمناء حال يقظته ، بفعل الأفكار [النجسة]

١٤ من يحارب هذا المعاند بأعراقه وأتعابه ، فقد شابَه من ربط عدوّه بأسَل[١] ؛ ومن يقاتله بالإمساك[٢] والأسهار يماثل من غلّ عدوه بسلسلةٍ حول عنقه . ومن يصارعه بالتواضع وزوال الغضب والعطش يشبه من قتل غريمه ودفَنه في الرمل . فالرمل يُفهَم أنه التواضع ، لأنه لا يصلُح غذاءً للآلام ، بل هو ليس إلاّ ترابٌ ورماد .

١٥ واحدٌ يقيِّد هذا الطاغية بسلاسل جهاداته ، وغَيْرَهُ بتواضعه ، وآخر بفضل ظهور النور الإلهي . الأول شبيه بكوكب الصبح ، والثاني يماثل البدر الكامل ، والثالث يضاهي الشمس الحامية . وكلٌّ من الثلاثة وطنه في السماء . لكن الشَفَق[٣] يعقبه النور ، وفي النور تشرق الشمس . فعلينا أن نتفطن فيما قيل ونستنتج .

١٦ الثعلب يتظاهر بالنوم ، والجسد والشياطين يتظاهرون بالعفّة . ذاك لكي يخدع دجاجة ، وهؤلاء ليهلكوا نفساً .

١٧ ما دمت حيّاً لا تثق بهذا الطين[٤] ، ولا تأتمنْهُ إلى أن تقف أمام المسيح[٥] .

---

(١) الأسل : نبات دقيق الأغصان طويلها ؛ الواحدة أسلة ـ انظر (إشعياء ٥٨ : ٥)

(٢) هو التقشف والتعفف .

(٣) الشفق : هو السحر ؛ الفجر .

(٤) أي الجسد .

(٥) قارن (رومية ١٤ : ١٠)

١٨ لا تَحْسَبَن أن الإمساك يقيك من الزلل ؛ لأن واحداً لم يكن يأكل قط سقط من السماء .

١٩ عرَّف قومٌ مجمَّلون بالمعرفة الزهدَ تعريفاً جيّداً بقولهم : " إنه بغضُ الجسد ومُقاتَلةُ البطن " .

٢٠ تكون السقطات عادةً في المبتدئين من التنعّم ؛ أما في المتقدّمين فمن استعلاء الظن بالنفس ، وأيضاً من نفس العلّة التي تكون منها سقطات المبتدئين ؛ أما بالنسبة للذين قاربوا الكمال ، فمن علّة وحيدة هي إدانتهم لقريبهم .

٢١ طوّبَ[١] أناسٌ المولودين بالطبيعة خصياناً ، لأنهم افتُدُوا من طغيان[٢] الجسد . أما أنا فطوّبتُ الذين يجعلون أنفسهم خصياناً كل يوم ، أعني أنهم يَخْصُون ذواتهم بفكرهم كما بسكّين[٣] .

٢٢ رأيت من يسقطون كُرهاً ، كما رأيت من يريدون أن يسقطوا طوعاً لكنهم لم يقدروا على ذلك ؛ فويْلٌهم أكثر من الذين يسقطون كل يوم، لأنهم رغم عجزهم يشتهون النتانة .

٢٣ الساقط جديرٌ بالرثاء ، ومن يسبب السقوط لآخر أحَقّ بأن يرثى له أكثر ؛ لأنه يحمل نير السقطتين[٤] علاوة على نير اللذّة التي ذاقها الآخر[٥].

---

(١) طوّب : غبط ، أي عدّه مغبوطاً سعيداً

(٢) ل : من تعذيب

(٣) انظر (متى ١٩ : ١٢)

(٤) أي سقطته وسقطة الآخر الذي حرّضه على السقوط .

(٥) لأن الآخر ربما يتكرر منه السقوط بتأثير اللذّة التي اختبرها .

٢٤ لا تؤمِّل أن تدفع شيطان الزنا بالتجادل معه ومعارضته ؛ لأنه إذ الطبيعة تقف إلى جواره ، يمتلك حججاً قوية .

٢٥ من يشاء أن يحارب جسده أو أن يقهره من ذاته ، إنما يسعى باطلاً ؛ لأنه إن لم يهدم الرب بيت الجسم ويبني بيت النفس ، فإنما قد سهر وصام باطلاً من يرغب في هدمه[1] .

٢٦ فوِّض إلى ربّك ضعفَ طبيعتك ، إذ تعرف تماماً نقص قوّتك ، تَنَلْ دون أن تدري موهبة العفّة

٢٧ قد يوجد في المعقورين بهذا الوجع ـ على ما حدّثني أحدُهم خبيرٌ به بعد أن عوفيَ منه ـ إحساس بالمحبة نحو الأجساد ، وروح وقح خالٍ من الإنسانية يقيم في عمق حِسّ القلب إقامة واضحة ، يجعل المصروع منه يحسّ بوجعٍ جسداني في قلبه ، عنيفٍ كما من أتون ملتهب . نتيجةً لهذا ، يَفقد المصابُ مخافة الله ، ويستخفّ بذكْر العذابَ كأنه ليس بشيء ، ويزدري الصلاة ، وحين يكون على وشك ذات الفعل ، يكون تأثّره برؤية الرمم[2] ، أقلَّ من تأثّره بمنظر الحجارة العديمة الحياة ؛ كما يكون حاله كمن هو خارجَ عقله ساهياً ، سكران على الدوام باشتهاء الجوهر الناطق وغير الناطق . ولو لم تقصَّر أيام هذا الروح [الخبيث] لما خلُصَتْ نفسٌ لابسة هذا الطين الممتزج بدمٍ وأمزجة[3] وسخة .

فإن سألتني : " كيف ذلك ؟ " أجبتك : " لأن كل كائنٍ يشتهي ـ خلواً من شبعٍ ـ مجانسَه ؛ فالدم يشتهي دماً ، والدودة تشتهي دودة ، والطين

(١) قارن (مزمور ١٢٧ ١) ، هذه الفقرة مكمّلة للفقرة ١٨ أنظر فقرة ٤٢

(٢) يقصد الأجساد

(٣) ب : وكيموس وسخ

يشتهي طيناً ؛ أفلا يشتهي الجسد كذلك جسداً ؟ إلاّ أننا نحن الغاصبين طبيعتنا[1] المشتهين الملكوت[2] ، نُخادِع جسمنا هذا الخِدَاعَ بحيلٍ متنوعة . أما الذين لم يختبروا هذا القتال ـ الذي قدّمنا ذكْرَه ـ فمغبوطون هم .

فينبغي أن نبتهل في أن نُفتدَى بالتمام من تجربةٍ هذه حالها ، ذلك أنّ الذين ينزلقون إلى الهوّة التي تكلّمنا عنها يحتاجون لنهوضهم منها إلى الصاعدين والنازلين على تلك السلّم[3] ، مع عرقٍ كثير وجوعٍ في أقصاه .

٢٨ ينبغي أن نتفهّم ما إذا كان أعداؤنا في تقدّمهم لمحاربتنا واصطفافهم ضدّنا ، ينتظم كلٌّ منهم لتقلّد مهمّةٍ تخصّه ، كما هو الحال في الحرب المنظورة ؛ وإنه لمستعجَب جداً أن الحال كذلك بكل يقين .

٢٩ عندما تأمّلت المجرَّبين، لاحظت سقطات أخطر من سقطاتٍ وأردأ. فمن له عقل للتفطّن فليفطن[4] .

٣٠ قد اعتاد الشيطان غالباً أن ينهض بصفة خاصة ، على النساك والمجاهدين في الحياة التوحُّديّة[5] ، بكل قوته ، وكل غيرته ، بكل مكره واحتياله ، بكل براعته وعزيمته ، ويهاجم بالخطايا المنحرفة عن الطبيعة أكثر مما بالخطايا الطبيعية[6] . فمثلاً هناك قومٌ[7] يقيمون مع النساء دون أن يُقاتَلوا بهن بشهوة أو بفكر ، ويطوّبون أحياناً أنفسهم على ذلك ، إذ جَهَلَ الأشقياء أنه حيث أُعدَّت لهم سقطة أردأ، فلا حاجة هنالك إلى التي هي أقل خطراً .

---

(١) أي المتبتلين (٢) قارن (متى ١١ : ١٢) (٣) أي إلى معونة القوات الملائكية ـ انظر (تكوين ٢٨ : ١٢ ، يوحنا ١ : ٥١) (٤) قارن (متى ١١ : ١٥) (٥) ب : المذهب الرهباني (٦) د : وليس بالخطايا الطبيعية (٧) ب : + من النساك

٣١ أظن أن القتلة الأخسّاء من شأنهم أن يغوونا نحن الأشقياء المساكين [بإتيان] الجرائم المنحرفة عن الطبيعة لسببين : لأننا نصادف في كل مكان فرصةً للسقوط ، ولأننا نقتبل عنها عذاباً أشدّ ضنكاً .

هذا الذي أشرنا إليه، قد اختبره ذاك الذي كان أولاً يأمر حمير الوحش، فقهرته فيما بعد حميرٌ وحشيّة أشدّ ضراوة(١) ، واستهزأت به استهزاءً يُرثى له ؛ وذاك الذي كان قبلاً يتغذّى بخبز سماوي ، أعدم فيما بعد هذه البركة . والأعجب ، أنه حتى بعد توبته ، قال معلمنا المغبوط أنطونيوس متوجّعاً له بنحيبٍ مرّ : " قد سقط عمودٌ عظيم " لكن هذا الحكيم أخفى طريقة سقوط ذاك ، لأنه كان يعلم أن الزنا مستطاعٌ بذات الجسم خلواً من جسم آخر .

إنه يوجد فينا موت .

إن فينا فرصةً للسقوط نحملها دائماً معنا ، لا سيما في الشباب لكنني لا أجترئ أن أكتب عنها ، إذ قد ضبط يدي ذلك القائل : " إن الأفعال الكائنة من قومٍ في خفية ، قبيحٌ أن تُذكَر أو تُسمع أو تُكتَب(٢) "

٣٢ فعدوّى الحبيب هذا ، الجسد الذي يخصّني ولا يخصّني(٣) ، يدعوه

(١) أي الشياطين

(٢) ينهانا الرسول بولس (أفسس ٥ : ١٢) والقديس يوحنا السلّمي عن الانزلاق في خطأ التكلم أو الكتابة بصراحة في الأمور الجنسية ، سيّما لتفاوت أعمار القرّاء وتفاوت معرفتهم لهذه الأمور طبقاً لاختلاف ظروفهم البدنية والبيئية والتربوية والثقافية والروحية . فقد توجد لدى فتى بالمرحلة الإعدادية معرفة بما يجهله خريج جامعي لذا يجب على المرشدين والآباء المعرّفين والوالدين والمعلّمين أن يكونوا على حذر في الإجابة على أسئلة الشبان والفتيان والأطفال بشأن الجنس ، فيقدموا لهم الإجابة الحكيمة المختصرة بمخافة الله دون إعطاء معرفة تفوق واقع السائل أو تدخله في اختبار ما هو في غنى عنه .

(٣) الجسد يخصّني - كون النفس متحدة به لابسة إياه ، ولا يخصّني - كونه جسد الخطيئة الذي فسد وصار مسكن الأهواء والشهوات (رومية ٥ : ١٢ - ٢١ . ٧ : ٥ - ٢٥)

بولس الرسول موتاً ، إذ يقول : " من ينجّيني من جسد هذا الموت ؟ " كذلك يسمّيه لاهوتيٌ آخر: " المقهور للألم "، "العبد "، " الليلي"[1] ". وقد عطِشْتُ إلى أن أعرف لماذا استعملا أمثال هذه التسميات .

٣٣ إن كان الجسد ـ على ما تقدّم القول ـ موتاً فمن البيّن أن من قهر جسده لن يموت. لكن " أيُّ إنسان يحيا ولا يرى القبر[2] " ، أعني دنس جسمه ؟

٣٤ إني أسألك أن تتفكّر في هذا السؤال : من هو الأعظم ؟ الذي مات وقام ، أم الذي لم يمت على الإطلاق ؟ مَن طوَّب الثاني قد أخطأ ، لأن المسيح قد مات وقام ؛ ومن طوّب الأول يؤْثِر ألا يوجد عند الذين يموتون ـ أو بالحري الذين يسقطون ـ سبباً للإياس[3] .

٣٥ إن عدوّنا العاتي معلّم الزنا يقول إن الله متعطّف على البشر ويصفح بسهولة عن هذا الداء ، لأنه يتّفق مع الطبيعة . لكننا إذا رصدنا مداغلات[4] الشياطين ، نلاحظ أنه بمجرد إتيان الخطيئة ، يقولون لنا : " إن الله قاضٍ عادلٌ لا يرحم " . إنهم يكذبون علينا أولاً ، لكي يستميلونا إلى الخطيئة ؛ ويكذبون علينا فيما بعد ، ليغرقونا في الإياس .

٣٦ طالما كنّا فريسة الغمّ والإياس ، فليس بإمكاننا أن نستدرك خطأنا ونُقلِع عن معاودة السقوط. فإذا خَمَدَ الغمّ، يتعقبنا ذلك المستبد من جديد ، متكلّماً عن رحمة الله .

---

(١) " الليليّ " هو الذي ينشط ليلاً ، وهو يعني أيضاً في اللغة اليونانية " الخفاش " .

(٢) مزمور ١٣٩ : ٤٩ (٣) الإياس هو قطع الرجاء (بالعامية اليأس) (٤) أي خداعات

٣٧ إن الرب لكونه عديم الفساد وغير جسداني ، يُسرّ سروراً هذا مقداره بطهارة جسدنا وزوال فساده . لكن ـ كما يقول قومٌ ـ لا شيء يُفرح الشيطان بهذا المقدار ، مثل النتانة[1] ؛ كما أنه لا يُسرّ بوجع آخر قدر سروره بتدنّس الجسد

٣٨ الطهارة هي مشابَهة لله واتحادٌ به ، بقدر ما هو مستطاعٌ للبشريين.

٣٩ والِدا الحلاوة هما الأرض والندى ، ووالِدا الطهارة سكون الوحدة مع الطاعة . زوال آلام الجسد الحاصل من سكون الوحدة غالباً ما يتزعزع عند الاتصال بالناس ؛ لكن ذاك الناتج عن الطاعة ، يبقى في كل موضعٍ ثابتاً لا يتقلقل .

٤٠ رأيت كِبْراً يقود إلى تواضع ، فتذكرت قول القائل : "مَن عرفَ فكرِ الرب ؟ "[2] إن السقطة هي حفرة التعظّم ونتيجته ، إلاّ أنهما كثيراً ما تكون لمن يشاء أن يفيد منها ، سبباً للتواضع .

٤١ من يشاء أن يقهر شيطان الزنا بالنَهَم والشبع ، شبيه بمن يطفئ حريقاً بزيت .

٤٢ ومن يشاء أن ينهى على قتاله بالإمساك وحده ، شبيه بمن يسبح بيدٍ واحدة مريداً أن ينجو من لجج البحر . اقرن بالإمساك تواضعاً فإن الأول خلواً من الثاني لا يُفيد شيئاً .

(١) د . نتانة الزنا . أي إتيان الفعل الدنس

(٢) رومية ١١ : ٣٤

٤٣ من يلاحظ أن وجعاً من الأوجاع بدأ يستظهر عليه ، ينبغي أن يتدرّع سلاحاً عليه وحده قبل جميعها، وخاصة على عدوّنا الذي من قبيلتنا ، لأنه مادام هذا الوجع غير مُجْتاح[١] ، فلن ننتفع بشيء من قهرنا باقي أعدائنا . متى قتلنا هذا المصري[٢] ، سنبصر بالتأكيد إلهنا في عوسجة التواضع[٣] .

٤٤ شعرتُ أثناء التجربة ، بهذا الذنب مُبدِعاً في نفسي بخداعه فرحاً مُبهماً ودموعاً وتعزيةً . لكنني كطفلٍ كنت مخدوعاً حقاً ، إذ توهّمت أنني قد أمسكت ثمراً لا مُفسِداً[٤] .

٤٥ إن تكن كل خطيئة يجترمها الإنسان خارجَ جسده ، فمن يزني إنما يخطئ إلى جسده[٥] ، فهذا سببه بالتأكيد أن جوهر الجسد نفسه يتدنّس بالاستمناء ، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث في الخطايا الأخرى .

٤٦ أودّ أن أسأل : كيف اعتدنا القولَ بشأن أيّة خطيئة أخرى مهما كانت : " إن الناس قد غلطوا[٦] فقط " ؛ أما إذا سمعنا أن أحداً زنى ، فنقول بأبلغ التوجّع " إن فلاناً قد سقط " ؟

٤٧ تهرب السمكة من الشصّ بأحدّ سرعتها ؛ والنفس الشهوانية تنأى[٧] عن هدوء الصمت .

٤٨ إذا شاء الشيطان أن يربط بين شخصين برباط قبيح ، يجسّ

---

(١) مجتاح : أي مهلك : مباد : جاحه واجتاحه أي استأصله وأهلكه
(٢) انظر خروج ٢ : ١٢
(٣) العوسجة هي شجرة الشوك البرية ، وهي العليقة : انظر (خروج ٣ : ٢)
(٤) ل : لا ضرراً
(٥) كورنثوس الأولى ٦ : ١٨
(٦) ل : قد زلوا ، وذلك ببساطة ، ...
(٧) أي تبتعد

نزعات كليهما ومزاجه ، ليعرف بأيٍ منهما يُشعل الحريق .

٤٩ الذين يجنحون إلى الشهوانية يَبدون غالباً رحماء شفوقين سريعي التخشّع[1] ، بينما لا يملك الغيورون على الطهارة مثل هذه الصفات بنفس الدرجة .

٥٠ سألني رجلٌ جزيل المعرفة سؤالاً خطيراً إذ قال : " أيّما خطيئة هي أثقل الخطايا ، بعد القتل والارتداد ؟ " فأجبته : " السقوط في بدعة من بدع الدين . " فقال لي : " فكيف تقتبل الكنيسة الجامعة ذوي البدَع في الدين مَعَما ينفصلون من بِدْعَتهم انفصالاً خالصاً ، وتؤهِّلهم للاشتراك في الأسرار ؛ بينما الزاني بعد اعترافه بخطيئته وكفّه عنها ، تأمر القوانين الرسولية بأن يُفرَز من السرائر الطاهرة سنواتٍ معدودة ؟ فبُهتُّ أنا للغاية ، وظلّت المسألة محيِّرة .

٥١ لنفحصْ ، ونقايسْ ، ونرصدْ اللذّة التي نستشعرها أثناء الترتيل ، لكي نعرف التي تصدر عن الشيطان ، والتي تنشأ من أقوال الروح ومن النعمة والقوة التي تحتويها .

٥٢ لا تنخدعْ أيها الشاب ، فقد رأيت أناساً يصلّون من صميم نفسهم لأجل أعزّائهم ، ظانين أنهم يكملون ناموس المحبّة ، بينما الذي حرّكهم على ذلك هو روح الزنا .

٥٣ إن اللمس وحده كافٍ ليدنّس الجسد ، لأن ليس شيء أكثرَ خطراً من هذه الحاسة . اذكر ذلك الذي لفّ يده بوشاحه (لكي ينقل أمه

---

(١) هذا بسبب كونهم عاطفيين أكثر من غيرهم

المريضة) . لتكن يدك ممنوعةً عن اللمس بالنسبة لما هو طبيعي ، وإلى ما هو خلاف الطبيعة ، بالنسبة إلى جسدك الخاص ، أو بالنسبة إلى جسدٍ آخر .

٥٤ أظنّ أن أحداً لا يجب أن يُدعَى قديساً - بالمعنى الحقيقي للكلمة - قبل أن يحوِّل هذا الطين إلى القداسة ، إن كان هذا التحويل ممكناً .

٥٥ حين اضطجاعنا في فراشنا ، لنكن صاحين مستفيقين ، لأن العقل آنذاك يحارب الشياطين خلواً من الجسد ، فإن صودِف هذا شهوانياً ، صار للعقل أثناء القتال خائناً .

٥٦ اجعل ذكر الموت والمناجاة بصلاة يسوع[1] ينامان معك ، ويستيقظان أيضاً معك. فإنك ما تجد مثل هذين المعينَيْن لحراستك في نومك .

٥٧ يعتقد البعض أن القتالات والاستمناءات تكون من سببٍ واحد هو الأطعمة . لكنني لاحظت أن السقماء في غاية السقم والصائمين صوماً قاسياً ، يتعرّضون لهذه الأدناس تعرّضاً ليس بقليل .

فسألتُ ذات يومٍ عن هذه العوارض ، واحداً من الرهبان المختبرين كثيراً المجمَّلين بإفراز جزيل؛ فشرح لي ذلك المغبوط شرحاً في غاية الوضوح، إذ قال ذو الذكر الخالد : " يتأتّى الاستمناء أثناء النوم من وفرة الأطعمة ومن عيشة الراحة ؛ ويمكن أن يتسبب أيضاً عن الكبرياء ، إذا تصلّفنا[2] بعدم حدوث مثل هذا الاندفاق منّا زمناً طويلاً ؛ وينشأ كذلك من إدانتنا

(١) ب : صلاة يسوع الفريد لفظها - وهذا التعبير يُقصد به ترديد عبارة - أو كلمة - واحدة ، في الصلاة . وصلاة " يسوع " من الصلوات المسلَّم بها من آباء الرهبنة المصريين الأوائل مثل القديس مقاريوس الكبير ، الذي يوصي بها كجزء أساسي من منهج الصلاة الدائمة ، يسهل ممارسته في كل وقت وكل مكان وكل ظرف .

(٢) أي تشامخنا ؛ انتفخنا زهواً

قريبنا . هذان العارضان الأخيران يمكن أن يحدثا أيضاً للمرضى ، كما أظن أن الأنواع الثلاثة قد تعرض لهم .

فإن فحصَ أحدٌ ذاتَه دون أن يجد في نفسه واحدةً من هذه العلل الثلاث، فمغبوط هو حقاً إذ ينعم بمثل هذا التحرّر من الوجع ؛ فإن كان يحدث له أن يعاني من هذا الأمر ، فذلك من حسد الشياطين فحسب ؛ إذ يسمح الله بذلك زمناً ، لكي بطارئ خالٍ من خطيئة ، يستطيع أن يقتني التواضع الأسمى .

٥٨ لا يؤثرن[1] أحدٌ أن يعيد في نفسه أثناء النهار تذكُّر الخيالات الحادثة أثناء نومه . فإن الشياطين إذ يستحثونا على ذلك ، يهدفون أن يُدنّسونا في يقظتنا بتذكّر أحلامنا .

٥٩ سبيلنا أن نستمع إلى خدعةٍ أخرى لأعدائنا . كما أن الأطعمة الضارة بالجسم من شأنها ألاّ تسبب مرضه إلاّ بعد وقتٍ ما أو بعد أيام معيّنة؛ كذلك غالباً شأن الأفعال التي تدنّس النفس . فقد رأيت أناساً قد تنعّموا بالأكل والشرب ، ولم يُقاتَلوا في الحال من العدو ، ورأيت آخرين يأكلون ويتحدثون مع نساءٍ دون أن يستوعبوا فكراً واحداً خبيثاً . وهكذا وثِقَ هؤلاء المخدوعون وزال احتراصهم ؛ وحين توهّموا أنهم قد نالوا سلامةً وأماناً ، داهمهم هلاكٌ بغتةً[2] داخل قلاليهم ، وإن سألت " ما هو ذلك الهلاك ؟ " أجبتك : " إنه الهلاك الذي يدهمنا إذ نكون على انفرادٍ وحدنا، ويصيب جسمنا ونفسنا . فمن ابتُليَ به يعرفه ، ومن لم يُجرَّب به فهو في غير حاجةٍ إلى أن يعرفه .

---

(١) ل : لا يعوّدْ

(٢) قارن تسالونيكي الأولى ٥ : ٣

٦٠ في مثل هذه الظروف ، يكون لنا دواءً جيداً المِسْح والرماد ، والوقوف الثابت ما طال الليل ، والحرمان من الخبز ، والعطش الذي يُلهب اللسان ، ولا يُخمد إلاّ ببضع نقاط من الماء ، والإقامة في المقابر ، وفوق هذه كلها تذلّل القلب ؛ وإن كان ممكناً ـ فلنلتجئْ إلى أبٍ روحي ، أو أخٍ غيور شيخاً في حكمته ، قادراً على إعانتنا . لأنني أتعجب إن استطاع أحدٌ وحده أن يسلّم من هذه اللجّة زورقه[١] .

٦١ إن خطيئة واحدة بعينها تستجلب غالباً عقوبةً لواحدٍ أعظم مائة ضعف من عقوبة آخر عنها ، طبقاً لاختلاف السجايا[٢] ، والمكان ، ودرجة التقدّم[٣] ، ولأسباب أخرى كثيرة .

٦٢ حدّثني أحدهم عن واقعةٍ تدلّ على طهارة فائقة وعجيبة . قال إن أحدهم أبصر جسداً ذا جمال فريد ، فمجّد من ذلك الحُسْن خالقَه تمجيداً عظيماً ؛ وأثارت هذه النظرة الواحدة محبته نحو الله، وجعلته يفجّر من عينيه عينَ دموع . وكان عجيباً أن يلاحَظ أن ما قد يكون هوّةً[٤] لواحدٍ ، كان ـ بطريقة فائقة على الطبيعة ـ إكليلاً لآخر. فإن كان مثلُ هذا الإنسان[٥]، له

(١) الزورق هو القارب (٢) هي الخواص ، مفردها سجيّة (٣) د : + الروحي . (٤) ل : سببَ هلاكٍ لواحد

(٥) هناك واقعة مشابهة حدثت . للقديس نونوس ـ أسقف هليوبوليس ، الذي عندما مرّت أمامه القديسة بيلاجية ـ وقت أن كانت أشهر ممثلات أنطاكية ـ جعل ينظرها بانتباه بالغ لفترة طويلة ، وحتى بعد ان تحوّلت من امامه وعبرت عنه ظلّ يتأملها . ثم التفت إلى الأساقفة الذين كانوا جالسين حوله قائلاً لهم : "ألم يدرككم سرورٌ بالغ برؤية الجمال الفائق لهذه المرأة ؟" وإذ لم يجبه أحدٌ منهم ، وضع رأسه بين ركبتيه فوق كتاب الصلوات الصغير الذي كان بين يديه ، وإذ ابتلّ تماماً بالدموع وأخذ يتنهّد تنهدات عميقة . قال مرة أخرى للأساقفة : "ألم يتملككم سرورٌ مفرط برؤية جمال هذه المرأة الفائق ؟" فلما لم يجيبوه بشيء مثل المرة الأولى ، أضاف قائلاً : "اما أنا فقد سُررت سروراً عظيماً . نظراً لأن الله سوف يضعها يوماً أمام عرشه لكي يديننا نحن" .

على الدوام مثل هذا الشعور ، ومثل هذا التصرّف ، في مثل هذه الظروف ، فقد قام مسبقاً بغير فسادٍ ، قبل القيامة العامة .

٦٣ لنستعمل نفس القاعدة فيما يختصّ بالألحان والأغاني . ذلك أن المحبّين لله يتحرّكون من استماع الأغاني العالمية والروحية ـ سواءً بسواء ـ إلى بهجة هادئة وحبٍّ إلهي ودموع . أما بالنسبة لمحبّي اللذّة ، فالعكس تماماً[1] .

٦٤ إن البعض ـ على نحو ما قد سبق قولنا ـ يُقاتَلون في مواضع الوحدة بعنفٍ أشد كثيراً ؛ وليس ذلك بمستعجَب ، لأن الشياطين يؤْثِرون الإقامة هناك، إذ أن الرب نَفَاهُم ، لأجل خلاصنا، إلى البراري وإلى الهاوية .

٦٥ يقاتل شياطين الزنا المتوحّدَ في السكون أصعبَ قتال ، ليدفعوه إلى العودة إلى العالم ، كأنه لم ينتفع من البريّة بشيء . وبالعكس ، ينصرفون عنا إذا كنا مقيمين في العالم ، لكي إذ نرى أننا لسنا مقاتَلين هناك منهم ، نواصل الإقامة بين العلمانيين[2] .

٦٦ من البيّن أن المكان الذي فيه نُقاتَل ، ففيه بالتأكيد نشنُّ على عدوّنا حرباً شعواء حامية ؛ لأننا إذا لم نسدِّد نحوه اللكمات ، سيقدم نفسه لنا صديقاً[3] .

---

(١) أي أنهم يتحركون إلى الشهوات الدنسة (٢) ل : بين ذوي الأفكار العالمية

(٣) يستنتج من هذا ، أنه حتى إذا كان الراهب يحيا في البريّة حياةً عالمية، فلا يرى الشيطان مدعاة لجذبه إلى العالم ، بل ـ كما ذكر المؤلف في موضع آخر ـ يسرّ العدو ببقائه في البرية ليقاتل به الرهبان الحريصين ، ويُعثر به الضعفاء والزائرين ، إلاّ إذا ارتأى الشيطان ـ كونه سائداً على قلبه وأفكاره بسبب انحلاله ـ أن جذبه إلى العالم يعطيه مجالاً أوسع لإسقاطه في خطايا أشنع ولجعله علةً لعثرات أكثر و أعظم ولتضييق فرص التوبة أمامه . فالراهب الذي توانى في عمل البر وسقط في عمل الشر ـ كما يقول القديس فيلوكسينوس المنبجي ، مفسّر بستان الرهبان ـ إما لضعف الجسد أو لقسوة الجهاد . فهو قريب من التوبة وإدراك النعمة الإلهية لمعاضدته ، مادام متمسكاً بالابتعاد عن العالم .

٦٧ إذا كنا في العالم من أجل حاجة من الحوائج ، فهناك يد الرب تحمينا ؛ ولعل ذلك يكون غالباً بفضل صلاة أبينا الروحي عنا ، لكيلا يُجدَف على الرب بسببنا[١] . وربما يكون ذلك من تبلّد إحساسنا ، إذ نكون قد تشبّعنا من خبرة طويلة بما يُرى في العالم ، ويُقال ، ويُعمل . وأحياناً أخرى ، ينصرف الشياطين عنا طوعاً ، تاركين عندنا شيطان العُجب ، الذي يملأ موضع الآخرين أجمعين .

٦٨ اسمعوا يا جميع الذين عزمتم على حفظ الطهارة ، حيلةً أخرى ودهاء آخر لهذا الخبيث ، وخذوا جيّداً حذركم . حدّثني واحدٌ من الخبيرين بمراوغات هذا الختّال[٢] ، قال : " إن شيطان الشهوة يُخفي نفسه في معظم الأحوال إخفاءً تاماً ، وحين يكون الراهب جالساً مع النساء يحادثهن ، يحصّل فيه مشاعر فيّاضة من التورّع وربما سيلاً من الدموع أيضاً ، ويقترح عليه أن يعلّمهن ويعظهن في تذكّر الموت والدينونة والعفاف . حينئذ تُسارِع الشقيّات نحو هذا الذئب مخدوعاتٍ بأحاديثه وبتقواه الزائفة كمسارعتِهنّ إلى الراعي. وعندما تنتهي الصِلة بهن إلى الدالة، يُجتذَب التعيس إلى السقطة ".

٦٩ ينبغي أن نجتنب بكل وسيلةٍ في طاقتنا ، النظرَ إلى الثمرة التي نَذَرنا ألاّ نذوقها ، وأن نهرب من سماع كلام الحيّة . لأنني أعجب إن كنّا نستطيع أن نحتسب أنفسنا أوفرَ قوةً من النبيّ داود[٣] ، وهذا مستحيل .

٧٠ إن الطهارة جديرة بمديح هكذا عظيم ، وسامٍ حتى أن بعضاً من الآباء اجترأوا أن يسمّوها زوال الانسقام .

---

(١) انظر (صموئيل الثاني ١٢ : ١٤ ، رومية ٢ : ٢٤)

(٢) الختّال هو الخدّاع

(٣) انظر (صموئيل الثاني ١١ : ٢)

٧١ يقول البعض إنه ممتنعٌ أن يُدعَى أحدٌ طاهراً بعد أن ذاق الخطيئة . فقلتُ أنا مفنّداً قولهم إنه ممكنٌ وميسورٌ لمن يريد أن يطعِّم زيتونة جيّدة في زيتونة بريّة . فإن كانت مفاتيح السماء[1] قد أؤتمن عليها بتول[2] ، فلعل رأي أولئك الذين قدّمنا ذكْرهم يكون حقاً . فليُخزِهِمْ ذاك الذي كانت له حماة ، وصار طاهراً حاملاً مفاتيح الملكوت[3] .

٧٢ إنّ حيّة الزنا متعدّدة الصور ، توعز إلى الذين ليست لهم خبرة بالخطاء أن يختبروه مرة واحدة فقط ثم يكُفّون . أما الذين ذاقوه مرةً فتستحثهم بتذكيرهم بسالف خطأهم ، على افتعاله من جديد . وكثيرون بين الأوائل الذين ما ذاقوا الخطأ لعدم معرفتهم الشر ، لا يشعرون في أنفسهم بقتال. أما الآخرون ، فلأنهم قد خبروا هذه النجاسة ، فإنهم يعانون فيما بعد قتالاً ونضالاً . ومع ذلك ، فكثيراً ما يحدث عكس هذا أيضاً .

٧٣ عندما ننهض من نومنا بحالة طيّبة وسلامة شاملة ، فإن ذلك يدركنا بفعل معونة[4] خفيّة من الملائكة القديسين ، وخاصةً إذا كنا قد رقدنا أثناء صلاة كثيرة وإفاقة داخلية . لكننا نقوم أحيانا من نومنا رديئي المزاج ، وذلك نتيجة أحلام وخيالات رديئة .

٧٤ رأيت الشرير عالياً مترفّعاً مُزْبداً محتدماً فيّ[5] مثل أرز لبنان . ثم مررت به بتعفّفي[6] وإذ بغضبه ليس بعد كما كان ؛ وطَلَبْتُه مذلّلا فكري فلم أجد له فيّ موضعاً أو أثراً[7] .

(١) د : الفردوس (٢) ل : من عاش دوامه في حال البتولية (٣) انظر لوقا ٤ : ٣٨ ، متى ١٦ : ١٩)
(٤) د : تعزية (٥) د : عليّ (٦) الكلمة الأصلية تحمل معنى ضبط النفس بصفة عامة . انظر (غلاطية ٥ : ٢٣) . (٧) قارن (مزمور ٣٧ : ٣٥ ، ٣٦)

٧٥ من قهَرَ جسده فقد قهر طبيعته ؛ ومن قهر طبيعته ، فقد صار بالتأكيد فوقها ؛ ومن بلغ هذه الحال ، فقد " نقص قليلاً عن الملائكة[1] " ما لم يساوهم .

٧٦ ليس مستغرَباً أن يقاتل كائنٌ غير مادي كائناً غير مادي . بل العجيب حقاً ، أن ساكناً في المادة يقاتل بهذه المادة المعادية الخادعة ، أعداءه غير الماديين ويقهرهم مُدْبِرين .

٧٧ إن الرب في صلاحه ، قد أظهر اهتمامه بنا في هذا الأمر كثيراً ، فضبطَ بالحياء تجاسر المرأة كما بلجام . لأن المرأة لو كانت تحاضر وراء الرجل ، لما كان يخلص جسد .

٧٨ إن الآباء المجمَّلين بالإفراز قد ميّزوا بالتعاريف التي وضعوها ، بين: الهاجس ، والاتصال ، والجنوح ، والسبي ، والصراع ، وما يسمى بداء النفس .

فالهاجس قد حدّده آباؤنا المغبوطون أنه فكرةٌ ساذجة ، أو صورةُ شيءٍ اتّفق ظهوره لأول مرة في القلب .

والاتّصال يعرّفونه أنه محادثةُ الشيء الذي ظهر في القلب بانسقام أو بغير انقسام .

والجنوح هو إذعان النفس المصحوب بلذّة ، لما يقدَّم إليها . والسبي هو أسرٌ للقلب ، غاصبٌ كرهي ؛ أو تقيُّد دائم بالشيء الذي اتّفق ، مهلكٌ لحالة النفس الحسنة .

---

(١) قارن (مزمور ٨ : ٦ ، عبرانيين ٢ : ٧)

الصراع هو مواجهة مع العدو ، بقوّةٍ مكافئةٍ لقوته ، فإمّا تقهره النفس بإيثارها ، أو تصيبها منه الهزيمة باختيارها .

ويقولون إنّ الداء ، بمعنىً خاص ، هو شرٌ كامنٌ يكدّر النفس سرّاً منذ أمدٍ طويل ، جعلها فيما بعدُ مرتبطةً معه ارتباطاً صميماً ، مداومةَ الخضوع لسلوكٍ يشبه العادة ، التي بسببها تنساق إليها تلقائياً من ذاتها بحكم التآلف .

فالأول من هذه الأنواع ليس فيه خطيئة . والاتصال ليس دائماً يخلو من خطيئة . الجنوح يكون خاطئاً أم لا بحسب حالة المصارع الداخلية . الصراع علّةٌ لأكاليل أو لعقوبات . السبي يُحكَم عليه بأحكامٍ متباينة بحسب ما إذا حدث في وقت الصلاة أو في غيره من أوقات . كذلك إذا سُبيَ القلب إلى أمورٍ تافهة قليلة الأهمية ، فإن دينونته تختلف عما إذا أسرته الأفكار الخبيثة .

أما الداء الذي في النفس ، فهو بلا شكٍ مدانٌ في سائر الحالات ؛ فإما يعادل بتوبة مناسبة ، أو يحصل تحت عقوبة قادمة . فمن يواجه إذن الهاجس الأول مواجهة صحيحةً خاليةً من انسقام ، قد قضى على الباقين بضربةٍ واحدة .

٧٩ أما الآباء الأكثر إفرازاً وتدقيقاً ، فيذكرون نوعاً آخر من الحركات الداخلية، أكثر دقّةً وغموضاً، وهو ما يسمّيه البعض " اللمحة "؛ وهذه خاصتها أن تظهر الداء للضحيّة سريعاً بغير مهلة من الوقت ، بغير كلام ، وبغير صورة . ولا شيء في العالم المادي أسرع منها كذلك لا شيء في العالم الروحي أكثر منها غموضاً ، تُشعر بحضورها في النفس بواسطة ذكرٍ

ساذج سريع ، لا يتوفَر للنفس زمنٌ لتتأمّله[1] أو تدركه ، وأحياناً لا يعلم به الشخص نفسه . فإن كان أحدٌ قد بلغ أن يدرك بفضل دموعه[2] كنه هذه الحركة ولطافتها ، فليشرح لنا كيف أنَّه في استطاعة العينين فقط بنظرةٍ ساذجة ، أو بلمسةٍ من اليد ، أو بسَمعةِ لحن ، أن تُمسِك النفسُ من الوجع ، وتَسقُط في الزنا .

• ٨٠ يقول قائلون إن من أفكار الزنا تغزو الأسقامُ الجسدَ . آخرون يؤكدون عكس ذلك بقولهم إنه عن طريق حواس الجسد تتولّد الأفكار الشريرة . فالأولون يقولون إن العقل إذا لم يكن هو البادئ ، ما كان الجسد يتبعه. والثانون يوردون ـ لتبرير رأيهم ـ سوء فعل الداء الجسداني، قائلين إن الأفكار الشريرة غالباً ما تستمدّ مدخلاً إلى القلب بسبب نظرة سارّة ، أو من لمسةٍ باليد ، أو من رائحةِ عِطر ، أو من تلذّذ بصوت . فمن مَنَحه الرب استطاعة فليشرح لنا هذه الأمور[3] ، لأنها لازمةٌ جداً ونافعة للذين يسيرون سيرة الجهاد بالمعرفة . أما الذين يجاهدون ببساطة قلب ، فلا حاجة بهم إلى شيءٍ من هذه الأقوال . لأن العلم ليس لدى الجميع ، ولا كذلك الجميع لهم البساطة المغبوطة، التي هي الدِرع الواقي بإزاء مخاتلات الأرواح الخبيثة .

٨١ بعض الأسقام تجوز من النفس إلى الجسد ، وبعضها عكس ذلك . فالمجموعة الثانية هي فعل أهل العالم ، والمجموعة الأولى توجد لدى السالكين في مذهب الرهبانية ، نتيجة لإعواز الحوافز الخارجية[4] . لكني بهذا الشأن أقول قولاً واحداً فقط : " تَطلبُ عند الأشرار حكمة فلن تجدها[5] " .

---

(١) ل : + إذ أنه لا يعتمد على الزمن ـ والمقصود بهذه العبارة : أنه يعتمد فقط على نقاوة القلب التي تجعل النفس متنافرةً مع أي شرّ ، حتى دون أن تعيه . بفعل النعمة .

(٢) ب، ل : نوحه

(٣) الواقع أن كلا الرأيين صحيح ، إذ قد يحدث أن الأفكار الشريرة تنبع من العقل لتثير الجسد ، أو إنه عن طريق حواس الجسد يتدنّس العقل بالأفكار الشريرة

(٤) ب : المواد

(٥) أمثال ١٤ : ٦

٨٢ إذا جاهدنا كثيراً[1] مقابل هذا الشيطان قرين طيننا[2] ، وطردناه من قلبنا معذّبين إيّاه بحجارة الصوم[3] وبسيف الاتضاع ، يختبئ هذا الخسيس في جسدنا مثل دودة ، ويغاصب أن يدنّسنا إذ يدغدغنا[4] بحركاتٍ لا معنى لها ولا مناسبة .

٨٣ هذا الامتحان يكابده خصوصاً الخاضعون لشيطان العُجب ، لأنهم إذ لا يرون بعد قلوبهم مشغولة على الدوام بأفكارٍ شريرة يصيرون عُرضة لألم العُجب . وبرهان أن ما قلته خالٍ من الكذب ، هو أن هؤلاء الناس متى مارسوا من سكون الوحدة يسيراً وتصفّحوا ذواتهم بأكثر تعقّل ، سيجدون بالتأكيد فكراً من الأفكار مستتراً في قعر قلبهم كاستتار حيّةٍ في زبل ، هاجساً لهم أنّ من حرصهم ونشاطهم أحرزوا ما أحرزوه جزئياً من نقاوة قلب . إذ لم يفهم الأشقياء قول القائل : " ما الذي تمتلكه ولم تأخذه مجاناً[5] " ، إمّا من الله أو من معونة آخرين وصلاتهم ؟ فسبيلهم إذن أن يتفحّصوا أنفسهم ، وأن يطردوا من قلبهم بكافة حرصهم وإسراعهم تلك الحيّة ، وأن يميتوها بتواضع كثير ؛ حتى إذا تخلّصوا منها ، يستطيعون في الوقت المراد أن يتجردوا من الثياب الجلدية[6] ، ومثل أطفال ذلك الزمان الأعفّاء ، يسبّحون الرب تسبيح انتصار الطهارة[7] ؛ شريطة أنهم إن نزعوها ، لا يوجدون بعد عارين مجرّدين من سذاجة الأطفال الطبيعية البريئة من الخبث ، ومن تواضعهم الغريزي[8] .

---

(١) د زمناً طويلاً (٢) ب : طين جسمنا ل : قرين الطين (٣) قارن (مرقس ٥: ٥)

(٤) دغدغ داعب مداعبة ذات لذة - ويرد هذا التعبير في كتابات مار اسحق السرياني : " دغدغات الشهوة " .

(٥) كورنثوس الأولى ٤ : ٧ (٦) قارن (تكوين٣ : ٢١) (٧) قارن (متى ٢١: ١٥)

(٨) قارن (تكوين ٣. ١٠)

٨٤ هذا الشيطان ـ أكثر كثيراً من غيره ـ يرصد الأوقات المواتية ، سيّما وقت لا نستطيع أن نصلّي بالجسد ضدّه فيشنُّ ذلك الفاجر حينذاك علينا هجمةً خاصة .

٨٥ يوافق الذين لم يقتنوا بعد صلاة القلب الحقيقية ، التعب الذي يصاحب الصلاة الجسدية ، أعني بسط اليدين ، وقرْع الصدر ، النظر الخالص نحو السماء ، التنهدات العميقة ، السجدات المتّصلة[1] . لكن هذه الأعمال لا يمكننا غالباً أن نمارسها في وجود آخرين لهذا السبب ينهض الشياطين لمحاربتنا في هذا الوقت خصوصاً . وحيث أننا نكون في هذا الوقت معوزين إلى ثبات العقل وإلى القوة غير المنظورة التي للصلاة لكي نقاوم أعداءنا ، فبالضرورة نخور أمامهم . فإن أمكنك ذلك ، اعتزل جانباً حالاً ، واستتر زمناً في موضع غير معروف ، وارفع إن استطعت عينيْ نفسك ، وإن لم يمكنك فارفع عينيك الجسديتين . ابسط ذراعيك بغير حراكٍ على مثال الصليب ، لكي تُخزي وتقهر بهذه الإشارة عماليق[2] . اصرخ إلى القادر أن يخلّصك ، لا بعباراتٍ دقيقة معقّدة ، بل بألفاظ ذليلة، مفضّلاً أن تبدأ بهذه : " ارحمني يارب فإني ضعيف "[3] . حينئذ تختبر قدرة العليّ وتطرد خفيةً الأعداءَ الخفيّين ، بمعونةٍ خفيّة .

فمن يعتاد أن يحارب بهذه الطريقة ، سيصير عما قريب قادراً أن يطرد أعداءه بوسائل روحية فقط[4] . لأن الموهبة الثانية توهب للعمّال ، مكافأة له من الله على الأولى ، وذلك على جهة الاستحقاق .

---

(١) د : المطانيات المتواترة (٢) خروج ١٧ : ١١ـ ١٣ (٣) مزمور ٦ : ٣

(٤) أي دون ما حاجة إلى الاعتزال عن الناس وممارسة الوسائل الجسدية التي سلف ذكرها .

٨٦ وُجدتُ مرةً في مجمعٍ في أحد الأماكن ، وعاينت أخاً غيوراً[١] معذّباً من الأفكار الخبيثة . فإذ لم يجد مكاناً ملائماً للصلاة سرّاً ، وثبَ إلى مكان حاجة الطبيعة كأنها قد اضطرته ، وتسلّحَ على محاربيه بصلاة قوية . فلما لُمتُهُ على عدم مناسبة المكان للصلاة ، قال لي " إنني إنما صلّيت في مكان نجس ، لأجل طرد أفكارٍ نجسة ، لأتنظّف من كل نجاسة[٢] " .

٨٧ يجتهد كافة الشياطين أن يجعلوا عقلنا مظلماً ، لكي بذلك يهجسون فيه بما يرغبونه ؛ لأن العقل ما لم يغمض ألحاظه ، فلن يُستطاع أن نُسلَب كنزنا. إلاّ أن شيطان الزنا يحاول أكثر من جميع الباقين أن يفعل ذلك. فغالباً متى أظلم عقلنا الذي يسوس كل تصرّفاتنا ، حرّضنا على أن نفعل في حضور آخرين ما لا يفعله المجانين . فبعد ذلك ، حين يستفيق العقل نخجل من هذه الأفعال ، ليس فقط قدام الذين شهدوها ، بل أيضاً نستحي من ضمائرنا بسبب أعمالنا الشنيعة وأقوالنا وإيماءاتنا، ونَدهَش من سالف عمانا. وغالباً ما قاطع أناسٌ الشرّ نتيجة لتبصُّرهم فيما صدَرَ منهم .

٨٨ اطرد المحارِب الذي يعوّقك بعد ارتكابك الخطيئة عن ابتهالك وعبادتك لإلهك وأسهارك ، واذكر القائل : " لأجل أن النفس المعذّبة من ذكْر خطاياها السالفة تزعجني أنتقم لنا من أعدائها[٣] " .

٨٩ فإن سألت " من قهر جسدَه ؟ " أجبتك: " من انكسر قلبه " . ومن الذي انكسر قلبه ؟ . ذاك الذي أنكر ذاته . لأنه كيف لا ينسحق من قد مات عن مشيئته[٤] ؟

---

(١) ب : أصيلاً في الفضيلة

(٢) يقصد المؤلف القديس بهذه الفقرة . أن المحارب لا يعوزه مكانٌ للتسلح بالصلاة ضد عدوه ـ إن توفرت لديه الإرادة الحسنة

(٣) قارن (لوقا ١٨ : ٥)

(٤) هنا يشرح القديس كيفية انسحاق القلب عملياً ، بأنه الموت عن المشيئة الخاصة .

٩٠ يوجد من هو مغلوبٌ من هذا الوجع أشد انغلاباً من آخرين مغلوبين له كذلك : يعترف[١] بأدناسه بتلذّذ ، ويخترع من ذلك لذّة .

٩١ الأفكار القبيحة النجسة تتولّد من خدّاع القلب أي شيطان الزنا. لكن الإمساك والإزدراء بالأفكار هما الدواء .

٩٢ أما أنا ، فلست أعلم بأي دأبٍ وبأيّة سيرة ، أستطيع أن أربط صديقي هذا، وأحاكمه على مثال ما فعلتُ بغيره من الأوجاع، لست أعلم. لأني قبل أن أربطه ينحلّ ؛ وقبل أن أحاكمه أصطلح معه ؛ وقبل أن أعاقبه أنحني عليه إشفاقاً . كيف أقهر مَن مِن شأني أن أحبّه بالطبع ؟ كيف أنعتق ممن ارتبطت به إلى الدهر ؟ كيف ألاشي من سيشاركني قيامتي ؟ كيف أجعل عديمَ الفساد من قد أخذ طبيعةً قابلةً للفساد؟ أيّةُ حجج قوية أناصب بها من يُمسك بحجج الطبيعة ؟

٩٣ إن ربطته بالصوم ، أوجَبتُ الإدانة على قريبي ، فأُسلّم إليه من جديد . وإن كففت عن الإدانة ، أقهرُه وأسودُ عليه ، عندئذ يترفّع قلبي[٢] فأعود أيضاً إلى الخضوع له عبداً . هو معينٌ وعدوٌ معاً ، حليفٌ وخصم ، مدافعٌ وخائن .

إن توافقت معه[٣] حاربني ، وإن أدّبته ضَعُف . إن أرَحْتُهُ أساء[٤] ؛ وإن أنهكته ما احتمَلَ . إن غممته صِرتُ في خطر ، وإن ضربته ضربةً حاسمةً ، لا أملك بعدُ ما أقتني به الفضائل . فعنه بعينه أرتجع وإياه أُقبّل .

(١) م : يحدّث كل أحد

(٢) د : + بالعجب الذي أستوعبه في قلبي

(٣) ل : لاطفته

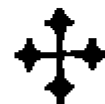
(٤) ل : إلى نفسه

٩٤ فما هو هذا السرّ فيّ ، ما معنى هذا الامتزاج[١] ؟ لماذا أنا هكذا صديقٌ وعدوٌّ لذاتي . قلْ لي ، كيف . صِف لي يا شريك نيري ، يا طبيعتي ، لأنني لست أسأل غيرك ليخبرني . كيف أثبت ناجياً من تجريحك إياي ؟ كيف أستطيع أن أنفلت من خطر فطرتي ، إذ أنني عاهدت المسيح سلفاً أن أبغضك؟ كيف يمكنني أن أقهر طغيانك، إذ قد تقدَّمت فأقررت أن أعتنفك؟

٩٥ قال الجسد مجيباً النفس : " لست أقول لكِ شيئاً لا تعرفينه أنتِ جيداً ، بل أصف لكِ ما هو معروف لكلينا . إنني افخر بأن محبتي لذاتي هي أميّ . النار التي أختبرها من خارج ، تتأتى من الملاطفات التي بها أُعامَل ، ومن راحةٍ شاملة . أما النار والحركة[٢] التي من داخل ، فهما من راحة سالفة وأعمال مَضَت .

إنني إذا حبلْت ألد الخطايا ، وهؤلاء بدورهن يلدن الموت والإياس .
إن وعيتِ بوضوح الضعف المتأصِّل في كلينا ، قيَّدتِ يديَّ . وإن قمعتِ شهيَّتك، فقد قيّدتِ رجليّ فما أستطيع التقدّم إلى ما هو أبعد
إن حملتِ نير الطاعة ، فقد انفككتِ من نيري .
إن اقتنيتِ التواضع ، فقد قطعتِ رأسي .

هذه هي الجائزة الخامسة عشرة ، من فاز بها وهو بعد في الجسد ،
فقد مات وقام مسبقاً ، وعرف منذ الآن
باكورات الحياة الآتية ،
التي لا يعتريها فساد



(١) ل : + بين نفسي وجسدي (٢) د : حركة الأفكار

الدرجة السادسة عشر

مَحبة المال*، والزهد في الاقتناء

١ إن كثيرين من المعلمين الحكماء يرتّبون ـ بعد الطاغية الذي سبق وصفه ـ شيطان محبة المال هذا، ذا الألف رأس. فلم نشأ نحن الذين قد فاتنا أن نكون حكماء أن نغيّر ترتيبَ الحكماء، فلنتبع إذن حدَّهم هذا وقاعدتهم، ولنتكلّم بضع كلماتٍ أولاً في شأن هذا الداء، ثم نصف بإيجاز الدواء.

٢ محبّة الفضة هي سجود للأصنام[١]، ابنة عدم الإيمان، احتجاجٌ بالمرض، تطلّعٌ إلى الشيخوخة، متنبئٌ بالمجاعة، نذيرٌ بورود القحط.

٣ محبّ الفضة مستهزئٌ بالإنجيل، عاصٍ له طوعاً بإيثاره. من اقتنى المحبّة يفرّق ما يملك، ومن يقول إنّه يعيش بالمحبّة وبالمال يخدع نفسه.

٤ من ينوح على نفسه، قد كفر حتى بجسمه[٢]؛ وإن دعاه داعٍ لا يشفق عليه.

٥ لا تقل إنك تجمع أمولاً لأجل المساكين، فإن فلسين ابتاعا الملكوت[٣].

٦ التقى محب الغرباء بمحب الفضة، فسمّى الثاني الأول عديم الإفراز.

---

* التعبير القديم لمحبة المال هو "محبة الفضة."

(١) أفسس ٥ : ٥

(٢) أي أنّ من ينوح على خطاياه يستطيع التحرّر من محبة المال، والعكس صحيح. إذ يقول القديس مقاريوس الكبير "كيف يدخل التخشّع في نفس إنسان محب للمال؟".

(٣) انظر (لوقا ٢١ : ٢) - في هذا الشأن يقول القديس مقاريوس الكبير - "لا يوسوس لنا الشيطان قائلاً: اجمع لكي تستطيع أن تعمل صدقة. فإن من لا يشاء أن يصنع رحمةً من فلسٍ واحد، لن يعمل رحمة من ألف دينار" وهذا حقّ "لأنه كثيراً ما يوجد إنسان متوسط الحال أكثر رحمة على الفقراء من غني" (انظر بستان الرهبان ص ٢٢٨ - ٢٣٠).

٧ مَن قهَرَ هذا الداء ، قد حسم عنه أصل الهموم ؛ والمقيَّد بسلاسله لن يبلغ الصلاة النقيّة أبداً .

٨ ابتداء محبة الفضة التعلّل بالصدقة ، وتمامه مقت الفقراء . مادام يجمع يكون رحوماً ، فإذا صارت عنده الأموال ضمّ يديه .

٩ رأيت فقراء في الأموال قد استغنوا لما عاشوا مع مساكين في الروح[١] ، ونسوا بذلك فقرهم الأول .

١٠ راهبٌ محبٌّ للمال ، غريب عن الضجر ، متذكّر كلَّ ساعة قول الرسول : " إن كان أحدٌ لا يريد أن يشتغل، فلا يأكلن بعد[٢] " و " يداي هيّأت حاجاتي وحاجات الذين معي[٣] " . هذا صراعٌ[٤] ؛ من قهره فإمّا قد اقتنى حباً ، وإمّا قد حسم عنه هذا الهمّ[٥] .

١١ الزهد في الاقتناء هو فقد الهموم . عيشةٌ خاليةٌ من قلق . مسافرٌ غير متعوِّق[٦] . إيمان بالوصايا . تغرُّبٌ عن الغمّ .

١٢ راهبٌ زاهدٌ في المقتنيات ، هو سيِّد الدنيا ، موكِّلاً ربَّه الاهتمام به حائزاً بإيمانه كلَّ الناس له عبيداً . لن يقول لإنسان عن حاجةٍ من حاجاته، وما يجيئه يقتبله كأنه من يد ربّه[٧] .

١٣ العامل الزاهد في المقتنيات هو ابن التجرّد، يحتسب ما هو موجود عنده كأنه غير موجود . متى عَرَض له الانصراف من مكانه[٨] ، احتسب

---

(١) متى ٥ : ٣ (٢) تسالونيكي ٣ : ١٠ (٣) أعمال الرسل ٢٠ : ٣٤

(٤) أي مع شيطان محبة المال (٥) بعض النسخ تنهي بهذه العبارة الدرجة السادسة عشرة وتخصّص لعدم الاقتناء درجة جديدة . فالفقرة ١٦ : ١١ هي بداية الفقرات الخاصة بالزهد في الاقتناء (٦) د : سفر بغير أحمال

(٧) هذا القول يحتاج إلى تبصّر، فما يزيد عن حاجة الراهب، ينبغي ألاّ يحتفظ به ؛ في هذا يقول القديس مقاريوس: "... وسرعان ما يسوق إبليس إليه من يُحضر له حوائجه من خمر وزيت وثياب ودراهم وكل صنف". أنظر (بستان الرهبان ص ٢٢٨) . (٨) ل ، د : متى دخل حياة التوحّد .

كلَّ ما فيه نفاية ؛ فإن اغتمَّ لشيءٍ منها ، فهو لم يصر بعدُ زاهداً .

١٤ الزاهد في الاقتناء ، نقيٌّ في صلاته . محبّ القنيان يصلّي إلى تماثيل ماديّة ، من ذهبٍ وفضةٍ وغيرهما[1] .

١٥ المقيمون في الطاعة غرباءٌ عن محبة الفضة ، لأنه حيث يسلّم المرء جسده أيضاً ، فما الذي له فيما بعد خاصاً به ؟ هؤلاء لا يمكن أن يضلّوا إلاّ عن طريقٍ واحد : هو أن يكونوا مسارعين ومتأهبين للانتقال من مكانهم.

١٦ رأيت مقتنياتٍ ماديّة قد جعلت رهباناً يصبرون على البقاء في موضع واحد . فطوّبتُ الجائلين لأجل ربّهم أكثر من أولئك الثابتين[2] .

١٧ من قد ذاق الفوقيّات ، يتهاون بسهولةٍ بالسفليّات . أما من لم يذق ما فوق ، فيجد مسرّته في أملاك الدنيا .

١٨ أيها الرهبان ، لا تَظهروا أعدم من الطيور إيماناً ، فإنها لا تهتمُّ ولا تجمع .

١٩ الزاهد الاقتناء بلا معرفة ، يقاسي ضررين : يمسك عن الخيرات الحاضرة ، ويُحرَم النعمَ الآتية[3].

---

(١) هذا التعبير قاله القديس مقاريوس الكبير لرهبان ظاهر الإسكندرية : " إن الراهب المحب للفضة عابد للأوثان، غريبٌ عن محبة المسيح ، ساجدٌ للأصنام المنقوشة ــ أعني الدنانير ــ لها يذبح كلّ يومٍ عجولاً وكباشاً بإخضاع نيّته وإرادته لمحبة المال الرديّة ، هذه التي تفصل الراهب عن شركة الملائكة وعن مُلك السموات ، وتجعله شريكاً ليهوذا الذي بسببها ازدرى بالنعمة . إن الرب يقول : من لا يهجر العالم وكل ما فيه ، وينكر نفسه ، ويحمل صليبه ، لا يستحقني ؛ فكيف يكون لنا نحن الرهبان الذين هجرنا العالم ذهب وفضة وملابس ولا نكف كذلك عن الجمع ، مع ان البائس ، بل المسيح . جائع وعطشان وعريان " (بستان الرهبان ص ٢٣٠) .

(٢) قارن (عبرانيين ١١ : ٣٧ ؛ ٣٨) .

(٣) يُقصد بهذا القول : الكسول المتقاعس الذي لا يتاجر بما أُعطي من مواهب ، فيحرم نفسه في يوم الدينونة من ثواب العطف على الفقير والمحتاج ـ أنظر (متى ٢٥ : ٤١ ـ ٤٥) .

٢٠ عظيمٌ من زهد في الاقتناء عن تقوى ؛ لكنه قديسٌ مَن يزهد في مشيئته[١]. الأول يقتبل مائة ضعف ، إمّا بأموالٍ أو بمواهب ؛ أما الثاني فيرث حياةً أبديّة .

٢١ البحر ما تفارقه أمواجه ، ومحبّ المال لا يفارقه الغيظ والغمّ .

٢٢ المتهاون بالماديّات حرٌّ من المجادلات والمنازَعات ؛ أما الجشِع ، فيُلاكم إلى موته من أجل إبرة .

٢٣ الإيمان غير المتزعزع يحسم كلَّ هَمّ ؛ أما ذكْر الموت فيكفر بالجسم ذاته .

٢٤ لم يكن في أيوب أثرٌ لمحبة الفضة . لذلك ، فحين عَدِمَها بقي بغير اضطراب .

٢٥ إنها قُرمة الشرور كلها ، والكتاب يقول ذلك[٢] ، لأنها أبدَعتْ البغضاء ، والسرقات ، والحسد ، والانقسامات ، والعداوات ، والمنازعات،

---

(١) إن التمسك بالمشيئة الذاتية ، أو العناد هو أيضاً عبادة أوثان ؛ لذلك قيل : " هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة ، والإصغاء أفضل من شحم الكباش . لأن التمرّد كخطيئة العرافة (الشيطانية) ، والعناد كالوثن والترافيم. لأنك رفضت كلام الرب ، رفضك " (صموئيل الأول ١٥ : ٢٢ ، ٢٣) لكن عدم التمسك بالمشيئة أعظم من عدم التمسك بالاقتناء ؛ لأنه كثيراً ما يوجد من هو عادمٌ للمقتنيات لكنه متمسّك بمشيئته ، بينما من العسير أن يوجد من هو زاهدٌ في مشيئته متمسّك بالاقتناء ؛ لأن بذل الإنسان لذاته أعسر من بذله لما يملك . لهذا نعلم أن تجربة أيوب الثانية كانت أصعب من تجربته الأولى (انظر أيوب ٢: ٥) . وقد وضّح لنا الرب يسوع درجات التلمذة على النحو الآتي : أ ـ هجر المقتنيات . ب ـ جحد عواطف اللحم والدم ممثلة في الأب والأم والزوجة والأولاد والإخوة والأخوات . ج ـ جحد الذات . د ـ حمل الصليب لتمجيد الله . انظر (متى ١٠ : ٣٤ ـ ٣٩ و ١٦ : ٢٤ ـ ٢٦ ، لوقا ١٤ : ٢٥ ـ ٣٣) ؛ فلمّا لم يستطع الشاب الغني ارتقاء الدرجة الأولى خسر تبعية الرب وملكوت السموات (متى ١٩ : ٢١ـ ٢٤) .

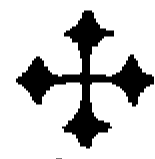
(٢) تيموثاوس الأولى ٦ : ١٠

والأحقاد ، وقساوة القلب ، وجرائم القتل .

٢٦ أناسٌ أحرقوا بنارٍ يسيرةٍ خشباً كثيراً ؛ وبفضيلة واحدة انفلت أناسٌ من كافة الأوجاع التي ذُكِرت حالاً . هذه الفضيلة تُدعى " الزهد ". وهي تتولد من الاختبار ، وتذوّق الله[١] ، والتفكّر في الحساب ساعة الموت.

٢٧ إن القارئ النابه يتذكّر ما قيل في أم جميع الرذائل[٢] ، فإنها قالت في تعديدها لأولادها الخبثاء الملاعين ، إن ابنها الثاني هو حَجَر فقد الحِس[٣]. لكن حيّة عبادة الأصنام ذات الرؤوس الكثيرة ، قد منعتني عن أن أعطيها مكانها الذي يناسبها . لست أعلم لماذا حدّد لها المفرزون من آبائنا ، الحلقة الثالثة من سلسلة الرذائل المميتة . وحيث قد تجاوزنا الاختصار في التحدّث عن محبة المال ، نريد أن نتكلم الآن عن زوال الحِسّ ، الذي هو الثالث في الترتيب ـ مع أنه المولود الثاني . ثم نتكلم بعد ذلك بإيجاز في النوم والسهر، وأيضاً في الخوف الصبياني الجبان ، لأن هذه الأمراض تخصّ المبتدئين .

هذه هي الدرجة السادسة عشرة ، من
ارتقاها فهو راحلٌ إلى السماء
رحيلاً عارياً من
المادّة



---

(١) مزمور ٣٤ . ٨ ، ٩ (٢) ب : + نهم البطن (٣) م : حجر القساوة

الدرجة السابعة عشرة

انعدام الحِسّ ، الذي هو إماتة النفس والعقل قبل موت الجسد

١ عدم الحِسّ ، سواء حين يصيب الجسم أو الروح ، هو موتُ الحِسّ، قد نتج عن سقم مزمن وتوانٍ طويل ، وانتهى إلى زوال الحِسّ .

٢ فقْد الحِسّ هو وِنْيَةٌ متمكّنة بالعادة ، وأصلُ عاداتٍ شريرة[١]؛ فكْر مشلول ؛ ميلاد التوقّح ؛ فخٌ للنشاط ؛ وهقٌ[٢] للشجاعة ؛ جهلٌ بالخشوع ؛ بابٌ للإياس ، أبو النسيان الذي يلد فقدان مخافة الله الذي يصير والِداً لأبيه[٣] .

٣ فاقد الحسّ :

* فيلسوفٌ فاقدٌ الحكمةَ .
* معلّمٌ يوجب اللومَ على ذاته ؛ ثرثار مناقض لنفسه .
* أعمى يعلّم آخرين أن ينظروا .
* يخاطب في وصف التئام جرحٍ ، ولا يكفُّ عن حكّه ؛ يشكو من علّةٍ وما يكفّ عن أكل ما يضرّه .
* يصلّي من أجل الشفاء منها ، وفي الحين يذهب لتلبية مطلبها .

---

(١) ب ، ل ـ أصل ...شريرة . والمقصود أنه من إدمان التهامل واعتياد التواني ينشأ انعدام الحسّ ، الذي بدوره ينتج عاداتٍ شريرة أخرى (٢) الوهق : هو الأحبولة ، وهي شرك من الحبال (انظر كورنثوس الأولى ٧ : ٣٥)

(٣) أي أن زوال الحسّ يلد نسيان [الوصايا والواجبات الروحية] ، والنسيان يلد انعدام المخافة ، الذي بدوره يلد زوال الحسّ .

* يغتاظ على نفسه عند افتعالها ، وما يخجل الشـقي من أقوالـه . يصيح : " أخطأت ! " ويجنح إلى مواصلة الخطاء بأوفر شغفه.
* بالفم يصلّي ضدّ دائه ، لكن جسده يصارع لأجل إرضائه .
* يتفلسف عن الموت ، ويتصرّف كأنه لـن يموت ؛ يتنهّـد علـى افتراق النفس من الجسـد ، ويغـطّ في النعـاس كأنـه مُخلّـد [في الدنيا].
* يتحدّث عن الحِمية وضبط النفس، ويجاهد في إرضاء البطن .
* يقرأ عن الدينونة ، ويبدأ أن يبتسم .
* يقرأ في اجتناب العُجب ، ويعتجب بقراءته عينها .
* يستظهر[1] أقوالاً في إيثار السهر، وللوقت يُغيص ذاته في النوم.
* يمدح الصلاة ويهرب منها كما من سوط[2] .
* يطوِّب الطاعة ، وهو أول من يعصي .
* يمدح الزهد، وما يخجل من حقده ومحاربته من أجل خِرقة .
* يغتاظ إذا غضب، ثم يغضب من جديدٍ لأنه اغتاظ على نفسه ، ولا يشعر أنه يضيف على هزيمته هزيمة .
* إذا تَخِمَ[3] يتندّم ، وبعد وقتٍ يسير يملأ من جديدٍ بطنه .
* يطوِّب الصمت ويمدحه بسيلٍ من الكلام .
* يعلّم في فضل الوداعة ، وغالباً ما يغتاظ أثناء تعليمه عينه .
* إذا أفاق من وجعٍ يتحسّر ، ثم يهزّ رأسه ويذعن لوجعه من جديد .
* يذمّ الضحك ، ويعظ عن النوح مبتسماً .

---

(١) أي يحفظ عن ظهر قلب (٢) د : كما من مصيبة . (٣) تخم تخمة : أكثر من الأكل

* يـذمّ ذاته بحضـرة النـاس علـى أنـه محـبٌ للمجـد البـاطل ، ويستهدف من مذمّته مجداً لذاته .
* ينظـر في وجـوه الآخرين نظـراً منسقماً،ويخـاطب عـن حفـظ الطهارة.
* يألف الإقامة في العالم ، ويمـدح الذين في هـدوء الوحـدة ؛ ومـا يفطن أنه يُخزي ذاته .
* يمجِّد الرحماء ويَسبُّ الفقراء .
* في كـل حـين يكـون متهمـاً لنفسـه ، ومـا يشـاء أن يرجـع إلى إحساسه ـ كيلا أقول ـ لا يستطيع .

٤ لقد رأيت كثيرين بهذه الحال ، يكـون عنـد استماعهم أقـوالاً عـن الموت والدينونة الرهيبة . وإذ كانت الدموعُ بعدُ في أعينهـم ، أسـرعوا نحو المائدة جذلين . فتعجَّبت كيـف اقتـدر شـره البطـن ـ هـذا الطاغيـة المنـتن ـ باستمداده من عدم حِسٍّ متأصِّل ، قوةً ليهزم النوحَ عينه .

٥ على قدر مـا تسـمح قدرتـي ويسـير معرفـتي ، قـد كشـفت خدائـع وأضـرار هـذا الوجـع الحجـري الصخـري ، الأحمق العُضـال . فـإني لسـت أحتمل إطالة الخطاب فيه . فالخبير بـالرب لا يجفـل[1] مـن أن يقـدِّم الأدويـة التي تناسب هذه القروح . لأني لست أخجل من أن أورد في هذه الأعـزاض اعترافاً بعجزي ، حال كوني أنا نفسي متوجّع من هذه العلّة توجّعاً خطـيراً . ولم أكن قادراً على كشف خدائع هذا الداء وحِيَلِه ، لـو لم أضبطـه وأحبسـه اقتساراً . وإذ سبرت أغواره ، أكرهته على أن يعترف بما تقدّم ، جـالداً إيّـاه

(١) يجفل . ينفر

بسوط مخافة الله ، وبصلاة لا تتوقّف . وهذا هو السبب في أن ذلك المستبدّ مقترف الشرّ قال لي : " إن الخاضعين لي يبصرون الأموات فيضحكون ؛ يكونون وقوفاً في الصلاة وهم متحجّرون ، قاسون مظلمون ؛ وحين ينظرون المذبحَ المقدّس ، لا يحسّبون بشيء ؛ وعندما يشتركون في القربان المقدّس يبدون كأنهم يأكلون خبزاً عادياً .

إنني عندما أرى متخشّعين أستهزئ بهم ؛ وقد تعلّمت من الروح الذي ولدني ، أن أقتل كافة الصالحات التي تلد الهمّةَ والإرادة [المقدّستين][1] .

إنني والد الضحك ، مربّية النوم ، صديقُ البطن الممتلئ ؛ مؤالف التقوى الكاذبة ؛ وإذا وُبِّخت لا أحزن .

٦ فاندهشت من أقوال ذلك المعتوه ، وسألته لكي أعرف اسم والده . فقال : " إنه ليس لي نسبٌ واحد ، لأن أصلي مختلطٌ غير محدّد .

فالشبع يقوّيني ؛ والزمن ينميني؛ والعادة الخبيثة تمكّنني[2] ، فمن تمسّك بها فلن ينعتق أبداً مني .

فثابِر على أسهار الليل ، متأمّلاً في المحاكمة الأبديّة ، فعساني أرخي قليلاً سلطتي عليك ؛ واكشف العلّة التي منها وُلِدْتُ فيك وقاتِل أمّي ، لأنها ليست واحدةً في جميع الأحوال .

صلِّ كثيراً في المقابر ، وصوِّر لها في قلبك صورةً لا تُمحَى ؛ فإنك ما لم تنحت صورتها في قلبك بقلم الصوم ، فلن تقهرني إلى الدهر " .

(١) ب ، ل : كافة الصالحات المتولدة من الشجاعة والحب .   (٢) مكّن : صار مكيناً ؛ وطّد ، ثبّت .

الدرجة الثامنة عشرة

النوم ، والصلاة والتسبيح مع الجماعة

١ النوم حالة مختصَّة بطبيعتنا ، صورة الموت ، سكون الحواس . النوم واحد ، ولكن له ـ شأنه شأن الشهوة ـ أسباباً كثيرة : أعني من الطبيعة ، من الطعام ، من الشياطين ؛ أو ربما يكون النوم أحياناً ، من صوم شديد وطويل يَضعف الجسم بسببه ، فيتوق في النهاية إلى أن يتعزّى بالنوم .

٢ كما أن الميْل إلى الإكثار من الشرب عادة ، كذلك من العادة يتأتّى الإكثار من النوم. فسبيلنا ـ لاسيما المبتدئين في الزهد منا ـ أن نجاهد في الاستظهار على مطلب النوم ، لأن العادة التي طال زمانها يصعب الشفاء منها .

٣ لنلاحظ ، فنجد أنه إذا ضرب البوق الروحاني ليجتمع الإخوة اجتماعاً علنياً ، يجتمع أعداؤنا كذلك اجتماعاً سريّاً ، لذلك يقف بعضهم عند سريرنا وعند نهوضنا يشيرون علينا أن نعود إلى الاضطجاع أيضاً قائلين: " انتظر حتى تنتهي مقدِّمات التسابيح ، ثم اذهب بعد ذلك إلى الكنيسة " . وبعضهم عند وقوفنا في الصلاة يغرقوننا في النوم . وغير هؤلاء يُحدِثون في المعدة آلاماً شديدة خلافاً للمعتاد . وغيرهم يحرِّضوننا على أن نتجاذب في الكنيسة حديثاً . وغيرهم يسحبون عقلنا في أفكار مُخجلة ، وبعضهم يجعلوننا نميل إلى الحائط كأنه قد خارت من التعب قوانا . وربما ورّطونا في نوبات من التثاؤب . ومنهم من يسبِّبون لنا في وقت الصلاة غير مرة ضحكاً ، ليثيروا بذلك غضب الله علينا . وآخرون يكلّفوننا أن نُسارع

ـ بداعٍ مـن كسـلنا ـ في تسـبيحنا وفي صلاتنـا . وغـيرهم يأمروننـا أن نـترنم بتباطؤ كثير بقصد التلذّذ . وأحيانـاً يجلسـون علـى أفواهنـا ويغلقونهـا حتـى يصعُب علينا أن نفتحها .

أما الذي يتحقق أنه واقف لدى الله ، فتراه ثابتاً في صلاته مثل عمـود، مصلّياً بكل أحاسيس قلبه الصادقة ، دون أن يلعب به واحد من الذين سـبق ذكْرهم .

٤ المطيع حقاً يجد نفسه أثناء الصلاة مملوءاً من الاستنارة والفرح ، لأن هذا الملاكم قد استعدَّ مقدَّماً والتهب بواسطته خدمته الأمينة .

٥ إنه يمكن لكـل أحـد أن يصلّـي مـع جماعة ؛ بينمـا يفيـد كثـيرين أن يصلّي أحد مع أخيه بالروح ، أما الصلاة الوحدية فهي للقليلين جداً .

٦ ليس ممكناً في تسبيحنا مع كثيرين أن نصلّي صلاة الروح الصامتـة . لكن ينبغي لعقلك أن يقترن بتأمل الكلمات الـتي تُرتَّـل أو تُقـرأ ، أو فلتكـن لك صلاة محدَّدة تتلوها في انتظار دورك[١] .

٧ لا يليق بـأحد أن ينشـغل أثنـاء الصـلاة بعمـل ثـانوي ، أو أن يحـوّل انتباهه عن الصلاة . لأن الملاك الذي ظهر للقديس أنطونيوس الكبـير علّمنـا هذا بوضوح .

٨ كما أن الكُوْر[٢] يمتحن الذهب ، كذلك وقفة الصـلاة تمتحـن غـيرة الراهب وحبّه لله .

عمل ممدوح ـ من جعله شغله الشاغل ، اقترب من الله وطرد الشياطين .

---

(١) هذا عند وجود مجموعتين متجاوبتين من المسبّحين ، وهو النظام المسمى Antiphony .

(٢) الكُور . هو مجمرة الحدّاد أو صانع المعادن

الدرجة التاسعة عشرة

سهر الجسد ، وكيف نحصل به على السهر الروحي ، وكيف نمارسه

١ بحضرة ملوك الأرض يقف أناسٌ عادمين سلاحاً أو درعاً ، وآخرون ضابطين عِصِيّاً ، وغيرهم ممسكين بتروس ، وغيرهم متقلّدين سيوفاً ؛ والفضل الذي يتميّز به الأولون على الآخرين كبير يفوق القياس . لأن الأولين عادةً هم أنسباء الملك الأخصّاء ، وأعضاء بلاطه المجالسون . هذا هو الحال عند الملوك الأرضيين .

٢ هلمّ لنرى كيف نجعل وقوفَنا لدى إلهنا وملكنا ، في أوقات صلاتنا مساءً ، أو أثناء الليل ، أو نهاراً . لأن البعض يبسطون في الصلاة أيديهم ساهرين ما طال ليلهم ، كأنهم خالون من جسد، عارين من كل اهتمام . غير هؤلاء يداومون الوقوف في ترتيل المزامير(١) . آخرون ينشغلون بالأكثر في القراءة ؛ وبعض من تلقاء ضعفهم ، يقاتلون النوم بشجاعةٍ منشغلين بعمل أيديهم . آخرون يتشاغلون بفكر الموت ، مريدين أن يتّخذوا منه تخشّعاً . فمن هؤلاء كلهم ، الأولون والأخيرون يثابرون السهر طوال ليلهم من أجل محبتهم لله . والثانون يفعلون ما يليق بالراهب . أما الثالثون

---

(١) ب . صنوف التسابيح

فيسلكون الطريق الأدنى[1] . إلاّ أن الله يقتبل التقدمات ويقدّرها على حسب قصد وطاقة كل واحد .

٣ العين الساهرة تُطهِّر العقل ؛ وكثرة النوم تُظلم النفس[2] .

٤ الراهب السهّار عدو الزنا ، أما النوّام فصديقه .

٥ السهر إطفاء لحرارة الجسد[3]، إنقاذٌ من الأحلام[4]. هو عينٌ دامعة، قلبٌ عطوف ، حارسُ الأفكار، هاضم الأطعمة ، مخضِعُ الآلام[5] ، مُلْجِمُ اللسان ، طاردٌ للتصوّرات الشريرة .

٦ راهبٌ يمنع نفسه عن النوم هو صيّاد للأفكار ؛ في سكون الليل يقتدر بسهولة أن يتأمّلها ويصطادها .

٧ الراهب المحب لله، متى ضرب ناقوس الصلاة يقول : " حسناً حسناً ! " ؛ أما الراهب الكسول ، فيقول : " وا أسفاه ، وا أسفاه ! "[6] .

٨ إعداد المائدة يكشف النَهِمين ؛ وعمل الصلاة يعلِن المحبِّين لله . الأولون إذا أبصروا المائدة ارتكضوا سروراً ، أما الثانون فيقطّبون عابسين .

٩ النوم الكثير يُسبِّب النسيان ؛ والسهر ينقّي الذاكرة .

١٠ ثروة الزُرّاع تُحصَّل في البيدر والمعصرة ؛ وثروة الرهبان

(١) هذا يعني أن المؤلف القديس وضع المرتّلين بالمزامير مع القارئين في الكتب المقدسة في مرتبة واحدة ، هي المرتبة الثانية .

(٢) تجعل النفس عديمة الحسّ ـ م : تعمي النفس وتقسّي القلب .

(٣) ل ، م : إطفاء للشهوة .

(٤) ل : خيالات الأحلام

(٥) ل : + ترويضٌ للأرواح .

(٦) ب ، م : ويلي ، ويلي ـ ل : يا للإزعاج

ومعرفتهم تُجمَعان في الأمسيات وسواعي الليل حالَ وقوفهم للصلاة ، واقترانهم بأعمالهم الروحية .

١١ النوم الطويل صديقٌ ظالم ، يختلس من الكسول نصف حياته أو أكثر .

١٢ الراهب الفاقدُ الحنكة ساهرٌ في الأحاديث ، فإذا حان وقت الصلاة ثقلت عيناه .

١٣ الراهب المتراخي نجيبٌ في كثرة اللغو[١] ، فإذا بدأت القراءة لا يمكنه أن يحفظ عينيه مفتوحتين . عندما يضرب البوق الأخير[٢] تصير قيامة الموتى ، وإذا حضر الكلام الباطل يستفيق النيام .

١٤ الطاغية النوم صديقٌ خدّاع ، غالباً ما ينصرف عنا عند شبعنا ، لكنه يحاربنا حرباً حامية حال جوعنا وعطشنا .

١٥ يشير علينا أن نعمل في أثناء[٣] صلاتنا عملاً يدوياً ، لأنه لا يستطيع أن يُحبط[٤] صلاة الساهرين بوسيلة أخرى .

١٦ وهو أول من يقاتل المبتدئين[٥]، ليجعلهم منذ البداية متوانين ، أو لكي يعدّ طريقاً قدام شيطان الزنا .

١٧ ما دمنا لم نعتق من النوم ، لا نطلبن الإعفاء من الصلاة والترتيل مع الجماعة ، لأنه غالباً ما يمنعنا الخجل فما ننعس .

---

(١) لغا لغواً . تكلّم عن غير روية وتفكّر (٢) تسالونيكي الأولى ٤ : ١٦ (٣) د : في وقت

(٤) أي يُفسد (٥) في السيرة الرهبانية . أو في الحياة الروحية بصفة عامة

١٨ في نهاية النهار يجلس التاجر ويحسب أرباحه ؛ والراهب العمّال من بعد تسبيحه وتزميره[١] يفعل ذلك .

١٩ الكلب يعادي الأرانب البريّة ؛ وشيطان المجد الباطل[٢] يعادي النوم .

٢٠ تمهّل عقب صلاتك ، فتبصر حينذاك مواكب شياطين كأنهم إذ قوتلوا منا ، يرتادون أن يرشقونا بعد الصلاة بخيالاتٍ سخيفة[٣]. اجلس وارصد ، فتعاين الذين اعتادوا أن يخطفوا نواجم[٤] نفسك .

٢١ قد يحدث أن اعتياد الهذيذ المتواصل في عبارات المزامير ، يستمر أثناء النوم . لكنه يمكن أيضاً أن يضع الشياطين هذه العبارات في عقولنا ، لكي يستميلونا إلى العُجب . أما الحالة الثالثة ، فلم تكن لي إرادة لأن أذكرها ، لولا أن واحداً أجبرني على ذلك ، وهي أن النفس الدارسة[٥] نهاراً في كلمة الرب درساً متواصلاً ، تنشغل أيضاً بها في أثناء نومها ، لأن هذه النعمة الثانية مكافأةٌ لها على الأولى ؛ وهي تساعد على تجنّب السقطات والخيالات .

هذه هي الدرجة التاسعة عشرة ،
من اعتلاها اقتبل في
قلبه نورا

---

(١) التزمير هو اصطلاح لترتيل المزامير (٢) ب : العُجب (٣) ب : قبيحة . م : نجسة .

(٤) هي الثمار ، والمقصود بها ثمار الصلاة الروحية . (٥) الدرْس : هو ما اصطلح عليه بالهذيذ ، وهو تكرار التلاوة ، سواء بالشفتين أو بالقلب - والمعلّم يُسمّي مدرّساً ؛ لأنه يجعل تلاميذه يكرّرون المعلومة حتى يحفظوها ، كذلك سُمي دياس القمح دَرْساً ، لأنه يحدث صوتاً تحت النورج مثل صوت الدارس .

الدرجة العشرون

الجبانة الصبيانية عديمة الرجولة

١ إن كنت تقتفي أثر الفضيلة في دير شركة ، أو بين جماعة ، فربما لن تُقاتَل من الجبانة إلاّ قليلاً . أما الذي يعيش في مواضع منعزلة أوفر من غيرها هدوءاً ، فينبغي أن يبذل كل جهد لكيلا تستولي عليه الجبانة ، ابنةُ العُجب وقلّة الإيمان .

٢ الجبانة هي نزعة طِفليّة ، في نفسٍ تجاوزت عمر الصِبا ، ممتلئةٍ من المجد الباطل . الجبانة نقصٌ في الإيمان يسبِّب توقّعَ ما لا يُتوقّع .

٣ الخوف هو الهذيذ بخطرٍ مقدَّماً ؛ أو هو أيضاً حِسٌّ مُرتاعٌ للقلب ، مُرتجفٌ مغمومٌ من أجل مصائب غامضة . الخوف هو فقد الإيقان[1].

٤ النفس المستكبرة عبدةٌ للجبانة ، متوكّلة باطلاً على ذاتها ، ترتاع من أي صوت ، أو من خيالٍ لكائنٍ من الكائنات .

٥ النوّاحون على خطاياهم - لكن دون أن يغتموا لأيِ همّ آخر[2] - لا يعرفون جبانة . وقد يعرض كثيراً للجبناء أن يعانوا من تشويش عقلي ، وذلك على جهة الواجب ؛ لأن الله بالعدل يتخلّى عن المتكبِّرين[3] ، لكي

---

(١) ب : + بالخلاص - والمقصود فقد الإيقان بعناية الله وسهره على الإنسان ، لاسيما المؤمن

(٢) ب ، م : - لكن ...

(٣) المقصود هو أن الاختلال العقلي يصيب المتكبرين الذين انتهت بهم كبرياؤهم إلى الجُبن لتخلّي نعمة الله عنهم. أما الجبناء بسبب ضعفٍ ما طبيعي أو تربوي أو روحي ، فلا يتعرضون بذلك لضرر عقلي .

يتعلّم غيرهم ألاّ ينتفخوا مترفّعين .

٦ إن كافة المعتجبين جبناء[١] ، لكن ليس كل الذين ما يجبنون متواضعين ؛ إذ أنه حتى اللصوص وناهبو القبور لا يجبنون .

٧ المواضع التي ترتاع فيها ، لا تتردّد في المضي إليها في حُلكة الليل . فإن تراخيت قليلاً لمثل هذا الضعف ؛ سيشيخ معك هذا الداء الصبياني المضحِك . أثناء ذهابك إلى تلك المواضع تدرَّع بالصلاة سلاحاً . وعند وصولك ابسط يديك ، واجلِد محاربيك باسم يسوع ، فليس في السماء وعلى الأرض سلاحٌ أقوى منه . وعند شفائك من هذا المرض سبِّح ذاك الذي خلّصك ؛ فإذا داومت الشكر يحميك إلى الدهر .

٨ كما أنه لا يمكنك أن تملأ بطنك بلقمةٍ واحدة ، فكذلك لا يمكنك أن تقهر الجبانة مرةً واحدة . على قدر كثرة نوحنا تنصرف عنا سريعاً جبانتنا ؛ ولكن إلى حدّ أنه حين يعوزنا النوح[٢] نبقى في جبننا .

٩ قال أليفاز[٣] : " قد اقشعرّ شعري ولحمي " في وصف خُبث هذا الشيطان . أحياناً تعاني النفس من الجبانة أولاً ، وأحياناً الجسد ، ثم ينقل الأول الداءَ إلى الثاني .

أمّا إذا لم تجفل النفس حين استسلام الجسد لهذا الخوف غير الملائم ، فالخلاص من هذا الداء قريب . أما الانعتاق الحقيقي من الجبانة ، فيأتينا

---

(١) ب ، د ، ل : الجبناء معتجبون (٢) د : تعوزنا دموعنا

(٣) ب : + المذكور في كتاب أيوب الصديق (أيوب ٤ : ١٥)

عندما نرحّب من قلب منسحق بكافة ما يحدث لنا من فواجئ .

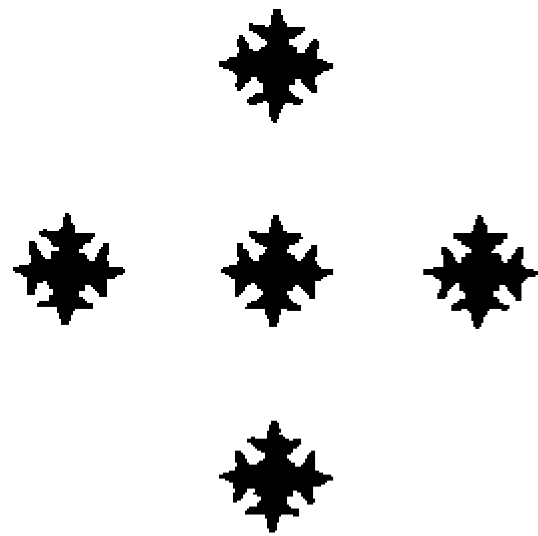
• ١ ليس ظلام المواضع وإقفارها يقويـان الشـياطين علينـا ، بـل إقفـار النفس من الثمار . ومن جهة أخرى ، يعرض لنا هذا بتدبـيرٍ مـن عنايـة ا لله، بقصد تعليمنا وتهذيبنا .

١١ من صار عبداً للرب ، إنما يخاف سيّده وحـده ، أمـا مـن لا يخـاف ا لله بعد ، فغالباً ما يرهب ظلّه .

١٢ إذا وقف بنا روحٌ وقوفاً غير منظور ، يستشـعر الجسـدُ الخـوفَ ؛ أما في حضور ملاك ، فإن النفوس المتّضعة تمتلئ بالبهجة . وهكـذا نفطـن إلى هويّة الحاضر من تأثيره الذي يُحدِثه فينـا ، فلنطفـر إلى الصـلاة سـريعاً ، لأن حافظنا الصالح قد جاء[1] ليصلّي معنا .

مَن قهر الجبانة ، واضحٌ أنه قد كرّس

لله حياته ونفسه .



(١) د : يجيء

الدرجة الحادية والعشرون

المجد الباطل ، المتعدّد الصوَر

١ إن البعض يفضّلون أن يميّزوا العُجب[1] عن الكبرياء ، فيحدِّدون له في ترتيبه مكاناً وفصلاً خاصاً . لهذا السبب يؤكّدون أن أصول الأفكار الشريرة هي ثمانية . لكن غريغوريوس الناطق بالإلهيات ، وآخرون غيره قد سلّموا أنها سبعة ؛ وإني أميل بشدّة إلى موافقتهم على رأيهم . لأن مَن هو الذي يحتفظ بكبرياء ، بعد أن قهر المجد الباطل ؟ إنما الفارق الوحيد بينهما ، كمثل الفارق بين الصبي والرجل ، وكالفارق بين الحنطة وبين الخبز . فالأول هو البداية والثاني هو النهاية

والآن إذ تدعونا المناسبة ، ينبغي أن نتكلم بإيجاز عن العُجْب[1] النجس ابتداء الأسقام وذروتها ؛ لأن من يتعاطى التفلسف في هذا الموضوع بإسهاب ، يشبه من يبحث في وزن الرياح .

٢ العُجبُ فيما يختص بجوهره ، هو تبديل الطبع ، وتحريف الخُلُق ورصد المذمّة[2] . أما من جهة خواصه ، فهو تبديد الأتعاب ، إهلاك الأعراق ، انكشاف كنزنا ، ابن عدم الإيمان ، سابق الكبرياء[3] ، غرقٌ في الميناء ، نملةٌ في البيدر[4] ـ هذه التي مع كونها [حشرةً] دقيقة ، إلاّ أنها

---

(١) تأتي كلمة العُجب هنا ـ كما في غير موضع ـ مرادفةً لكلمة " المجد الباطل " .

(٢) أي رصد مذمّة الغير لنا وعدم نسيانها .

(٣) أي أن الانغلاب للمجد الباطل ينتهي بالخضوع لوجع الكبرياء .

(٤) هو مكان حصاد القمح ودياسه .

تتلف جميع ثمار تعبنا . النملة تنتظر إلى جمع الحنطة ، والمجد الباطل يتصبّر إلى أن تلتئم ثروات فضائلنا ؛ الأولى تحب أن تسرق ، والثاني يحبّ أن يبدّد

٣ روح اليأس يفرح إذا أبصر الرذيلة متكاثرة ، وروح المجد الباطل يسرّ برؤية الفضيلة متوافرة . باب الأول هو تعدّد الجروح ؛ ومدخل الثاني هو ثروة الأتعاب .

٤ أرصدْ ، فستجد أن المجد الباطل الفاجر متوافرٌ حتى إلى القبر ، في الثياب ، والأدهان[١] ، والخَدَم ، والطيوب[٢] ، وفي أشياء غير هذه كثيرة

٥ الشمس تتألّق لكل البرايا بالمساواة ، والمجد الباطل يجد مسرّته في جميع الأعمال . على سبيل المثال ، إذا صُمتُ أتيه عُجباً ؛ وإذا نقضت صومي لكي لا أُعرَف أختال بحكمتي . إن ارتديت ثياباً بهيّة انهزمت للمجد الباطل ، وإن أبدلتها بثيابٍ حقيرة غمرني العُجب أيضاً . متى تكلّمت دخلني العُجب ومتى حفظت الصمت ساد عليّ أيضاً . فكيفما طرحت هذه الحسكة[٣] ذات الشُعب الثلاث ، تنتصب شوكة منها قائمة .

٦ محب المجد الباطل هو عابدُ أصنام مؤمن . على ما يبدو يمجّد الله ، لكنه يريد أن يرضي الناس وليس الله .

٧ كل من يريد إظهار ذاته مغلوبٌ من العُجب . صوم المُعْجب خائبٌ من ثواب ، وصلاته بلا منفعة ، لأنه يعمل كليهما ليُمَجَّد من الناس[٤] .

---

(١) أي الزيوت العطرية - (انظر نشيد الأنشاد ١ : ٣).

(٢) ب : + والشبع - انظر ١٤ : ٢٤
م : + والمشي : (أي في طريقة المشي) ، والزينة

(٣) أي الشوكة

(٤) انظر (متى ٦ : ٢ ، ٥ ، ١٦)

٨ الناسك المعجب يعاقَب عقاباً مضاعفاً ، يُنهك جسده ولن ينال ثوابا.

٩ من لا يضحك على الفاعل المعتجب عند وقوفه أثناء التسبحة ؟ ينهضه وجعه إلى أن يضحك أحياناً ، وأن يبكي أحياناً على مرأى من الكل .

١٠ غالباً ما يُخفي ا لله عن أعيننا الفضائل التي اقتنيناها ، لكن الذي يمدحنا ، أو بالحري الذي يخدعنا ، يفتح بمدائحه ألحاظنا ؛ وإذ تنفتح أعيننا يختفي كنزنا[١] .

١١ الملاّق خادم للشياطين ، مُدخل الكبرياء ، مبيد الخشوع ، محطّم الفضائل ، مرشدٌ مضِلّ يقول النبي : " إن الذين يطوِّبونكم يُضلّونكم[٢] " .

١٢ ذوو الروح العالية يحتملون السبَّ بأوفر شجاعة وأتمّ سرور . لكن القديسين والأبرار وحدهم، يستطيعون أن يجوزوا المديح ناجين من ضرر[٣] .

(١) تعوّد أنبا أنطونيوس أن يقول " ما لم يضع الخباز غطاءً على عيني الدابة ، فإنها تلتفت وتأكل أجرتها [وتظل طوال اليوم جائعة لأنها أكلت بأجرتها قمحاً من غير تبن] هكذا أخذنا من ا لله غطاء حتى نعمل الأعمال الصالحة دون أن نراها ، وبذلك لا نغبط أنفسنا فنفسد أجرة عملنا . لذلك نُترك أحياناً لأفكارنا الخبيثة حتى إذ نراها ندين أنفسنا، فتصير هذه الأفكار غطاءً للأعمال الصالحة القليلة التي نعملها. لأن الإنسان إذا لام ذاته لا يفسد أجرته".

(٢) أشعياء ٣ : ١٢

(٣) نتعلّم من الآباء أن عدم التأثر بالمديح أعسر من عدم التأثر بالذم . وقد قيل عن القدس أنطونيوس أن أناساً مدحوا شخصاً في وجهه أمام القديس . فأراد الأب أن يمتحنه إن كان يحتمل الذمّ ، فلم يحتمل . فقال : " إن هذا الأخ يشبه قريةً مزينةً من خارج ، لكنها من داخل خاوية ، بل ملآنة من اللصوص [أي من وجع المجد الباطل الذي يضيع ثواب جميع فضائلها . كما جاء بالفقرات ٢ ـ ٣ ـ ٧ ـ ٨ أعلاه

١٣ رأيت أناساً نائحين[1] حين امتُدِحوا اشتعلوا بالغضب ، فكانت حالُهم حالَ حاضرين في السوق قايضوا بوجعٍ وجعاً[2] .

١٤ " مَن مِن الناس يعرف أفكار الإنسان ، إلاّ روح الإنسان التي فيه ؟ "[3] فليخزَ وليبكَمْ الذين يتجاسرون على مدحنا في وجهنا .

١٥ إذا سمعت أن قريبك أو صديقك قد ذمَّك في غيبتك أو حتى في وجهك ، فأظهر له آنذاك المحبة مادحاً إياه .

١٦ عظيمٌ من يدفع عن نفسه مديحَ الناس ، وأعظم منه من يطرح عن نفسه مديح الشياطين[4] .

١٧ ليس من يحتقر ذاته ويلومها هو الذي يبرهن على تواضع سريرته ـ لأن من ذا الذي لايحتمل نفسه[5] ؟ ـ بل ذاك الذي يحتفظ بحبّه لمن يسيء إليه ، غير منقوص .

١٨ مرةً لاحظت شيطان المجد الباطل قد هجس لأخٍ بأفكار ، وكشفها لأخٍ لآخر واستحثّه على أن يقول لذاك عما في قلبه من خواطر ، لكي يطوّبه بالتالي لأجل سَبْق معرفته . وأحياناً يبلغ بهذا الكائن النجس أن يمسّ حتى أعضاء الجسم عينها محدثاً فيها اختلاجات[6] .

١٩ لا تُعِرْهُ انتباهاً حين يقترح عليك أنه ينبغي أن تقتبل أسقفيةً ، أو

---

(١) د : + على خطاياهم (٢) أي استبدلوا المجد الباطل بالغضب .

(٣) كورنثوس الأولى ٢ : ١١ (٤) أي لا يقبله منهم داخل ضميره (٥) أي ذمّه لنفسه

(٦) اختلج : انتفض بحركة اضطرارية ـ وهذه الاختلاجات كثيراً ما نحس بها عند قبولنا المديح من الغير

رئاسة[١] ، أو كرسي تعليم ، فإنه عسيرٌ أن يُطرَد كلبٌ عن منضدة القصّاب[٢] .

٢٠ متى لمح أنّ راهباً قد بلغ يسيراً من حالة السلام [٣]، يدفعه في الحين إلى مغادرة البريّة إلى العالم قائلاً : " اذهب لتخلّصَ النفوس الهالكة ! "[٤]

٢١ إن هيئة الحبشي تختلف عن منظر التمثال ؛ كذلك المجد الباطل للمقيمين في شركة ، ذو مظهر مختلف عن الذي للعائشين في البراري .

٢٢ يوحي المجد الباطل إلى الرهبان الفارغين من الرزانة أن يتوقّعوا حضور العلمانيين[٥] ، وأن يخرجوا للقائهم ، ويجعلهم يجثون فوق أقدامهم ، ويُلبسهم رغم امتلائهم بالكبرياء وشاح الاتضاع والتخشّع ، ويضبط سلوكهم وصوتهم ، ويثبّت أنظارهم على أيدي الزائرين علّهم ينالون شيئاً منهم ، ويدعوهم أسياداً وموالي[٦] وواهبين بعد الله الحياة[٧] .

وعند جلوسهم إلى المائدة يهجس إليهم بالتعفّف والقناعة ، ويحثّهم على أن ينتهروا بلا رحمة من هم دونهم[٨] . في موقف التسبيح يجعل الوانين

---

(١) حرفياً : قُمْصيّة (٢) قصّاب : بائع اللحم - والمقصود أن شيطان المجد الباطل إذا نال منك مرةً بغيته ، فسيألف التردد عليك إلى أن يسرق جميع فضائلك ، فيمتلئ موضعها بالرذائل دون أن تدري ما لم تنبهك النعمة تنبيهاً قاسياً . (٣) ل : التأمل (٤) أي يحثه على خدمة خلاص الآخرين قبل أن يُكمل خدمة خلاصه من أوجاعه ، فينطبق عليه قول الرب " إن أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة " (متى ١٥ : ١٤) ، وأيضاً : أيها الفريسي الأعمى ، نقِّ أولاً داخل الكأس والصفحة ، لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً (متى ٢٣ : ٢٦) وأيضاً " الذي تعلّم غيرك ، ألست تعلّم نفسك " (رومية ٢ : ١٧ - ٢٥) انظر الرسالة إلى الراعي في نهاية الكتاب . (٥) ل : الضيوف العلمانيين د : الضيوف

(٦) جمع مَوْلى (٧) ل : ومحسنين وأصحاب تقوى

(٨) م : يأمروا وينهوا ...المبتدئين | من الرهبان |

مجتهدين ، والخامل حِسُّهم[1] شجيِّي الصوت ، والنعّاسين منتبهين ؛ ويتملّق المشرف على التسبيح ويستميحه[2] أن يأتمنه على قيادة المسبِّحين وتلحين القطع الرنيسية ، ويدعوه أباً ومعلّماً إلى حين انصراف الضيوف .

٢٣ إن المجد الباطل يجعل المكرَّمين منتفخين ، والمحتقَرين حاقدين .

٢٤ يصير المجد اباطل في أغلب الأحيان سبباً للهوان بدل الإكرام ، إذ يغطّي تلاميذه الخزيُ من جراء نوبات غضبهم[3] .

٢٥ المجد الباطل يجعل الحادّي الخُلقُ ، قدام الناس وديعين .

٢٦ وهو يشوّق إلىالمواهب الطبيعية تشويقاً حاراً ، وغالباً ما يطوّح عن طريقها بعبيده إلى الهلاك .

رأيت شيطاناً قد سبّ أخاه وطرده ، لأن أخاً[4] انتابه الغضب ، وفي سوْرة غضبه[5] فاجأه حضور علمانيين ؛ فللوقت باع الشقي نفسه مرةً ثانيةً للمجد الباطل ، لأنه ما استطاع أن يتعبد لوجعين في وقتٍ واحد[6] .

٢٨ مَن باع نفسه للمجد الباطل يقتني عيشةً مزدوجة : فهو من الخارج ، يعيش بين الرهبان ، أما ببصيرته وفكره ، فهو مقيمٌ في العالم .

٢٩ إن كنا راغبين بشغفٍ في إرضاء الملك السمائي ، فلنجتهد ألاّ نذوق سوى المجد العلويّ ؛ فمن ذاقه سوف يستهين بكافة الأمجاد الأرضية . وإنني أعجب أن يستطيع أحدٌ أن يحتقر هذه ، دون أن يكون قد ذاق ذاك .

---

(١) الحس : هو الصوت الخفي ، يُسمع ولايرى مصدره (٢) أي يسأله

(٣) أي أن داء المجد الباطل يصحبه وجع الغضب . والعكس صحيح فالتواضع يتمشّى مع الوداعة

(٤) ب : من الرهبان (٥) أي شدّة غضبه

(٦) في الفقرة ١٣ استُبدل المجد الباطل بالغضب ، وهنا حدث العكس ـ قارن (لوقا ١٦ : ١٣)

٣٠ يحدث غالباً ، أنه بعد أن يسلبنا المجد الباطل ، نعود فنسلبه بدورنا بأبلغ مهارة . فقد رأيت أناساً ابتدأوا العمل الروحي بدافع من المجد الباطل ، ومع أنهم بدأوا بداية هكـذا معيبة ، إلاّ أن النهايـة كـانت جديـرةً بالثنـاء ، لأنهم غيّروا قصدهم .

٣١ من يترفّع بملكاته الطبيعية ، أعني بفراسة العقل ، وسهولة التعلّم ، والمهارة في القراءة ، ووضوح النطق ، وجمال الفطرة ، وبنظائر هذه المواهب التي نحوزها بلا تعب ، فلن يُرزَق أبداً البركـاتِ الفائقـةَ علـى الطبيعـة ، لأن غير الأمين في القليل ، هو في الكثير أيضاً خائن ومغلوب من العُجب[1] .

٣٢ كثيرون يُنهكون أجسـادهم بـلا طـائل ، لأجـل إحـراز تمـام عـدم التألّم، ووفرة المواهب ، واجتراح العجائب ، وسبق المعرفـة ؛ إذ خفـي علـى الأشقياء أن تلك وأمثالها لا تُقتنى بأتعابنا ، بل بالحري بالتواضع الذي هو أم جميع المواهب .

٣٣ من يستميح الله أن يمنحه مقابل أتعابه مواهبَ ، فقد وضع لنفسه أساساً غير مأمون . من يحتسب ذاته مديوناً[2] ، فسينال فجأةً ثـروةً لم يكـن يتوقّعها .

٣٤ لا تقبل من المجرِّب شيطان المجد الباطل ، إذ يهجس لك أن تشـهر فضائلك لمنفعة الذين يسـمعونك ، لأن ما الذي ينفع الإنسانَ ، إذا ربح العالم كلّه وخسر نفسـه ؟[3] ليـس شـيءٌ يسـتطيع أن يهـذّب الآخريـن مثـل خُلُقٍ

(١) هناك ملكات تُعتبر فضائل ، مع أنها ليست كذلك ، إنما هي مواهب حقيقية ومزايا طبيعية . كثيرون هم بالطبيعة ودعاء ، أو لطفاء ، أو عقلاء ، أو شجعان ، أو بسطاء متواضعين ، أو أعفّاء ، أو سكوتون. إنها ليست فضيلة أن يكون أحد قليل الأكل بطبيعته ، بل الفضيلة أن يمارس الإمساك والاعتدال طائعاً مختاراً

(٢) م : مذنباً ومداناً

(٣) متى ١٦ : ٢٦

متواضعٍ مستقيم ، وكلام صادق . لأن هذين يصيران مهمازاً للآخرين كيلا يترفّعوا أبداً ؛ وأيّة منفعةٍ أعظم من هذه ؟

٣٥ حدّثني شيخٌ ممن لهم موهبة الرؤيا بما قد رآه ، قال : " إنـي حـال جلوسي بين جماعةٍ ، وافاني شيطان المجد الباطل وشيطان الكبرياء وجلسا على جانبيّ . فلكز أحدُهما جنبي بأصبع العُجب موعزاً إليّ أن أقصّ شيئاً مما رأيت ، أو أن أخبر بعملٍ مما عملت في البريّة.. لكن ما أن تخلّصت منه بالكاد بقولي : " فليندحر إلى خلف و يخجل الذين يبتغون لي الشر "[١] ، حتى همس الشيطان الآخر الجالس عن يساري في أذني قائلاً : " حسناً ، حسناً فعلت . هأنتذا قد صرت عظيماً إذ قهرت أميّ الخالية من الحياء ؛ فالتفتّ نحوه ، واستعملت باقي الآية قائلاً : " ليرجع بالخزي سريعاً القائلون لي حسناً حسناً "[٢] فسألت ذلك الفاضل " كيف أن المجد الباطل أم الكبرياء ؟ " فأجابني " : إن المدائح تعلّي النفس وتشمخها . فمتى استعلت تمسكها الكبرياء ، تصعدها إلى السموات وتحدرها إلى أعماق الجحيم[٣] .

٣٦ هناك مجدٌ يأتي من الرب ، لأنه قال : " إني أمجّد الذين يمجّدونني "[٤] . كما يوجد مجدٌ نابعٌ من خداع ابليس ، لأنه قيل : " الويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً "[٥] . ستعرف الأول بوضوح ، إذا اعتبرته ضرراً وخسارة[٦] ، ودفعته عنك بكل حيلة ، وأخفيت تدابير حياتك أينما ذهبت ؛ وتكتشف الثاني إذا عملت شيئاً - مهما كان تافهاً - مترجّياً أن ينظرك الناس[٧] .

---

(١) مزمور ٤٠ . ١٤ ، ٧٠ : ٢
(٢) مزمور ٤٠ : ١٥ ، ٧٠ : ٣
(٣) قارن (مزمور ١٠٧ : ٢٦)
(٤) صموئيل الأول ٢ : ٣٠
(٥) لوقا ٦ ٢٦
(٦) قارن (فيلبي ٣ : ٧ ، ٩)
(٧) متى٦ : ١

٣٧ من شأن المجد الباطل النجس ، أن يهجس لنا أن نتشكل بالفضيلة التي ليست فينا ، ناخساً إيّانا بالمكتوب : " فليتألق هكذا نورُكم قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الصالحة "[١] .

٣٨ غالباً ما يردّ الرب المعجبين إلى حال الاتضاع[٢] بما يَعرض لهم من أسباب الهوان .

٣٩ ابتداء قهر المجد الباطل هو صيانة الشفتين ومحبة الهوان ؛ منتصفه حسم جميع أعمال المجد الباطل المعروفة ؛ ونهايته - إن كان يُدرَك لهذه اللجّة قرار - هي السعي نحو ما يقتدر على توضيعنا علانية دون أن نتألم من ذلك .

٤٠ لا تُخْفِ خطيئتك المخزية ، بحجة تجنّب إعثار القريب ؛ ومع ذلك، فلعل هذا الدواء لا يناسب كل حالة ، إذ أنه يعتمد على كنه[٣] غلطتك وصورتها .

٤١ إذا سعينا نحو المجد ، أو إذا وافانا من آخرين دون أن نبحث عنه، أو متى باشرنا عملاً من الأعمال بدافعٍ من المجد الباطل ، فينبغي أن نتذكّر حينذاك نوحنا[٤] ، وأن نتفكرّ المخافة التي بها سنقف بها أمام الله في صلاتنا الخاصة ، بهذه الوسيلة نُخزي العُجب الوقّاح حتماً ، إن كنا نهتمّ باقتناء صلاة حقيقية . فإن كان هذا غير كافٍ ، فينبغي أن نعود سريعاً إلى التفكّر في موتنا . فإن لم يؤثّر فينا هذا أيضاً ، فسبيلنا - على الأقل - أن نخشى الخزي

(١) متى ٥ : ١٦ (٢) ب ، د : إلى عدم الاعتجاب (٣) كنه الشيء : جوهره وحقيقته وغايته .

(٤) سواء نوحنا السابق كيلا يضيع منا سدىً ، أو أو نوحنا الواجب الاضطلاع به في الصلاة بعد انغلابنا للمجد الباطل

الذي يعقب الترفع ، ذلك لأن " من يعلّي ذاته سيذلّل "[1] ، ليس هنالك فحسب ، بل هنا ايضاً .

٤٢ متى شرع مادحونا ـ أو بالحري مضلّونا ـ في امتداحنا ، فسبيلنا أن نبادر إلى تذكّر خطايانا ، فسنعرف أننا لسنا أهلاً لما يُقال أو يُعمل لتبجيلنا .

٤٣ من البيّن أنّ بعض[2] المعتجبين لهم صلوات تستحق من الله أن تُستجاب . لكن من شأن الرب أن يسبق صلواتهم وسؤلاتهم بتنفيذ مطالبهم ، خشية أن يزداد عُجبهم وترفّعهم بنجاح ابتهالاتهم .

٤٤ إن البسطاء لا يتلوّثون غالباً بسُم المجد الباطل ، لأن المجد الباطل هو فقد[3] البساطة ، والسلوك بالرياء .

٤٥ يعرض للدودة غالباً عندما يكتمل نموّها ، أن ترفع جناحين بهما تتصاعد إلى العلاء . هكذا المجد الباطل عند بلوغه حدّ نموّه ، ينتج الكبرياء ، التي هي مبدأ الشرور وكمالها .

٤٦[4] من هو بريء من هذا السقم قريب من الخلاص ؛ أما الذي لم يُعتق منه ، فهو بعيدٌ عن مجد القديسين .

هذه هي الدرجة الواحدة والعشرون ، من لا يُمسَك من المجد الباطل، لن يسقط في جنون الكبرياء الكريهة جداً لدى الله.

---

(١) لوقا ١٨ . ١٤ (٢) د : ـ بعض .
(٣) د : رفض . (٤) د : ـ

الدرجة الثانية والعشرون

الكبرياء المجنونة

١ الكبرياء هي إنكار لله ، اختراع الشياطين ، إزدراء بالناس ، أمّ الإدانة ، ابنة المديح ، دلالةٌ على العقم[١] ، هروبٌ من المعونة الإلهية ، سَلَف الجنون ، نذيرٌ بالسقطات ، علّة الصَرَع[٢] ، ينبوع الغضب ، باب الرياء ، دعامة الشياطين ، حافظ الخطايا ، نصير الجفاء ، رفض الرحمة ، مستجوبٌ مرّ ، قاضٍ عاتٍ[٣] ، مقاومٌ لله، أرومة[٤] الافتراء[٥] والتجديف .

٢ ابتداء الكبرياء هو اكتمال المجد الباطل ؛ توسّطُها هو ازدراء بالقريب ، واستعراضٌ وقحٌ للأعمال ، ورضىً على الذات . اكتمال الكبرياء هو إنكار معونة الله ، وتشامخ المرء بجهوده ، وتعوّد أخلاقٍ شيطانية .

٣ لنستمع يا كافة المريدين أن نتجنّب هذه الهوّة : إن داء الكبرياء يستمد غذاءه غالباً من الشكر ، لأنه لا يتوقّح منذ البداية أن يشير علينا أن ننكر الله . وقد رأيت في ذلك أناساً يشكرون الله بأفواههم ، لكنهم يعظّمون أنفسهم في دواخلهم . يشهد بصحة قولي ذلك الفريسي الذي قال : " اللهم ، إني أشكرك "[٦] .

---

(١) ب : + من الثمار (أي الفضائل) .

(٢) المقصود هنا أن الكبرياء سبب للصرع الشيطاني ـ أنظر (متى ١٧ : ١٥ ـ ١٨)

(٣) العاتي هو القاسي غليظ الكلام

(٤) أصل الشجرة

(٥) أي الشتم ، أما إذا كان المفعول به هو الله ، فيسمّى الشتم تجديفاً

(٦) لوقا ١٨ : ١١

٤ أينما دهمت سقطةٌ ، فقد سبقت الكبرياء أن ضربت هناك أطنابها [١] .

٥ سمعت رجلاً مكرماً ، قال لي : " هَبْ أن أدواء[٢] الهوان اثنا عشر ؛ إن أحببت واحداً منها عن قصد أعني التعظّم ، فسيملأ موضع الأحد عشر الباقية " .

٦ الراهب المترّفع يجاوب ويناقض بحدّة ؛ أمّا المتواضع فما يعرف أن يُعارض ولا بنظرته [٣] .

٧ السرو ما يُحني أغصانه لتمتد على الأرض ؛ والراهب المترفّع ما ينحني ليكتسب طاعة .

٨ ذو القلب المترفّع توّاقٌ إلى الترأس[٤] ؛ لأنه بغير ذلك لا يستطيع - أو بالحري لا يريد - أن يهلك نفسه تماماً .

٩ " يقاوم الله المستكبرين "[٥] ؛ فمن إذن يمكنه أن يرحمهم؟ " نجس في عيني الله كل متشامخ القلب[٦] ؛ فمن يقدر أن يطهّر مَن هذه السجيّة سجيته ؟

١٠ تؤدّب المستكبرين سقطتُهم . أمّا من ينخسهم فهو الشيطان[٧] .

---

(١) أي نصبت خيمتها ، اتخذت لها مسكناً (٢) جمع داء

(٣) ل : ما يستطيع أن ينظر إلى أحدٍ في وجهه - ب ، م : لا يعرف أن يجاوب (المجاوبة في لغة الآباء هي الأخذ والعطاء في الكلام ، أو الملاججة ، وهي غير الإجابة) (٤) د : إلقاء الأوامر

(٥) يعقوب ٤ : ٦ (٦) أمثال ١٦ : ٥ ، لوقا ١٦ : ١٥

(٧) قارن : " لئلا أرتفع . أُعطيتُ شوكةً في الجسد ، ملاكاً من الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع . (كورنثوس الثانية ١٢ : ٧) .

أمّا التخلية[1] التي تصيبهم ، فهي تخبّل عقولهم .

في الحالتين الأولين ، يمكن غالباً شفاؤهم بواسطة الناس ؛ أمّا الحال الأخيرة فيتعذّر شفاؤها بوسائل الناس .

١١ من يدفع عنه التوبيخ فقد أظهر سقمه ؛ أمّا من يقبله فهو معتوق من هذا الرباط .

١٢ إن كان هذا الداء وحده ـ بغير مشاركة داء آخر ـ قد استطاع أن يُسقط من السماء ، لذلك يمكننا أن نسأل إن كان يمكن الصعود إلى السماء بالاتضاع وحده خلواً من أيّة فضيلة أخرى[2] .

١٣ الكبرياء هلاكٌ لثرواتنا وأعراقنا . " صرخوا فلم يكن من يخلّصهم " ، فمن البيِّن أنهم صرخوا بكبرياء ؛ " إلى الرب فما استجاب لهم "[3] ، فلا شك أنهم ما حاولوا قطع العلل التي ابتهلوا ضدها .

١٤ عاتب شيخٌ مجمَّلٌ بمعرفة روحية وافرة أخاً متشامخاً[4] . لكن ذلك الأخ بسبب عماه أجاب قائلاً " اغفر لي يا أبتِ ، إني لست متكبّراً " . فقال له الشيخ الحكيم : " وأي دليل على هذا الداء يمكنك أن تعطينا إياه يا ولدي ، أوضح من قولك " لست متكبراً ؟ " .

١٥ الذين هذه الحال حالُهم يوافقهم تماماً الخضوع ، وعيشةٌ أكثر

---

(١) أي تخلّي نعمة الله عنهم

(٢) ورد هذا القول في بستان الرهبان (ص ٣٣١) دون أن ينسب للقديس يوحنا السلّمي . وربما أخذه عن الآباء الأقباط .

(٣) مزمور ١٨ : ٤١

(٤) ب ، ل : ....شيخ مجمّل بمعرفة وافرة أخاً متشامخاً . عتاباً روحياً .

صرامةً وهواناً ، وقراءة الفضائل[١] الفائقةِ على الطبيعة التي أحكمها الآباء . فربما بهذه [الوسائل] يكون للسقماء بهذا الداء قليلُ رجاءٍ في الخلاص .

١٦ خزيٌ عظيمٌ أن يختال أحدٌ بزينةٍ ليست له[٢]. لكنه غاية في الغباوة أن يتفاخر أحدٌ بمواهب الله . ترفَّعْ فقط بتلك المزايا التي [كما لو] كانت لك قبل أن تولد ! أمّا التي نِلتها بعد ميلادك ، فقد وهبكها الله ، مثلما وهبك ميلادك عينه . كل ما أحكمته من فضائل خلواً من معاونة عقلك ، فتلك وحدها تخصّك ! لأن عقلك قد وُهِب لك من الله . كافة الانتصارات[٣] التي أحرزتها بغير معاضدةٍ من جسمك ، فتلك فقط ما أكملته نتيجةً لجهودك ، لأن جسمك ليس لك ، لكنه إبداع الله .

١٧ لا تطمئن[٤] إلى أن تسمع النطق[٥] في قضيّتك ، وضَعْ نصب عينيك ذاك الذي بعد أن دخل واتّكأ في وليمة العرس ، رُبطت يداه ورجلاه وطُرِدَ إلى الظلمة الخارجية[٦] .

١٨ لا ترفعن عنقك أيها التراب ! فإن كثيرين من غير الترابيين أُهبطوا من السماء ، وقد كانوا قديسين[٧] .

١٩ إذا وجَدَ شيطان التعظّم له موضعاً في الذين يعملون لأجله ، يظهر لهم أحياناً في نومهم ، وأحياناً في يقظتهم ، بشكل ملاكٍ مقدس ، أو شهيدٍ من الشهداء ، ويفيدهم استعلاناً لأسرار أو تخويل مواهب ، لكي ينخدع أولئك الأشقياء بذلك ، فيفقدوا تماماً بصائرهم[٨] .

---

(١) ل : الأعمال الروحية (٢) د : بزينة مستعارة (٣) ل : الإنجازات : الأعمال العظيمة
(٤) ل ، م : لا تثق بنفسك (٥) ل : + الأخير (٦) مت ٢٢ : ١٣
(٧) ب : + ملائكة خالين من هيولي [غير ماديين] (٨) البصيرة : هي العقل ، أو الفطنة .

٢٠ حتى لو صبرنا من أجل المسيح على ألفِ مِيتَة ، لما عوّضنا بذلك عما يحقّ له علينا . لأن دم الإله غير دم العبيد ، أعني من حيث قيمته ، لا من حيث مادته .

٢١ لا نكُفنَّ عن تفحّص ذواتنا ومقايستها بالآباء القديسين والمنيرين الذين سبقونا ؛ عندئذ سنجد أننا ما اقتفينا قط خطوات سيرتهم الصارمة المدقّقة بهذا المقدار ، ولا حفظنا نذرنا في زي القداسة ، لكننا[1] ما نزال نسلك سيرةً عالميةً تماماً .

٢٢ الراهب ـ على وجه التحقيق ـ هو عين داخلية لا يشتّت [انتباهها] شيء[2] ، وحواسُ جسمٍ لا تتحرك .

٢٣ الراهب هو من يستدعي للاقتتال أعداءه مثل الوحوش ، ويتحرش بها ويُشليها[3] حال هروبها .

٢٤ الراهب هو المتمكّن جداً في الفضائل ، كتمكّن غيره في اللذّات[4] .

٢٥ الراهب هو من يختبر على الدوام ابتهاج القلب، وضيق الحياة[5] .

٢٦ للراهب في عين قلبه أبداً نورٌ لا يخبو .

---

(١) ل : + من حيث ميولنا ونزعاتنا (٢) ل : قد عدمت النظر بترفّع

(٣) أي يستفزّها ويثير حفيظتها (٤) د : من صارت عنده الفضائل كطبائع ، مثلما تكون الملذات عند آخر .

(٥) د : ويتضايق من الحياة [يريد أن ينطلق من الجسد ، ليكون مع المسيح (انظر فليبي١: ٢٣)] — ب، م: بالصبر على الضيق كل حياته: يرجّح أن هذا التعبير هو الأصح، والمقصود هو أن يختبر طوال حياته، إمّا ضيق التجارب. أو مجد وابتهاج النصرة. وكلمة الابتهاج الواردة في النص، أصلها الدهش، أو الوجد : Ecstacy.

٢٧ الراهب هو من أغاص في لُجّة الاتضاع كلّ روح شرير وأغرقه .

٢٨ نسيان خطايانا هو عمل الكبرياء[١] ، لأن تذكّرها يسبّب التواضع.

٢٩ الكبرياء هي فقرٌ مدقعٌ للنفس مستترٌ تحت توهّم الثروة ، تحتسب ظلماتها نوراً . إن هذا الداء النجس ، ليس يعوق تقدّمنا فحسب ، بل أيضاً يُحدرنا بقوةٍ من الأعالي[٢] .

٣٠ المستكبر رُمّانة متهرّية[٣] من الدخل ، بهيّةٌ بحسنها من الظاهر .

٣١ الراهب المتعظّم لا يحتاج شيطاناً، لأنه صار شيطاناً لنفسه وعدوّاً.

٣٢ الظلام غريب عن النور ، والمتكبّر غريب عن كل فضيلة[٤] .

٣٣ في قلوب المتكبّرين تتولّد عبارات تجديف ؛ وفي نفوس المتواضعين تأملاتٌ سماوية .

٣٤ السارق يُبغض الشمس ؛ والمتكبّر يزدري بالودعاء .

٣٥ لست أعلم كيف تستتر عن أغلبية المتكبرين حقيقةُ أنفسهم ؛ يتوهّمون أنهم قد غلبوا أسقامهم، ولا يكتشفون فاقتهم[٥] إلاّ ساعة موتهم .

٣٦ المصطاد بالكبرياء يحتاج إلى معونة إلهية ، لأنه " باطل ـ بالنسبة له ـ خلاصُ الإنسان "[٦].

---

(١) ل : نتيجة العُجب .

(٢) د : + التي للفضيلة .

(٣) أي متعفّنة متنخرة

(٤) د : والكبرياء لا يمكنها أن تتوافق مع الفضائل .

(٥) أي فقرهم

(٦) مزمور ٦٠ : ١١؛ ١٠٨ : ١٢

٣٧ داهمتُ الكبرياءَ المضلّة المجنونة حال نفاذها إلى قلبي ، محمولةً على كتفي أمّها ، التي هي المجد الباطل . فقيّدتهما بأغلال الطاعة وضربتهما بسياط الاتضاع ، وفحصتهما بالجلدات[1] ليصفا لي كيف [وجدَتا] مدخلاً فيّ . لذلك قالتا في حال ضربهما : " نحن ليس لنا بداية ولا ميلاد ، لأننا بداءة وأصل جميع الآلام .

إن انسحاق القلب الناتج عن الطاعة هو عدوّنا الصريح ، إذ أننا لا نحتمل الخضوع لأمرٍ من كائنٍ مَن كان ؛ وهذه هي علّة سقوطنا من السماء، رغم كوننا أصحاب سلطانٍ هناك وولاية .

وبالإيجاز نقول : إننا والدان لكل ما يضادّ التواضع ، لأن كل ما يوافق الاتضاعَ يقاومنا . إن كان لنا كثير من السلطة حتى في السماء عينها ، فإلى أين تستطيع أن تهرب من حضرتنا ؟

إننا نلازم غالباً [الذين اقتنوا] الصبر على الهوانات والطاعة ، والتحرر من الغضب ، وغياب الاستياء ، وخدمة القريب .

أما أولادنا ؛ فهُم خطايا الأناس الروحيين : الغضب ، والنميمة ، والحقد، والغيظ ، والصياح ، والتجديف ، والمراءاة ، والبغضاء والحسد، والملاججة، وإقامة الهوى[2] ، والعصيان .

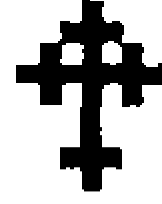
إنه يوجد أمرٌ واحدٌ وحده لا نملك قوةً للتعامل معه ، سنصفه لك مجبَرين من ضرباتك : إذا داومت على ذمّك لنفسك قدام ربِّك ذمّاً خالصاً ، فستجدنا هكذا ضعفاء مثل خيط العنكبوت .

(١) قارن (أعمال الرسل ٢٢ : ٢٣) .

(٢) د : الإرشاد الذاتي : أي عدم الخضوع لمرشد روحي .

فالمجد الباطل - كما ترى - هو فَرَسُ الكبرياء ، وعليه أنا راكبة . لكن التواضع المقدّس ، ومذمَّة الذات ، يسخران بالفرس والفارس معاً ، ويسبّحان تسبيحة الغلبة بأوفر ابتهاج : " فلنسبِّح الرب ، لأنه بالمجد قد تمجّد . لقد طَرَح في البحر الفرسَ وراكبه ، فساخا[1] إلى هاوية التواضع .

درجة ثانيةٌ وعشرون ؛ من ارتقاها
- إن استطاع أحدٌ أن يرتقيها -
فقد امتلأ من
القوة[2]



(١) أي غاصا

(٢) ب . فقد أتلد ؛ أي أحرز ثروة .

الدرجة الثالثة والعشرون

أفكار التجديف التي لا يُباح بها

١ قد سمعنا في الأقوال السابقة ، أنه من أرومة[1] خبيثة وأمّ رديئة ، ينبت ولد أشد رداءة ؛ أعني أنه من الكبرياء النجسة يتولد التجديف الذي لا يُباح به . لذلك فمن الضروري أن نكشفه علانية ، إذ أنه ليس هيِّناً بل إنه أقسى أعدائنا ومحاربينا . وما هو أسوأ ، أنه ما يسهل التعبير أو الاعتراف بأفكار التجديف وإشهارها لطبيب روحاني . فلهذا السبب انتهي هذا الداء النجس بكثيرين إلى الخيبة والفشل وهدم كل رجائهم مثله مَثَل دودة تنخر في خشبة .

٢ يجدّف هذا العدو الخسيس على الرب ، غالباً في الصلوات الجامعة وأثناء الليتورجيا المقدسة ، بل في ساعة تقديس الأسرار القدسية عينها . وهذا يبيِّن بوضوح أن ليست نفسنا هي التي تنطق داخلنا بتلك الكلمات الفاجرة التي لا تصَّدق ولا يصحُّ ذكرها ، لكنه الشيطان الماقت لله ، الذي هرب من السماء لأجل توقُّحه بالتجديف على الله هناك أيضاً ، كما يبدو . لأنه إن كانت تلك الكلمات القبيحة الشنيعة تصدر مني ، فكيف أستطيع السجود للهبة لتي أقتبلها ؟ كيف أستطيع أن أبارك وألعن في نفس الوقت الواحد ؟

٣ إن هذا الخدّاع ، مفسد النفوس ، غالباً ما اقتاد أناساً كثيرين إلى

---

(١) الأرومة هي أصل الشجرة

اختلال عقولهم . ليس فكر آخر يصعب البوح به في الاعتراف مثل هذا الفكر ، لذلك فقد شاخ غالباً مع كثيرين حتى نهاية حياتهم عينها . لأنه ليس شيء يخوّل الشياطين والأفكار الشريرة قوةً علينا هذا مقدارها ، مثل تسمينها وإخفائها في قلبنا بلا اعتراف .

٤ لا يظن أحدٌ ـ عند مواجهته أفكار التجديف ـ أن العلّة في ذلك منه، أو أن الذنب عليه ، لأن الرب هو عارف القلوب ، وهو عالم أن كلماتٍ هذه صفتها ليست منا ، بل من أعدائنا .

٥ إن السُكْر علّة العثار ، والتكبّر علّة الأفكار المستقبحة فالسكران لا يُلام على عثرته بحد ذاتها لكنه يُعاقب على سكره .

٦ متى وقفنا للصلاة ، بارزتنا تلك الأفكار النجسة التي لا يليق ذكرها ؛ لكننا إذا واصلنا صلواتنا حتى نهايتها ، انصرفت حالاً عنا ، لأنها لا تؤثر أن تحارب من يثبت مقابلها .

٧ لا يفتري هذا الشقي الفاجر على الله وعلى كل ما هو مقدس فحسب ، لكنه ينطق بكلماته الشنيعة البذيئة من داخل عقولنا ، إمّا لكي ننقطع عن الصلاة ، وإمّا لنيأس من أنفسنا . وقد منع كثيرين عن الصلاة ، وفصل كثيرين عن الأسرار المقدسة .

٨ وقد أنهك هذا الطاغية المتوحش الخبيث أجسام البعض بالغمّ ، وأضنى آخرين من كثرة الصوم ، دون أن يُفسِح لهم راحة . وهو يتصرف هكذا لا مع العائشين في العالم فقط ، بل مع السالكين طريق الرهبانية أيضاً ، هاجساً إليهم أنه لا رجاء في خلاصهم على الإطلاق ، مؤكداً لهم أنهم

جديرون بالرثاء أكثر من جميع الكافرين ، وأشقى حالاً من الوثنيين .

٩ من يؤذيه روح التجديف ، ويريد أن يتخلّص منه ، فليعلم يقيناً أن نفسه ليست علّة مثل هذه الأفكار بل الشيطان النجس ، ذاك الذي قال مرة لربنا : " هذه كلها أعطيك إياها ، إذا جثوت ساجداً لي "[1] لذلك سبيلنا أن نزدريه ولا نعتدّ بما يقوله على الإطلاق . ولنقل له : " اذهب خلفي يا شيطان ، فإني ساجدٌ للرب إلهي ، عابدٌ إياه وحده[2] ، وسيرتد عملك وقولك على رأسك ، وعلى هامتك سيهبط تجديفك[3] ، في الدهر الحاضر وفي الآتي آمين "

١٠ من يشاء أن يصارع شيطان التجديف ، بخلاف هذا الأسلوب الذي أوضحناه ، فهو يشبه من يروم أن يضبط البرق بيديه ؛ لأنه كيف يُدرَك أو يجادَل أو يُصارَع ، من يفاجئ القلب سريعاً كالريح ، ويقول كلاماً أسرع من الوميض وللحال يختفي ؟ إن جميع الأعداء يثبتون لمقاتلتهم ، ويتلبّثون ويعطُون وقتاً لمن شاء أن يصارعهم . أمّا هذا ، فليست هذه حاله . لكنه مع ما يظهر يُدبر ، وحالما يتكلم يولّي هارباً .

١١ يألف هذا الشيطان المتردد على عقول الناس البسطاء الأبرياء غالباً ، وهم ينزعجون ويرتبكون أكثر من غيرهم . وما نقوله بيقين بشأن هؤلاء ، أن كل ما يصيبهم من هذا القتال ، ليس نتيجة ترفّعهم أو عجبهم ، بل من حسد الشياطين إياهم .

١٢ ينبغي علينا أن نكفّ عن إدانة القريب وإيجاب اللوم عليه ، وعندئذ لن تقلقنا أفكار التجديف ؛ لأن الأولى علّة الثانية وأصلها .

---

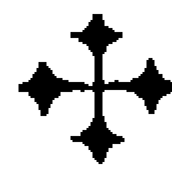
(١) متى ٤ : ٩ (٢) متى ٤ : ١٠ (٣) مزمور ٧ : ١٦

١٣ كحال من يكون حبيساً في بيته ، ويسمع أقوال العابرين عليه خارجاً دون أن يشترك في محادثتهم ، هكذا النفس المجتمعة إلى ذاتها وهي تسمع التجاديف الإبليسية ، تتأذى مما يقوله الشيطان العابر عليها .

١٤ من يزدري بهذا العدو قد انعتق من عذابه . أمّا من يخترع أسلوباً آخر لمصارعته ، فسينتهي أمره إلى الخضوع لغريمه . لأن من شاء أن يهزم الأرواح بالكلام ، يشبه من يحاول أن يحبس الرياح .

١٥ كان راهب حريص مضنوكاً من هذا الشيطان ، فأذاب جسمه بالأصوام والأسهار . فلما لم يجد فائدة ، كتب ورقة يصف فيها داءه ، وذهب إلى واحد من القديسين وناوله إيّاها وأحنى إلى الأرض وجهه غير متجاسر أن يرفع نحوه عينه . فإذ قرأها ذلك الشيخ تبسّم وأنهض الأخ ، وقال له : " ضع يا بنيّ يدك على عنقي " . فلما فعل الأخ ما أُمِرَ به ، قال له الشيخ : " لتكن هذه الخطية يا أخي على عنقي ، برغم ما فعلَته أو لم تفعله فيك من عذاب طوال سنين هذه عددها ؛ لكن عليك من الآن فصاعداً أن تتجاهلها " . وقد أكدّ لي هذا الراهب أنه ما خرج من قلاية الشيخ ، حتى فارقه مرضه . وهو نفسه الذي كان مجرَّباً بهذه التجربة وقصّها عليّ مجزلاً الشكر لله .

من أحرز على هذا السقم نصراً ،
فقد تخلّص من
الكبرياء.



الدرجة الرابعة والعشرون

في الوداعة ، والبساطة ، والبراءة ، التي ليست من الطبيعة ، بل تُكتسب بالتعوّد، وفي الخبث*

١ ضوء الفجر يسبق الشمس ، وبشير كل اتضاع هو الوداعة لذلك لنستمع إلى «النور» فيخبرنا في آية ترتيب قد نظَم هاتين الفضيلتين ، لأنه يقول: " تعلّموا مني ، فإني وديع ومتواضع القلب[1] " . فواجب علينا إذن، قبل أن نحدّق في الشمس . لأنه يستحيل ، يستحيل تماماً ، أن نحدِّق في الشمس ، قبل أن نختبر ذلك الضوء ، كما تعلّمنا من الترتيب الذي فيه وضع ربنا هاتين الفضيلتين .

٢ الوداعة حالة للعقل لا تتغيّر ، تبقى كما هي في التكريم أو الإهانة .

٣ الوداعة هي ابتهال هادئ وخالص ، من أجل قريب يزعجنا ، دون أن نتأثّر بتصرفاته .

٤ الوداعة صخرة مشرفة على بحر الغضب ، تكسر كافة الأمواج التي تلاطمها ، وهي ثابتة لا تتحرك البتة .

٥ الوداعة دعامة الصبر ، باب الحب ــ أو بالحري أُمّ الحب ، أساس الإفراز ، لأنه قيل : " الرب يُعلّم الودعاء طرقه "[2] .

(*) ليس المقصود بالخبث هو المكر . بل الشر والميل إلى إيذاء الغير بعكس البساطة والدعة (سلامة القلب) والبراءة

(١) متى ١١ : ٢٩ (٢) مزمور ٢٥ : ٩

الوداعة تُهيِّئنا لغفران الخطايا ؛ إنها دالـة في الصلاة ، محلّـة[1] الروح القدس . إلى من سأنظر ؟ إلى الوديع الهادئ[2].

٦ الوداعة زميلة الطاعة ، مرشدة إلى الشركة الأخوية، لجام للهائجين، ضبط للغضوبين ، خادمة الفرح ، مشابَهة المسيح ، خاصية لائقة بالملائكة ، أغلال الشياطين ، درع ضد التذمُّر .

٧ في القلوب الودِعة يستريح الرب ، أمّا النفس المنزعجـة فهـي مقعـد لإبليس .

٨ الودعـاء يرثـون الأرض ، أو بـالحري يسـودون عليهـا . امّـا القـوم الحانقون فسيستأصلون من أرضهم .

٩ النفس الوديعة عرش للبساطة ، والعقل السخوط مُبدع الشر .

١٠ النفس الهادئة وعاءٌ لأقوال الحكمة ، لأن الرب يَهدي الودعاءَ إلى الحكم ، أو بالحري يرشدهم إلى الإفراز .

١١ النفس المستقيمة قرينة التواضع ، أمّا النفس الميّالة إلى الشـر فهـي ابنة الكبرياء

١٢ نفس الوديع تمتلـئ معرفـة ، والعقـل الغضـوب مقيـم في الجهالـة والظلام .

١٣ الغضوب والملاّق التقيا ، فكـان مستحيلاً أن توجـد في حديثهمـا كلمة صادقة . إذا انكشف لك قلب الملاّق تجد حقداً ، وإذا فحصت قلب الغضوب تجد خبلاً .

---

(١) أي مقام أو مسكن

(٢) أشعياء ٦٦ : ٢

١٤ البساطة عادة للنفس راسخة ، قد حازت بإزاء التفكير في الشر مناعة ، وهي تستبعد كل تصنعٍ [1].

١٥ الخبث براعة شيطانية، أوبالحري عاهة إبليسية . وبينما الخبيث ظاهرٌ أنه خالٍ من الصدق ، يظن أنه يستطيع أن يُخفي مقاصده ونزعات قلبه عن الناس ، وراء الكلمات والمواقف الظاهرية .

١٦ الرياء حالة مضادة للجسم والنفس معاً ، متناسجة مع كل نوع من التحيُّل .

١٧ البراءة حالة للنفس مبهجة ، خالية من كل الدوافع الخفية .

١٨ الاستقامة فكرٌ خالٍ من التفحّص ، خلقٌ بريءٌ من الغش ، كلام صريح لم يسبق ترتيبه .

١٩ نفس البريء محتفظة بنقائها الطبيعي الذي جُبلت عليه ، وهي تتشفع في الجميع .

٢٠ الخبث هو فساد الاستقامة ، تفكير ملتوٍ ، ملاطفة غاشة ، أيمان[2] كاذبة ، كلمات غامضة ، قلب منافق ، لجّة مكرٍ ، اعتياد الكذب ، عُجب تحوَّلَ إلى طبيعة ، عدو الاتضاع ، تظاهرٌ بالتوبة ، إبعاد النوح ، معاداة الاعتراف بالخطايا . إقامة الهوى ، مسبِّب السقطات ، عائق للنهوض منها . ابتسام في الأذايا ، عبوس متكلّف ، احترام متصنّع ، عيشة شيطانية .

٢١ الخبيث هو رفيق إبليس وسميّه ، ولهذا السبب علمنا ربنا أن نسميه هكذا قائلين : " نجنا من الخبيث "[3] .

---

(١) ل : ـ وهي تستبعد... (٢) جمع يمين وهو القسم (٣) متى ٦ : ١٣ ـ الخبيث والشرير لهما معنى واحد.

٢٢ سبيلنا ان نهرب من مهوى المراءاة ومن جُبّ التظـاهر والنفـاق ، إذ نسمع القائل : "إن الأشـرار يُستأصلون ، وكالعشـب الأخضـر سـريعاً يذبلون "[١] ، لأن مثل هؤلاء طعام مَرعَى للشياطين .

٢٣ كما أن الله يُدعى محبّة ، كذلك يسـمى الاستقامة ، لذلـك قـال الحكيم في نشيد الأناشيد : "أحبّتك الاستقامة "[٢]. كذلك قال أبوه داود: "صالح ومستقيم هو الرب "[٣] وهو يخلّـص مـن كـان لـه سميّاً : "مخلّص مستقيمي القلوب "[٤] ، وقـال أيضـاً : "إن وجهـه ينظـر إلى المسـتقيمين ، وهو يتعهد الأبرار "[٥] .

٢٤ إن خاصية الطفولة الأولى هـي البسـاطة الخاليـة مـن تلوّن ، الـتي حين كان آدم حائزاً لها ما أبصر عُرْيَةَ نفسه ولا عدم احتشام جسـمه .

٢٥ جيّدةٌ هي البساطة المتوفرة في أناس توفراً طبيعياً ، نعم ومغبوطة ، لكن ليس قدرها كقدر البساطة المطعَّمة في نفوس قومٍ بالأعراق والأتعـاب ، بعد إقلاعهم عن الخبث. لأن الأولى مستورة مصونة من تلوّن كثير وانسقام، أمّا المطعَّمـة فتصير سبباً لاتضـاع رفيـعٍ ووداعـة خالصـة . ثـواب البسـاطة الغريزية ليس جزيلاً ، أمّا ثواب الأخيرة ففائق حدّه .

٢٦ ينبغي علينا نحن المريدين أن نجتذب إلينا ربنا ، أن نتقدّم إليه تقدّماً خاليـاً مـن ازدواج القلـب ، والتصنّـع والخبـث ، نقترب إليـه ببسـاطة تامـة اقتراب تلاميذ إلى معلمهم . إن ربنا نفسه بسيط بساطة مطلقـة بـلا تعقيـد ،

---

(١) مزمور ٣٧ : ٩ ، ٢ (٢) نشيد ١ : ٤ حسب الترجمة السبعينية (٣) مزمور ٢٥ : ٨

(٤) مزمور ٧ : ١٠ (٥) قارن (مزمور ١١ : ٨ ، ٣٤ : ١٥) .

وهو يريد أن تكون النفوس التي تدنو إليه بسيطةً وبريئة ، لأنه لا توجد أبداً بساطة خالية من اتضاع .

٢٧ الخبيث نبيّ كذّاب ، يظن أنه يدرك أفكار رفيقه من أقواله ، ويعرف ما في قلبه من مظهره .

٢٨ رأيت نفوساً مستقيمة قد تعلّمت الخبث من قوم خَبَثَة ، وعجبت كيف استطاعوا أن يفقدوا سريعاً امتيازهم وموهبتهم الطبيعية . لكن بقدر ما يسهل على المستقيمين أن يسقطوا من النعمة ، بقدر ما يصعب على الأشرار أن ينصلحوا إلى البساطة . لكن الغربة الصادقة ، والطاعة ، وحفظ الشفتين غالباً ما اقتدرت اقتداراً عجيباً ، فشفت مرضى بأسقام كثيرة .

٢٩ لئن كانت المعرفة تصلّف الكثيرين وتنفخهم[1] ، فلعل الجهل وقلّة التعليم يستطيعان بنفس المقدار أن يجعلا الكثيرين متّضعين . ومع ذلك يوجد ـ وإن كانوا قليلين ـ من يتباهون ويتيهون عُجباً بجهلهم .

لقد صار لنا بولس البسيط[2] ، المثلث الطوبى ، مثلاً واضحاً ونموذجاً كاملاً ومقياساً للبساطة المغبوطة . فإن أحداً ما رأى أو سمع ، ولا يمكنه أن يرى قط نجاحاً هذا مقداره في مدةٍ هكذا قصيرة .

٣٠ الراهب البسيط بهيمة خرساء عاقلة ، واضعاً حِمله على مَن يقوده . إن البهيمة لا تجاوب سيدها إذ يربطها ، كذلك ذو النفس المستقيمة لا يجاوب مرشده ، إنه يتبع سائقه حيثما يشاء ، ولو أُرسِل إلى الذبح ما يعرف أن يحتجّ .

(١) كورنثوس الأولى ٨ : ١

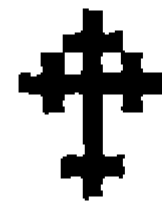
(٢) هو تلميذ القديس أنطونيوس . أنظر (بستان الرهبان ص ٢٢) .

٣١ بصعوبة يدخل الأغنياء إلى ملكوت السموات[١] ، وبصعوبة أشد يدخل الحكماء الأغبياء إلى البساطة .

٣٢ غالباً ما أدّبت العاقلين سقطةٌ ، وأفادتهم خلاصاً وبراءة من الشر رغماً عنهم .

٣٣ جاهد لتخادع حصافتك[٢] ، إذا فعلت هكذا ستجد خلاصاً واستقامة قلب بيسوع المسيح ربنا . آمين

مَن عنده قوة هذا الدرجة ، فليتشجّع ،
لأنه صار مشابهاً صورة المسيح
سيده ونال خلاصاً .



(١) متى ١٩ : ٢٣

(٢) هي الذكاء .

الدرجة الخامسة والعشرون

في قاهر الآلام، التواضع الأسمى ، المتأصِّل في الوجدان الداخلي

١ من يظن أنه يستطيع بكلام مُدرَك أن يصف الإحساس بمحبّة الرب ومفعولها بدقة ، وتواضع السريرة المقدس بأسلوب لائق ، والنقاوة المغبوطة بتحقيق ، والاستنارة الإلهية بوضوح ، ومخافة الله بصدق ، وإيقان القلب بلا خطأ ، ويظن أنه بوصفه هذه الفضائل الجليلة ينير الذين ما اختبروها ، يشبه رجلاً يريد أن يُعرِّف بالكلام والمقارنات حلاوة العسل للذين لم يذوقوه . فالثاني يتكلم عبثاً ـ ولا أقول ـ يهذي ثرثاراً ، أمّا الأول فهو إمّا أنه يعطي صورة عن عدم خبرة بما يتحدث عنه ، أو أنه قد صار مجرد ألعوبة المجد الباطل .

٢ هذا المقال يضع أمامنا ـ كحجر محكّ ـ كنزاً مخزوناً في أوانٍ من طين ـ أو بالحري في أجسامنا ـ وهو كنزٌ من نوع يجلّ تماماً عن الوصف . على هذا الكنز نُقشت كتابة ، لكنها كتابة مبهمة لأنها تأتي " من فوق " ، والذين يحاولون أن يفسروها بالألفاظ يُعنُّون أنفسهم عناءً لا ينتهي . أمّا الكتابة فهي هكذا : " الاتضاع المقدس " .

٣ ليدخل معنا جميع المنقادين بروح الله إلى هذا المحفل الروحي الحكيم، حاملين بأيديهم ألواح المعرفة المكتوبة بإصبع الله ! لقد اجتمعنا واستفحصنا وبحثنا في تفسير هذه الكتابة الثمينة . فقال أحدنا : " إن الاتضاع نسيانٌ

متواصلٌ لما يُحكِمه المرء من فضائل ". وقال آخر : " إنه احتساب المرء ذاته أنه آخر الكل وأكثرهم خطايا ". وقال غيره : " إنه إقرار العقل بضعف صاحبه وعجزه ". وقال واحد : " هو أن يسبق المرءُ غيرَه ـ إبّان نوبات الغيظ ـ ليحلّ النزاع والخصام ". وقال غيره : " الاتضاع هو الاعتراف بنعمة الله ورحمته ". وقال آخر : " إنه حِسُّ النفس المنسحقة وجحود مشيئتها ".

فلمّا سمعت أنا هذه الأوصاف كلها ، تفكّرت فيها مليّاً بأوفر التصفّح وأبلغ الانتباه ؛ لكنني ما استطعت أن أعرف مما قيل معنى الاتضاع المغبوط ، لذلك جمعت أنا ـ آخر الكل ـ ما تساقط من أفواه هؤلاء العلماء والآباء المغبوطين ، كما يجمع الكلب الفتات الساقط عن المائدة ، ووضعتُ تعريفاً للاتضاع قائلاً : " الاتضاع هو نعمة للنفس لا توصف ، يَعرف اسمَها فقط أولئك الذين تعلّموها بالخبرة ؛ هي ثروة لا يعبَّر عنها ؛ اسمٌ من الله نفسه وموهبة ، لأنه قال " تعلموا " ، لا من ملاك ، ولا من إنسان ، ولا من كتاب ، بل " مني " ، أي من سكناي فيكم ، وإنارتي إياكم ، وعملي فيكم ، " فإني وديع ومتواضع في قلبي " وفي فكري ، وفي روحي ، " فستجدوا لنفوسكم راحة من القتالات وخلاصاً من المنازعات[1] .

٤ إن مظهر كرمة الاتضاع المقدسة ، إذا كنا بعد في شتاء الأسقام ، غير منظرها في ربيع الإزهار ، وبخلاف هيئتها في صيف حصاد الفضائل . ومع ذلك ، فإن كل هذه المراحل تتلاقى في الفرح والإثمار ، وهكذا فإن

(١) متى ١١: ٢٩

لكل منها سماتٍ خاصة وبيّنة أكيدةً على الثمر العتيد . إذ حالما يبدأ عنقود التواضع أن يزهر فينا ، للوقت نبتدئ ـ ليس بغير جهد ـ أن نمقت كل مجد ومديح بشري ، وأن نقتلع مِنّا الاهتياج والغضب . وبقدر التقدّم الذي تحرزه ملكة الفضائل هذه في أنفسنا بالنمو الروحي ، بقدر ما نحتسب كافة الصالحات التي نعملها كلا شيء ، أو بالحري نحسبها نفاية ، مستشعرين أننا كل يوم نزيد حِملنا بتبديدنا [ثروتنا] ، معتبرين أن وابل المواهب الإلهية المنهمرة علينا ، تفوق استحقاقنا وتزيد عقوبتنا . وهكذا يظل عقلنا في مأمن من السلب ، مصوناً في طمأنينة في حُقّ[1] التواضع ، سامعاً فقط قرع اللصوص وسخريتهم ، دون أن يلحقه شيء من تهديداتهم ، لأن التواضع خزانة منيعة يستحيل اقتحامها .

٥ هكذا قد اجترأنا أن نتفلسف بألفاظ يسيرة ، في وصف إزهار ونمو ثمرة التواضع الدائمة الإزهار . فإن شئتم أيضاً أيها القريبون من الرب أن تعرفوا المكافأة التامة لهذه الفضيلة المقدسة ، فاسألوا الرب عنها ؛ إذ ليس ممكناً أن نقيس مقدار تلك الثروة المقدسة . أمّا أن نشرح نوعها ، فهذا أيضاً لا يزال أشد امتناعاً . لكننا سنحاول على كل حال أن نتكلم في وصف خواص الاتضاع المميِّزة ، من واقع فهمنا له : ـ

٦ إن التوبة المجتهدة ، والنوح المطهِّر من كل وسخ ، وتواضع المبتدئين المقدس ، يختلف ويتميز بعضها عن البعض ، كما يتميز الخمير والدقيق عن

---

(١) الكلمة الأصلية تعني الحُقّ الذي يحتفظ فيه بالجواهر ، كما نقول عن الوعاء الذي فيه توضع الأقداس لتناول المريض في بيته " حُقّ الذخيرة المقدسة " .

الخبز . فالنفس تنطحن بالتوبة الواضحة وتُدَق[1] ؛ وتتحد بكيفية ما بالله ، بل أقول تصير معه عجيناً بواسطة دموع النوح الصادق . حينئذ إذ تتّقد بنار الرب - التي هي الاتضاع المغبوط[2] - تصير خبزاً صلباً خالياً من خمير الكبرياء . وهكذا إذ ينضفر هذا الخيط المثلوث[3] - أو بالحري إذ يتّحد هذا القوس قزح السمائي - يصير قوة واحدة ذات فعل واحد ، فتبرز صفاته ومفاعيله الخاصة . وحينما تذكر سمةً من سمات هذه الجدائل الثلاث ، تجد أنها صفة لأخرى كذلك ؛ ولذلك سأحاول أن أحقق بإيجاز برهان ما قلته :

٧ أولى خواص هذا الثالوث الفائق العجيب - وهي درجة سامية - هي اقتبال الهوان بأتم سرور ، إذ تتسلّمه النفس وتقتبله بيدين مبسوطتين ، وتحلّه محلّ مُسكّن كاوٍ لأسقام النفس، وخطاياها الوافرة . والخاصة الثانية ، هي فقدان كل انفعال الغضب، مع تذلّل هادئ. أمّا الخاصة الثالثة والأسمى ، فهي زوال ثقة المرء بمحاسنه ، ورغبة دائمة في التعلّم .

٨ غاية الشريعة والأنبياء ، هي " المسيح للبرّ ، لكل من يؤمن[4] " . أمّا غاية أوجاع الخطايا ، لكل من لا يتّجر بهذه السلعة [أي الاتضاع] ، فهي المجد الباطل والكبرياء . أمّا هادمها ، هذا الإيّل الروحاني[5] [الاتضاع] ، فإنه يحفظ من يقترن به منيعاً ضد كل سم قاتل ، لأنه أين يستطيع سمّ الرياء أن يظهر حيث الاتضاع ؟ أين سمّ الوقيعة ؟ أين تأوي حيّة [من أي نوع] وتختبئ ؟ ألا تُنتزع من أرض القلب [المقترن بالاتضاع] ، وتُقتل وتُباد ؟

---

(١) أي تصير دقيقاً ناعماً (٢) انظر يشوع ابن سيراخ ٢ : ٥ (٣) انظر جامعة ٤ : ١٢

(٤) رومية ١٠ : ٤ - ومعنى الآية : المسيح لبر - أو لتبرير - كل من يؤمن . (٥) مزمور ٤٢ : ١

٩ حيث الاقتران بالتواضع ، يتعذّر أن يظْهَرَ بُغض ، أو أي نوع من المجادلة[١] ، أو رائحة معصية ـ ما خلا احتمال عدم صحة الإيمان .

١٠ من اتخذ الاتضاع له عروساً ، فقد اقتنى كل الفضائل، فهو وديع، شفوق ، توّاب ، متعاطف ، هادئ ، مبتهج ، مذعن ، قليل المعارضة ، غير مهاجم ، حذر ، غير متكاسل . وماذا أقول أيضاً ، وهو قد صار حرّاً من الآلام ؟ لأنه " في تواضعنا ذَكَرنا ربُّنا ، وافتدانا من أعدائنا وأسقامنا وأدناسنا "[٢].

١١ الراهب المتواضع الفكر لا يكثر التفحُّص في الأسرار ، أمّا المتكبّر فيستفحص الأحكام[٣] .

١٢ وقفت الشياطين بواحد من الإخوة الجزيل تمييزهم مرةً ، في صورة منظورة ، وجعلوا يطوّبونه . فقال ذلك الحكيم لهم : " إن كففتم عن امتداحكم إياي من خلال أفكار قلبي ، فمن انصرافكم عني أفطن أني عظيم فعلاً . أمّا إذا واصلتم امتداحي ، فمن امتداحكم عينه أحدس على نجاستي ؛ " لأن كل مترفّع القلب ، نجس قدام الرب "[٤] . فإمّا أن تنصرفوا عني ، وعندئذ أصير عظيماً ، وإمّا أن تمتدحوني، فأنال بواسطتكم تواضعاً أكثر ". فذهلوا من جوابه ، واختفوا عنه .

١٣ لا تكن نفسك بركةً من نهر الحياة ، تفيض بالماء أحياناً ، وتجفّ من حرارة التمجيد والترفّع أحياناً بل لتكن نفسك ينبوع عدم التألّم ، ينبع أبداً في مجرى نهر المسكنة .

---

(١) تسمى المجادلة في بعض الكتب الرهبانية " المجاوبة " ، وهي المعارضة أو المناقضة .

(٢) مزمور ١٣٦ : ٢٣ . ٢٤ (٣) أو أساليب الله وطرقه . (٤) أمثال ١٦ : ٥ . لوقا ١٦ : ١٥

١٤ اعلم أيها الحبيب أن الأودية تتعطّف[١] بُراًّ[٢] وثمراً روحياً. الوادي هو النفس المتضعة المنخفضة بين الجبال، وهي ممتلئة دواماً بالأعمال والفضائل، لكنها تظل أبداً منخفضة لا تتزعزع. لم يقل داود إنني صُمْتُ ،، أو ،، سهرت ،، ، أو ،، نمت على الأرض المجردة ،، ، لكنه قال: اتّضعت، والرب حالاً خلّصني ،،[٣] .

١٥ إن التوبة تنهض الساقط، والنوح يقرع باب السماء، لكن التواضع المقدس يفتحه؛ إنني أقرّ بهذا، لكني أسجد لثالوثٍ في واحد، ولواحدٍ في ثالوث.

١٦ جميع البرايا[٤] المنظورة تستمد من الشمس نورها. وجميع الأعمال التي تؤدّى بالعقل، تستمد من الاتضاع قوّتها. حيث لا يوجد نور، فكل شيء مظلم؛ وحيث لا يتوافر التواضع فكل ما نعمله يفسد.

١٧ في الكون كلّه، يوجد موضع واحد أبصر الشمس مرة واحدة[٥]؛ كذلك فإن فكراً واحداً في الغالب، قد وَلّدَ التواضع[٦]. في يوم واحدٍ وحيد ابتهج العالم كله[٧]؛ وفضيلة وحيدة يستحيل على الشياطين أن يقلّدوها[٨].

١٨ أن يترفّع الإنسان شيءٌ، وألاّ يترفّع شيءٌ آخر، وأن يتّضع شيء ثالث. فالشخص الأول يدين على الدوام الآخرين، والثاني لا يدين أحداً

(١) تتعطّف أي تكتسي (منها كلمة معْطف) (٢) البر هو القمح (٣) مزمور ١١٦ : ٦

(٤) جمع برية (أو برينة) وهي الخليقة: برأ أي خلق والباري هو الخالق (٥) أرض غير منظورة أشرقت الشمس عليها، عندما انشق البحر الأحمر (خروج ١٤ : ٢١ - ٢٧).

(٦) هو فكر إخلاء المسيح لنفسه بالتجسد. انظر فيلي ٢ : ٣ - ٧ (٧) يوم ميلاد الرب (٨) أي الاتضاع

لكنه لا يدين نفسه ، والثالث مع أنه بريء مما يستوجب الدينونة ، إلاّ أنه يوجب الدينونة كل حين على ذاته .

١٩ أن يكون الإنسان متّضعاً في سريرته شيء ، وأن يجتهد في إحراز التواضع شيء آخر، وامتداح المتّضعين شيء ثالث. الأول يختص بالكَمَلة[١]، والثاني يختص بالمطيعين الحقيقيين ، والثالث يخصّ جميع المؤمنين .

٢٠ الذي قد ذلّل نفسه في الداخل ، ما يُسرق من شفتيه ؛ لأن ما لا تحويه الخزانة ، كيف يمكن إخراجه من بابها !

٢١ الحصان المنفرد في الطريق ، يظن أنه يجري ؛ فإذا رافق خيلاً عدّاءة[٢] ، عرف كم يكون إبطاؤه .

٢٢ إذا كان فكرنا لا يفتخر بالملَكات الطبيعية التي وُهبناها ، فذلك علامة تدلّ على ابتداء صحتنا . لكن ما دمنا نشتَمّ تلك النتانة ، فما نستبين عبير الطِيب[٣] .

٢٣ قال التواضع البار : إن عاشقي لا ينتهر، ولا يقضي على أحد[٤]، ولا يترأس ، ولا يُظهر حكمته ، إلى أن يقترن بي . لأنه بعد اتحاده بي ، لن يوضع عليه بعد ناموس[٥] .

٢٤ حدث أن وسوس العدو النجس في قلب أحد النساك ــ وكان

---

(١) أي الكاملين (٢) عدّاءة : أي تكثر من العدو (الجري) مثل خيل السباق . والمقصود أنه ما لم يعاين المرء أناساً متواضعين بالحق ، يتوهم باطلاً أنه متواضع (٣) أي طالما لنا إحساس الزهو والافتخار بمواهبنا الطبيعية ، فلن نستمتع بإدراك شذا التواضع الذكي . (٤) انظر لوقا ٦ : ٣٧

(٥) قارن تيموثاوس الأولى ١ : ٩

مجاهداً لاقتناء التواضع المغبوط - بفكر مديح . فاحتال بإلهام إلهي ، أن يقهر خبث الشياطين بحيلة بارعة . إذ أنه نهض فكتب على حائط قلايته أسماء الفضائل السامية حسب ترتيبها ؛ أعني الحب الكامل ، التواضع الملائكي ، الصلاة النقيّة ، الطهارة العديمة الفساد ، وأمثال هذه . وهكذا عندما كانت أفكار المجد الباطل تبتدئ في مديحه ، كان يقول لها : " هلمّ بنا نمضي إلى المحاكمة ". وإذ يذهب إلى الحائط . يقرأ الأسماء المكتوبة ويصيح على ذاته : " عندما تقتني كلّ هذه الفضائل، ستعرف أنك ما تزال بعيداً عن الله ! " .

٢٥ إننا لا نستطيع أن نصف قوة هذه الشمس - أي الاتضاع - وكنهها ، لكننا من أفعالها وخواصها نستطيع أن نشرح جوهر طبيعتها .

٢٦ التواضع برقع مقدس ، يمنع صاحبه عن رؤية الفضائل التي أحكمها . التواضع هوّة من تحقير الذات، يمتنع على جميع اللصوص بلوغها . " التواضع برج حصين أمام وجه العدو "[١] . " لا يقهره العدو ، وابن الإثم - أو بالحري فكر الإثم - لا يلحق به ضرراً ، بل سيسحق أعداءه من قدام وجهه ، ويظفر بمبغضيه[٢] .

٢٧ فضلاً عن كل الخواص المميّزة التي قدّمنا إيضاحها ، فإن مالك هذه الثروة له في نفسه خواصّ أخرى سواها . وجميع هذه الخواص - ما عدا واحدة - دلائل منظورة على اقتناء هذه الثروة . ستعرف يقيناً أنك تحوز هذه القنية المقدسة ، في داخلك ، إذا أشرق فيك ضوء باطني وافر لا يوصف ، وإذ اقتنيت حبّاً للصلاة لا يعبّر عنه . ويسبق الحصول على هذين ، قلب لا

---

(١) مزمور ٦١ : ٤

(٢) مزمور ٨٩ : ٢٢ ، ٢٣

يحكم على سقطات الآخرين . أمّا البشير الذي يسبق مـا قلنـاه ، فهـو مقـتُ كلّ مجد باطل

٢٨ من بلغ معرفة ذاته بتمييز كل حسٍ من أحاسيس نفسه ، فقد بذر البذار على الأرض ، أمّا أولئكِ الذين ما يذروا هكذا بعد ، فكيف يتوقعـون إزهارء التواضع فيهم ؟

٢٩ مـن بلـغ معرفـة ذاتـه ، فقـد أدرك مخافـة الـرب ؛ والـذي ســلك مستنِداً على هذه المخافة ، فقد انتهى إلى باب الحب .

٣٠ التواضع هو باب الملكوت يفضـي بـالذين يصاقبونـه[1] إلى داخلـه وأحسب أن ربنا قد عني هذا الباب حين قال : " ... إنه يدخل ويخـرج من الدنيا بلا خوف ، وسيجد مرعى وخضرة في الفردوس . وجميع الذين ولجوا إلى اسـكيم الرهبانيـة مـن غير هـذا البـاب ، هـم لصـوص وسـرّاق لحيـاتهم وحدهم " [2] .

٣١ سبيلنا أن نتصفّح هذا نحن المريديـن أن نـدرك مطلوبنـا : إن كـان حسّ قلبنا قد بلغ من الحدّة ما يكفي لنتحقق أن قريبنا أفضل على كل وجـه منا، فالرحمة الإلهية قريبة منا .

٣٢ يمتنع أن ينفجر من الثلج لهيب ، وأشد من ذلـك امتناعـاً أن يحـل التواضع في [قلوب] الهراطقة . فللمؤمنين المتورّعين بلوغ هـذه الفضيلـة ، وفوق ذلك فإنهم يحرزونها فقط عندما يتنقّون .

(١) أي يقتربون منه

(٢) قارن (يوحنا ١٠ : ٨ ـ ٩) .

٣٣ أكثرنا يدعون ذواتهم خطأة ، وعسانا أن نحسبها كذلك حقاً ، إلا أن الهوان هو الذي يمتحن القلب[١].

٣٤ من يسارع إلى ميناء الاتضاع الهادئ من الأمواج ، لن يكفّ عن أن يعمل ويتحيَّل بكل ما في مقدوره ، دافعاً نفسه نحو الأمام ، بأقوال ، وأفكار تلو أفكار ، ووسائل متنوعة ، باستقصاءات وأبحاث ، بتضرّعات وصلوات وتأمّلات وتفهّمات ، وبكل وسيلة مستطاعة ، حتى يمكنه بمعونة الله وبالثبات في المذلاّت وأغزر المحقرات ، وبالأتعاب والأنصاب ، أن ينجّي سفينة نفسه من بحر التعظّم الدائم العواصف . لأن من تخلّص من هذه الخطيئة[٢] ، ينال بسهوله صفحاً لباقي خطاياه ، شأنه شأن العشار ذي الاعتذار الحسن[٣] .

٣٥ يوجد أناس قد اتخذوا من سيئاتهم السالفة التي نالوا عنها اغتفاراً، سبباً لتذلّل سريرتهم ، يُقرِّعون بها حتى نهاية عمرهم ـ توهّمهم الباطل وتعظّمهم . وغير هؤلاء من يتفطّنون في تألّم المسيح ، ويعتدّون ذواتهم أنهم

(١) هذه الحقيقة تشرحها قصة الأخ الذي زار القديس سرابيون ؛ فلما طلب منه أن يصلّي كما هي العادة ، اعتذر قائلاً : "إنني خاطئ ولا أستحق اسكيم الرهبنة" ولما أراد الشيخ أن يغسل له رجليه ، أبى واعتذر بمثل هذا الكلام . ثم هيّأ الشيخ طعاماً ، فلمّا جلسا يأكلان ، أخذ الشيخ يعظه بمحبة قائلاً له : "يا ابني إن كنت تريد أن تنتفع ، فاجلس في قلاّيتك ، واترك عنك الجولان ، جاعلاً اهتمامك في نفسك وفي عمل يديك" فلمّا سمع الأخ هذه العظة تململ وتغيّر لونُ وجهه ، حتى أن الشيخ لاحظ عليه ذلك ، فقال له : "بينما تقول إني خاطئ وتصف نفسك أنك لست أهلاً لأن تحيا في هذه الدنيا ، إذا بي لمّا عاتبتك بمحبّة ، رأيتك قد تململت وتغيّر وجهك حتى صرت مثل السبع . إن كنت حقاً تريد أن تكون متضعاً ، فاحتمل ما يأتيك من الاغتمام من الآخرين ، ولا تلُم نفسك ملامة باطلة بالرياء والكلام الباطل" . فلمّا سمع الأخ هذا الكلام ، انتفع منه وصنع للشيخ مطانية قائلاً : "اغفر لي" ورجع إلى قلايته (بستان الرهبان ص ٨٦) .

(٢) أي التعظم أو الكبرياء

(٣) انظر لوقا ١٨ : ٩ ـ ١٥

على الدوام مديونون . وهناك من يهوّنون أنفسهم بالمناقص الحادثة منهم كلّ يوم .وغيرهم الذين بسبب المحن المحدقة بهم وضعفاتهم وهفواتهم قد أماتوا كبرياءهم . آخرون بسبب حاجاتهم إلى النعم قد استولوا على أمّ النعم [الاتضاع] . هناك أيضاً أناس (إن كانوا بعد موجودين) يواضعون أنفسهم بسبب مواهب الله عينها ، فبقدر تزايدها فيهم ، بقدر ما يذلّلون ذواتهم محتسبين أنفسهم غير مستحقين ثروةً هذا قدرُها ، معتقدين أنهم كلّ يوم يزيدون من دينهم . هذا هو الاتضاع ، هذه هي الغبطة ، هذه هي المكافأة التامة .

٣٦ متى رأيتَ أو سمعتَ أن أحداً قد اقتنى في سنين يسيرة زوال الأسقام الأسمى ، تحققْ أنه لم يسلك طريقاً أخرى سوى هذه الطريق المغبوطة الوجيزة .

٣٧ الحب والتواضع صنوان مقدسان ؛ أحدهما يرفع والآخر يحفظ الذين ارتفعوا ، أبداً دون سقوط .

٣٨ الانسحاق شيء، ومعرفة النفس شيء آخر والتواضع شيء آخر.

٣٩ الانسحاق هو نتيجة سقطة في الخطاء ، لأن من يسقط ينسحق ، ويقف في صلاته بغير دالّة ، إنّما بعناد ممدوح ، كمن هو قد كُسِر [بسبب سقوطه] مستنداً على عصا الرجاء ، طارداً بها كلب القنوط والإياس[1] .

٤٠ معرفة النفس هي فكرٌ صادق عن مدى نموها الروحي ، وتذكّرٌ لا ينقطع لأقل هفواتها .

(١) الإياس هي اللفظة الصحيحة لليأس .

٤١ التواضع هو تعليم المسيح الروحاني ، الذي يقتبله روحياً في خزانة النفس، أولئك الذين حُسبوا له أهلاً. يتعذّر شرحه بالألفاظ المدرَكة .

٤٢ من يقول أنه يستشعر تماماً عبير مثل هذا الطِيب ، ومع ذلك يشعر عندما يُمدح بحركة في قلبه ولو إلى لحظة ، أو يعرف قوة الكلمات ، فليته لا يضلّ فيعلم أنه مخدوع .

٤٣ سمعت قائلاً يقول بعمق حسّ نفسه : " ليس لنا يا رب، ليس لنا، لكن لاسمك اعطِ مجداً "[1] لأنه عَلِمَ أن طبيعتنا عادةً ما تلبث ناجيةً من ضررٍ يصيبها من المديح . " منك أبتغى مَدْحتي في الجماعة العظيمة[2] ، أي في الدهر المرتجى ؛ أمّا قبل ذلك الدهر ، فلست أستطيع أن أقبل المديح خلواً من خطر .

٤٤ إذا كان حدّ التكبّر المفرط ، ونعته التام ، وخاصيته المميِّزة ، أن يتظاهر امرؤٌ - لكي يتمجدَ - بفضائل ليست فيه ؛ فهذه إذاً دلالة على تواضع مكين ، أن نحقّر ذواتنا بأن نتظاهر بمناقص ليست فينا . بهذه الطريقة تصرّف ذاك الذي قبض بيديه على الخبز والجبن[3] . هكذا فعل أيضاً مناضل

---

(١) مزمور ١١٥ : ١ (٢) مزمور ٢٢: ٢٥

(٣) هو القديس يمن : حدث مرةً أن أتى رجلٌ رئيسٌ لينظره . فسبق إليه قومٌ وأخبروه قائلين : " استعد ، فإن فلاناً الرئيس قد سمع عنك ، وها هو قادمٌ لينظرك ويتبارك منك " . فأجابهم الشيخ قائلاً : " حسناً ، إنني سأهيئ نفسي جيداً " . فقام ولبس المرقعة التي له ، وأخذ خبزاً وجبناً . وركب الحائط كما يُركَب الحصان ، وجعل يهزّ رجليه ويأكل . فلما جاء الأرخن مع حشمه وأبصره هكذا ، شتمه قائلاً : " أهذا هو المتوحد الذي سمعنا عنه ؟ ليس هاهنا متوحد ! " وهذا هو نفس الكلام الذي توقّع الشيخ أن يسمعه . (بستان الرهبان ص ٩٠) .

الطهارة ، الذي نزع ثوبه وطاف المدينة حرّاً من الأسقام[1] . مثل هؤلاء لا يبالون بنقد أو حكم بشري[2] ، لكونهم قد اقتبلوا بالصلاة قوة سرّية تملأهم ثقة في جميع الأمور . أمّا الذي يبالي بالأولى ، فقد دلّ على افتقاره إلى الثانية[3] . إذا كان الله مستعداً لاستجابة صلواتنا ، فنحن نستطيع أن نعمل كل شيء .

٤٥ الأفضل هو أن تحزن الناس وليس الله .لأنه يفرح إذا أبصرنا راكضين لملاقاة الهوان ، لكي نسحق تَعظُّمنا الباطل ونضربه ونبيده .

٤٦ إن هذا الجهاد الفاضل ، نتيجة تغرّب عن العالم بالغ مداه ؛ لأن العظيم بالحقيقة ، هو وحده الذي يقتدر على احتمال الهزء واللهو به من معارفه وذويه . لا تتعجب مما ذكرناه ، فلن يستطيع أحد أن يرتقي سلّماً في خطوة واحدة .

٤٧ بهذا يعرف الجميع أننا تلاميذ إلهنا ، ليس إذا خضعت لنا

---

(١) هو القديس سيرابيون الذي لمّا مضى إلى الإسكندرية مرةً ، وجد مسكيناً عرياناً في السوق . فقال لنفسه : '' كيف أنا الذي يُقال عني إني راهب صبور وعمّال أكون لابساً ثوباً ، وهذا الفقير عريان ؟ حقاً إن هذا هو المسيح والبرد يؤلمه . '' عندئذ وثب بقلب شجاع وتعرّى من الثوب الذي كان عليه ، وأعطاه لذلك المسكين وجلس عرياناً والإنجيل في يده . واتفق أن كان الحاكم مُجتازاً ، فلمّا أبصره عرياناً ، قال له : '' يا أبّا سيرابيون ، من عرّاك ؟ '' فأشار إلى الإنجيل قائلاً : '' هذا هو الذي عرّاني . '' فبعدما كسوه ، قام من هناك فوجد رجلاً عليه دَين وهو مُعتقل من دائنه ، وحيث لم يكن لديه ما يوفيه عنه ، باع الإنجيل ودفع ثمنه للدائن . ولّما كان ماشياً لاقاه في الطريق إنسان يستعطي ، فأعطاه الثوب وجاء فدخل قلاّيته عرياناً . فلمّا أبصره تلميذه هكذا ، قال له : '' يا معلّم أين ثوبك ؟ '' فأجابه قائلاً : '' لقد قدّمته يا ولدي قدّامنا حيث نحتاجه '' فقال له أيضاً : '' وأين إنجيلك يا أبتاه الذي كنّا نتعزّى به ؟ '' . فقال له : '' يا ولدي . لقد كان يقول لي كل يوم : « بع كل مالك واعطه للمساكين » . فبعته '' .

(٢) د : بفضيحة الناس .

(٣) أي أن الذي يقلق بسبب نقد الناس إيّاه ، قد دلّ على افتقاره إلى القوة الممنوحة بالصلاة، والتي تجعله غير مكترث بأقوال الناس عنه . واضعاً كل ثقته في الله غير مبال بالناس .

الشياطين ، بل إذا كُتبت أسماؤنا في سماء التواضع[1] .

٤٨ من خواص شجرة النارنج ، أنها ترفع إلى العلاء أغصانها حينما تخلو من الثمر ؛ لكن تزداد الأغصان إنحناء إلى أسفل ، بقدر ازدياد الثمار التي تحملها . من له عقل للفهم ، فليدرك معنى هذا[2] .

٤٩ الذين يرتقون هذا التواضع المغبوط، يقتبلون من الله قوة للإثمار ، بعضٌ ثلاثين ضعفاً ، وبعضٌ ستين ضعفاً وآخرون مائة ضعف[3] . فالرتبة الأخيرة يبلغها الأبرياء من الأسقام ، والرتبة الوسطى يبلغها الشجعان ، أمّا الرتبة الأولى فيمكن أن يبلغها كل من يشاء .

٥٠ من بلغ معرفة ذاته ، فلن ينخدع أبداً بأن يباشر الاضطلاع بما يفوقه بل يحفظ قدميه سالماً على درب التواضع المغبوط .

٥١ منظر الباز[4] يخيف العصافير ، وصوت المجادلة يخيف من يمارسون التواضع[5] .

٥٢ كثيرون قد نالوا الخلاص دون تنبؤات ، واستنارات ، وآيات ، وعجائب . لكن لم يدخل من الناس إلى خدر العرس واحدٌ خلواً من الاتضاع . فالتواضع حافظ لهذه المواهب ، لكنها بدونه تنتهي بالفارغين من الرزانة إلى الهلاك .

٥٣ دبّر ربُّنا هذا التدبير لنتواضع وإن لم نشأ ، وهو أنه لا أحد يستطيع أن يبصر جراحاته جيِّداً ، كما يبصرها قريبه . لذلك يلزمنا

(١) لوقا ١٠ : ٢٠ (٢) أي أنه بازدياد تواضعنا ، تزداد فضائلنا ، وتزداد عدد النفوس التي تخلص بسببنا

(٣) مرقس ٤ : ٢٠ (٤) طائر شبيه بالصقر

(٥) مثلما فعل القديس يوحنا القصير حين دار حول قلايته ثلاث مرات مصلّياً كي يبدّد صوت المجادلة التي سمعها ، قبل أن يدخل القلاية حيث أراد أن يكون فكره وهو بداخلها نقياً من الطياشة أو الفكر الشرير .

اضطراراً أن نعزو الفضل في شفائنا ، لا لذواتنا ، بل لقرينا ولإلهنا .

٥٤ متواضع العقل يرذل مشيئته كل حين رفض الشيء المضِل ، وفي طلباته إلى الله يجتهد بإيمان وطيد أن يتعلّم ويطيع . إنه لا يوجّه انتباهه إلى سيرة معلّميه ، لكنه يلقي همّه على الله الذي استخدم حماراً ليلقّن بلعام ما كان عليه واجباً . إن عاملاً من هذا النوع ، ولو أنه يفكّر ويتكلّم ويعمل كل شيء حسب مرضاة الله ، إلا أنه لايثق بذاته أبداً . فالثقة بالذّات لدى المتواضع نيرٌ بغيض مستثقل ، كاستثقال المتكبِّر لطلب المشورة .

٥٥ يلوح لي أن الملاك وحده هو الذي لا يُسرق في خطيئة ، لأنني سمعت ملاكاً أرضياً يقول : " إنني لست أشعر بشيء من الذنب ، لكني لست بذلك مبرَّراً . لكن الذي يحكم فيّ هو الرب "[1] . فعلى هذا ، علينا أن نلوم أنفسنا دواماً وندينها ، لنطرح بتذلّلنا الإرادي خطايانا اللا إرادية . وإلاّ ، فسوف نُحاسب عنها حساباً عسيراً ساعة رحيلنا .

٥٦ من يستميح الله ما هو أقل مما يستحق ، فسينال بالتأكيد أكثر مما يستحق. وهذا يبرهنه لنا العشار، الذي سأل غفراناً، فاستمد تبريراً[2]. وذلك اللص ابتغى فقط أن يُذكر في ملكوت الرب فورث الفردوس كله[3].

٥٧ يستحيل أن تُرى نار ـ صغيرة أو كبيرة ـ في برينة[4] من البرايا المنظورة ، كذلك يتعذر على الإطلاق أن يوجد في التواضع الصادق شيءٌ ذو طبيعة هيولية[5] . وما دمنا نسقط في الخطايا طوعاً بإيثارنا ، فليس هذا التواضع موجوداً فينا ؛ بل ذلك دلالة على أن شيئاً من الهيولي لا يزال فينا .

---

(١) كورنثوس الأولى ٤ : ٤ (٢) لوقا ١٨ : ١٠ (٣) لوقا ٢٣ : ٤٣
(٤) أي خليقة . (٥) أي مادية ؛ جسدية

٥٨ إذ علم ربنا أن فضيلة النفس تتشكل بالسلوك الظاهر ، تناول منشفة واتزر بها وأرانا مسلك طريق التواضع[١] . لأن النفس تستمد مثالها مما يفعله الجسم ، وتتشكل بشكل أعماله . صارت الرئاسة لأحد الملائكة منطلقاً للتعجرف ، مع أنها بجدّ ذاتها لم تكن سبباً في وصمه بهذا السقم .

٥٩ حال الجالس على العرش ، غير حال الجالس على المزبلة . ولعله لأجل هذا جلس ذلك الصدّيق العظيم خارج المدينة على المزبلة ؛ لأنه إذ اقتنى حينذاك تواضع اللب كاملاً ، قال بحس نفس عميق : « أرذل نفسي وأتلاشى ، وأحتسب ذاتي تراباً ورماداً »[٢] .

٦٠ أجد أنه لم يخطئ من جميع الناس مثل منسّى ، إذ نجّس بالأصنام هيكل الله ، ودنّس العبادة كلها ؛ ذلك الذي لو كان العالم كله قد صام لأجله ، لما أمكنه تصحيحه . إلا أن التذلّل قد اقتدر أن يشفي فيه أسقاماً يستحيل شفاؤها[٣] . وقد قال داود لله : " إنك لو شئت ذبيحة لأعطيتُها ، لكنك ما تُسرّ بالمحرقات ، أي بأجسام أفناها الصوم . " الذبيحة لله روح منسحق " ـ وما يتلو ذلك معلومٌ لكل أحد[٤] .

٦١ " أخطأت إلى الرب " : هكذا هتف التواضع المغبوط ذات مرة إلى الله من أجل فسق وقتل . ولساعته سمع : " قد انتزع الرب عنك خطيئتك "[٥] .

٦٢ رسم آباؤنا الخالد ذكرهم ، أن أتعاب الجسم طرق للتواضع

(١) يوحنا ١٣ . ٤ (٢) أيوب ٤٢ : ٦

(٣) أخبار الأيام الثاني ٣٣ . ١ـ ١٣ (٤) القلب المسحق والمتواضع ، لا يرذله الله (مزمور ٥١ : ١٧) .

(٥) صموئيل الثاني ١٢ : ٣

وأساسه . وأنا أقول إنها الطاعة واستقامة القلب ، لأنهما بطبعهما يضادّان الظن الخدّاع[1].

٦٣ إن كان التعظّم قد جعل من ملائكة شياطين ، فمن البيِّن أن التواضع يقتدر أن يُبدع من شياطين ملائكة . لهذا فَلْتَطِب أنفس الذين سقطوا .

٦٤ دعنا نسارع بكل قوتنا ونكافح لنشق طريقنا نحو هامة التواضع ، فإن لم نبلغها فلنحرص أن نرتقي كتفيه ، فإن كنّا إلى الآن نعرج فلا نسقطن من فوق ساعديه ، إذ أنني بصعوبة أصدّق أن أحداً سقط منهما ونال موهبة أبدية .

٦٥ أعصاب الاتضاع[2] وطرقه ودلائله[3] هي : الزهد في القنية[4] ، الغربة الإرادية السرّية ، إخفاء الحكمة ، بساطة الكلام ، إلتماس الصدقة ، كتمان شرف النَسب ، هجر الدالّة . تجنّب اللغو[5] .

٦٦ ليس فِعلٌ يقتدر أن يذلّل النفس تذليلاً بليغاً مثل حال الإعواز وعيشة الشحاذين المكديين. لأننا بهذا نبرهن على محبتنا للحكمة ووُدّنا لله ، وحين اقتدارنا أن نستعلي ، نهرب من الاستعلاء هروباً خالياً من نكوص .

٦٧ إن تدرّعت سلاحاً ضد وجع من الأوجاع ، فخذ لك هذا التواضع حليفاً " فسيطأ الأفعى وملك الحيّات ـ أي الخطيئة والإياس ، ويدوس الأسد والتنين ـ أي إبليس وحيّة الجسد "[6] .

---

(١) أي تزكية الذات ؛ كما نقول في ذكصولوجية (تمجيد ـ مديح) أنبا أنطونيوس : " حلّوا من قلوبكم أفكار الشر والظنون الخدّاعة التي تظلّم العقل ".

(٢) د : + التي تشد أزره

(٣) د : + التي تقود إليه

(٤) ل : الفقر

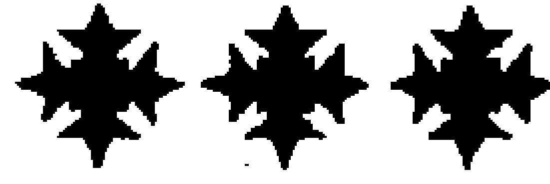
(٥) أي الثرثرة

(٦) مزمور ٩١ : ١٣

٦٨ التواضع ساقية سمائية ، تستطيع أن تُصعد النفس من هاوية الخطايا إلى سماء [السعادة والخلود] .

٦٩ رأى أحدٌ داخل قلبه جمال الاتضاع ، فإذ اشتمله ذهول ، سأله عن اسم والده . فابتسم نحوه تبسّماً بهيّاً متهلّلاً وأجاب : " كيف سارعت لتعرف اسم والدي ؟ هو الذي لا اسم له . ولست أستطيع أن أخبرك ، إلى أن تقتني إلهك . له المجد إلى دهر الدهور . آمين !

أم الينبوع هي البحر السحيق ، ومن لجّة
التواضع ينبع الإفراز .



الدرجة السادسة والعشرون

إفراز* الأفكار ، والأدواء ، والفضائل

١ الإفراز عند المبتدئين هو معرفة صادقة لأنفسهم ، وهو في المتوسطين حِسّ روحي يميّز تمييزاً لا يخطئ بين ما هو صالح ، وما هو من الطبيعة ، وما هو مضاد للطبيعة . والإفراز عند الكاملين ، هو المعرفة الحاصلة من الاستنارة الإلهية التي تستطيع أن تضيء بمصباحها ما هو عند الآخرين غامض مظلم .

أو لعل الإفراز - بصفة عامة - يُعرَّف بأنه إدراك المشيئة الإلهية إدراكاً أكيداً ، في كل الأحوال ، وفي كل مكان ، وفي كل وقت[1] . وهو يوجد في النقيّة قلوبُهم وأجسادُهم وأفواهُهم .

٢ الإفراز هو ضميرٌ طاهر من دنس ، وحِسٌ[2] نقي .

٣ من هدم الثلاثة[3] بتقواه ، فقد اجتاح معها الخمسة[4] أيضاً . أمّا من ضجع في اجتياح الثلاثة ، فلن يقهر ألماً واحداً .

٤ إذا سمع أحدٌ أو رأى في السيرة الرهبانية أفعالاً تفوق الطبيعة ،

---

* هو التمييز بين الخير والشر ، وبين الخطأ والصواب ، بين الجيد والرديء بين المناسب وغير المناسب ؛ تمييز ما يبدو خيراً وهو شرّ ، وبالعكس (١) ل : وفي كل أمر د : وفي كل مناسبة (٢) الحِسّ هو الإدراك بالحواس

(٣) أوجاع أو آلام النَهم (الشره في الأكل) ،والرغبة في الاقتناء (اقتناء المال والأشياء عموماً) وتسمى بساطة " القنية " ، ومحبة المجد الباطل (أي المديح والتكريم والرئاسة) .

(٤) هي الشهوة الجنسية (وربما تسمى الشهوة فقط) ، والانقلاب للغضب ، والونْية ، والضجر (وهو قلة الصبر والثبات في عمل أو مكان ما . والرغبة في الترفيه والسرور والتنزه) . والكبرياء .

فليحذر أن يسقط من تلقاء نقص معرفته في عدم التصديق ؛ لأنـه أينمـا يحـلّ الله الفائق على الطبيعة ، تصير أكثرُ الأعمال فائقةً على الطبيعة .

٥ كل قتال شيطاني فينا منشأُه واحد من هذه الأسباب الثلاثة العامة : إمّا من وِنْيَتِنا[١] ، وإمّا من كبريائنا ، وإمّـا مـن حسـد الشياطين . فصاحب الحالة الأولى جدير بالرثاء ، والثاني شقي، أما الثالث فمغبوط .

٦ في كـل مـا نمارسه ينبغي أن نراعـي ضميرنـا بعـد الله هدفـاً لنـا ودستوراً، حتى إذا عرفنا من أيّة جهة توافينا الريح ، رفعنا مقابلها شراعنا .

٧ في كل أعمالنا التي نباشرها لإرضاء الله يحتفـر لنـا الشـياطين ثـلاث حُفَر . في الأولى يجاهدون أن يمنعونا تماماً عن إتيان عمل صـالح. في الثانيـة ــ بعد انهزامهم في الأولى ـ يحاولون ألاّ يُعمل طبقـاً لإرادة الله[٢] . فـإذا خـاب قصدهم هذا أيضاً ، وقفوا أمامنا بهدوء مطوِّبين إيانا على أننا نسلك بتقـوى الله في كـل شـيء . فعلينـا أن نتفـادى الهـوة الأولى بالغـيرة وذكـر المـوت ، ونتجنب السـقطة الثانيـة بالطاعـة وإذلال الـذات [٣] ، أمّـا في الحالـة الثالثـة فعلينا أن ندين ذواتنا بغير انقطاع . ولابد لنا من هذه المعاناة ، إلى أن تدخل نار الله مَقْدِسنا[٤] ، إذ لن يوجد فينا بعد ذلك اضطرار من عوائدنـا الرديئـة السالفة ، لأن إلهنا نارٌ آكلة [٥] وتفني كل حمـي (الشـهوة) ، وكـل حركـة الآلام ، وكل انحراف متأصِّل ، وكل عمى ، وكل ظلمـة باطنـة أو ظـاهرة ،

(١) الوِنْية : تشمل معاني الكسل ، واللامبالاة ، وربما اليأس أيضاً (٢) م : أن يُعمل ليس من أجل الله

(٣) ب : واستحقار هوانا ـ والمعنى المقصود هو جحد الذات ومشيئتها في أن تتمجّد بعملها ، مع قبول الاحتقار أو اللوم أو عدم الثناء على عملنا من الآخرين ، مع محاولة إخفاء العمل الصالح عن أعينهم إن أمكن

(٤) مزمور ٩٧ : ٣ـ ٥ (٥) عبرانيين ١٢ : ٢٣

مرئية أم غير مرئية .

٨ والشياطين عادةً ، يعملون فينا ضد ما قيل حالاً ، لأنهم إذا امتلكوا النفس ، وأطفأوا نور العقل فلن يكون بعدُ فينا نحن الأشقياء انضباط ، أو إفراز ، أو معرفة لأنفسنا ، أو استحياء . بل يحصل فينا زوال الاكتراث ، وفقد الحسّ ، وعدم الإفراز والعماية .

٩ يعلم ما قلناه حالاً علماً واضحاً ، الذين قهروا الشهوة[١] ، والذين انقبضوا عن الخُلطة ، والذين ضبطوا ألسنتهم وجنحوا من قلّة الحياء إلى الاحتشام ، كيف - بعد صحوة عقلهم وفقد زوال حسّه أو بالحري بعد شفائهم من عماهم - صاروا يستحون من ذواتهم لأجل ما قالوه قبلاً وعملوه أثناء عماهم .

١٠ إذا لم يعقب نهارَنا المساءُ وتُغَشِّي أنفسَنا الظلمةُ ، ما يأتي السارقون ويسرقون ويذبحون ويهلكون .

١١ السرقة هي فقد النعمة[٢] . السرقة هي أن يعمل أحدٌ ما ليس بجيِّد كما لو كان جيداً . السرقة هي سبيٌ للنفس دون أن تعرف . ذبح النفس هو موت العقل الفَطِن عقب السقوط في أعمال شنيعة . هلاك النفس هو إياسها الذي يعقب نقضَها شريعةَ إلهها .

١٢ لا يحتجَّ أحدٌ بضعفه عن تكميل وصايا الإنجيل ، إذ توجد نفوس قد عملت ما هو أكثر من الوصايا . يحقق ما قلناه تحقيقاً أكيداً ، ذاك الذي أحبّ قريبه أكثر من نفسه ، وبذل نفسه من أجله ، مع أنه لم يتسلّم من

---

(١) ل : + وصاروا أطهاراً

(٢) د : فقد الثروة

الرب وصية بذلك[1] .

١٣ فلتَطِبْ نفوس الذين أذلّتهم الأوجاع ، فإنهم حتى إن كانوا يسقطون في كل حفرة ، ممسوكين من سائر الفخاخ ، ومنسقمين بجميع الأسقام ، إلاّ أنهم بعد شفائهم سيصيرون للكل أطباء ، وكواكب ، ومصابيح ، ومدبرِّين ، عارفين بأعراض كلِّ الأمراض ، ومن خبرتهم الخاصة يستطيعون أن يمنعوا الآخرين من السقوط .

١٤ إن كان البعض ما تزال تغصبهم عاداتُهم الرديئة السالفة ، ويمكنهم أن يُعلّموا آخرين بالكلام فقط ، فليعلّموا - ولكن دون أن يترأسوا على غيرهم ؛ فلعلّهم يخجلون من أقوالهم نفسها فيبتدئون أخيراً في العمل بما يعظون به ، وحتى إذا لم يبدأوا في العمل ، إلاّ أنهم ربما يستطيعون أن يساعدوا غيرهم ، شأنهم شأن أناس رأيتهم متوحِّلين في الطين ، ولكونهم غائصين في الحمأة كانوا يخبرون المجتازين بهم كيف تورَّطوا هناك ، ويشرحون ذلك لهم بقصد تخليصهم ، كيلا يسقطوا بنفس الطريقة . ولأجل إنقاذ غيرهم ، أنقذَهم من حمأة الخطيئة ، القادرُ على كل شيء . أمّا إن كان السقماء بأوجاعهم يكردسون[2] ذواتهم إلى اللّذات طوعاً باختيارهم ، فليعلّموا بصمتهم ؛ فقد قيل عن الرب يسوع أنه ابتدأ يعمل ويُعلّم معاً [3]

١٥ أيها الرهبان المتواضعون ، لقد اعتزمنا أن نعبر لجّة خطرة ، محفوفة

---

(١) ل ، د : هو الأب ليون الراهب الكبادوكي الذي سلّم نفسه للبربر عوضاً عن ثلاثة إخوة آخرين ومات عنهم. وقد شرح سيرته يوحنا موسخوس في " المرعى الروحي " .

Le pré Spirituel, c.112;.sources Chrétiennes 12, P. 163-165

(٢) كَرْدَس : ساق سوْقاً عنيفاً

(٣) أعمال ١ : ١

بالمخـاطر حقـاً ، ممتلئـة رياحـاً ، وصخـوراً ودوّامـات ، وأعاصـير[١] ، وضحضاحـات[٢] ، وأمواجـاً مخيفـة ، ووحوشـاً ضخمـة ، وقراصنـة[٣]. فالصخرة[٤] بالنسبة للنفس هي الغضب الوحشي المفاجئ . الدوّامة هي صغر النفس الـذي يمسـك بـالعقل ويجتهـد أن يُهبطـه إلى قـاع الإيـاس[٥] . والضحضاح هو الجهالة التي تقبل ما هو رديء كأنه جيّد . الوحش هو هـذا الجسم الثقيل الضاري[٦] . القراصنة هم خدام المجـد البـاطل الذيـن خطرهـم أفدح من غـيرهم ، الذيـن يسرقون حمولتنـا ويختلسـون أجـر فضائلنـا الـذي اكتسبناه بالتعب . الموجة هـي البطـن المنتفـخ المثقّـل ، الـذي بواسـطة نهمـه يسلّمنا إلى الوحش[٧] . الإعصار هو الكبرياء الـتي تحذفنـا مـن السـماء الـتي تصعدنا إليها ـ ومنها تحدرنا إلى الأعماق[٨] .

١٦ معروفٌ لدى خـبراء التعليـم أيّـة تعـاليم تناسـب المبتدئـين ، وأيّـة معارفُ تعطَى للمتقدمين ، وما هي العلوم التي تناسب المعلّمين . فسـبيلنا أن نتدبّر بتعقل ألاّ يطول بنا زمان تعلّم حروف الهجاء التي تناسب المبتدئين ؛ إذ هو خزيٌ عظيمٌ أن يُرى شيخٌ متردِّداً على مدرسة الأطفال[٩].

---

(١) الإعصار زوبعة ترتفع بمياه البحر وتستدير كأنها عمود (٢) الضحضاح موقع ضحل المياه أي غير عميق.

(٣) القراصنة هم اللصوص البحريون الذين يسطون على السفن ومن فيها .

(٤) المقصود هنا الصخرة المختفية تحت سطح الماء التي تداهم السفينة فتصيبها بكسر أو ثقب

(٥) أي اليأس (٦) الضاري أي المتوحّش (٧) أي إلى شهوات الجسد القاسي

(٨) مزمور ١٠٧ . ٢٦ (٩) راجع عبرانيين ٥ : ١٢ ـ ١٤

١٧ هذه ألفباء ، هجاء فاضل نافع للكل :

(ⲁ) طاعة (B) صوم (ⲅ) ارتداء المسوح
(ⲇ) رماد (ⲉ) دموع (ⲍ) اعتراف
(H) سكوت (θ) اتضاع (I) سهر
(K) شجاعة (ⲗ) بَرْد (ⲙ) تعب
(ⲛ) عمل شاق (ⲝ) إزدراء (O) إنسحاق
(ⲡ) نسيان أخطاء الغير (P) محبة أخوية (C) وداعة
(ⲧ) إيمان بسيط خالٍ من الارتياب (ⲩ) انعتاق من الهموم الدنيوية
(ⲫ) مقت للأهل خالٍ من المقت
(ⲭ) زهد (ⲯ) بساطة بريئة من الشر (ⲱ) تذلُّل طوعي

١٨ هذا برنامج جيّد للمتقدمين ، ومادة لاختبار تقدّمهم وامتحان نجاحهم : غياب المجد الباطل[١] ، انعتاق من الغضب، رجاء ثابت ، سكون ، إفراز ، تذكّر متواصل للدينونة ، تعاطف[٢] ، حسن الضيافة ، اعتدال في التأنيب ، صلاة بريئة من الانسقام ، عدم اكتراث بالمال .

١٩ وهذا نموذج وقاعدة وقانون ، للذين وهم في الجسد يهدفون بتقواهم نحو الكمال في الروح والجسد :

(ⲁ) قلب لا يُسبَى (B) حبّ تامّ (ⲅ) ينبوع تواضع

---

(١) ب . العُجب

(٢) هذه اللفظة أكثر منها دقّة compassion أو sympathy ، وهي التي تفهم من الآية " فرحاً مع الفرحين وبكاءً مع الباكين " (رومية ١٢ : ١٥) والآية : " اذكروا المقيّدين كأنكم مقيّدون معهم ، والمذلّين كأنكم كذلك في الجسد " . (عبرانين ١٣ : ٣) .

(Δ) هجرة العقل[1] (є) حلول المسيح (ζ) دوام نور الصلاة
(H) وفرة الاستنارة الإلهية (θ) تشوّق إلى الموت (I) مقـت الحيـاة
(K) فرار من الجسد (λ) تشفّع في العالم (U) اغتصـاب لله
(M) مشاركة في الخدمة مع الملائكـة (z) لجّة معرفـة (O) مخزن الموحَيات[2]
(Π) حافظ الأسرار التي لا يُنطق بها (P) مخلّص للناس
(C) إله على الشياطين (T) سيّد على الآلام (Y) رئيس علـى الجسد (Φ) ضابط لطبيعته (X) هروب الخطيئة[3] (Ψ) مسكن انعدام الأسقام (W) مشابه للرب بمعونة الرب .

٢٠ إذا مرض الجسد فحاجتنا إلى الانتباه ليست بيسيرة . ذلك أن الشياطين إذا أبصرونا طريحين على الأرض غير قادرين مؤقّتاً على مكابدة الصراع ضدهم[4] من تلقاء ضعفنا ، يحاولون في ظروفٍ كهذه ، أن يهاجمونا بقسوة . فشيطان الغضب يحوم حول العائشين في العالم إبّان[5] مرضهم ، وأحياناً شيطان التجديف . أمّا الذين يعيشون خارج العالم ، فإن كانت حوائجهم متوفرة ، فيهاجمهم في مرضهم شيطان النَهَم وشيطان الزنا . أمّا إذا كانوا مقيمين في أماكن النسك الخائبة من كل تعزية جسدية[6] ، فيصاحبهم على الدوام مارد الضجر وعدم الشكر .

٢١ تأمّلت ذئب الزنا يزيد المرضى توجّعاً ، ويحدث فيهم أثناء

(١) م : عقل مرتفع إلى الله ، وهذا التعبير يشرح معنى الهجرة (٢) أي المعارف أو الأسرار التي يوحي بها الله
(٣) ل : طرد للخطيئة (٤) ب: + بواسطة النسك (٥) إبّان : أثناء
(٦) ل ، د : – جسدية

أوجاعهم الراهنة حركات جسدية واستمناءات[1] . فكان عجيباً أن يُرى الجسم في حال شدة توجّعه ثائراً متحرّقاً بالشهوة .

وتصفّحت فرأيت كذلك سقماء طُرحاء على فراشهم ، قد عزّاهم في ذينك[2] الوقت والمكان فعلٌ إلهي أو شعور تخشّع، فدفعوا أوجاعهم بعزائهم، وبلغوا مزاجاً كهذا ، حتى أنهم ما آثروا أن يخلصوا من مرضهم أبداً[3] . وعُدتُ فعاينت أيضاً سقيمين قد كابدوا آلاماً مبرحة ، فتطهّروا بمرضهم من أوجاع نفسهم ؛ فكان المرض بالنسبة لهم نوعاً من عقوبة ؛ فمجّدت ذاك الذي نقىَّ الطين بالطين[4] .

٢٢ إن العقل الروحي يشتمل على الدوام حسّاً روحياً[5] . فإذا كان فينا هذا الإدراك أو لم يكن ، فينبغي علينا ألاّ نكفَّ عن طلبه . وحالما يظهر فينا ، للوقت تتوقّف الحواس الظاهرة عن نشاطها الطبيعي ؛ وإذ عرف ذلك أحد الحكماء قال : " حينذاك ستنال حسّاً إلهياً "[6] .

٢٣ إن السيرة الرهبانية ينبغي أن تُعاش بإحساس قلبي عميق ، يستحثُّ الأعمال والأقوال والأفكار والحركات ، وإلاّ فلن تكون هناك حياة رهبانية ، حتى لا أقول حياةٌ ملائكية .

٢٤ إن العناية الإلهية شيء ، والمعونة الإلهية شيء آخر ، والحماية الإلهية شيء ، والرحمة الإلهية شيء آخر ، والتعزية الإلهية شيء آخر . أمّا

(١) د : أدناس (٢) ذانك : اسم اشارة مثنّى من ذلك (٣) مثل القديس أسحق قسيس القلالي (أنظر سنكسار ١٩ بشنس) (٤) أي نقّى الطبيعة الجسدية، بالأمراض الجسدية

(٥) أو فهماً أو تمييزاً أو إفرازاً روحيّاً، أو بصيرة ـ أنظر (فيليبي ١ : ٩) .

(٦) ل : حِسّ الإلهيات (أي الإحساس بالأمور اللإلهية ، أي إدراكها)

العناية فظاهرة في جميع الخليقة؛ المعونة الإلهية عند الذين لهم الإيمان وحدهم ؛ الحماية مكفولة للمؤمنين الذين عندهم إيمان فعّال[1] ؛ رحمة الله واضحة في الذين يخدمونه ؛ أمّا عزاؤه فللذين يحبّونه .

٢٥ ربما يكون دواء أحد الناس سمّاً لغيره ؛ وأحياناً يكون شيءٌ ما لإنسان في وقت ملائم دواءً ، بينما يكون نفس الشيء لنفس الإنسان في وقت غير ملائم سُمّاً .

٢٦ رأيت طبيباً غيرَ حاذق قد شتم مريضاً مسحوقاً ، فما سبَّب له إلاّ إياساً . ورأيت طبيباً ذكياً قد بطّ[2] بمبضع[3] الهوان قلباً متعجرفاً وارماً ، فاستفرغ منه كل الصديد النتِن .

٢٧ رأيت مريضاً واحداً بعينه شارباً في وقتٍ دواء الطاعة ، وظلَّ يتحرك ويمشي ولا ينام ، بقصد أن يتنقى من وسخه ؛ فلما مرضَتْ في وقت من الأوقات عينُ نفسه ، لبث ساكناً بلا حراك صامتاً[4] . فمن له أذنان للسمع فليسمع .

٢٨ هناك أناس ــ ولست أدري لماذا ، لأنني ما تعلّمتُ أن أفحص مواهب الله بكبرياء وأتصفّحها ـ يجنحون بنوعٍ ما جنوحاً طبيعياً إلى ضبط أنفسهم، أو إلى الطهارة ، أو إلى السكون، أو إلى التحفّظ ، أو إلى الوداعة ،

(١) ل : الذين عندهم حقّاً إيمان (٢) بطّ الجرحَ : شقّه (٣) المبضع : آلة يُشق بها الجلد وما شاكله

(٤) ب : + يمتنع أن يخاطب طبيباً . والمقصود بهذه الفقرة أن المريض البصير يشعر بحاجته إلى طبيب ، فيطلبه ويطيعه ويشفى . أمّا إذا فقد المريض قوة البصيرة ، فقد معها إدراك إحتياجه إلى طبيب ، فتمكّنَ منه المرض حتى فقد بصيرته تماماً .

أو إلى الخشوع . بينما يوجد غير هؤلاء مَن تعاندهم طبيعتهم ذاتها في التجمّل بهذه الفضائل ، ويقتسرون ذواتهم بكل طاقتهم في ممارستها ؛ ومع أنهم بين الحين والحين ينغلبون ، إلاّ أنهم لنضالهم ضد طبيعتهم أرفع منزلة ـ بحسب رأيي ـ من أولئك الأولين .

٢٩ لا تتعظّم أيها الإنسان بثروة نلتها خلواً من تعب ، فإن الوهّاب إذا سبق فعرف مقدار جرحك وضعفك وهلاكك ، جاد عليك بمواهبه التي لا تعوَّض ، على الأقل لكي يخلّصك ـ إلى حدٍّ ما[1] ـ بواسطتها .

٣٠ إن التعليم في الطفولة ، والتربية ، ونوع الدراسات ، إمّا أن تساعدنا ـ عندما نبلغ حدّ القامة ـ وإمّا أن تعوقنا عن الفضيلة وعن سلوك السيرة الرهبانية .

٣١ الملائكة هم نورٌ للرهبان ، والسيرة الرهبانية نورٌ لجميع الناس . فسبيلكم أيها الرهبان أن تجاهدوا أن تصيروا رسماً نافعاً في كل شيء ، وألاّ تعطوا أحداً بشي من أعمالكم أو أقوالكم فرصة للعثرة[2] . لأن النور إذا صار ظلاماً ، فالظلام ــ أعني الذين يعيشون في العالم ــ كم يصبح أكثر إظلاماً[3] .

٣٢ فإن أصغيتم إليّ أيها الراغبون في ذلك ، فجيّدٌ لنا ألاّ نتقلّب ولا نجزّيء نفسنا الشقية لنقاتل ألوفَ ألوفٍ وربواتِ ربواتٍ من الأعداء ، إذ ليست فينا كفاية لأن نفهم أو نكتشف كثرة تنوّعهم .

(١) لأن المواهب بحد ذاتها لا تخلّص ما لم يستثمرها الإنسان لمجد الله ، وخلاص النفوس ، والإحسان إلى الناس ، شريطة ألاّ ينسبها إلى نفسه أو يتعظّم بسببها (٢) أنظر كورنثوس الثانية ٦ : ٣ (٣) أنظر متى ٦ : ٢٣

بل بمعونة الثالوث الأقدس نتذرّع بثلاثةٍ سلاحاً ضد ثلاثة[1] ؛ وإلاّ فسنسبّب لأنفسنا أتعاباً كثيرة .

٣٣ إن سكن حقاً فينا ذاك الذي حوّلَ البحر إلى أرض يابسة[2] ، فإن اسرائيلنا ، أعني عقلنا ـ حال رؤيتِهِ إلهنا ـ سيعبر بالتأكيد هذا البحر في مأمنٍ من الأمواج ، وسيعاين المصريين غارقين في مياه الدموع . أما إذا لم يجعل ذاك مسكنه فينا[3] ، فمن يحتمل هدير أمواج هذا البحر ـ أعني جسدنا ؟

٣٤ إن يَقُم الله ـ من جراء نشاطنا ـ فينا ، فسوف يتبدّد أعداؤه ؛ وإذا اقتربنا إليه بالتأمّل ، فسوف يهرب مبغضوه من قدام وجهه ووَجْهنا[4] .

٣٥ سبيلنا أن نجتهد في تعلُّم الحق الإلهي[5] بالتَعَب والعرق ، أكثر مما بالكلام الساذج، لأننا في ساعة رحيلنا ملزَمون أن نظهر أعمالنا لا أقوالنا.

٣٦ الذين يسمعون بكنز مخبوء في مكان ما يبحثون عنه . وبسبب الأتعاب الكثيرة التي قاسوها حتى وجدوه ، لا يدّخرون جهداً لكي يحفظوه. أمّا الذي استغنوا خلواً من تعب ، فسريعاً ما يبدِّدون ما اقتنوه .

٣٧ عسيرٌ أن تُقهر العادات الرديئة السالفة ؛ أما الذين لا يَكُفُّون عن أن يضيفوا إليها عاداتٍ جديدة ، فإمّا أنهم قد سقطوا في الإياس ، أو أنهم ما انتفعوا من ترهّبهم وطاعتهم[6] . لكنني أعلم أن كل شيء مستطاع لدى الله ، وليس شيء غير ممكن لديه .

---

(١) أي نتسلّح بالزهد (أو الفقر) ، والعفّة (أو الطهارة) والاتضاع (أو الطاعة) ، ضد محبّة الفضة واللذّات الجسدية والكبرياء ، م : + وهي الثلاثة التي جرّب بها الشيطان ربنا يسوع .

(٢) مزمور ٦٦ : ٦

(٣) يوحنا ١٤ : ٢٣

(٤) مزمور ٦٨ : ١ ، مر ٤ : ٣٨ ـ ٤١

(٥) د : الأمور الإلهية

(٦) ل ، د : إمّا أن يسقطوا في اليأس ، وإمّا أنهم لا ينتفعون من الطاعة

٣٨ سألني أناسٌ سؤالاً عسيراً يفوق قدرة من كان مثلي ، كما أنه لم يصادفني في كتاب من الكتب التي وصلت إليّ ؛ قائلين من هم الأبناء الخصوصيون للأفكار الثمانية المميتة ؟ وأي وجع من الأوجاع الثلاثة الرئيسية يلد الأوجاع الخمسة الأخرى ؟ فإذ أوردت أنا أمام هذه الصعوبة جهلاً ممدوحاً ، تعلّمت من أولئك الرجال القديسين أن نهم البطن والد الزنا، والمجد الباطل والد الضجر ، والغمّ والغضب ولدان لهذه الثلاثة[1] . كما أن المجد الباطل والد الكبرياء .

٣٩ جواباً على هذا البيان ، تضرّعتُ أنا إلى أولئك الآباء الدائم ذكرهم لكي يخبروني بأولاد الأوجاع الثمانية ، وأيٌ يتولد من غيره فعلّمني بسرور أولئك الأبرياء من الأسقام ، قائلين : " إن الأوجاع البهيمية ليس فيها ترتيب أو منطق ، بل على النقيض كل تشويش وعدم نظام " . وقد حقّق لي أولئك المغبوطون قولهم هذا بأمثلة مقنعة وبراهين كثيرة ، نقتبس بعضاً منها في هذا المقال ، لنستضيء بها في الحكم على باقيها : -

٤٠ فعلى سبيل المثال إن الضحك في غير مناسبة يتولد أحياناً من الشهوة[2] ، وأحياناً من العُجب الباطل ، إذا أُعجب الانسان بنفسه في الداخل بغير سبب[3] ؛ كما يتولّد أحياناً من عيشة التنعّم .

٤١ يتولّد النوم الكثير حيناً من التنعّم ، وحيناً من الصوم الكثير إذا

---

(١) أي أن الغم والغضب ولدان للأوجاع الثلاثة الرئيسية ، وهي شهوة الجسد - ومحبّة الفضة - والتعظّم .

(٢) ب : من الزنا (٣) ب ؛ د : إذا مجّد الإنسان نفسه على غير الواجب - ل : إذا تظاهر أحد بالتقوى خلافاً لحقيقة حاله وواضح هنا أن " ل " لم يتقيد بالترجمة الحرفية ، بل أورد تفسيراً للنص بقصد شرحه .

تاه الصائمون عُجباً بصومهم، وحيناً من الضجر، وأحياناً يكون مِن الطبيعة.

٤٢ يتولّد إكثار الكلام أحياناً من النَهَم[١]، وأحياناً من المجد الباطل[٢].

٤٣ يتولّد الضجر أحياناً من التنعّم ، وأحياناً من فقْدِ مخافة ا لله .

٤٤ ينتج التجديف بصفة خاصة من الكبرياء ، لكنه يتأتّى غالباً من إدانة القريب على نفس الشيء[٣] ، أو من حسدٍ من الشياطين في غير محلّه .

٤٥ قساوة القلب تكون حيناً من الشبع ، ومن زوال الحسّ ، ومن التعلُّق بأشياء الدنيا . والولوعُ بالأشياء ربما يتأتّى من الشهوة[٤] ، أو من حب الفضة ، أو من النَهَم ، أو من المجد الباطل ، أو من أسباب أخرى كثيرة .

٤٦ يتأتى الخبث[٥] من العُجب[٦] ومن الغضب .

٤٧ الرياء يتولّد من إرضاء الذات ومن اتّباع الهوى .

٤٨ الفضائل المضادّة لهذه الرذائل ، تتولّد مما يضاد والدِيها . ولكيلا يطول بنا المقال - لأنه يعوزني الوقت إن شئت أن أفحص واحدةً فواحدةً منها - أقول فقط إن قَتول[٧] الآلام التي سبق ذكرها كلها ، هو تواضع اللُبّ ؛ فالذين قد اقتنوا التواضع قد قهروا هذه كلها .

٤٩ والدة الشرور كلها اللذّة والخبث ؛ ومن يحملهما في نفسه لن

---

(١) أي نهم البطن ، أو الشراهة (٢) ب : العُجب (٣) أي إدانته على أنه متكبّر

(٤) ب : شهوة الزنا (٥) الكلمة تشمل معنى الحقد والمكر وتعمّد الأذى (Malice) .

(٦) ب ، د : الكبرياء (٧) القتول ؛ القاتول : هو القتّال

يعاين الرب . الإمساك عن اللذّة لن ينفع شيئاً دون إمساك عن الخبث .

٥٠ دعنا نتّخذ من الخوف الذي نستشعره في حضرة الرؤساء والوحوش مثالاً لخوفنا من الرب ، وليكن لك الحب الجسداني نموذجاً ومثالاً للتشوّق إلى الله. لأنه ليس ما يمنعنا من أن نتّخذ أمثلة للفضائل مما يضادّها .

٥١ فسد جيلنا الحاضر فساداً خطيراً ، وامتلأ تعظّماً ورياء ، فبالنسبة للأتعاب الجسمانية ـ لعله يبلغ نظير آبائنا القدماء ، إلاّ أنه لن يؤهّل لمواهبهم الروحية . وأظن أن طبيعتنا ما احتاجت في وقتٍ من الأوقات مواهب كاحتياجها الآن إليها ؛ لكن ما أصابنا قد أصابنا باستحقاق ، لأن إلهنا لا يظهر في الأتعاب لكنه إنما يظهر في البساطة والاتضاع . وإن تكن قوة الرب في الضعف تكمل ، فما من شك أن ربنا لن يخيِّب عَمّالاً متواضعاً .

٥٢ متى رأينا واحداً من المجاهدين في المسيح مضنوكاً بوجع جسمه سقيماً ، فلا نبحثَنْ بدافع من الخبث لنعرف علّة دائه ، بل الأولى بنا أن نقتبله بالحبّ الصادق البسيط ، محاولين أن نريحه كما لو كان عضواً من ذات جسمنا ، وكجندي رفيق جُرِح في القتال .

٥٣ هناك مرض يصيبنا لأجل تطهيرنا من خطايانا ، وهناك مرض يصيبنا لأجل توضيع لُبّنا .

٥٤ إن ربَّنا الصالح الرحيم ، إذ يعاين قوماً منا متكاسلين في النسك، غالباً ما يذلّل أجسادهم بالمرض ـ كأنه بنسك أرفق في ممارسته . كذلك أحياناً ما ينظّف المرضَ النفسُ من أفكارها الخبيثة وأدوائها .

٥٥ إن كل ما يحدث لنا من العوارض المرئية أو غير المرئية ، يمكن أن نستقبله إستقبالاً حسناً ، أو أليماً ، أو استقبالاً متوسطاً . رأيت ثلاثة إخوة قد كابدوا خسارة ، فاغتاظ أحدهم ، والثاني كظم غَمَّه ، أمّا الثالث فاجتني فرحاً كثيراً .

٥٦ رأيت فلاّحين قد نثروا على الأرض نفس البذار ، إلاّ أن لكل منهم غرضاً خاصاً من الزرع ، فواحد كان يهدف إلى تسديد ديونه ، وغيره قصد أن يدّخر ثروة ، وآخر أراد أن يُكرم سيِّده بهداياه ، وغيره اعتزم أن يتصيّد بحسن عمله مديحاً من المجتازين به في طريق هذه الحياة ؛ وآخر رغب أن يغمّ عدوه الذي كان يحسده ، وآخر أراد أن يتلافى تبكيتاً من الناس على كسل .

وهذه أسماء البذار التي بذرها الفلاحون في الأرض : أصوام ، أسهار ، صدقات خدمات[1] ... وأمثالها . فينبغي على إخوتنا في الرب أن يتفحّصوا مقاصدهم بأبلغ الحرص .

٥٧ كما أننا إذا استقينا من الينبوع ماء ، ربما نجلب معه دون أن نلحظ ضفدعة ؛ كذلك عندما نمارس الفضائل نسعى غالباً لإرضاء الرذائل المشتبكة بها اشتباكاً دقيقاً غير مدرَك . أمّا ما أقصده ، فهو أن النهم مشتبك بحسن الضيافة ، وشهوة الزنا تشتبك بالحب ؛ الدهاء والمكر يتآلفان مع الإفراز ؛ الخبث يقترن بالفطنة ، الوداعة يشتبك بها النفاق والمماطلة والكسل والمجاوبة وإقامة الهوى والعصيان. الصمت يأتلف مع احتقار التعلّم،

(١) م : + صلاة

الفرح مشتبك بالعُجب ، الرجاء يضافره الكسل ، الحبّ (مرة أخرى) يتشابك به الحكم الجَسور ، الضجر والكسل مع سكون الوحدة ، الفظاظة مع الطهارة ، الدالة مع التواضع ؛ ويلتصق بجميع هذه [الفضائل] لَزوق[1] عام ، أو بالحري سمٌ ، هو المجد الباطل .

٥٨ لا ينبغي أن نغتمَّ إذا استمحنا ربنا مطلباً ما ولبثنا مدة من الزمان دون أن يستجيب لنا ، فإن مسرة ربنا لو يصير كل الناس في لحظة من الزمان عادمين التألّم ، إلاّ أنه سبق فرأى أن ذلك لن يكون في صالحنا .

٥٩ جميع الذين يستميحون الله مطالب ولاينالونها ، فواضح أنهم يُرفضون لأجل واحدة من هذه العلل ، إمّا لأنهم يطلبون مطلباً قبل أوانه ، وإمّا لأنهم يسألون ما لا يستأهلون ، أو لأنهم يسألون بعُجب ، أو لأنهم إذا نالوا مطلبهم عتيدون أن يتبذخوا ، أو لأنهم بعد امتلاكهم المطلوب سيجنحون إلى الونيّة والتقصير .

٦٠ أظن أنه لا أحد يرتاب في أن الشياطين والأوجاع تنصرف عن النفس انصرافاً مؤقتاً أو كلّياً ، إلاّ أن قليلين ؛ قليلين هم الذين يعرفون أسباب انصرافهم عنا .

٦١ قد تنصرف الأوجاع لا عن أناسٍ مؤمنين فحسب ، بل أيضاً عن قومٍ من غير المؤمنين . إلاّ أن واحداً يتركونه وحده باعتباره أخبث الشرور كلها ، وهو وحده يملأ موضعها جميعها . كما أنه يُلحق مضرةً هذا مقدارها ، حتى أنه يستطيع أن يُحدر من السماء .

---

(١) اللزوق : دواء للجرح يلتصق به حتى يبرأ . ومنه ما تسميه العامة " لزقة " .

٦٢ مادة الأسقام تفنيها النار الإلهية . وحالما تتطهّر النفس بإبادة هذه المادة ، فإن الأوجاع جميعها تهرب ؛ ما لم يجتذبها الإنسان نفسه بالعادات العالمية والتراخي[1] .

٦٣ كثيراً ما ينصرف الشياطين عنا طوعاً لكي يفضوا بنا إلى التهامل ، ثم ينقضّون على غفلة منا مغتالين نفسنا البائسة .

٦٤ أعرِف أيضاً أسلوباً آخر من أساليب أولئك الوحوش ، إذ أنهم يتركون النفس إلى أن تعتاد الرذائل وتتمكّن منها الآلام تمكّناً تصبح عنده عدواً لنفسها ومغتالةً لذاتها . مثال ما قلناه هم الأطفال ، إذ أنهم عند فطامهم ـ بعد اعتيادهم الارتضاع مدة طويلة ـ يرضعون خلواً من ثدي أصابعهم .

٦٥ أعرف كذلك نوعاً خامسا من أنواع زوال آلام النفس يتأتّى من بساطة كثيرة وبراءة ممدوحة . إذ بالعدل يأتي الله لمعونة هؤلاء ، لأنه «مخلّص مستقيمي القلوب»[2] ، إذ أنه يعتقهم من جميع الرذائل دون أن يدركوا، شأنهم شأن الأطفال ، إذ حين يعرَّون من ملابسهم ، لا يفطنون بذلك .

٦٦ ليس في طبيعتنا رذيلة غريزية أو وجع؛ لأن الله ليس خالقَ الآلام، بل قد تكوّنت منه فينا فضائل طبيعية كثيرة ، من بينها هذه الفضائل الظاهرة بأوضح بيان :

الرحمة : لأنه حتى الوثنيون أنفسهم عندهم التحنّن والرثاء .

---

(١) ب : ـ ما لم

(٢) مزمور ٧ : ١٠

الحب : لأنه حتى الحيوانات العجماوات[1] ، غالباً ما تُدمع عند فقد بعضها البعض

الإيمان : لأننا كلنا ننتجه من أنفسنا .

الرجاء : إذ أننا نُقرض ، ونبيع ، ونركب البحر ، ونزرع ، مرتجين أن نربح الأكثر .

فإن يكن الحبّ ـ كما قد تبيَّن ـ فضيلةً فينا طبيعية ، وهو رباط الشريعة[2] وتكميلها[3] ، فالفضائل إذن ليست بعيدةً عن طبيعتنا ؛ فليخزَ الذين يحتجّون بعدم اقتدارهم على افتعالها[4] .

٦٧ ما يفوق الطبيعة هو الطهارة ، غياب الغضب ، تواضع اللُبّ ، الصلاة ، السهر ، الصوم ، الخشوع الدائم . وهذه نتعلّم بعضها من الناس ، وبعضها من الملائكة؛ أمّا البعض الآخر ، فالإله الكلمة نفسه هو معلّمها ومعطيها .

٦٨ في مواجهتنا للشرور ، ينبغي أن نختار أقلّها . فمثلاً ، كثيراً ما يحدث ـ حين نكون واقفين في الصلاة ـ أن يأتينا إخوة . عندئذ لابد لنا من إتيان أحد فعلين : إمّا أن نترك صلاتنا ، وإمّا أن نغمّ الأخ بردِّه خائباً من جواب . الحب أعظم قدراً من الصلاة ؛ لأن الصلاة وصية خاصة ، أمّا الحبّ فهو حاصرٌ لكل الوصايا .

٦٩ حدث مرةً منذ زمان ، حين كنتُ بعد شاباً ، أن جئتُ إلى مدينة

(١) أي غير الناطقة

(٢) أنظر أفسس ٤ : ٣ ، كولوسي ٣ : ١٤

(٣) أنظر رومية ١٣ : ١٠

(٤) أي على افتعال (فعل) الفضائل

أو قرية وعند جلوسي إلى المائدة ، داهمتني أفكار النهمّ وأفكار المجد الباطل في وقت واحد . فخشيت ولدَ نهم البطن[1] ، وفضلت الإنغلاب للمجد الباطل [فقط] ، لأنني كنت أعلم أن شيطان النهم أقوى سلطاناً — لاسيما عند الشباب ـ من شيطان المجد الباطل ، وذلك ليس بمستغرب ، لأن قرمة[2] الشرور عند الذين في العالم هي محبة المال ، أمّا عند الرهبان فَنَهَمُ البطن .

٧٠ غالباً ما يوجد في الناس الروحانيين فرادى من الآلام تافهةً هزيلة قد تركها الله فيهم ؛ على جهة السياسة ، لكي بعيوب ضئيلة مغتَفَرة يذمّون ذواتهم ويلومونها بقسوة ، فيقتنون ثروة لا تُسلَب من تواضع اللُب .

٧١ يستحيل على الذين لم يعيشوا أولاً تحت نير الطاعة ، أن يقتنوا تواضعاً ، إذ أن كل من يتعلّم صناعة من ذاته دون إرشاد ، من شأنه أن ينخدع .

٧٢ حدّد آباؤنا حياة العمّالين ، أنها تتوقف على فضيلتين من أعمّ الفضائل ، هما الصوم والطاعة . وهذا حقٌ لأن الفضيلة الأولى تهدم الشهوة واللذّة ، والأخرى تضاعف هذا الهدم بتواضع اللب . ولهذا ، فإن للنوح تأثير مزدوج ، لأنه هادم للخطية ، ووالدٌ للتواضع .

٧٣ الأتقياء يعطون كلَّ من يسألهم ؛ والذين هم أكثر تقوى يعطون حتى الذي لا يسألهم ؛ أمّا مَنْ لا يُطالب الذي أخذ بما قد أخذه منه — سيما إن كان ذلك ممكناً، فلعلّ هذه خاصية الذين بلغوا عدم التألّم، دون غيرهم .

---

(١) أي شهوة النجاسة

(٢) القرمة هي أصل الشجرة بعد قطعه

٧٤ بإزاء كل ألم من الآلام ، أو فضيلة من الفضائل ، ينبغي ألاّ نكفّ عن تصفّح ذواتنا : أين صرنا ؟ هل ما زلنا في البداية، أم نحن في المنتصف ، أم قد بلغنا النهاية ؟

٧٥ إن كافة القتالات التي نقاسيها من الشياطين ، إنّما تتأتّى من هذه العلل الثلاث : حبّ اللذّة ، الكبرياء ، حسد الشياطين . فذوو العلّة الإخيرة هم المحاربون المغبوطون ، والثانون جديرون بالرثاء ، أمّا الأولون فإلى الأبد بلا ثمر .

٧٦ يوجد حِسّ ما ـ أو بالحري مَلَكَة تُسمّى " احتمال المشقّة[1] ؛ ومن يقتنيها لن يخشى في وقت من الأوقات تعباً أو ضيقةً أو ألماً ،ولن يرتدّ عن مواجهة شدّة ؛ بهذه النعمة الجيدة تأيّدت نفوس الشهداء ، فازدروا بالعذابات ولم يحتسبوها شيئاً[2] .

٧٧ مراقبة الأفكار شيء ، وحفظ العقل شيءٌ آخر ؛ وكبعد المشرق عن المغرب ، هكذا يرتفع الثاني فوق الأولى ـ حتى وإن كان أوفر تعباً .

٧٨ الابتهال للخلاص من الأفكار شيء ، ومجاوبتها بالكلام شيء آخر ، واحتقارها وإهمالها[3] شيء آخر. فعن الأسلوب الأول يشهد القائل : " يا إلهي أسرِعْ إلى معونتي "[4] ، وعن الثاني : " فأجاوب الذين يعيّرونني بكلمة "[5] ، وأيضاً : " وضعتنا لمناقضة[6] جيراننا " وشاهد المنهج الثالث هو الذي ترنّم قائلاً : " صَمَتُّ لم أفتح فمي[7] ، وجعلت لفمي

(١) د : قوة النفس (٢) انظر اعمال الرسل ٢٠ : ٢٤ (٣) د : والاستعلاء عليها

(٤) مزمور ٧٠ : ١ (٥) مزمور ١١٩ : ٤٢ حسب السبعينية

(٦) مناقضة شفوية ἀντιλογία مزمور ٧٩ : ٤ حسب السبعينية (٧) مزمور ٣٩ : ٩

كمامة في انتصاب الخاطئ مقابلي[1] وأيضاً " إن المستكبرين انحرفوا عن شريعتك إلى الغاية ، أمّا أنا فما مِلتُ عن النظر إليك "[2] . فالواقف على الدرجة الوسطى من هذه الثلاث ، يَفيد من استعمال الوسيلة الأولى عندما يؤخذ بالغفلة[3] ؛ أمّا الواقف على الدرجة الأولى[4] ، فما بلغ بعد موقعاً ليدفع عنه الأعداء بالوسيلة الثانية ؛ أمّا الذي بلغ الدرجة الثالثة[5] ، فقد وطأ الشياطين كلهم ازدراءً بهم .

٧٩ يستحيل طبيعياً أن يحبس جسمٌ روحاً لا جسم له ، لكن كل شيء مستطاع لمن اقتنى الله .

٨٠ كما أن الذين عندهم حاسّة الشمّ صحيحة يمكنهم أن يكتشفوا ذاك الذي أخفى الطِيب في ملابسه ، كذلك النفس النقيّة تستطيع أن تتعرّف في الآخرين على الطِيب الذي اقتنته هي أيضاً في ذاتها من الله ، أو على النتانة التي تخلّصت منها ، مع أن هذا الأمر لا يُدركه الآخرون .

٨١ لا يمكن ان يصير الجميع أحراراً من الأوجاع ، لكن يمكن للجميع أن يخلصوا ويتصالحوا مع الله .

٨٢ حذارِ أن يسود عليك الغرباء ، أعني أفكار الفضول التي تدفعك إلى البحث في أحكام العناية الإلهية التي لا يُنطق بها ، والاستقصاء عن الرؤى التي يراها الناس ، تلك الأفكار التي تهجس خفيةً أن عند الله محاباة، لأن هذه الأفكار بنات التعظّم ، وبها يُعرَف .

٨٣ غالباً ما يتظاهر شيطان محبة الفضة بالتواضع . كذلك فإن شيطان

---

(١) مزمور ٣٩ : ١ (٢) مزمور ١١٩ : ٤٢ حسب الترجمة السبعينية

(٣) أي يستغيث طالبا معونة الله ، إذا دهمته الأفكار فجأة لشرود ذهنه عن الصلاة .

(٤) الذي لا يدعو الله إلاّ عندما تناصبه أفكار الشر (٥) الذي يإتقان الصمت استدام الصلاة .

المجد الباطل وشيطان الشهوة يحثّان على الرحمة ، فإذا تنقّينا من ثلاثتهم ، فلا نبخلن عن فعل الرحمة أينما كنا .

٨٤ قال قومٌ إن الشياطين قد تتصدّى للشياطين ، لكنني أعرف أن جميعهم يسعون لهلاكنا .

٨٥ تسبق نيّتنا وإرادتنا مع معونة الله لنا ، كل عمل روحي منظور أو معقول[1] . فما لم تمهّد النيّة والإرادة الطريق إلى العمل ، فليس من شأن معونة الله أن تتبعهما[2] .

---

(١) د : خارجي أو داخلي

(٢) يُعتبر هذا المبدأ الروحي في قمة الأهمية من جهة علاقتنا العملية بالله في اللاهوت الروحي أو اللاهوت النسكي ؛ هذه العلاقة التي تحدد مدى مسؤوليتنا عن إتيان العمل ومدى تدخل الله فيه ومؤازرتنا فيه . فلكي يتم العمل الروحي ، أو العمل الصالح، يلزم أن يتحد الدور الإلهي وهو " النعمة " بالدور البشري وهو " الجهاد " ؛ هذا الاتحاد نراه واضحاً على مدى العهدين القديم والجديد وفي حياة رجال الله القديسين . وإن تجاهل الكثيرين لهذا المبدأ وتكاسلهم عن الركض والانضباط في كل شيء (كورنثوس الأولى ٩ : ٢٤ - ٢٧) ، والسعي نحو الغرض (فيلبي ٣ : ١٠ - ١٦) والمحاضرة بالصبر في الجهاد الموضوع أمامهم (عبرانيين ١٢ : ١ - ٤) ، والتعفف واحتمال المشقات (تيموثاوس الثانية ١ : ٦ ، ٢ : ٣ - ١٢) ، بسبب نزوع الإنسان إلى اللذة - أو على الأقل - الراحة الوقتية ، صار هذا سبباً لارتدادهم الظاهر أو المستتر عن الله ، ولإظلام قلبهم وذهنهم بعد استنارتهم (عبرانيين ٦ : ٤ - ٨ ، ١٠ : ٢٦ - ٣٩) ، (بطرس الأولى ٤ : ١ - ٥ ، ١٥ - ١٩) ، (بطرس الثانية ٢ : ١٣ - ٢٢) . صحيح أننا قد تبرّرنا بالإيمان بالمسيح الفادي ، وأن الناموس لم يوضع للبار بل للأثمة والفجار ، لكن الرسول ينبّهنا بقوله " لست بلا ناموس لله ، بل تحت ناموس للمسيح " (كورنثوس الأولى ٩ : ٢١) وأيضاً " احملوا بعضكم أثقال بعض ، وهكذا تمّموا ناموس المسيح " (غلاطية ٦ : ٢) ، وأيضاً : " تمموا خلاصكم بخوف ورعدة " (فيلبي ٢ : ١٢) ، وأيضاً " كان خيراً لهم لو لم يعرفوا طريق البر ، من أنهم بعدما عرفوا يرتدون عن الوصية المقدسة المُسلّمة لهم " (بطرس الثانية ٢ : ٢١) ، وأيضاً " قدّموا في إيمانكم فضيلة ، وفي الفضيلة معرفة ، وفي المعرفة تعفّفاً، وفي التعفّف صبراً ، وفي الصبر تقوى ، وفي التقوى مودّة أخوية ، وفي المودّة الأخوية محبة ، ...لأن الذي ليس عنده هذه هو أعمى ...قد نسي أنه تطهّر من خطاياه السالفة . لذلك بالأكثر اجتهدوا أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين " (بطرس الثانية ١ : ٥ - ١٠) . صحيح اننا وُلدنا ثانية من زرع لا يفنى ، وبذرت في قلوبنا بذار الحياة الأبدية ، لكن علينا أن نحفظها من طيور السماء والأشواك الخانقة ونتعهدها بالفلاحة والري وغيرهما (متى ١٣ : ١ - ٥٠) .

٨٦ إن لكل شيء تحت السموات وقتاً كما قال الحكيم الجامعة ، و" كل شيء " ينبغي أن نفهم أنها تعني كل ما يختصّ بحياتنا المقدسة ، فدعونا ـ إن شئتم ـ نُنعم النظر فيها ، ونَنشد في كل وقتٍ أن نعمل ما هو صحيح ومناسب لذلك الوقت . لأنه واضح أن للداخلين إلى حلبة المصارعة وقتاً يبلغون فيه زوال التألّم ، بعد فترة التدريب التي يصطبرون فيها على التألّم ؛ يوجد وقت للدموع ، ووقت لقساوة القلب ؛ أوانٌ للطاعة ، وأوان للأمر والنهي ؛ هناك وقتٌ للصوم ووقت لتناول الطعام ؛ ووقت لمحاربة الجسد عدوّنا ، ووقت موت توقّده واحترازه ؛ أوان العاصفة الروحية ، وأوان السكون الروحي ؛ أوان لاغتمام القلب ، وأوان للفرح الروحي ؛ وقت للتعليم ووقت للإصغاء ؛ وقت التدنّس ـ ربما بسبب كبريائنا ، ووقت التَطهُّر بالاتضاع ؛ أوان مصارعة ، وأوان راحةٍ نائية عن الخطر ؛ وقت سكون، ووقت انجذاب خالٍ من الانجذاب[1] ؛ أوانُ صلاة متواصلة ، وأوان خدمة بلا رياء .

فلا ننطغينّ إذن بغيرة متعظمة ، ونلتمس قبل الأوان ما سيأتينا في حينه الحسن ؛ أي لا نطلبن في الشتاء ما يأتينا في الصيف ، ولا في أوان البذار ما يُجمع إبّان الحصاد ؛ لأنه يوجد وقت نزرع فيه أتعاباً ، ووقت نحصد فيه مواهب النعمة الفائق وصفها . وإلاّ ، فلن نحصِّل حتى في الزمان المناسب ، ما يليق به من محصول .

٨٧ هناك قومٌ قد نالوا من الله ـ بتدبير لا يُدرك ـ مكافأة أتعابهم قبل أن يعملوا . وهناك من اقتبلوا المكافأة بعد أتعابهم ، وبعضٌ ينالونها أثناء

(١) أي وقت انشغال بالأعمال دون أن تجذب القلب والفكر عن عملهما الروحي .

أتعابهم ، وآخرون يأخذونها ساعة موتهم . فمن من هؤلاء حُسِبَ أكثر تواضعاً ؟

٨٨ هناك إياس ناتج من كثرة خطايا، وضميرٍ مثقّل ، وغمٍ لا يُحتمل؛ لأن النفس مكسوّة بالجراح غائصة تحت ثقل نيرها إلى قعر الإياس . ويوجد قنوط آخر يعرَض من كبرياء واعتجاب ، متى احتسب أحدٌ ذاته أنه بمنزلة غير مستأهل للسقطة التي أتاها . فمن يراقب بانتباه ، يلحظ الخاصة المميِّزة لكليهما : الأول يوجد فاتراً ، وبفتوره يخلي سبيلاً للّامبالاة . والثاني يوجد يائساً، لكنه مازال يمارس النسك ـ مع أنه لا يوافقه . الأول يطبب[1] بالإمساك[2] وحُسن الرجاء ، والثاني يطبِّبه التواضع واعتياد عدم إدانة أحد .

٨٩ ينبغي ألا يدهشنا أو يبدو لنا غريباً أن نرى أناساً يأتون أعمالاً خبيثة تحت ستار الأقوال الحسنة[3] فلعلّه حتى في الفردوس عينه دفع الكبرياء الحيّة إلى الترفّع فأهلكها بفيضِ عُجبها .

٩٠ في كل ما تمارسه ، وفي كل سيرة تسلك بمقتضاها ـ إن كنت تعيش تحت الطاعة أم تعمل غير خاضعٍ لأحد ، سواء في أمورك الروحية الداخلية ، أم في أعمالك الخارجية ، ليكن لك هذا مبدأ وقاعدة ، أن تسأل نفسك : " هل أعمل حقاً هذا الأمر بما يطابق إرادة الله ؟ " .

فمثلاً ، متى تقلّدنا نحن المبتدئين عملاً من الأعمال لنباشره ، ولم يُضْفِ فعلُهُ على نفوسنا اتضاعاً ، فإننا آنذاك ـ بحسب رأيي ـ لم نعمل هذا العمل ـ

(١) أي يُعالَج (٢) أي الاعتدال وضبط النفس عن الشهوات ، وبخاصة الصوم . (٣) انظر رومية ١٦ : ١٨

عظيماً كان أم لا - بحسب مرضاة الله . فبالنسبة لنا نحن الذين مانزال أطفالاً في الحياة الروحية ، فإن النمو في التواضع هو الذي يحقّق لنا أننا نكمل مشيئة الله .

أمّا بالنسبة للمتقدّمين ، فلعل علامة تكميلهم مشيئة الله هي توقّف القتالات عنهم . أمّا في الكاملين، فهي زيادة الاستنارة الإلهية ووفرتها فيهم

٩١ لعل الأمور الصغيرة عند العظماء ليست صغيرة ، أمّا عند صغار القوم ، فحتى الأمور العظيمة عندهم ليست على كل حالٍ تامة .

٩٢ إذا صفا الهواء في الغيوم أظهر شمساً بهيّة لامعة ، ونفسٌ قد انعتقت من أميالها السالفة وأُهِّلت لنيل المغفرة ، لابد تبصر نور إلهها .

٩٣ الخطيئة شيء ، والكسل شيء آخر والتهامل[1] شيء آخر ، وللوجع معنى آخر ، وللسقطة معنى آخر . فالمقتدر بالرب أن يتعمّق في هذه ، فليبحثها بحثاً واضحاً .

٩٤ أناسٌ يطوِّبون فوق كل شيء اجتراح العجائب وما يُرى من المواهب الروحية ، إذ قد غَبيَ عليهم أنه توجد مواهب كثيرة أعلى من هذه سمواً وهي مستورة ، ومن ثمّ تبقى عن السقوط مأمونة .

٩٥ من قد تنقّى تنقيةً تامة ، يبصر نفس قريبه ، لا جوهر النفس ذاته، بل في أيّة حالٍ هي . أمّا المتقدِّم في النقاوة أكثر ، فيستطيع أن يستدل على حالة النفس من مجرد الجسد .

---

(١) ل : اللامبالاة

٩٦ إن ناراً يسيرة غالباً ما تُفني غابةً بأكملها ، كما أن شرخاً طفيفاً يُفسد تعبنا كله .

٩٧ هناك راحة للجسد عدوّنا تنبّه قوة العقل دون أن تثير حرارة الأوجاع . وهناك إنهاك للجسد ربما يثير حركات شغبة ، كيلا نكون متوكّلين علىأنفسنا ، بل على الله الذي يميت الشهوة الحيّة فينا من حيث لا نعلم[١].

٩٨ متى رأينا أناساً يحبوننا في الرب ، فيجب علينا أن نتحفّظ في تصرّفنا معهم ، لاسيّما من الدّالة ، لأنه لا شيء يستطيع أن يهدم الحب ويولّد البُغض مثل الدالة .

٩٩ إن عين النفس روحانية ، بهيّة الحسن جداً ، وهي تلي المخلوقات الروحية[٢] في رفعتها وسموّها عن الكل ؛ ولهذا يمكن للناس ــ وهم مازالوا تحت الآلام ، أن يعرفوا غالباً الأفكار التي في نفوس غيرهم من جراء حبّهم الكثير لهم[٣] ؛ لا سيما إذا لم يكونوا قد غاصوا وتدنّسوا بالطين . فإن لم يكن ثمة شيء هكذا معاندٌ لغير الهيولي مثل الهيولي ؛ فمن يقرأ فليفطن[٤] .

---

(١) هذه الحقيقة نعلمها من سيرة القديس موسى الأسود في بداية حياته الرهبانية ، حيث كانت الحروب تزداد عليه بازدياد جهاده النسكي ، حتى أن القديس إيسيذوروس قال له : " ينبغي عليك الاعتدال في كل شيء ، حتى في الأعمال النسكية....كُفّ عن محاربة الشياطين لأن للإنسان حداً في قوته ، فإذا لم يرحمك الله ويعطك الغلبة عليهم هو وحده ، فما تقدر عليهم أبداً ... سلّم أمرك لله وانسحق أمامه وداوم على الاتضاع وانسحاق النفس ، فإذا نظر الله إلى صبرك واتضاعك فإنه يرحمك " . (بستان الرهبان ص ٦٥) .

(٢) د : الملائكة

(٣) أي أن نفس الإنسان مفتوحة على نفس رفيقه ، تستطيع بسهولة أن تتعرف على مشاعره من نحوها ؛ هذا يوضحه المثل العامي : " من القلب إلى القلب رسول " ، فليعطنا الله أن نحب الجميع .

(٤) النفس غير هيولية (غير مادية) والجسد هيولي (مادي) . لا شيء مثل الجسد يقاوم النفس .

١٠٠ التفحّص الفضولي[١] بالنسبة للعلمانيين، مضاد للعناية الإلهية ؛ أمّا بالنسبة للرهبان فهو يُضادّ المعرفة الروحية .

١٠١ على السقيمي النفوس أن يعرفوا افتقاد الرب إيّاهم من النوائب التي تصيب أجسادهم ، ومن الأخطار والتجارب الخارجية ، أمّا الكاملون فيعرفون افتقاد ربّهم إياهم من حضور الروح القدس ومن إزدياد المواهب .

١٠٢ هناك شيطان يجيئنا ونحن ومضطجعون في سريرنا ، ويرشقنا بأفكار وسخة وشريرة ، لكي يجعلنا نجفل من القيام للصلاة وهكذا نتكاسل عن التسلّح ضده ؛ وإذ يُسقطنا في النوم بهذه الأفكار الدنسة ، نحلم كذلك أحلاماً دنسة .

١٠٣ هناك روحٌ شرير يُسمى " السابق " ، يوافينا حال انتباهنا من نومنا مدنّساً أول أفكارنا . كرّس للرب بكورات يومك ، فإن اليوم كلّه سيخصّ من يمتلك نقطة البداية . وقد قال لي واحد من العمّالين[٢] قولاً جديراً بالاستماع : " من غداتي[٣] عينها ، أعرف مجرى نهاري كله " .

١٠٤ هناك طرق كثيرة للتقوى ، وطرق كثيرة للهلاك . كذلك يحدث غالباً أن طريقاً لا توافق الواحد ، تناسب الاخر تماماً . وقصد كليهما مقبولٌ عند الله .

---

(١) ل : العادات الخرافية
(٢) العمّال : هو المجتهد المكثير العمل
(٣) الغداة : هي الصباح الباكر ؛ السحر .

١٠٥ في جميع المحن العارضة لنا ، يناضل الشياطين ليجعلونا نقول أو نعمل شيئاً منكَراً ، فإذا لم يستطيعوا ذلك ، وقفوا بنا في هدوء هاجسين لنا أنه ينبغي أن نؤدي لله شكراً متكبّراً[١] .

١٠٦ إن الذين عقولهم نحو العلويات ، بعد انفصال النفس من الجسد يصعدون إلى العلاء جزئياً[٢] ، أمّا الذين يفتكرون في السفليات ، فإلى أسفل ينحطّون ؛ إذ ليس يوجد [بين الاثنين] مكان متوسط . من بين جميع خلائق الله ، تحقّق النفس [البشرية] وحدها كيانها في شيء آخر وليس في ذاتها[٣]؛ وإنه لعجيبٌ حقاً ، كيف تستطيع أن تحيا خارج ذاك الذي فيه اقتبلت وجودها .

١٠٧ البنات التقيّات تلدهن أمهات تقيّات ، أمّا الأمهات فيلدهن الرب ، وليس رأياً خاطئاً أن نطبّق القانون عينه على أضداد الفضائل[٤] .

١٠٨ إن موسى - بل بالحري الله نفسه - يمنع الجبان عن الخروج إلى الحرب[٥] . وهذا حق، لئلا تكون الضلالة الروحية الأخيرة ، أشر من

---

(١) انظر (لوقا ١٨ : ١١)

(٢) أي تصعد النفس حالاً بعد الموت ، أمّا الجسد فلا ينال نصيبه من التجديد والخلود إلاّ في القيامة العامة .

(٣) أي تحقق وجودها في الجسد.

(٤) يسمي الفضائل الكبار التي تلد غيرها من فضائل " أمهات " . أما " البنات " فهن الفضائل المولودة من المحبة والإيمان والرجاء (مثل الصوم ، السهر ، الصمت ، الوحدة ، الصدقة ..الخ). وكما أن هذه الثلاث من الله. كذلك فإن الرذائل العامة (مثل الشره ، محبة المال ، الكبرياء) هي من الشيطان ، وهي تلد غيرها من رذائل .

(٥) تثنية ٢٠ : ٨

السقطة الجسدية الأولى[1] .

عينا الجسد هما سراج لكل أعضاء الجسد ؛ وإفراز الفضائل المقدسة سراجٌ للعقل[2]

في الإفراز الصائب

١٠٩ كما يشتاق الإيّل الظمآن إلى المياه عند احترارِه[3] ، كذلك يشتاق الرهبان إلى إدراك المشيئة الإلهية الصالحة ؛ وليس هذا فقط بل أيضاً يشتاقون إلى معرفة ما لا يتفق مع مشيئة الله إلاّ جزئيّاً وأيضاً ما يضادّها . هذا أمر عظيم الأهمية بالنسبة لنا ، ويصعب علينا شرحه ؛ أعني : أيُّ الأمور التي تناسبنا يجب أن نعملها للتوّ والحال دون تمهّل أو إرجاء - كقول القائل : " الويل لمن يزيد يوماً على يوم ، ووقتاً على وقت " ؟[4] ، وأيضاً ماهي الأمور التي ينبغي أن تُعمَل بالهدوء والحذر - على ما ينصح القائل :

(١) يُمنع الجبان من دخول الحرب ، لئلا بسبب نقص شجاعته وعدم كفايته ،يفقد القليل من إيمانه بإلهه ، ويسلّم نفسه لأعدائه مسبباً عثرة لغيره ؛ وبقدر ما تكون رتبته بين المقاتلين ، بقدر ما يكون الضرر الناجم عن عثرته . والمعنى واضح : إن من يتقدم لخدمة الرب - بصفة عامة - عليه أن يفهم أنه داخلٌ إلى ساحة الوغى ، فما لم يستوثق من دعوة الله له ، ويتسلّح بنيّة الجهاد وإنكار الذات ، ويضع في نفسه حكم الموت ، فليرتجع عن التقدّم للخدمة ، لئلا يصير مدمّراً لنفسه ولنفوس كثيرين غيره . وما يُقال عن وجوب التبصّر قبل الإقدام على خدمة الرب ، يُقال بصفة خاصة عن التقدّم إلى الحياة الرهبانية ، كما يُقال عن التقدّم للاضطلاع بخدمة رئاسية قيادية بصفة أخص . لأنه معروف ضمن فنون القتال وتدابيره ، أن العدو يسعى بالأكثر لقتل القادة والمتقدّمين قبل غيرهم ، ولذلك الحصون ومراكز القوة قبل غيرها من المواقع غير الهامة . انظر (لوقا ١٤ : ٢٥ - ٣٥ ، متى ٢٦ : ٣١) .

(٢) ب ، د ، م : - عينا ...   (٣) مزمور ٤٢ : ١   (٤) سيراخ ٥ : ٧ - ٨

" إن الحرب بالتدبير تُعمل[1] " ، وأيضا القائل : " فليكن كل ما تعملونه بلياقة وترتيب[2] " ، إذ إنه لا يتهيّأ لكل أحد أن يقرّر سريعاً وبدقّة في الأمور المستعجمة[3] الدقيقة ، بل حتى اللابس الإله داود الناطق بالروح القدس ، قد تضرّع كثيراً إلى الله لأجل هذه النعمة، إذ يقول مرة: " علّمني أن أفعل مشيئتك ، لأنك أنت هو إلهي "[4] ، ومرة : " عرّفني طرقك ، وعلّمني سبلك "[5] ، وأيضاً : " عرفني الطريق التي أسلك فيها ، لأني إليك يارب رفعت نفسي (من كل همّ عالمي ، ومن كل وجع ، وأصعدتُها نحوك) "[6] .

١١٠ جميع الذين يبتغون أن يعرفوا مشيئة الرب ، ينبغي عليهم أولاً أن يميتوا إرادتهم الذاتيّة . ثم بعد أن يبتهلوا إلى الله بإيمان وبساطة خالية من الخبث ، فليسألوا الآباء - أو حتى الإخوة بتواضع قلب ، وفكر خالٍ من التشكّك ؛ وليقبلوا مشورتهم كأنها من فم الله ، حتى إن كان ما أشاروا به عليهم مضاداً لرغبتهم الخاصة ، وحتى إن كان الذين استشاروهم ليسوا روحانيين جداً . ذلك لأن الله ليس بظالم حتى يضلّل نفوساً قد اختضعت بإيمان وسذاجة واتضاع ، لمشورة قريبها وحكمه ؛ حتى لو كان الذين استُشيروا بهائم عجماوات ، لكن الناطق فيهم هو غير الهيولي ، غير المرئي . فالذين يرتضون أن ينقادوا على هذا الرسم الذي قدّمناه - ارتضاءً خالياً من شك ، فأولئك يمتلئون اتضاعاً سامياً . لأنه إن كان أحدٌ قد جعل أن يبسط

---

(١) أمثال ٢٠ : ١٨ ، ٢٤ : ٦ (٢) كورنثوس الأولى ١٤ : ٤٠ (٣) أي المبهمة
(٤) مزمور ١٤٣ : ١٠ (٥) مزمور ٢٥ : ٥ حسب الترجمة السبعينية (٦) مزمور ١٤٣ : ٨

على القيثارة مسألته[1] ، فكم تظنون أنه يستطيع عقلٌ ناطق ونفسٌ عاقلة ، أن يرشد أفضل بكثير من آلةٍ جماد .

١١١ كثيرون لم يقبلوا هذا الخير التام السهل السابق ذكره ، من جراء إرضائهم لأنفسهم . وإذ حاولوا أن يكتشفوا بأنفسهم وفي أنفسهم ما هو مرضيٌّ عند الرب[2] ، تركوا لنا في هذا الموضوع أحكاماً مختلفة كثيرة .

١١٢ وقومٌ من الذين سعوا لمعرفة مشيئة الله ، طرحوا عن فكرهم كل ارتباط بأحد الرأيين الموجودين في نفسهم : أعني الرغبة في الإقدام على أمر من الأمور ، أو رفض ذلك الأمر - وأوقفوا للرب عقلهم عارياً من كل مشيئة ذاتية ، مقدِّمين طلبةً حارة في مدّة أيام معيّنة ، فنالوا معرفة مشيئته ؛ إمّا بأن ناجَى عقلٌ روحي عقلَهم مناجاةً روحية ، وإمّا بأن اختفى من نفسهم تماماً أحد الرأيين .

---

(١) نفهم من الآية (مزمور ٤٩ : ٤) : " أوضّح بالعود لغزي " ، أو حسب الترجمة السبعينية " سأفتح بالمزمار مشكلتي " ، أن المرنّم داود كان عندما يتضايق من أمرٍ ما ، ينسحب من الهمّ به إلى العزف على قيثارته أو النفخ في مزماره ، مترجماً متاعبه وأشجانَ قلبه إلى أنغام يبسطها لدى الله ، مستلهماً منه الحل ونائلاً منه الراحة . يؤكد لنا الرسول بولس هذا الأسلوب بقوله : " لا تهتموا (لا تقاسوا همّاً) بشيء ، بل في كل شيء ، لتُعلَمْ طلباتكم لدى الله بالصلاة والدعاء مع الشكر ، وسلام الله الذي يفوق كل عقل سيملأ قلوبكم وأفكاركم [مزيلاً الهم والغم عنها] .

إن هذا الأسلوب البسيط الواثق في اتصالنا الإيماني بالله ، يعوزنا كثيراً لحل معضلاتنا ، وفي تعاملاتنا مع الناس لإخلائها من الغضب والحقد والتخالف والتقاضي والخصام والاغتمام والإدانة ، ويبقي على أواصر المحبة والسلام بيننا وبينهم ؛ لأنه إن كان الله معنا ، بخضوعنا الكلّي لتدابير عنايته الفائقة [فمن [من الناس] يكون علينا ؟ (راجع رومية ٨ : ٣١ ، عاموس ٣ : ٦ ، صموئيل الثاني ١٦ : ١٠ - ١٢) .

(٢) أفسس ٥ : ١٠

١١٣ آخرون علموا أن ما أرادوه كان مطابقاً للمشيئة الإلهية ، من الشدائد والضُغَط التي صاحبت مباشرتهم لما أرادوه ، طبقاً لرأي القائل : " لقد أردنا أن نجيء إليكم مرةً ومرتين ، وإنما عاقنا الشيطان[١] " .

١١٤ وآخرون ـ بعكس الذين سبق ذكرهم ـ عرفوا أن عملهم مُرضٍ لله ، من المعونة الواضحة والتوفيق غير المتوقَّع ، الذين رافقا عملهم ، معلنين أن الله هو العامل مع كل من يختار أن يعمل الصالح[٢] .

١١٥ من اقتنى الله في داخله بالاستنارة ، يتحقّق من المشيئة الإلهية بالطريقة الثانية ، سواء في الأمور التي تتطلّب السرعة ، أو التي تحتمل الانتظار ، دون أي تأخير .

١١٦ إن تردّد المرء في أحكامه ، وبقاءه متشككاً لمدة طويلة خائباً من تيقّن ، دلالةٌ على أن النفس غير مستنيرة ومُحِبّة للمجد الباطل .

١١٧ ليس الله بظالم ، حتى يغلق بابه مقابل الذين يقرعون بتواضع .

١١٨ في كل ما نعمله ، سواء الأعمال التي تستوجب الإسراع أو في التي تتطلبّ التأجيل ـ ينبغي أن ننشد من الله النيّة . لأن كافة الأعمال الخالية من الجنوح إلى الهوى ومن كل وسخ ، المعمولة بنيّة خالصة لأجل خاطر الرب وحده ، وليس من أجل أي هدف آخر ، تُحسَب لنا أنها أعمال صالحة ؛ حتى لو كانت ليست تماماً صالحة .

١١٩ استبحاثنا ما يفوق قدرتنا ، لن يفيدنا نتيجةً خاليةً من خطر .

(١) تسالونيكي الأولى ٢ : ١٨

(٢) قارن مع فيلبي ٢ : ١٣

لا جُرم أن أحكام الرب من جهتنا ، لا يُسبر غورها[1] ، لأنه يرى في كثير من الأحيان ـ طبقاً لتدابير عنايته ـ أن يُخفي عنا مشيئته ، لعلمه أننا حتى إذا عرفناها سنعصاها ، ومن ثَمّ نستوجب عقوبة أشد .

١٢٠ إن القلب المستقيم ، يظل حرّاً من الهموم[2] في وسط الأشغال المتعدِّدة ، وهو يُبحِر بأمان في قارب السذاجة .

١٢١ توجد نفوس شجيعة تلقي بنفسها ، بدافع من حبِّها واتضاع قلبها ، في أعمال تفوق طاقتها ؛ كما توجد نفوس متكبرة تعمل هذا عينه ، لأنه كثيراً ما يشير علينا أعداؤنا عن تعمّد ، أن نأتي أعمالاً تنوء بها كواهلنا ، لكي تخور قلوبنا[3] ونضجر ، فلا نقوم حتى بما في استطاعتنا ، وهكذا نجعل أنفسنا ضحكة لأعدائنا .

١٢٢ رأيت نفوساً وأجساماً مريضة ، قد باشرت جهادات تفوق قدرتها ، وما تحتمل مداومتها ، فقلتُ لمثل هؤلاء إنما ا لله يحكم على توبتنا بكمية تذلُّلِنا ، لا بكمية أتعابنا .

١٢٣ قد تكون التربية عِلّة للشرور الفادحة أحياناً ، وربما المعاشرات الرديئة ؛ ومع ذلك فإن النفس المتعوّجة هي في معظم الحالات سبب هلاكها فالبريء من العيبين الأولين ، ربما يتخلّص من الثالث . أمّا المصاب بالثالث ، فهو في كل مكان شرير ، إذ ليس مكان أوفر أماناً من السماء[4] .

١٢٤ في حالة الذين يجادلوننا بنيّةٍ غير مستقيمة ، كأن يكونوا غير

(١) أي لا يُقاس عمقها (٢) ل : من الطياشة (٣) م : تصغر نفوسنا

(٤) م : + وقد سقط منها المتعوّج [الشيطان]

مؤمنين أو من أصحاب البدع ، فلنكُفَّ عن مناقشتهم بعد إنذارهم مرةً ومرتين[1] . أمّا في حالة من يريدون أن يعرفوا الحق ، فلا نفشلن في فعل الخير أبداً[2] . وعلى أي حال ، فلنستَفِدْ من كلتا الفرصتين لتثبيت قلبنا[3] .

١٢٥ من يسمع عن القديسين فضائل فائقةً على الطبيعة ، وييأس من نفسه فهو خائب من المعرفة ، إذ الأليق بك أن تتشجع ؛ لأنهم إنما يعلّمونك تعليماً فاضلاً بأحد أمرين : إمّا بأن يحثّوك على التشبُّه بشجاعتهم الحميدة ، وإمّا بردّك عن طريق التواضع المثلث القداسة إلى الإزدراء العميق بذاتك والتفطّن إلى تأصُّل ضعفك .

١٢٦ بين الأرواح الشريرة النجسة ، يوجد من هم أوفر خبثاً من غيرهم ، وهم الذين يهجسون إلينا ألاّ نفعل الخطيئة وحدنا ، بل أن نتخذ لنا في العمل الرديء شركاء غيرنا ، ليجعلوا بذلك عقابنا أشد قسوة . وقد رأيت عادةً خبيثة تعلّمها واحد من آخر . فمع أن المُعلّم لهذه الخطيئة أفضى إلى إحساس وبدأ يتوب بالكَفّ عن إتيان الشر ، إلاّ أن توبته كانت عديمة الفاعلية بسبب تأثير تلميذه .

١٢٧ مذهل ، مذهلٌ بالحقيقة خبث الأرواح الشريرة وعسير إدراكه ، وكثيرون لا يلاحظونه . وبحسب ظنّي ، فإنه حتى الفرادى من الناس الذين يدركون خبث الشياطين ، لا يحيطون به كُلاًّ . إذ كيف إذا تنعَّمنا وشبعنا نستطيع أن نسهر ، بينما عندما نصوم ونشقى في الأتعاب نتغلب من النوم انغلاباً جديراً بالرثاء ؟ أو لماذا إذا أقمنا في السكون[4] تقسو

(١) أنظر تيطس ٣ : ١٠ — (٢) غلاطية ٦ : ٩ — (٣) عبرانيين ١٣ : ٩

(٤) المقصود بالسكون هنا ἡσυχία ، سكون حياة التوحّد الرهباني

قلوبنا ، بينما إذا عشنا بين الناس نأتي إلى تخشُّع ؟ لماذا إذا جُعنا نُجرَّب أثناء نومنا[1] ، وإذا تملأنـا مـن الطعـام والشـراب لا نجرَّب بهـذه التجـارب ؟ في الفاقة[2] نصير مظلمـين وللخشـوع عـادمين ، بينمـا نحصـل في شـرب النبيـذ مرحين وإلى الخشوع مسرعين . فمن يقتدر بالرب ، فليضيء في هذه الأمور أولئك المحرومين من نور ، لأننا في هذا الشأن غير خبيرين . لكنّا نقول فقـط إن مثل هذه التقلّبات ، لا تأتي في جميع الأحوال من الشياطين . وهذا يحدث لي أحياناً ـ ولست أعلم كيف ـ بفعل البِنية التي اقتبلتها ، والكثافـة الوسـخة النَهِمة التي تطوّق بي[3] .

١٢٨ بشأن التقلّبات التي سبق سردها ، والعسـير تفسـيرها ، سـبيلنا ان نتوسّل إلى الرب بقلب خالص متّضع . فإن رأينا بعد ابتهالنا لمدة معيّنـة ، أننا نشعر بذات الحال ، وأن تلـك الأعـراض مـا زال فعلهـا مسـتمراً فينـا ، فلنعلم أن ما يعرض لنا هو من الطبيعـة ، لا مـن الشـياطين[4] . وفضـلاً عـن ذلك ، فكثيراً ما يُسرّ التدبير الإلهي بأن يُحسن إلينـا بطريقـة تضـاد هوانـا ، قابضاً بكل الأدوية الممكنة توهّمنا في ذاتنا أننا شيء[5] .

١٢٩ لا ريب أن التفتيش في عمق الأحكـام الإلهيـة خطِـر ، ذلـك أن الفضوليين في سفينة العُجب[6] يبحرون .

---

(١) ل : + بالأحلام [الدنسة]

(٢) أي في عيشة الفقر والتجرد .

(٣) يقصـد التأثيرات الطبيعـة للمزاج الجسدي بما يمليه من وظائف فسيولجية وتغيّرات كميائية وعصبية

(٤) الحديث هنـا عـن بعـض الضعفات الجسدية الخاصة التي يعاني منها بعض الروحيين ، مثل سرعة الانفعال للتعب ، والحاجة إلى النوم ، والشعور بالإجهاد في ممارسة أعمال معيّنة ، وغيرها .

(٥) أي أن لهذه الضعفات وجه آخر مفرح ، هو أنها مدعاة للاتضاع .

(٦) د : الكبرياء

١٣٠ سأل واحدٌ مرةً أحد أصحاب البصيرة النافذة قائلاً : ›› ما السبب في أن الله مع سابق معرفته لسقطات قومٍ ، قد زيَّنهم سلفاً بالمواهب وقوة اجتراح العجائب ؟ ‹‹ أمّا هو فأجاب : ›› ليجعل باقي الناس الروحانيين أكثر حرصاً ، ولكي يُدلّل على حرية الإرادة البشرية ، وليجعل أولئك الساقطين من الاحتجاج خائبين في يوم الدين ‹‹ .

١٣١ إن الناموس [الموسوي] ، كونه ناقصاً ، يقول : ›› تيقّظ لنفسك ‹‹[١] . أمّا الرب لكونه الفائق في الكمال، وضع علينا تقويم أخينا ، إذ قال : ›› إذا خطيء إليك أخوك ‹‹ وما يتلو ذلك[٢] . فإن كان توبيخك ، أو بالحري تنبيهك ، نقيّاً متواضعاً ، فلا تستعفِ من القيام بأمر ربنا ، لاسيّما في الذين يقبلون منك التقويم . فإن كنتَ ما بلغت بعدُ إلى هذا ، فعلى الأقل قم بما أوجبه الناموس[٣] .

١٣٢ لا تندهش إذا رأيت أصدقاءك المحبوبين قد أبغضوك بسبب توبيخك إياهم . ذلك لأن الفارغين من الحزم هم آلات للشياطين ، سيما ضد أعداء الشياطين .

١٣٣ إن أمراً واحداً من أمورنا يدهشني جداً : لماذا ــ وقد صار لنا إلهنا الكلية قدرته ، وملائكته ، وقديسوه ، معينين لنا بإزاء الفضائل ، بينما الشيطان وحده يقاومنا ــ نميل ونجنح إلى أسقام الخطيئة جنوحاً سهلاً

(١) تثنية ٤ : ٩ ، ١٥

(٢) متى ١٨ : ١٥

(٣) أي لاحظ نفسك دون أن تدين في قلبك غيرك .

سريعاً ؟ لست أريد إسهاب الكلام في هذاالمقال ، بل حقاً لا أستطيع[1] .

١٣٤ إن تكن البرايا[2] كلّها محتفظة بطبيعتها على ما جُبلت عليه ، وإن كان كلٌ من الخلائق يرتاح بلا شبع إلى مجانسه[3] ويشتاق إلى شبهه ، إذن لماذا ـ كما يقول غريغوريوس الكبير ـ أنا صورة الله منعجن بالطين؟[4] إذا حدث أن أحد المخلوقات فقدَ بطريقة ما طبيعته المخلوقة ، فبكل تأكيد يكافح على الدوام مشتاقاً إلى أن يعود إلى حالته الأصيلة . فالإنسان ينبغي

---

(١) نفس هذا الاندهاش أبداه أنبا أنطونيوس أبو الرهبان ، لكن الرب أفهمه وأزال اندهاشه : " قال أنبا أنطونيوس : إني أبصرت مصابيح من نار محيطة بالرهبان ، وجماعة من الملائكة بأيديهم سيوف ملتهبة يحرسونهم وسمعت صوت الله القدوس يقول : " لا تتركوهم ما داموا مستقيمي الطريق " ، فلما أبصرت هذا تنهدت وقلت : " ويحك يا أنطونيوس ، إن كان كل هذا العون محيطاً بالرهبان والشياطين تقوى عليهم " فجاءني صوت الرب قائلاً : " إن الشياطين لا تقوى على أحد ، لأني منذ أن تجسدت ، سحقت قوتهم عن البشر ، لكن كل إنسان يميل إلى الشهوات ، ويتهاون بخلاصه ، فشهوته هي التي تصرعه وتجعله يسقط " (بستان الرهبان) ؛ وهكذا يذكّرنا بقول الروح القدس بفم يعقوب الرسول : " كل واحد يُجرَّب [بفعل الشر] ، إذا انجذب وانخدع من شهوته ... [أمّا] كل عطية صالحة ... فهي من [الله] " (يعقوب ١ : ١٤ ـ ١٧)

(٢) جمع برية : وهي الخليقة (٣) أي الذي من نفس جنسه (٤) إن انحاء نفس الإنسان ـ رغم كونها مخلوقة على صورة الله وشبهه نحو الجسد وشهواته الخاطئة ، أو إن الفساد الذي استشرى في طبيعتها بجنوحها إلى الشر ـ تمّ فينا بفعل إبليس بانحيازنا بإرادتنا إلى غوايته . لدفع هذا الفساد عنّا ، لزم أن يتجسد المسيح ويموت عنّا وبنا ؛ ولإعادتنا إلى ترتيبنا الأول قام من الموت وصعد إلى السموات وجلس بنا عن يمين الآب القدوس، وسكب الروح القدس ـ روح التبنّي والتقديس ـ على المؤمنين به . ولكي تنال فاعلية هذه التدابير الإلهية لخلاصنا ، يلزمنا أن نمارس الموت عن الخطايا بتجنّبها فعلاً وسلوكاً بقوة موت المسيح عنها (أنظر رومية ٨ : ١٣ ، كورنثوس الثانية ٤ : ١٠ ، كولوسي ٣ : ١ ـ ١٠ ، وأن نمارس " جدّة الحياه " أو الحياة الجديدة فعلاً بممارسة أعمال البر والمحبة بقوة قيامة المسيح للحياة (أنظر رومية ٤ : ٢٥ ، ٦ : ٤) وأن نهتم " بما فوق لا بما على الأرض " بقوة صعود المسيح من الأرض إلى السماء (أنظر كولوسي ٣ : ١) أمّا قوة موت المسيح (عن الخطايا) ، وقوة قيامته (لحياة البر والخلود) ، وقوة صعوده (لحياة سمائية) ، فهذه القوى ينقلها إلينا الروح القدس بالمعمودية . أنظر (كولوسي ٢ : ١٢ ؛ تيطس ٣ : ٣ ـ ٦ ؛ بطرس الأولى ٣ : ٢١ ، ٢٢) .

عليه أن يستعمل كل حيلة ووسيلة ليَصعد بهذا الطين ، بل أقول ، ويُجلسه في عرش الله . ولا يعتذرن أحدٌ بعذرٍ عن عدم مباشرة هذا الصعود ، لأن الطريق والباب قد فُتحا[1] .

١٣٥ إن حكاية ما أحكمه الآباء الروحيون مِن فضائل يوقظ العقل وينبّه غيرة النفس ؛ واستماع تعاليمهم يحمل المعجبين بهم إلى الغيرة في التشبّه بهم .

١٣٦ الإفراز سراج في الظلمات ؛ طريق لاستعادة الضالين . نورٌ لذوي البصيرة الضعيفة . مالك الإفراز يجد الصحة ، ويهدم المرض[2] .

١٣٧ الذين يُبدون اندهاشاً للأمور التافهة ، يصيبهم ذلك لسببين : إمّا من تلقاء عدم معرفتهم العميق ، وإمّا أنهم يعظّمون ويمدحون أعمال القريب بقصد الاتضاع .

١٣٨ سبيلنا أن نجتهد ، لا لنصارع الشياطين فحسب ، بل لنشنّ عليهم الحرب أيضاً . لأن من يصارع ، عادةً يطرح غريمه حيناً ، وينطرح منه حيناً ؛ أمّا المهاجم ، فهو مطاردٌ أعداءه أبدا[3] .

---

(١) " نعم ، إن العدو كان فطناً للغاية في معصية آدم ، حتى أنه جرح الإنسان الباطن وأظلمه . وهو الجزء المرشد فينا أي العقل الذي به كان يتطلّع إلى الله ، فمالت عيناه بعد ذلك إلى الخطيئة والفساد لكونه حُرم من خيرات السماء .. وكما أن نازفة الدم رغم أنها لم تكن قد شُفيت بعد من دائها ، إلاّ أنها استطاعت أن تجيء على قدميها إلى الرب ، وبمجيئها صحَّت ؛ كذلك كما أن الأعمى لم يقدر أن يمشي ليأتي إلى الرب ، لكنه صرخ إليه صرخة شديدة ـ إذ قال " ارحمني يا ابن داود " ـ ، وبإيمانه نال بصراً إذ أتاه الرب بنفسه . فكذلك النفس ، ولو أنها جُرحت بجروح الأهواء الفاسدة (إشعياء ١ : ٦) وعميت بظلمة الخطيئة ، إلاّ أنه لا تزال فيها إرادتها حتى تصرخ إلى يسوع وتناديه ، لكي يأتي هو إليها ويصنع لها فداء أبدياً " . (العظة العشرون من عظات القديس مكاريوس الخمسين) ، أنظر (يوحنا ١٠ : ٧ و ١٤ : ٦ ؛ عبرانيين ١٠ : ١٩ ، ٢٠)

(٢) أي يعالج المرضى ويهدي الضالين

(٣) مزمور ١٨ : ٣٤ ـ ٤٠

١٣٩ من قهر الآلام يجرح الشياطين ، وبتظاهره أنه مغلوب من الآلام ، يخدع أعداءه ويبقى ناجياً من إغارتهم عليه .

أُهينَ يوماً أخٌ ، ولم يضطرب قلبه كما لم يتسجّس البتّة . ثم إنه صلّى في داخله ، وبدأ ينتحب بسبب ما أصابه من إهانة ، ساتراً بالألم المتصنّع انعدام تألُّمه . وآخر من الإخوة[1] لم يكن يتوق أبداً إلى أماكن الصدارة ، تظاهر بأنه يسعى إليها . وكيف أصف طهارة ذاك الرجل الذي طفر إلى الماخور متظاهراً كأنه لأجل الخطيئة ، فاجتذب الزانية إلى سيرة النسك[2] ؟ وقد حدث ايضاً أن حمل أحدهم إلى أحد الساكنين في الوحدة عنقوداً من العنب بالغداة باكراً جداً ، فبعدما انصرف من أحضره إليه وثب نحو العنقود وأكله خلواً من شهوة بمظهر من يلتهمه التهاماً ، موهماً الشياطين أنه مقهور من نهم بطنه . وغير هذا فُقد منه قليل خوصٍ ، فتظاهر طول يومه بالحزن على ذلك .

لكنه ينبغي لمن يسلك مثل هذا المسلك ، أن يكون ذا إفاقة كثيرة وحذر ، لئلا في محاولته الاستخفاف بالشياطين ، يصير ضحكتهم . هؤلاء ، بلا شك ، هم الذين قال عنهم الرسول : " كمضلّين ، مع أنهم صادقون "[3] .

١٤٠ من يشاء أن يوقِف للمسيح جسداً طاهراً ، ويريه قلباً نقياً ، فليحفظ بكل تحفّظ زوال الغضب والإمساك[4] ؛ نخلوا من هاتين الفضيلتين

---

(١) أي الرهبان

(٢) هو القديس يوحنا القصير الذي هدى بانيسة . كذلك فعل القديس سيرابيون مع الإمرأة التي تابت على يديه وألحقها بدير الراهبات ؛ وايضاً القديس بيصاريون الذي توّب تايس التي انتقلت مبرَّرة في نفس الليلة التي فيها تابت وتركت العالم . (أنظر : بستان الرهبان ص ٨٢) .

(٣) كورنثوس الثانية ٦ : ٨

(٤) ل : العفّة

تصبح أتعابه كلها بلا جدوى .

١٤١ كما أن للضوء في العيون ألواناً مختلفة ، فكذلك أنحاء[1] حلول الشمس العقلية في النفس مختلفة . فحلولها من خلال دموع الجسد شيء ، وحلولها بالعَبرَات النفسية شيء آخر ؛ حلولها بالتأمّل بعيني الجسد شيء ، وحلولها الذي يتأتّى بعيني العقل شيء آخر[2] ؛ الفرح الحادث من سماع كلمة شيء ، والابتهاج الذي يطفر إلى النفس عفواً من تلقاء ذاتها شيء آخر ؛ كذلك ما يتولّد من سكون الوحدة شيء ، وما يتأتى من الطاعة شيء آخر . وهناك آخر يختلف بالأكثر عن هذه كلها ، الذي ينقل العقل بغتةً بكيفية خاصة ، في نور الروح إلى المسيح ، في دَهَشٍ لا يُعبَّر عنه .

١٤٢ توجد فضائل وتوجد أمهات فضائل . فالحكيم يجتهد أن يقتني الأمهات بالأولى . معلّم أمهات الفضائل هو الله نفسه ، بطريقته الخاصة . أمّا الفضائل البنات فمعلّموها كثيرون[3] .

١٤٣ حذار أن نعوّض نقص الغذاء بزيادة النوم ، والعكس صحيح ، لأن هذا تصرُّف الناقصي التمييز .

١٤٤ رأيت عمَّالين روحيين شجعاناً ، قد أرخوا لبطنهم قليلاً ، لكنهم بعد ذلك أدّبوه للوقت بنسك شجاع ، إذ أوقفوه ساهراً طوال ليلةٍ . وبهذه الطريقة علّموه أن يرتجع فيما بعد بسرورٍ عن الشبع .

١٤٥ يصارع شيطان الفضة بعنفٍ أولئك الذين لا يمتلكون شيئاً ؛

---

(١) جمع نحو : أي أسلوب

(٢) أي بالثيؤريا (الرؤية) الروحية

(٣) أنظر (الفقرة ١٠٧ وحاشيتها) .

فإذا لم يستطع أن يقهرهم ، أورد لهم الفقراء احتجاجاً وذريعة ، وصوّب لدى غيّر الماديّين أن يجنحوا من جديد إلى المادة .

١٤٦ في أوقات فقدان العزيمة ، لا نَكُفّن عن التفطّن في وصية الرب لبطرس أن يغفر للمخطئ إليه سبعين مرة في سبع[1] ؛ لأن ما قد أوصى به غيره ، واضحٌ أنه هو نفسه سيفعله أكثر كثيراً. أمّا في أوقات تشامخ قلوبنا، فلنتذكّر أيضاً ما قيل : " من حفظ الشريعة الروحانية كلها ، وعثر في ألم واحد ـ أعني في الكبرياء ـ فقد صارمجرماً في الكل "[2] .

١٤٧ يوجد بين الأرواح الشريرة والحسودة ، فئةٌ تنصرف عن القديسين طوعاً ، لكي يحرموا مَن يقاتِلون فرصة نيل الأكاليل بإحرازهم النصر عليهم .

١٤٨ إن صانعي السلام مغبوطون ، لا يجادل في هذا أحد . لكنني رأيت صانعي عداوة مغبوطين . فقد حدث أن تكوّنت بين اثنين مودّة نجسة. لكن واحداً من الآباء المختبرين المستنيرين با لله ، كان سبباً لمقت كليهما الآخر ، إذ وشى بكليهما عند الآخر أنه يثلبه ويشنّعه . وهكذا اقتدر ذلك الحكيم أن يتفادى شر الشياطين بمكر إنساني ، وأن يختلق مقتاً ينقض العاطفة النجسة .

١٤٩ يوجد من يدفع وصية بوصية ، ذلك أني رأيت شابين متحابيْن برباط روحي إلاّ أنهما لتلافي مضرّة ضمائر آخرين ، وافق كلاهما الآخر على أن يتباعدا مدة من الزمان .

---

(١) متى ١٨ : ٢٢ ـ وهنا ينبهنا إلى أن سبب إنحلال همتنا ربما يكون عدم صفحنا لمن أساء إلينا. (٢) يع ٢ : ١٠

١٥٠ كما أن العرس والمأتم نقيضان، كذلك أيضاً الكبرياء والإياس . إلاّ أنه نتيجة إرجاف[1] الشياطين ، يمكن أن يُبصَرا معاً مؤتلفَيْن .

١٥١ قد يحدث في بداية سيرتنا الرهبانية ، أن يعلّمنا بعض الشياطين الأنجاس ، تفسير الكتب الإلهية . ومن عادتهم أن ينتهجوا هذا السبيل خصوصاً إلى قلوب المعتجبين ، لاسيّما الذين قد أحكموا علوم العلمانيين ؛ وإذ يُضلّونهم قليلاً قليلاً ، ربما يقودونهم إلى التجديف واختراع بدعٍ في الدين[2] . ويمكننا أن نعرف هذا اللاهوت الإبليسي ، أو بالحري ، هذا الهذيان الشيطاني ، من الاضطراب والفرح القبيح المشوَّش ، اللذين يقعان في النفس أثناء التصنيف والتعليم .

١٥٢ إن كل الخلائق قد اقتبلت من مُبدِعها ترتيب وجودها وابتداءها ، وبعضها اقتبلت كذلك نهايتها . إلاّ أن حدّ الفضيلة بلا حدّ ؛ ذلك أن المرنّم قد قال: " قد رأيت لكل كمالٍ مُنتهىً ، أمّا وصيتك فواسعة وبلا حدّ "[3] . إن كان بعض العمّالين الروحيين الجياد ينتقلون من قوة العمل إلى قوة الثيؤريا ، وإن كان الحب لايسقط أبداً[4] ، وإن كان الرب

(١) أي التشويش والإضطراب

(٢) مثل ذلك الشاب القبرصي المخدوع ، الذي جادله كثيرون من الأساقفة والكهنة والعلماء دون أن يستطيعوا اقناعه بالعدول عن بدْعِه ؛ وذاع صيته وتحدث الناس عن حكمته وقوة منطقه . فلما سمع به القديس إيفانيوس أسقف قبرص استدعاه ، وبدل أن يجادله انتصب للصلاة ، فلما بدأ الصلاة أخذت الشاب رعدة، وجعل يصرّ على أسنانه ، واحمرّت عيناه، وتكلّم الشيطان المتكلّم فيه قائلاً: " أ أنت يا إيفانيوس تخرجني من مسكني ! " ... فلما انتهره القديس وأمره أن يخرج من ذلك الشقي ، صرعه أرضاً وخرج منه . وتعجّب الناس لما علموا أنه لم يكن يدري بما أخبروه أنه كان يقوله . لكن الشائع أن يخدع العدو المتعظمين بالمعرفة من الخارج فقط ، أي دون أن يتخذهم مسكناً له ، بتلقينهم أفكاراً ومعارف وحكمة كاذبة دون أن يدركوا مصدرها ؛ لكن " من الثمرة تُعرف الشجرة " . (بستان الرهبان ص ٣٦٠ ، ٣٦١) .

(٣) مزمور ١١٩ : ٩٦

(٤) كورنثوس الأولى ١٣ : ٨

يحفظ دخولك ـ الذي هو المخافة ، وخروجك[1] ـ الذي هو المحبة ، فالمحبة حقاً ليس لها نهاية. ولن نتوقف أبداً عن النمو فيها، سواء في دهرنا الحاضر ، أو في الحياة العتيدة ، مضيفين على الدوام نوراً[2] على نور . ومهما يكن ما قلناه مستغرباً عند كثيرين ، إلاّ أنني سأقوله . بل أقول أيضاً ـ أيها الأب المطوَّب ـ بحسب الشواهد التي تقدّمت. إنه حتى الجواهر الروحية[3] لا ينقصهم الارتقاء ، بل إنهم دائماً أبداً يزدادون مجداً على مجد ، ومعرفة على معرفة .

١٥٣ لا تندهش إن كانت الشياطين كثيراً ما تقترح علينا أفكاراً صالحة ، ثم يجاوبونها بما يُضادّها مجاوبة معقولة ، فإن غرضهم في ذلك أن يجعلونا نظن أنهم يعرفون أيضاً أفكار قلوبنا .

١٥٤ لا تحكم حكماً قاسياً على الذين يعلّمون بكلامهم تعاليماً عظيمة[4] ، إذا رأيتهم مفتقرين إلى العمل بها، فإن منفعة الكلام كثيراً ما تعوّض عن نقص الأعمال . فواضحٌ أننا لسنا جميعاً نقتبل كل شيء بمقدار واحد ؛ فعند البعض تتفوّق [مواهب] الكلام على [مواهب] العمل ، وفي غيرهم يتفوق العمل على الكلام .

١٥٥ لا ريب أن الله ليس علّة الشر ولا خالقه ، والقائلون إن في النفس صنوفاً طبيعية من الأوجاع هم مخدوعون ، إذ غَبِيَ عليهم أننا حوَّلنا الخواص المكوّنة لطبيعتنا إلى أوجاع : فمثلاً فينا الزرع بالطبع لأجل ولادة

(١) مزمور ١٢١ : ٨
(٢) ب : نور معرفة
(٣) أي الملائكة على اختلاف رتبهم
(٤) ب : نافعة ل : فصيحة

الأولاد ، فأبدلناه نحن إلى الزناء . فينا الغضب وسيلةً طبيعية ضد الشيطان ، فاستعملناه نحن ضد القريب . فينا الغيرة الطبيعية لنتنافس في الفضائل ، لكننا نتنافس في الشر . إن النفس بطبعها ترغب في المجد ، لكن المجد السمائي . فينا طبع التعظّم ، لكن على الشياطين. كذلك أيضاً فينا الفرح ، لكن الفرح بالرب وبالخير الذي يحدث للقريب . لا ريب أن فينا حقداً طبيعياً ، لكن لنستعمله ضد أعداء النفس . فينا شهوة إلى الطعام ، لكن ليس للإفراط في تناوله[1] .

١٥٦ النفس النشيطة[2] تثير الشياطين عليها ؛ لكن بتكاثر حروبها تتكاثر أكاليلها . مَن لم يُجرح من الشياطين أبداً ، لن يُكلّل أبداً . بالعكس من لا يُجفِل[3] رغم السقطات العارضة له سوف تمجّده الملائكة على أنه مقاتل مغوار .

١٥٧ من قد لبث في الأرض ثلاث ليال[4] ، عاد حيّاً إلى الأبد ؛ ومن قد قهر ثلاث ساعات[5] ، فلن يموت إلى الأبد .

١٥٨ إن كانت العناية الإلهية ـ على سبيل تأديبنا ـ تجعل الشمس بعد إشراقها فينا تعرف سالف مغربها ، فمن البيِّن أنها في استتارها تجعل ظلمة

---

(١) كون الله قد أبدع كل شيء في الإنسان حسناً ، وأن ليست فيه طبائع شريرة ، هذه الحقيقة سبق أن شرحها كثيرون ، منهم القديس اشعياء الأسقيطي في الميمر الثاني من أقواله، والقديس مار أسحق السرياني في كتابه الأول.

(٢) د : الشهمة (٣) د : من لا يترك القتال (٤) متى ١٢ : ٤٠

(٥) هي الساعات الثلاث التي اصطبر فيها الرب على ظلمة الصلب من السادسة إلى التاسعة ، فقهر الشيطان . والمقصود من هذه الفقرة هو ما قاله بولس الرسول : "إن كنّا قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه . وإن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه" (تيموثاوس الثانية ٢ : ١١ ، ١٢) .

فيصير ليل ، فيه تجوس الأشبال الوحشية التي انصرفت من قبل عنا ، وجميع وحوش غابة الأوجاع المخلبية ، زائرين طالبين أن يخطفوا الرجاء الذي فينا ، ملتمسين من إله الأوجاع طعاماً لهم ، إمّا بفكرٍ أو بفعل .حينئذ من ظلمة التواضع الكئيب تشرق الشمس فينا من جديد[1] ، فتجتمع الوحوش معاً لتضطجع في مآويها ، أي في قلوب مُحبّة للّذّات ، وليس فينا . حينئذ يقول الشياطين فيما بينهم ، " إن الرب قد عظّم من جديد صنيع رحمته معهم " . فنجيبهم نحن : " أجَل ، قد عظّم الرب صنيعه معنا فصرنا فرحين[2] ، أمّا أنتم فصرتم مطرودين " . هوذا الرب راكبٌ على سحابة خفيفة - أي نفسٍ متسامية على كل شهوة أرضية ، يوافي إلى مصر[3] - إلى قلب كان فيما سلف مظلماً، فيحطّم الأوثان صنعة الأيدي - أي أفكار القلب الباطلة .

١٥٩ إن كان المسيح ، وهو كليّ القدرة ، قد هرب جسدياً من هيرودس ، فليفهم بذلك المتهوِّرون ألاّ يلقوا بأنفسهم في التجارب . لأنه قيل : " لا تسلِّمنْ رجلك للزلل فلن ينعس الملاك الذي يحفظك "[4] .

١٦٠ ينضفر العُجب مع الشجاعة ، مثلما يلتف اللبلاب على السرو.

١٦١ ليكن لنا تحفّظ متواتر ألاّ نقبل حتى الفكر الساذج بأننا قد اقتنينا أي صلاح مهما كان . ولنواظب على فحص ذواتنا لنرى ما إذاكانت

---

(١) قارن مزمور ١٠٤ : ١٩ - ٢٣)
(٢) قارن (مزمور ١٢٦)
(٣) قارن (إشعياء ١٩ : ١)
(٤) مزمور ١٢١ : ٣ حسب الترجمة العربية يقول : " لا يسلّم رجلك للزلل ، ولا ينعس حافظك " ، أما حسب الرجمة السبعينية " لا تسلّمن رجلك للزلل ، ولا تدع حافظك ينعس " والمعنى هنا أعمق من بين النص العبري الموجود بين أيدينا ، لأن الذي يسلّم نفسه إلى الخطيئة باختياره ، يُبعد عنه النعمة ومعونة الملاك الحارس . أنظر عبرانيين ١٠ : ٢٦ - ٣١ .

هذه إحدى سجايانا ، فإن كان حالنا هكذا ، فسنفطن أننا جدُّ ناقصون .

١٦٢ لا تكفَّ عن البحث عن أعراض الآلام ، عندئذ ستجد الكثير منها فيك ؛ ولكوننا مرضى ، لا نستطيع أن نتبيَّن أسقامنا ، إنْ بسببٍ من ضعفنا ، وإنْ بسبب عمق تأصُّل الداء فينا

١٦٣ إن الله يحكم على نوايانا ، لكنه في محبته يطلب منا أيضاً أن نعمل بقدر ما في وسعنا . عظيمٌ من لا يترك شيئاً مما في طاقته دون أن يعمله ، وأعظم منه من يباشر بتواضع عملاً ما يفوق قدرته .

١٦٤ غالباً ما يمنعنا الشياطين عن مباشرة الأعمال الخفيفة والنافعة لنا ، ويوعزون إلينا أن نمارس بالأحرى أعمالاً تنوء بها كواهلنا .

١٦٥ إنني أرى أن يوسف تمجدً بسبب قطعِهِ فرصه الخطيئة ، لا لكونه بريئاً من أوجاع الخطيئة . فينبغي أن نسأل ما هي ، وكم هي الخطايا التي يستحق الهروب منها إكليلاً ، ذلك أن ارتجاعنا عن الظل شيء ، وركضنا نحو الشمس[1] شيء آخر .

١٦٦ إظلام العينين عِلَّة العثار ، والعثار عِلَّة السقوط ، والسقوط عِلَّة الموت .

١٦٧ الذين أظلم نظرهم من الخمر ، بالماء يغتسلون ؛ والذين أظلمت بصائرهم من الآلام ، بالدموع يغتسلون .

١٦٨ تلُّوث [العينين] شيء ، والعَمَش[2] شيء آخر ، العَمى شيء

---

(١) ل . د : شمس البر

(٢) العَمَش : ضعف بصر العينين مع سيلان دموعهما في أكثر الأوقات .

غيرهما . فتلـوّث البصيرة يشفيه ضبط الهوى[1] ؛ والعمش يبرئه هدوء الوحدة ؛ وعمى البصيرة تعالجه الطاعة وإلهنا الذي لأجلنا صار طائعاً[2] .

١٦٩ لنتّخذ موضعين فيهما تنظّف الأشياء السفلية ، كمثال لمكانين يخصّان أولئك الذين يطلبون ما هو فوق[3] . فنقول إن المجمع الرهباني الذي يرضي الله، يشبه مغسلة الملابس ، حيث تُنظّف النفس من وسخها وكثافتها وعاهاتها . كذلك فإن المصبغة تناظر حياة التوّحد ، لأولئك الذين سبقوا فطرحوا الشهوة وتذكّر الشر[4] والغضب ، ومنذ ذلك الوقت [فقط] ينتقلون من شركة المجمع إلى هدوء الوحدة .

١٧٠ يقول البعض إننا نسقط في نفس الخطايا لأننا لم نقدّم توبة مناسبة ، ولم نتأدّب بقدر يكافيء خطايانا . لكن قد يسأل سائل : " هل جميع الذين لم يعاودوا السقوط في نفس خطاياهم ، قد تابوا بقدر ما ينبغي عليهم ؟ "[5] .

١٧١ البعض يسقطون في ذات الخطايا ، لأنهم غاصوا في نسيان عميق لخطاياهم السالفة ، أو لأن حبّهم للّذة يجعلهم يتوهّمون أن الله رحيم مسامح ، أو لأنهم قد فقدوا كل رجاء في خلاصهم[6]. ولست أخشى لومة لائم فأقول أن علّة أولئك هي أنهم ليسوا على قدر من الكفاءة حتى يقيّدوا العدو[7] الذي يسود عليهم بطغيان العادة .

---

(١) أو الإمساك ؛ التقشف (٢) فيلبي ٢ : ٨ (٣) كولوسي ٣ : ١

(٤) ب : الحقد

(٥) بجانب حاجتنا إلى توبة مناسبة ، ينبغي أن لا ننسى حاجتنا إلى النعمة التي ننالها بصلاة الإيمان التي تشفي المريض ، بل وتقيم الميت .

(٦) ب: + أو عدموا الإيقان بالقيامة والمجازاة

(٧) ب : هذا الجسم العدو

١٧٢ ينبغي أن نستفسر لماذا النفس رغم كونها روحانية غير ماديّة ، لا يمكنها أن تعاين جوهر الأرواح التي تأتي لافتقادها ، رغم كونها واحدة معها في الجوهر[1] . ألعل هذا نتيجة اتحادها بالجسد ؟ يعرف هذا واحدٌ ، هو ذاك الذي ألّفهما معاً .

١٧٣ سألني مرةً رجلٌ جزيل المعرفة قائلاً : " أخبرني ، أخبرني لأنـي أتوق أن أعلم ، أيّة الأرواح تُذِلّ العقل عند ارتكابنا الخطايا ، وأيتها ترشـقه بالتعظّم ؟ أمّا أنا فإذ أربكني هذا السؤال ، أقررت بتأكيدٍ جهلي . عندئذ علّمني ذاك الذي أراد أن يتعلّم مني قائلاً : " هأنذا أسلّمك في كلمات قليلة ، خميرة إفراز ، ثم أتركك تبتغي الباقي بمثابرتك : إن روح النجاسة[2] ، وروح الغضب ، وروح النَهَم ، وروح الضجر ، وروح النوم ، لا تميل إلى رفع قرن العقل لكن شيطان حبّ الفضة ، وحب الرئاسة ، وإكثار الكلام ، وآخرين كثيرين ، من شأنهم أن يزيدوا على شرّهم شراً . وهذا هو السبب في أن روح الإدانة قريب من هؤلاء الآخرين .

١٧٤ إذا قضى راهبٌ ساعةً أو يوماً في زيارة أناس علمانيين ، أو في استضافتهم ، وعند افتراقه عنهم لم يبتهج ـــ ابتهاج من انفلت من قيدٍ أو مصيدة ـ بل على العكس أحس بمهماز الغم لمفارقتهم ، فهذه بيِّنة أنه صار ألعوبة المجد البطل ، أو شهوة النجاسة .

---

(١) ب : وجوهرهم يؤاخي جوهرنا : لعلنا نستطيع القول بأن جوهرنا يؤاخي (وليس واحداً مع جوهر) الملائكة من (مزمور ٨ : ٥) ؛ أمّا الأرواح الواحدة معنا في الجوهر ، فهي أرواح القديسين الذين انتقلوا ، التي نتمكن وسنتمكن من رؤيتها خارج الجسد ـ أنظر (كورنثوس الثانية ١٢ : ١ ـ ٤ ؛ كورنثوس الأولى ٢ : ٩) .

(٢) ب : شيطان الأجسام

١٧٥ سبيلنا أن نعرف ـ قبل كل شيء ـ من أيّة جهة تهبُّ علينا الريح ، كيلا نُشرع ضدّها قلوعنا .

١٧٦ عزٍّ بمودّة شيوخاً عمّالين قد طحنوا بالنسك أجسادهم ، وخوِّلهم راحة يسيرة . وألزِم بالإمساك أحداثاً قد طحنوا بالخطايا نفوسهم ، واضعاً أمام ناظري عقلهم ذكر العذاب العتيد[1] .

١٧٧ من غير الممكن ـ كما قلت في مقال آخر ـ أن نتحرّر حالاً في مستهل حياتنا الرهبانية من نهم البطن والعُجب تحرّراً تاماً . إلاّ أنه يجب علينا ألاّ نقاتل العُجب بالتنعّم بسبب أن قهر النهم يولّد في المبتدئين عُجباً ، بل الأولى أن نسود عليه بالإمساك ، فإنه ستأتي ساعة ، وهي الآن حاضرة للذين يريدونها ، حين يُخضع الرب هذا الوجع[2] تحت أقدامنا .

١٧٨ تختلف أوجاع المتقدِّمين إلى السيرة الرهبانية من الأحداث عن أوجاع الداخلين فيها من الشيوخ ، بل إن أمراض هؤلاء غالباً ما تضادّ أمراض أولئك . لذلك مبارك ، مباركٌ هو التواضع حقاً ، لأنه يجعل التوبة للأحداث والشيوخ على السواء ، سالمة ناجعة .

١٧٩ لا تضطربْ لما سأقوله . إنه توجد حقاً نفوس ـ برغم قِلّة عددها ـ صادقة مستقيمة ، غريبة عن كل شر أو رذيلة، أو رياء، أو خبث ، ولا يناسبها على الإطلاق أن تختلط بالناس . بل تستطيع بمعونة مرشدها أن تصعد من الوحدة ــ كما من ميناء ــ إلى السماء ، دون ما حاجة إلى أن تُمتحن بالاضطراب والعثرات ، التي للعيشة المشتركة .

---

(١) العتيد : الآتي . المزمع

(٢) أي العُجب

١٨٠ الفَسَقَة[١] يشفيهم أناس ، والخَبَثَة[٢] يشفيهم ملائكة ، أمّا المتكبّرون فيشفيهم الله وحده .

١٨١ ربما تكمن إحدى صور المحبة ، في أن تدَعَ أخاك الذي يجيء إليك ليعمل كل ما يريد ، مظهراً له في جميع الأحوال وجهاً باشّاً .

١٨٢ ينبغي أن نسأل : كيف وإلى أي حد ، وفي أيّة حالات يكون الندم[٣] على الخير هادماً له ، كما هو الحال بالنسبة للشر .

١٨٣ سبيلنا أن نستعمل إفرازاً كثيراً لكي نعرف متى يجب علينا أن نصمد[٤] ، وفي أي حال ، وإلى أي حدّ نصارع ضد طعام الآلام ، ومتى يناسبنا - من جراء ضعفنا - أن ننسحب من القتال ، لأنه يوافقنا أحياناً أن نفضِّل الهرب على الموت .

١٨٤ يجب علينا أن نتبصَّر ونلاحظ ؛ متى ، وكيف ، نستفرغ منّا المِرَّة[٥] بالمرارة[٦] ؛ وأن نجتهد لنعرف أيَّ الشياطين يرفعوننا إلى التعظّم ، وأيّهم يخفضوننا إلى صغر النفس ؛ وأيّهم يقسّون قلوبنا ، وأيّهم يعزّونه ؛ وأيّهم يُظلموننا ، وأيّهم يتظاهرون بإنارتنا[٧] ؛ أيّهم يجعلوننا كسالى ، وأيّهم يستحثّوننا على الخبث ، وأيّهم يجعلوننا كئيبين ، وأيّهم يجعلوننا مستبشرين[٨] .

---

(١) جمع فاسق (٢) جمع خبيث (٣) أو العدول، أو الرجوع : الكلمة الأصليّة: "ميطانيا" = (حرفيّاً) التوبة (٤) ل : + قبالة الخطيئة (٥) المِرّة : هي الصفراء عصارة حويصلة المرارة . والمرّة هنا تشير إلى ما فينا من حقد دفين وضغينة وسخط . (٦) بالمرارة : أي بالاغتياظ من أنفسنا ومعاقبتها بأعمال التوبة المرّة والنسك (٧) أو : بإلهامنا (٨) أي فرحين فرحاً غير مقدس ، أو فرحاً حسديّاً

١٨٥ لا نرتعبن إذا رأينا أنفسنا في بداية سيرتنا الرهبانية ، أكثر أنسقاماً بالأدواء مما كنا عليه أثناء تصرّفنا في العالم ، لأنه يجب أن أسباب الأمراض تتحرّك حتى نستأصلها وتحصل لنا الصحّة . إن الوحوش كانت سابقاً مستترة كل الزمان ، إلاّ أننا ما لحظناها .

١٨٦ متى عرض للذين قاربوا الكمال ـ بعارضٍ من العوارض ـ أن ينغلبوا للشياطين في أمر حقير ، فسبيلهم أن يحتالوا بكلّ ما في وسعهم من حيلة ، لينتزعوا هذه النقيصة مئة مرة .

١٨٧ كما أن الرياح في الطقس الهادئ تُحرِّك سطح البحر فقط ، لكنها في أحوال أخرى تجرف حتى أعماقه ، كذلك نستطيع أن نتصوَّر رياح الشر المظلمة ؛ إنها في أولئك المستعبَدين للآلام تهزّهم حتى عمق حسّ قلبهم ؛ أمّا بالنسبة للذين أحرزوا تقدّماً ، فإنها تحرّك فقط سطح عقلهم . لهذا ، فإن هؤلاء سريعاً ما يشعرون بعودة هدوئهم المعتاد إليهم ، لأن عقلهم لم يُصِبْه دنس .

١٨٨ من خواص الكاملين ، أن يميِّزوا دون ما خطأ أي فكر في النفس يتأتّى من ضميرهم الخاص ، وأيّ فكر من الله ، وأي هاجسٍ من الشياطين . ذلك لأن الشياطين لا يقترحون في البداية بكل ما هو رديء . ولهذا السبب ظلّت هذه المسألة مستعجمة وعسرة .

١٨٩ بفضل عينيه المبصرتين يستنير الجسد ؛ وبفضل إفراز المرئيات والروحيات تستنير عينا القلب .

موجز مختصر لجميع المراقي[1] السابقة

١ الإيمان الثابت والد الزهد[٢] ، وعكس ذلك واضح .

٢ الرجاء الوطيد باب الزهد في القنايا[٣] ، وعكس ذلك واضح .

٣ المحبة لله أساس الغربة[٤] ، وعكس ذلك واضح .

٤ الطاعة وليدة إدانةِ الذات والرغبةِ في الصحة[٥] .

٥ الإمساك والد الصحة ، والد الإمساك هو التفكّر في الموت وتذكّر دائم لمرّ وخلّ ربنا .

٦ هدوء التوحّد هو أساس الطهارة ومُعينها . الصوم إطفاء لتلهُّب الجسد . انسحاق القلب عدوٌّ للأفكار القبيحة[٦] .

٧ الإيمان والغربة هما موت حبّ الفضة . الرحمة والمودّة يضحّيان بالجسد[٧] .

٨ الصلاة المتّصلة مُهلِكة للضجر ، ذكْر الدينونة وسيلة للنشاط .

٩ حبّ الهوان شفاء للغضب .

---

(١) المراقي : درجات السلّم
(٢) أو اعتزال العالم وما فيه
(٣) أي المقتنيات
(٤) د : + الإختيارية
(٥) وردت هذه العبارة في " ل " فقط .
(٦) م . النجسة
(٧) م : يسلّمان الجسد إلى الأتعاب

١٠ التسبيح[١] ، والتحنن[٢] ، والفقر ، خانقة للغمّ .

١١ التغرّب عن المحسوسات يُنتج التأمُّل في الروحيات .

١٢ الصمت وهدوء الوحدة عدوان للمجد الباطل ، فإن كنت تعيش وسط شركة ، فاطلب الهوان .

١٣ الكبرياء المرئيّة تشفيها الأحوال الوضيعة ، والكبرياء التي لا تُرَى يُبرئها من هو منذ الأزل لا يُرَى[٣] .

١٤ الإيَّل مبيد لكافة الحيّات المرئية ، والتواضع مبيدٌ لكافة الوحوش الروحية[٤].

١٥ بواسطة الأشياء الطبيعية ، نستطيع أن نستنبط تعاليماً واضحة عن

---

(١) أو الترتيل (٢) أو عمل الرحمة ، والمشاركة الوجدانية

(٣) تيموثاوس الأولى ٦ : ١٦ . المقصود بهذه الفقرة أن الله يستخدم إزدراء الناس بنا ومقاومتهم لنا وتفوّقهم علينا ـ وأحياناً اضطهادهم لنا وقسوتهم علينا ـ ليحطّنا من الكبرياء العادية : " إن تعوّج أؤدّبه بقضيب الناس (أي أن الله يستخدم الناس كقضيب أو عصا تأديب) وبضربات بني أدم " (صموئيل الثاني ٧ : ١٤) . أمّا الكبرياء الروحية فيستلزم الشفاء منها تأديباً خاصاً من العناية الإلهية القديرة : " قبل الكسر الكبرياء ، وقبل السقوط تشامخ الروح " . (أمثال ١٦ : ٢٨) .

(٤) تشبيه الاتضاع بالإيَّل مأخوذ عن الكُتّاب القدامى الذين زعموا أن الأيائل (نوع من الغزلان) تحس بوجود الحيّات في مكانٍ ما ، فتقف على فوّهة الحفرة ساحبةً بأنفاسها الحيّة إلى خارج ، عند ذلك تلتهمها بسرعة لكن هذا يلهبها عطشاً حتى أنها إذ لم توافِ الماء في غضون ثلاث ساعات تموت . ولهذا السبب يقول داود " كما يشتاق الأيّل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله . متى أجيء وأتراءى قدام الله " (مزمور ٤٢ : ١، ٢) ويقصد بالوحوش الروحية . أوجاع الخطايا . أنظر Apoph. Patr. Syr. p.p. 217. 242 .

الأمور الروحية[١] .

١٦ كما يتعذّر على الحيّة أن تنسلخ من جلدها العتيق ما لم تزحف داخل ثقب ضيّق ؛ كذلك ما نستطيع نحن أن نطرح عنا أهواءنا[٢] السالفة ، وعتاقة النفس ، وثوب الإنسان العتيق ، ما لم نجوز في طريق صوم الضيّقة وأنواع الهوان .

١٧ كما أن الطيور البدينة[٣] لا تستطيع أن تطير نحو السماء لثقل جسمها ، كذلك من ينعّم جسده ويرضيه لا يمكنه الصعود إلى السماء .

١٨ الحمأة إذا جفّت لا تجتذب الخنازير ؛ وجسد مُنْهَك لا يجد الشياطين فيه راحة[٤] .

١٩ كما أن كثرة قضبان الحطب غالباً ما تخنق لهيب النار وتُطفئه وتُحدث دخاناً كثيراً ؛ كذلك الغمّ المتجاوز الاعتدال غالباً ما يجعل النفس مدّخنة مظلمة وينشّف منبع الدموع .

٢٠ كما أن الأعمى ليس أهلاً للرماية بالقوس ، هكذا التلميذ المناقض هالك .

---

(١) أي بتأمل المحسوسات نستطيع أن ندرك الروحيّات بالقياس ؛ وهذا ما يسمّيه مار أسحق " ثاوريا الخلائق " أي رؤية القصد والتدبير الإلهي في الخلائق المنظورة ، ومنها نتعرّف على بعض صفات الله كونه كلّي القدرة حكيماً رحيماً متلطّفاً محبّاً ... الخ . فنخلص من هذا التأمل بمفاهيم روحيّة نطبّقها على علاقتنا بالله والناس . وقد تعلّم الآباء بالروح القدس تأمّل الخلائق ، بناءً على أمر الرب " أنظروا طيور السماء ... تأمّلوا زنابق الحقل " (متى ٦ : ٢٦ - ٣٤) ، ومن أمثال الرب البسيطة التي كان يستخدم فيها المرئيات والظواهر والحوادث العادية من طبيعة الأرض والصخر والرمل والمطر والأنهار والنبات والسمك ... وغيرها ، هذه الأمثال التي كان يفسّرها لتلاميذه فينقلهم من الماديات إلى الروحيات

(٢) د : عاداتنا ل : إجحافنا أو احكامنا المسبقة prejudices . (٣) م : الدجاج (٤) متى ١٢ : ٤٣

٢١ كما أن الحديد المُعالَج يستطيع أن يشحذ الحديد الغشيم ، هكذا الأخ الحارّ غالباً ما يخلّص الكسالى .

٢٢ كما أن البيض الذي يُدفَّئ في الزبل يفقس ؛ كذلك الأفكار التي لا تُظهَر[١] تفقس وتنتهي إلى أفعال[٢] .

٢٣ كما أن الخيول في عَدْوها تسابق بعضها بعضاً ، هكذا الجماعة[٣] الصالحة يُنهِض بعضها بعضاً .

٢٤ كما أن الغيوم تحجب الشمس ، كذلك الأفكار الشريرة تُظلّم وتهلك العقل .

٢٥ كما أن من صدر عليه الحكم وهو مسوقٌ إلى الموت لا يتحدّث عن المسارح ؛ كذلك من ينوح بالصدق على نفسه لا يُرضي بطنه .

٢٦ كما أن الفقراء إذا عاينوا الخزانة الملكية يزداد إدراكهم لمسكنتهم؛ كذلك أيضاً النفس إذا قرأت عن فضائل الآباء السامية[٤] تستوعب بذلك وفرة مشاعر أكثر تواضعاً .

٢٧ كما أن الحديد ينجذب نحو المغناطيس كرهاً بفعل قوة طبيعية سرّية ؛ كذلك الذين تحوّلت نقائصهم السالفة إلى عاداتٍ تستبدّ بهم .

---

(١) ل : لا يُعترف بها ـ أنظر (أفسس ٥ : ١٢ ـ ١٤) (٢) في هذا الصدد يقول القديس يوحنا القصير: "إن الشيطان لا يُسرّ بشيء مثل سروره بإنسان لا يكشف أفكاره ويعرّيها أمام أبيه الروحي" كما يقول القديس بيمن : "إن أفكار النجاسة إذا لم تُكشف للشيوخ ، تشبه الثياب التي إذا خُزِنت دون أن تُكشف فسدت" .

(٣) أو الجمع

(٤) ل : + فعلى الأقل : والمقصود بهذا التعبير، أن الإطلاع على فضائل القديسين ، إن لم يُنشيء في النفس حرارة للإقتداء بهم . أنظر (كورنثوس الأولى ١١ : ١ ؛ عبرانيين ١٣ : ٧) ، فعلى الأقل يزوّدها بكمية وافرة من الاتضاع ويقيها الظنّ الباطل والعُجب .

٢٨ كما أن الزيت يسكن البحر كرهاً ؛ كذلك الصوم يخمد عوارض حرارة الجسد الكرهية .

٢٩ كما أن الماء تحت الضغط يندفع اندفاعاً إلى فوق ؛هكذا النفس تضغطها النوائب وغالباً ما تصعد إلى الله وتخلص بالتوبة .

٣٠ كما أن حامل الطيوب تفوح منه رائحتها ـ شاءَ أم أبىَ ـ كذلك من قد اقتنى روح الله ، من كلامه واتضاعه يُعرف .

٣١ كما أن الشمس تجعل الذهب مرئياً وتضفي عليه بهاءً ؛ كذلك الفضيلة تميِّز حائزها[1] .

٣٢ كما أن الريح تهيِّج البحر وتعكِّره ؛ كذلك يزعج الغضبُ العقلَ أكثر من كل داء آخر .

٣٣ كما أن طعاماً لم تبصره العين ، ما يشتهي أحد أن يذوقه اشتهاءً شديداً من مجرّد السماع عنه ؛ كذلك الأطهار في جسمهم يستمدّون من ذلك[2] تخفيفاً للقتال جزيلاً .

٣٤ كما أن اللصوص لا يهاجمون مكاناً فيه أسلحة ملكية منضّدة مهاجمةً كما يتّفق ؛ كذلك من ربط بالصلاة قلبه ، لن يُغير عليه[3] اللصوص الروحيون كما يتّفق .

٣٥ كما أن النار ما تولّد ثلجاً ؛ كذلك لن يتنعّم بالكرامة التي هناك ، من يبتغي كرامةً ها هنا .

---

(١) ب . م : ـ كما أن .. (٢) ل : من جهلهم | بالدنس | (٣) د : لن ينهبه

٣٦ كما أن شرارة واحدة من نار ، غالباً ما تحرق وقوداً كثيراً[١] ؛ كذلك فإن عملاً صالحاً واحداً يمحو خطايا كثيرة[٢] .

٣٧ كما أنه يستحيل علينا أن نُهلك وحشاً ضارياً بغير سلاح ؛ كذلك يستحيل أن نتحرر من الغضب خلواً من اتضاع .

٣٨ كما أننا بالطبع لا نستطيع أن نعيش بلا طعام ؛ كذلك فإلى موتنا لا سبيل أمامنا إلى التهاون ولا إلى لحظة .

٣٩ كما أن شعاع الشمس بدخوله من ثقب يضيء كل ما في البيت ، حتى أن أدقّ الغبار يظهر بالنور ؛ كذلك مخافة الله بدخولها قلب إنسان تريه كل خطاياه .

٤٠ كما أن السراطين[٣] يتيسّر اصطيادها لأنها تمشي إلى الأمام حيناً وإلى الخلف حيناً[٤] ؛ كذلك النفس التي تضحك حيناً وتنوح حيناً ، وتتنعّم حيناً ، لا تستطيع أن تحقّق تقدّماً .

٤١ كما أن النائمين يُسرق متاعهم بسهولة ، كذلك حال الذين يمارسون الفضيلة بقرب العالم .

٤٢ كما أن من يقاتل أسداً يهلك لحظة تحويل عينيه عنه ؛ كذلك شأن إنسان أثناء حربه مع جسده إذا أعطاه راحة[٥] .

---

(١) يعقوب ٣ : ٥

(٢) يقصد بالعمل الصالح الواحد المحبة - أنظر (يع ٥ : ٢٠)

(٣) جمع سرطان : وهو حشرة ذوّية

(٤) ب : + وتتقشف حيناً

(٥) يشهد على هذا القول المُستغرب داود النبي البار الذي شهد الله له أن قلبه حسب قلبه (أع ١٣ : ٢٢) حين أفسح لجسده أن يتنزّه بغير داعٍ بعد أن نهض من على سريره مُسترخياً (١ صم ١١ : ٢ - ١٢ : ١٢) . أمّا من ينكرون هذا القول ، فلعلهم يخطئون دون أن يشعروا . أمّا الراحة المذكورة أعلاه ، فليست طبعاً هي الراحة الواجب إعطاؤها للجسد ، بل راحة التنعّم والتلذّذ والرخاوة . أنظر (أفس ٥ : ٢٩) .

٤٣ كما أن الصاعدين على سلَّم نَخِرَة يخاطرون السقوط ؛ هكذا كل كرامة ، ومجد ، وسلطان تقاوم التواضع وتُهبط صاحبها .

٤٤ كما يستحيل على الجائع ألا يتفكّر في الخبز ؛ كذلك غير ممكن لتائقٍ إلى الخلاص ألاّ يتفكّر في الموت والدينونة .

٤٥ كما يمحو الماء سطور الكتابة ، كذلك تقتدر الدموع على محو الخطايا .

٤٦ كما أنه إذا أعوز الماءُ يمكن محو الكتابة بوسائل أخرى ؛ كذلك إذا أعوزت النفسَ الدموعُ ، فباغتمامها وتنهّدها وكثرة اكتئابها تلاشي خطاياها وتمحوها[1] .

٤٧ كما أن كثرة الزبل تولّد كثرة الدود ؛ كذلك كثرة المأكول تولّد كثرة من الهفوات والأفكار الخبيثة ، والأحلام[2] .

٤٨ كما أن الأعمى لا يستطيع أن يرى طريقه ؛ كذلك الكسول لا يستطيع أن يرى الصالح أو أن يفعله[3] .

٤٩ كما أن مَن قُيِّدت رجلاه ليس يمكنه أن يمشي بحريّة[4] ؛ كذلك الذين يكتنزون أموالاً لا يستطيعون الصعود إلى السماء .

٥٠ كما أن الجرح الحديث بسهولة يداوى ، والعكس صحيح ، هكذا فإن قروح النفس التي أزمنت فهي إن شفيت صَعُبَ شفاؤها .

---

(١) ل : تسحقها   د : تكشطها (مثل الكتابة)   (٢) د : + النجسة

(٣) ب ، م : – كما أن ..   (٤) د : – بحرّية

٥١ كما أن الذي مات يستحيل عليه أن يمشي ، كذلك يستحيل على من هبط في الإياس أن يخلص .

٥٢ من يقول أن له إيماناً صادقاً ويواصل الخطاء ؛ يشبه إنساناً وجهه بلا عينين .

٥٣ من ليس له إيمان ، ويعمل شيئاً من الصلاح ؛ يشبه من يستقي ماءً ويصبّه في خابية[1] مثقوبة .

٥٤ كما أن سفينة ذات مدبِّر صالح ، تبلغ بعون الله إلى الميناء ناجيةً من خطر ؛ كذلك النفس التي تتبع راعياً صالحاً تصعد صعوداً سهلاً إلى السماء ، حتى إذا كانت قد أتت شروراً كثيرة[2] .

٥٥ كما أن من لا يصطحب مرشداً ، يضل طريقه بسهولة ـ مهما كان حصيفاً ، كذلك من يسير السيرة الرهبانية مدبِّراً نفسه بنفسه بسهولة يهلك، حتى لو كان حائزاً كل حكمة بحسب العالم .

٥٦ إن كان أحدٌ ضعيفُ الجسم قد اجترم ذنوباً فادحة ، فليسلك طريق التواضع وخاصيّاته ، فإنه لن يجد للخلاص بغيرها سبيلاً .

٥٧ كما أنه لا سبيل لمن قاسى مرضاً طويلاً أن يستعيد صحّته في لحظة واحدة ، كذلك لا يمكننا أن نقهر بغتةً أدواءنا ، ولا حتى واحداً منها .

٥٨ بإزاء كل فضيلة أو داء ، لاحظ مساره ومداه ، فستعرف مقدار ارتقائك .

---

(١) جرّة ضخمة ـ الذي يعمل أعمالاً صالحة ليس إيماناً منه بالله أو محبّةً فيه ، فهو يعملها من أجل الناس ، أو من اجل منفعة ذاتيّة ؛ وهذا يستوفي أجره ليس من الله ، بل من الذي عمله لأجله : أنظر (متى ٦ : ٢ـ ١٨) . ليس المقصود بعبارة " من ليس له إيمان " الذي لا يؤمن بالمسيح ، بل الذي لا يؤمن إيماناً عمليّاً بالله : أنظر (متى ١٥ : ٢٢ ـ ٢٨ ، أعمال الرسل ١٠ : ١ ـ ٣٥)

(٢) د : لا تحصى

٥٩ كما أن الذين يقايضون[١] بالذهب طيناً يخسرون ؛ هكذا الذين يناقشون ويُشهِرون أعمالهم الروحية بسبب منفعة جسدية .

٦٠ كثيرون نالوا صفحاً عن ذنوبهم ؛ أما زوال الأسقام فما اقتناه أحد من الناس سريعاً ، لأنه يتطلب زماناً كثيراً ، وشوقاً ، ومعونة من الله .

٦١ دعنا نكتشف أيّة وحوش وأيّة طيور تجتهد للإضرار بنا في أوان البَذر ، وأيّها توافي إبّان الاخضرار ، وأيّها تأتي علينا وقت الحصاد ، لكي ننصب أشراكنا المناسبة .

٦٢ كما أنه ليس صواباً أن يقتل المجرم نفسه ؛ كذلك لا ينبغي إلى النفس الأخير أن نطرح رجاءنا .

٦٣ كما أنه مُستَقبَح ممن دفن توّاً أباه ، أن يمضي من الجنازة إلى حفل عرسه ؛ فكذلك ليس لائقاً بالنائحين على خطاياهم أن يبتغوا لدى الناس في هذا الدهر كرامةً أو راحة أو مجداً .

٦٤ كما أن مساكن أهل المدينة تغاير مساكن المساجين ؛ كذلك ينبغي أن يكون ترتيب[٢] النائحين على خطاياهم مختلفاً تماماً عما يخصّ الأبرياء .

٦٥ كما أن الجندي الذي تلقى في الحرب إصابات عديدة بحضرة ملكه ، يأمر هذا بألا يُعزل من خدمته ، بل بالحري أن يُرقّى إلى رتبة أسمى ؛ كذلك الراهب الذي اصطبر من الشياطين على نوائب خطيرة ، يكلّل من المَلك السماوي .

٦٦ الحِسّ الروحي خاصيّة للنفس خاصة . أمّا الخطيئة فهي مقرِّعة للحِسّ . الحِسّ الواعي يولّد إمّا توقُّف الشر وإمّا نقصانه ، وهو[٣] وليد الضمير . الضمير هو إرشاد الملاك الحارس وتوبيخه ، هذا الذي وُهِب لنا

(١) أي يستبدلون (٢) ل : حاجات د : عيشة (٣) أي الحسّ الواعي

منذ المعمودية . لهذا نجد أن غير المعمَّدين لا يستشعرون في أنفسهم بمثل هذه الوخزات اللاذعة من الندم على أعمالهم الرديئة .

٦٧ إنقاص الشر يلد الامتناع عنه ؛ والكفّ عن الشر هو بدء التوبة ؛ بدء التوبة هو بدء الخلاص ؛ بدء الخلاص هو بدء صلاح النيّة ؛ والنيّة الصالحة والدة الأتعاب ؛ ابتداء الأتعاب هو الفضائل ؛ ابتداء الفضائل إزهارها ؛ إزهار الفضائل هو إبتداء العمل ؛ وثمرة العمل الفاضل هي المثابرة؛ نتيجة المثابرة على العمل هي العادة ؛ ابن العادة هو الثبات ؛ الثبات في الصلاح يلد المخافة ؛ المخافة تلد حفظ الوصايا، السماوية والأرضية معاً؛ حفظ الوصايا دلالة المحبّة ؛ بدء المحبّة فيض التواضع ؛ فيض التواضع ابن لزوال الانسقام ؛ واقتناء الأخير كمال المحبّة ـ أي كمال سكنى ا لله في أولئك الذين بزوال انسقامهم صاروا أنقياء في قلوبهم[1] ؛ فإنهم سيعاينون ا لله ، الذي له المجد إلى دهر الدهور آمين .

---

(١) هذه المسلسلة '' إنقاص الشر يلد الامتناع عنه ... كمال سكنى ا لله '' نجد مثلها في أقوال كثير من الأباء . فمثلاً يُنسب للقديس أنطونيوس أبي الرهبان هذه السلسلة '' يا ابني ، قبل كل شيء لا تعدّ نفسك شيئاً فهذا هو والد الاتضاع ؛ والاتضاع يلد التعلّم ؛ والتعلّم يلد الإيمان ؛ والإيمان يلد الرجاء ؛ والرجاء يلد المحبّة ؛ والمحبّة تلد الطاعة [طاعة الوصايا] ؛ والطاعة تلد الثبات بلا تزعزع '' أمّا يوحنا كاسيان ، الذي تتلمذ على أباء الإسقيط فيقول : '' إن بداية الخلاص والحكمة هي مخافة ا لله ؛ ومن المخافة يتولّد الحزن والندم المملوءان سلاماً ؛ ومن الندم ينبع الزهد ومحبة التجرّد [من المقتنيات ، أي الفقر الإختياري] ؛ ومن الزهد يتولّد الاتضاع ؛ ومن الاتضاع تموت الشهوات ؛ وبالإماتة تُقتلع المعاثر والخطايا ؛ وباقتلاع المعاثر والخطايا ينبت برعم الفضيلة وينمو ؛ وبنمو الفضيلة في النفس تتولد نقاوة القلب ؛ ونقاوة القلب توصّل إلى المحبّة الرسولية وهي الكمال '' ـ هذه المسلسلات مختلفة بعضها عن بعض باختلاف شخصيات واضعيها ، لأن كلاً منهم يتكلم عن اختباره الخاص . لذلك لا يمكن وضع منهج محدّد واحد لجميع الساعين نحو الكمال ، لأن '' هناك أعمال مختلفة ، لكن ا لله واحد ، وهو يعمل كل شيء في الجميع '' (كورنثوس الأولى ١٢ : ٦) ؛ أو كما يقال في صلوات القداس الإلهي : '' وعلّمنا طرق الخلاص '' .

الدرجة السابعة والعشـرون

هدوء توحّد[1] الجسد والنفس

١ إن حالنا حال عبيد قد ابتاعتهم الأوجاع النجسة وقيّدتهم ، من ثـمّ نعرف أهواء الأرواح التي تسود على أنفسنا الشقية وأساليبها ، وطغيانها ، ومراوغتها، معرفة جزئية . إلاّ أنه يوجد آخرون غيرنا ـ بفعل الروح القدس، وبسبب انعتاقهم من تسلط تلك الأرواح ـ عالمون تماماً بحِيَلِهم . فأولئك من المعاناة التي يسببها مرضهم ، يستطيعون أن يحدسوا فقط الراحة التي تلحق بالصحة ؛ أمّا هؤلاء ، فلتمتّعهم بالعافية ، قادرون على تكوين أفكار والانتهاء إلى نتائج ، بشأن الشقاء الذي يلازم المرض . ولهذا السبب نتردّد نحن ـ كوننا ضعفاء ومرضى ـ عن التفلسف في مقالتنا في وصف ميناء الهدوء الوَحدي ، لعلمنا أن كلباً من الكلاب يجول كل حين حول مائدة مجمع الشركة الصالحة، مرتاداً أن يختطف منها كسرة خبز ـ أي نفساً ـ؛ فإذا حملها بفمه يهرب بعيداً ليلتهمها في هدوء الوحدة . فإذ لسنا نريد بمقالتنا أن نخوِّل موضعاً لذلك الكلب ، وفرصة للذين يريدون فرصة ، نحتسبه غير لائق أن نتحدّث عن السِلم إلى محاربي ملكنا الشجعان المناضلين في معركة السماء . إنّما نقول إنّ أكاليل السلامة والسكون ، إنما تُضفَر لأولئك الذين يحاربون

---

(١) hésychia = ἡσυχία : الهدوء ، السكون . ويقصد به الحياة التوحدية . فالساكن في الإنفراد ، أو المنفرد في السكون (أو الصمت) ، أو المنعزل في الهدوء ؛ ـ كلها تعابير مختلفة ذات معنى واحد لما نسمّيه بلفظة واحدة " المتوحد " ، أو " الساكن "أمّا قصد التوحّد ، فهو العبادة والتأمل ، والاتحاد بالله ، والتغيّر إلى صورته . والتعمق في معرفته ، والتعرّف على أعماق الشيطان وأنواع حروبه ، والصلاة من أجل الكنيسة والعالم .

بأوفر قوّتهم دون أن يفترّوا. ولأننا نتحاشى أن نُحزن قوماً ــ بعد أن قلنا مقالاتٍ في أبواب كثيرة ــ بإهمالنا حتى مجرد الإشارة إلى هذا السكون المنفرد . لذلك ـ إن شئتم ـ نتكلم بالإيجاز عنه ، إن كان لمجرد شرح ما هو .

٢ سكون الجسم هو معرفة العوائد والحواس ، وتقويمها . هدوء النفس عِلمٌ بأفكارها وعقلٌ لا يُسلَب .

٣ صديق التوحّد ، فكرٌ شجاع صارم ، ملازمٌ أبوابَ القلب خلواً من نُعاس ليقتل الأفكار التي تداهمه[1] أو يطردها . فالذي يمارس التوحّد بحس قلبه، يعرف هذا الذي قلته ، أمّا مَن لازال طفلاً ، فلم يعرفه بعد أو يذُقْهُ .

٤ المتوحّد المتجمّل بالمعرفة لا يحتاج إلى أقوال، لأنه بأعماله يستنير بشأن ما تريد الأقوال أن توضّحه[2] .

٥ ابتداء التوحّد[3] هو إبعاد كل ضجّة ، إذ أنها تسجّس أعماق النفس . اكتمال السكون زوال الخوف من أي شغَب ، وبقاء القلب منيعاً .

٦ الذي يخرج إلى خارج دون أن يخرج من صمته محبوب ، وهو بجملته مسكن للحبّ .

٧ الذي لا يُستَحثُّ بسهولة إلى الكلام ، لا يتحرك إطلاقاً إلى الغضب ـ وعكس هذا واضح .

---

(١) أي تباغته ؛ تأتي عليه فجأة (٢) ل : لأنه يعبّر عن أقواله بأعماله ـ أي أنه لا يحتاج إلى أقوال يعظ بها غيره لأن أعماله تتكلم ـ انظر (مزمور ١٩ : ٣، ٤) . أمّا النص المذكور بعاليه فمعناه أن المتوحد لايحتاج إلى أقوال تُقال له أو إلى تعاليم تنير له طريقه ، لأنه من خلال أعماله المقدسة وأتعابه يُلهَم بما يحتاجه من معارف أو إرشاد .

(٣) يجدر التذكير بأن التوحّد والسكون والهدوء والانفراد والوحدة مترادفات في هذا الباب ذات معنى واحد ، وبالمثل : المتوحّد ، والهادئ ، والمنفرد ، والساكن .

٨ الساكن هو الراغب أن يحبس غير الجسداني، في مسكن جسداني ؛ وهذا غريب مستطرف[١] .

٩ القطة تراصد الفأر ؛ وعقل الساكن يراصد الفأر المعقـول . لا يكونن هذا التشبيه عندك هراءً[٢]، وإلاّ ، فأنت لم تعرف بعد معنى السكون.

١٠ لا يستطيع أحد أن يتوحّد،مثلما يستطيع أن يصير راهباً يعيش مع راهب آخر. إن المتوحِّد يحتاج إلى يقظة كثيرة وإلى عقل لا يطيش[٣] . الـذي ليس وحده يُعان غالباً من رفيقه ، أمّا المنفرد [فيحتاج] لنجدته إلى ملاك .

١١ القوات الروحانية تشترك في الخدمة[٤] مع ذي النفس الساكنة ، وتؤْثِر الإقامة معه . عكس هذا لن أتكلم أنا عنه .

١٢ إن لجَّة العقائد عميقة، لكن عقل الساكن يَثِبُ[٥] فوقها بلا خطر[٦].

---

(١) د : وهذه مضادة paradoxe فائقة (٢) الهراء : الكلام الفارغ

(٣) يقصد بطياشة العقل تشتّته أو تشاغله أو إلتهاؤه عن اليقظة الروحية والصلاة الداخلية

(٤) اي في التسبيح بالمزامير وغيرها (٥) أي يقفز (٦) أي أن اللاهوت ليس علماً نظرياً يُلقَن، بقدر ما هو موهبة إعلان ومعرفة خاصة من مواهب الروح القدس، توهب لمن له إيمان صحيح وتقوى بحسب وصايا الإنجيل: + " الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني ، والذي يحبني ...أظهر له ذاتي ". (يو ١٤ : ٢١) + " ليس أحد يعرف الابن إلاّ الآب، ولا من هو الآب إلاّ الابن، ومن أراد الابن أن يعلن له " . (لوقا ١٠ : ٢١ ، ٢٢) + " إذ سمعت بإيمانكم بالرب يسوع . ومحبتكم نحو جميع القديسين ...ذاكراً إياكم في صلواتي، كي يعطيكم.. روحَ الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم (أفسس ١ : ١٥ – ١٨) + " ... ما لم ترَه عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يخطر على بال إنسان ... فأعلنه لنا الله بروحه ، لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله ... هكذا أمور الله لا يعرفها أحد إلاّ روح الله " (كورنثوس الأولى ٢ : ٩ - ١١) . فإن كان أثناسيوس حامي الإيمان ، وكيرلس عامود الدين ، وديسقوروس بطل الأرثوذكسية ، وشنودة رئيس المتوحدين ، ومكاريوس الأسقف وأمثالهم ، هم بالذات الذين تمسكوا بالحق الإلهي فأناروا للعالم حقائق اللاهوت ، فهذا يرجع قبل كل شيء إلى تقواهم وتعففهم وانتهاجهم سبيل المحبة والتواضع ، ففتح المسيح ذهنهم ليفهموا اللاهوت . انظر (لوقا ٢٤ : ٤٥) . راجع ٣٠ : ٢١ – ٢٣ .

١٣ ليس آمناً مَن يسبح بملابسه ؛ ولا من يمارس التكلُّم في اللاهـوت وهو بعد عبدٌ للآلام[1] .

١٤ قلاية المنفرد حاصرة لجسمه ، حاوية في باطنها خزانة معرفة .

١٥ من هو سقيمٌ بواحـد مـن الأسـقام النفسـانية ، ويعتنـق التوحُّـد ، يشبه رجلاً يقفز من السفينة إلى البحر ، متوهّماً أنه يستطيع بلـوغ الشـاطئ على لوحٍ بلوغاً خالياً من خطر .

١٦ جميع الذين يقاتلون طـين جسـمهم ، يوافقهـم هـدوء الإنفـراد في وقته المناسب ، فقط إذا كان لهم مرشد ؛ ذلك أن حياة التوحُّد يلزمهـا قـوة ملائكية .

١٧ المتوحِّد الذي احتواه الكسل يكذب ، يسـتحث النـاس بالإشـارة أن يقطعوا سكونه ، وإذ يغادر قلايته يتعلّل بالشياطين ، وقد خَفِي عليـه أنـه هو قد صار شيطاناً لذاته .

---

(١) هذا القول يكشف لنا سر عدم نجاح بعض المؤتمرات أو المجامع اللاهوتية - في الماضي أو الحاضر إذ يوضـح علّـة الضلال الذي وقع - ولا يزال يقع - فيـه كثـيرون مـن المشـتغلين بـاللاهوت ، لأن المسـتعبَد لألم مـن آلام الخطايـا - ولاسـيما المجـد البـاطل - لا يتكلـم بإيحـاء مـن روح الحق ، بـل مـن ذاتـه أو " مـن العـالم ... وروح الضـلال " انظر (يوحنا ١٦ : ٣ ، يوحنا الأولى ٤: ٥ ، ٦) ، لذلك لا يحق له ممارسة اللاهوت ، لئلا يهلـك نفسـه ونفـوس آخرين : " ليس أحد يقدر أن يقول أن يسوع ربّ [وبالتالي ، أن يتكلم في اللاهـوت] إلاّ بـالروح القـدس " . (كورنثوس الأولى ١٢ : ٣) . وفي هذا أيضاً يقول القديس أنطونيوس الكبير عن أريوس المبتدع : " لأنه لو كان قد عرف ذاته لما تجرّأ على لاهوت الابن الوحيد " . هذا فضلاً عن أن المعرفة اللاهوتية بحدّ ذاتها - أي بغـير تقـوى السيرة والسريرة - لا تُخلّص صاحبها ، إذ أن الشياطين أنفسـهم لديهم معرفة لاهوتية كبـيرة : + " مالنـا ولـك يـا يسوع الناصري ،أتيت لتهلكنا . أنا أعرفك من أنـت قـدوسُ الله " (مرقـس ١: ٢٤) + " والأرواح النجسـة حينما نظرته خرّت له وصرخت قائلة إنك أنت ابن الله " (مرقس ٣ : ١١) + " فأجاب الروح الشرير وقال: أمّا يسوع فأنا أعرفه ، وبولس أنا أعلمه " . (أعمال الرسل ١٩ : ١٥) .

١٨ رأيت متوحِّدين يُشبعون بغير شبع شوقهم الملتهب إلى ا لله ، مولّدين من نارهم ناراً ، ومن حبّهم حبّاً ، ومن شوقهم شوقاً .

١٩ الساكن هو صورة ملاك أرضية ؛ قد أعتق من الكسل والتواني صلاته بقرطاس[1] شوقه وسطور حرارته .

٢٠ المنفرد في السكون ، هو ذاك الذي يهتف علانية : " مستعدٌ قلبي يا ا لله "[2] ؛ وهوالقائل : " أنا نائم وقلبي ساهر[3] " .

٢١ اغلق باب قلايتك على جسدك وباب لسانك دون الأحاديث وباب الداخل دون الأرواح[4] .

٢٢ يُختبَر صبر الملاّح في حرارة الظهيرة ، أو في سكون الرياح ؛ وثبات الساكن وحده يُمتَحن بالعوز إلى الضروريات . الأول عندما تخونه همّته يسبح في الماء ؛ والثاني عندما يضجر يختلط بالجموع

٢٣ لا تخشى التوافه المُرجِفة ، فإن النوح لا يعرف جبناً ، ولا يفزع منها .

٢٤ الذين تعلّم عقلُهم الصلاة حقاً ، يحادثون الرب وجهاً لوجه ، كمن يُكلّم الملك في أذنه ؛ والذين يصلّون بالفم ، فهؤلاء يجثون أمامه كما في حضرة خاصّة بلاطه ؛ أما أولئك المقيمين في العالم ، فإنهم يبسطون لدى الملك مسائلهم وسط جَلَبة الجماهير كلها. إن كنت قد تعلّمت فنّ الصلاة ، لن يغبى عليك ما قلتُه .

(١) قرطاس : ورقة (٢) مزمور ٥٧ : ٧ (٣) أنشاد ٥ : ٢ (٤) ل ، د : + الشريرة .

٢٥ اجلس في علو مرقبك[١] وارصُد - إن كنت تعرف كيف ترصد - فسترى حينذاك كيف يدخل السُرّاق ليسرقوا عناقيدك ، متى يجيئون ، ومن أين يأتون ، كم عددهم ومن أي نوع هم .

٢٦ عندما يتعب الرقيب ينهض للصلاة ، ثم يجلس أيضاً ليمارس عمله الأول بأوفر شجاعة .

٢٧ أراد خبيرٌ بهذه الأمور أن يصفها بدقّة وتفصيل ، لكنه خشي أن يبرِّد حرارة الفعلة الروحيين ، وأن يخيف بضجّة أقواله أولئك العازمين على مباشرتها فيهربون[٢] .

٢٨ الذي يتحدّث عن التوحُّد بدقّة واستقصاء وخبرة ، يثير عليه الشياطين ، إذ ليس آخر يستطيع أن يُشهِر قباحة أعمالهم .

٢٩ من قد بلغ سكون الوحدة ، فقد بلغ معرفة عمق الأسرار . لكنه ما كان لينحدر إلى عمقها ، لو لم يكن قد عاين أولاً وسمع جلبة الأمواج والرياح[٣] ، ولعلّه قد ابتل أيضاً بهذه الأمواج . يؤكد ما قلته الرسول العظيم بولس ، لأنه لو لم يُختطف إلى الفردوس - كما إلى سكون الوحدة - لما كان قد سمع " كلماتٍ لا يُنطق بها "[٤] .

(١) م : المنطرة : وهي البرج الذي يُلحق بالكرم لنطارته أي لحراسته والسهر عليه . انظر (نشيد الأناشيد ١ : ٦ ؛ ٨ : ١١) (٢) أي أراد القديس يوحنا واضع هذه السلّم الروحية - أن يتحدث أكثر في وصف حياة السكون والتوحّد ، لكنه خشي أن يتوق إليها بعضٌ من العائشين معاً في رهبانية الشركة قبل أن يؤهّلوا لها ، فتفتر همّتهم عن ممارسة أعمال الطاعة في المجمع، وخاف كذلك إذا وصف الأهوال والتجارب الخاصة بالمتوحدين ، أن يخيف بذلك من عزموا على التوحد عن جدارة فيمتنعون . (٣) أي الأرواح [الشريرة] ، لأن الروح والريح في اللغتين اليونانية والعبرية كلمة واحدة . انظر (حزقيال ٣٧ : ٩) (٤) كورنثوس الثانية ١٢ : ٤

• ٣ إن أُذن المتوحِّد تقتبل من ا لله كلماتٍ عجيبة . لذلــك قــال ذلــك الرجل المملوء حكمةً، في سفر أيوب، " أَلَمْ تقتبل منه أذني عجائب ؟ "[١].

٣١ الساكن هو الذي يهرب مـن جميـع الناس ـ إنما في غـير مقـت ، مثلما يسرع غيره إليهم ـ إنما بغير شغف . ذلك لأن الســاكن في الوحـدة لا يشاء أن يُحرم من حلاوة ا لله لحظة .

٣٢ اذهب فبدِّد ما تملكه سريعاً ـ لأن اذهب فبـعْ تسـتغرق وقتـاً[٢] ، وأعطه للرهبان المســاكين لكـي يصاحبوك بصلواتهـم إلى سكون الوحـدة . وارفع صليبك حاملاً إياه بالطاعة، واصبر بقوة على حمل نير قطع مشيئتك . بعد ذلك تعال اتبعـني[٣] إلى الاقـتران بالسـكون المغبـوط ، فـأعلِّمك صناعـة قوات غير المتجسّدين وسيرتهم المنظورة . أولئك ما يشبعون إلى أبد الدهـور من تسبيح خالقهم ؛ وكذلك من قد بلغ سماء السكون لن يكفَّ عن تسـبيح مُبدِعه . أولئك الغير هيوليــين[٤] مـا يهتمّـون بشـيءٍ مـن الهيوليـات[٥] ؛ ولا هؤلاء الذين صاروا غير هيوليين في جسم هيولي يهتمون بالطعام . أولئك مـا يحسّون بالأطعمة ؛ وهـؤلاء ليسـوا بحاجـةٍ إلى مـودَّة[٦] . أولئـك مـا تُقلِقُهـم أموال وأملاك ؛ وهؤلاء لا يُقلِقُهم خبث الأرواح[٧] . أولئك الذين من فوق في السماء ليست لهم شهوة إلى خليقة منظورة؛ وهؤلاء هنا من أسفل ليست لهم شهوة إلى المحسوسات . الأولون ما يتوقّفون أبداً عـن الإرتقـاء في المحبّـة؛ والآخيرون ما يكفّون كل يوم عن مباراتهم[٨]. أولئـك مطّلعـون جيّـداً علـى

---

(١) أيوب ٤ : ١٢ ـ ١٨ حسب الترجمة السبعينية (٢) متى ١٩ : ٢١ (٣) متى ١٦: ٢٤
(٤) الغير ماديّين (٥) الماديّات (٦) أي إلى ولائم المودّة ـ انظر (يهوذا ١٢ ؛ رومية ١٢ : ١٠)
(٧) ل ، د : + الشريرة (٨) أي منافستهم في ذلك

غني تقدّمهم؛ وهؤلاء مولعون بحبّ الصعود. أولئك ما يتوقّفون حتى يُلحَقوا بالسـيرافيم[1] ؛ وهـؤلاء لا يكلّون إلى أن يصـيروا ملائكـة . فمـن يؤمّـل[2] مغبوط ، والموشك على الوصول مثلث الطوبى ، أمّا من قد بلغ فهو ملاك.

مظاهر السكون المختلفة وكيفية تمييزها

٣٣ معروف للكل ، أنـه في جميع العلوم توجـد اختلافـات في الـرأي والقصد ؛ لأن ليس كل شيء عنـد جميـع النـاس كـاملاً ، إمّـا بسـبب نقـص الاجتهـاد ، أو بسـبب نقـص الاسـتعداد [الطبيعـي] . لذلـك فـإن البعـض يدخلون هذا الميناء ، أو بالحري هذا البحر ، أو ربما هـذه اللجّـة العميقـة ، لأنهم معوزون إلى ضبط لسانهم ؛ أو بسبب عادة جسدية سالفة ؛ أو لأنهم أشـقياء مسـاكين لا يملكـون زمـام غضبهـم ولا يسـتطيعون قهـره في وسـط الجماعة ؛ غير هؤلاء مَن يدخلون التوحُّد بدافعٍ من تشـامخهم إذ يظنـون أنـه أفضل لهم أن يُبحِروا على هواهم مـن أن ينقـادوا بهداية غـيرهم ؛ آخـرون يدخلونه لأنهم ما يستطيعون الإمسـاك عـن الهيوليـات[3] وهـم في وسـطها ؛ وقومٌ يقصدون أن يقتنوا من الوحدة حرارة؛ وآخرون ليعذّبوا أنفسهم خفيـةً على خطاياهم ؛ وبعض يدخلونها ليكتسبوا بها مجـداً لذواتهـم ؛ غـير هـؤلاء أيضاً ـ إن كان ابن الإنسان متى جاء يجد على الأرض قوماً هذه حالهم ـ مـن يُزَفّون للوحدة المقدسة بدافعٍ مـن عطشـهم إلى التنعّـم بحبّ الله وحلاوتـه . لكنهم ما يكمّلون هذا الاقتران ، قبل أن يعطوا كل الضجر كتاب الطلاق ، لأن مؤالفة الضجر تبدو بالنسبة إلى السكون كأنها زنا .

---

(١) ل : يبلغوا الكمال السيرافيمي . (٢) ب : + هذه الرتبة (أي التوحُّد) (٣) ب : مواد الشهوات

٣٤ وعلى قدر معرفتي الهزيلة ـ كوني مثل نجّار غير حكيم ـ قد نجّرت سلّماً للصعود . فلينظر كل واحدٍ من الداخلين إلى سكون التوحّد على أيّـة درجة هو واقف : أمِنَ اتّباعه هواه ، أم لأجل مجد الناس ؟ ألاعتلال لسانه ، أم من سيادة غضبه ، أم مـن عظـم إنجذابـه إلى الماديّـات ؟ ألكـي يفـي ديـون خطاياه ، أم ليزداد غيرة وحرصاً ، أم ليستـمد لناره نـاراً ؟ فالأخـيرة تصـير الأولى ، والأولى أخـيرة . السـبعة الأوائـل هـي أعمـال أسبـوع هـذا العـالم ، بعضها مقبول وبعضها لا. أمّا الثامنة فمن البيِّن أنها تحمل ختم العالم العتيد .

٣٥ ارصد أيها الراهب المنفرد، كن ساهراً وقتما تجوس[1] الوحوش ؛ فإنك ما لم تسهر ، لن تستطيع أن تنصب مقابلها الأشراك الملائمة . إن كـان الضجر الذي طلّقته قد انتزح عنك ، فالعمل[2] فضلة زائدة ؛ أمّا إن كان ما يزال يتعرّض لك ، فلست أعرف كيف تستطيع أن تعيش في الوحدة.

٣٦ مـا السـبب في أنـه لم يصـر بـين آبـاء طبانيسـي القديسـين نـيِّرون كثيرون بهذا المقدار مثل أولئك الاسقيطيين ؟ فمن يفطن هذا فليفطن . فإنني لا أستطيع ـ أو بالحري لا أشاء ـ التكلّم في هذا[3] .

٣٧ البعض مـن هـؤلاء ، كـانوا يُنقِصـون أسـقامهم ، والبعـض كـانوا يرتّلون ثابتين معظم أوقاتهم في المزامير ، ومنهم من كانوا منكبّين على التأمل

---

(١) تجوس : تطوف خلسة بحثاً عن فريسة (٢) م : عمل اليدين

(٣) بقدر ارتفاع حياة السكون المنفرد والصلاة والتأمل ، التي أسسها القديس أنبـا مقار في الاسـقيط (شـيهيت) على حياة العمـل والصـلاة في الشـركة الرهبانيـة الـتي أسـسها القديـس بـاخوميوس في طبانيسـي . انظر (فهرس الأماكن) ، بقدر ذلك تتفوّق مواهب الأولى على الثانية بصفة عامة .

يلبثون في عمق الثيؤريا. فعلى حذو السلّم ينبغي أن يُطلَب هذا المطلوب[١] ومن استطاع أن يقبل هذا ، فليقبله بالرب[٢] .

٣٨ هناك نفوس كسولة تعيش في أديرة الشركة ؛ فإذا تَمكّن انغماسها فيما يغذّي كسلها[٣] ، انتهت إلى هلاكٍ تام . كما توجد أيضاً نفوس تنسلِخ من توانيها بسبب إقامتها مع آخرين[٤] . وهذا الأمر لايحدث فقط للمتهاملين ، بل غالباً ما يحدث أيضاً للنشطاء[٥] .

٣٩ نستطيع أن نستعمل نفس هذه القاعدة بالنسبة لحياة السكون أيضاً . لأنها قبلت كثيرين على أنهم أهل لها ثم صاروا بعد ذلك غير مستحقّين إذ ساروا على هواهم ، فأدانتهم وطرحتهم لكونهم محبّين للّذّات[٦] . بينما اقتبلت حياة الوحدة آخرين فصاروا أكثر غيرة وأوفر حرارة ، من جرّاء مخافتهم وتوقّعهم للدينونة .

٤٠ من لا يزال يقاسي من الغضب والتشامخ[٧] ، والرياء ، وتذكُّر الشر ، يجب ألاّ يجترئ أن يضع قدماً على طريق التوحّد ، خشية ألا يكتسب إلاّ خَبلاً وذهولاً . فإن كان أحد نقيّاً من هذه الأدواء، فسيعرف ما يوافقه ، ولعله لا يعرف ذلك بنفسه[٨] .

---

(١) أي أنّه في الحياة الروحية ـ بصفة عامة ـ وفي الحياة الرهبانية ـ بصفة خاصة ـ ينبغي لنا التدرّج من درجة إلى درجة ، أو من مستوى إلى مستوى ـ على مثال السلّم . وتوضح هذه الفقرة التدرّج من السلبية (مكافحة الآلام) إلى الإيجابية (عمق الثيؤريا الإلهية ، والاتحاد با لله) لكنه لا يمكن تحديد التدرّج الروحي تحديداً قاطعاً بقواعد ثابتة وفواصل حادة بين الدرجات المختلفة للنمو الروحي ، الذي يختلف من شخص إلى آخر ، لأن الروح القدس " يهبّ حيث يشاء " ، ووقتما يشاء ، وكيفما يشاء ، وقدرما يشاء .

(٢) متى ١٩ : ١٢ (٣) مثل النهمَ في الأكل ، وفي النوم ، والبطالة ، والخلطة ...الخ (٤) أي مع حارّين بالروح نشطاء محترصين . (٥) أي أنهم يجنحون من النشاط إلى التواني من خلال اختلاطهم بالمتهاملين .

(٦) تيموثاوس الثانية ٣ : ٤ (٧) ل : العُجب (٨) أي لعله لايعرف إن كان التوحُّد يوافقه، إلاّ بمعونة مرشده .

٤١ هذه علامات الذين يمارسون هدوء الوحدة على وجهها السوي ، وخواصهم ، وأعمالهم : عقلٌ على الدوام ساهر ، فكر مقدّس ، دَهَش جَذِل نحو الله ، إستذكار العذابات الدهرية ، رغبة للموت ملحّة ، جوع دائـم إلى الصلاة ، احتراس لا يُسلب ، انطفاء الشهوة[١] ، جهـل بـالتعلق بالماديّـات ، موت عن العـالم ، زوال النهـم ، كفـاءة في اللاهـوت ، ينبـوع إفـراز ، هبـة الدموع ، استبعاد الثرثرة ، وأشياء أخرى كثيرة مثل هذه ، يميل عامة النـاس إلى الاغتراب عنها تماماً .

٤٢ هذه علامة الذين يباشرون سكون الانفراد عن غـير معرفـة : قلّـة الثروة [الروحيـة] ، تزايـد الغضـب ، تراكـم الحقـد ، نقصـان الحـبّ ، نمـو الصَلَف[٢] ، أما ما يتلو ذلك فأصمت أنا عنه[٣] .

٤٣ قد بلغ مقالنا الآن نقطة يلزمنا عندها أن نعتبر الذيـن يعيشـون في حال الطاعة ، لا سيما أن هذا المقال يعنيهم خصوصـاً : أمّـا دلائـل المقـترنين بالطاعة الجميلة المرتّبة ، اقتراناً شرعياً مخلصاً نقيّاً من الفسـق ـ كمـا حقّقهـا وعلّم بها الآباء لابسو الروح ـ أولئك الذين بتقدّمهم فيها ونموّهم كل يوم ، يبلغون اكتمالها في الوقت المناسب فهـي [الدلائـل] هـذه : تزايُـد التواضـع الأوَّلي[٤] ، نقصان الغضـب ، وكيـف لا ينقـص وقـد استُفرِغَت مرارتهـم ؟ استنارة الظلمات ، ازدياد الحبّ ، اغترابٌ عن الآلام ، خلاصٌ من المقـت ، نقصان الشهوة الناتج عن إدانة الذات ، جهـلٌ بـالضجر ، تزايـد الحماسـة ، حبٌّ متحنّن ، طرد الكبرياء . تلك هي المآثر الـتي يطلبهـا كثـيرون وقليلـون

---

(١) ب : إماتة الزنا (٢) أي التشامخ ؛ التكبّر (٣) ل : أي أصمـت عـن ذكـر السـقطات الجسدية والأخبال العقلية (٤) أي تواضع المبتدئين الذي يختلف عن اتضاع الكاملين انظر ٢٥ : ٦ ، ٤٩ .

هم الذين يجدونها . البئر إذا نضب ماؤها لا تستحق اسمها ، وما يتلـو ذلـك يعرفه كل فهيم[١] .

٤٤ إن عروساً لم تكن أمينة لمضجع الزوجية ، قـد دنّست جسـدها ؛ ونفساً لم تكن أمينةً لنذرها قد دنّست روحها . فالأولى يلحقها الـذمّ والمقـت والضرب ، وأشقى من كل هذا : الطلاق ؛ والثانية تلحقها الأدنـاس وزوال الشبع عن البطن ، عدم احتشام العينين، وممارسة العمل لأجل المجد الباطل ، الاستسلام للنـوم ، وقسـاوة القلـب ، وزوال الحـسّ ، توافـر الأفكـار ، والتنازل معها[٢] ، استباء[٣] القلب ، انزعاج في العمل ، عصيان ، الانجذاب إلى الأشياء[٤] ، قلّة الإيمان ، الشكوكية[٥] ، والـثرثرة ، وأردأ مـن الجميـع : الدالـة[٦] ، ومـا يـزال أكـثر شـقاوة : قلـبٌ خـالٍ مـن التخشّـع ـ وهــو في المتهاونين متبوع باللامبالاة ، التي هي أمّ الأرواح الشريرة والسقطات .

٤٥ مـن بـين [الأرواح الشـريرة] الثمانيـة ، هنـاك خمسـة تهـاجم المتوحّدين[٧] ، وثلاثة تغير على العائشين في الطاعة[٨] .

٤٦ غالباً ما يعاني المتوحّد خسارة فادحة ، حتى في محاربتـه للضجـر ، لأنه يضيـع الوقـت الواجـب تكريسـه للصلاة والتأمّل ، في اختراع الحيّل ومكابدة المصارعات ضد الضجر .

---

(١) أي أن الراهب الذي تعوزه هذه الفضائل التي ذُكرت ، لا يستحق أن يُدعى راهباً تحت الطاعة.

(٢) تنازل الرجل : انحطّ عن درجته وتساهل . (٣) من : سبى سبياً وسباءً (٤) أي شهوة الاقتناء

(٥) أي النزوع إلى الشك (٦) د : حرية الكلام والعمل (أي التكلّم بلا ضابط ، والعمل كما يتفق وكيفما يتفق ، دون التزام)

(٧) هي الكبرياء ، المجد الباطل [أو العُجب] ، الوثنية [وهي الاسترخاء والكسل] ، الضجر ، شهوة الاقتناء . (٨) هي النَهم ، الغضب ، شهوة النجاسة [أو الزنا] .

٤٧ حـدث مـرة أن كنـت جالسـاً في قلايـتي متضجِّعـاً[١] مفكّـراً في مغادرتها . لكن أناساً ألّموا بي[٢] ، وجعلوا يطوّبونني تطوبياً ليس بقليل على توحّدي وسكوني ؛ فللوقت أعطى فكر التواني موضعاً لفكر المجد البـاطل . فعجبت كيف يضّاد هذا الشيطان ذو القرون[٣] الثلاثِة الأرواحَ كلها .

٤٨ لاحظ كل ساعة قرعات[٤] قرينك[٥]، وميوله ، وفواجئ تقلّباته ؛ وانظر كيف وأين يسدِّد لكماته .الذي قد اقتنى بالروح القدس هـدوءاً فهـو وحده الذي يميّز هذا الأمر .

٤٩ إن أول عمل يتقـدّم علـى أعمـال الانفـراد ، هـو زوال الاهتمـام بكل الأمور ، سواء التي يجدر الاهتمام بها أم لا ، لأن من يُفسـح للأُوليـات سيسقط ولا ريب في الأُخريات . العمل التالي هو صلاة جادّة[٦] . أمّا العمل الثالث فهو عمل القلب الذي لا يُسلَب . من لا يعرف الألفباء ، يتعذّر عليه طبعاً أن يدرس في المصـاحف ؛ كذلـك يستحيل استحالة أشدّ علـى مـن لم يُحكِم العمل الأول أن يسلك السبيل الصحيحة إلى الأخيريْن .

٥٠ حدث عند انشغالي بالعمل الأوسـط ، أنـني حصلـت بـين الرتـب الوسطى[٧] ؛ فأنارني واحدُ منهم إذ كنت متعطشاً[٨]. ومـرة أخـرى صـرت بينهـم ، فسـألت : " مـاذا كـان المبـدأ [٩]قبـل أن يصـير إلى الصـورة[١٠]

---

(١) اي متكاسلاً (٢) أتوني ونزلوا بي (٣) ب : الحسكات (٤) ضربات السوط أو المقرعة
(٥) أي شيطان الضجر (٦) ب : زال الضجر منها م : دائمة بلا ملل (٧) أي بين الملائكة : الوسـطاء بين الله والبشر (٨) أي إلى الاستنارة والمعرفة الإلهية ـ كما يُفهم من باقي الفقرة.
(٩) المَبْدأ : ἡ ἀρχή .انظر (كولوسي ١ : ١٨ ، رؤيا ٢٢ : ١٣)، أي العلّة الأولى غير المعلولة، علّة المعلولات أو الموجودات أو الخلائق . راجع (رؤيا ٣ : ١٤) : أي الإله (١٠) الصورة ἡ μορφή ـ والمقصـود بالسـؤال : ماذا كان المسيح قبل أن يتجسّد ويصير إنساناً ؟ راجع (فيلبي ٢ : ٦ ـ ٨) .

المنظورة ؟ " لكن الملاك لم يستطع أن يجيبني ، إذ لم يكن مسموحاً له . فسألت أيضاً : " في أيّة حالةٍ هو الآن ؟ " فأجابني : " في الحالة التي تختص به ، لكنه ليس في هذه[1] " . فاستخبرته : " فما هو القيام والجلوس عن يمين الآب ؟ " فقال : " إنه يستحيل إدراك هذه الأسرار بسمع أذن بشرية . " فللوقت توسّلت إليه أن يقودني إلى من كانت تجتذبني إليه أشواقي[2] ، فقال لي : " إن الوقت ما حان بعد ، لأن نار عدم الفساد لم تشتعل بعد فيك بكفاية . " أبهذا التراب كنت ؟ لست أعلم ؛ أما خارجاً عنه ؟ لا أستطيع اطلاقاً أن أقول .

٥١ عسيرٌ أن ننفض عنا نوم الظهيرة ، لاسيما في أوقات القيظ ؛ ففي ذلك الوقت ، وربما في ذلك الوقت فقط ، يكون عمل اليدين مقبولاً .

٥٢ إنني مختبرٌ تماماً ، أن شيطان الضجر يتقدّم ليُفسِح طريقاً لشيطان الفسْق ، فالأول بإضعافه الجسم إضعافاً شديداً يُغيصه في النوم . عند ذلك يُحدث الثاني أدناساً في الساكنين وحدهم كأنها في يقظتهم فإن قاومتهما بشدّة ، فإنهما بكل تأكيد سيقاتلانك بشدّة ، ليكفّاك عن جهاداتك بدعوى أنها لا تفيدك نفعاً . لكن ليس ما يدلّل على انهزام الشياطين انهزاماً بيِّناً ، مثل العنف الذي يُغيرون به علينا .

٥٣ في فواجئ خروجك من وحدتك ، احرس ما قد جمعته ؛ فإن باب القفص إذا فُتح ، طارت منه الطيور . عند ذلك لن نجني من توحّدنا ربحاً .

٥٤ شعرة صغيرة تكدّر العين ؛ واهتمام يسير يحطم هدوء الوحدة .

---

(١) أي ليس في حالتنا هذه ، بل بجسده الممجّد - انظر (فيلبي ٣: ٢٠ ، ٢١) (٢) أي إلى رؤية الرب .

ذلك أن السكون في الوحـدة إنما هـو طـرد الهواجـس والأفكـار ، وجحـود الاهتمامات ، حتى الحميد منها .

٥٥ من بلغ السكون حقاً ، لا يُعير جسده اهتماماً ؛ لأن الـذي وعـدَ هو أمين لا يكذب[١] .

٥٦ من يشاء أن يقف[٢] عقله لله نقيّاً ويقلق بالهموم ؛ يشبه امرءاً قُيِّد كعباه تقييداً محكماً ، ويدّعي أنه يمشي مشياً حاذّاً[٣] .

٥٧ إن المتحكّمين بفلسـفة هـذا العـالم تحكّماً عميقـاً هـم قلائـل حقـاً لكنني أؤكد أن أولئك الحائزين معرفةً إلهية بفلسفة السكون الحقيقي[٤] ، هم أكثر نُدرة .

٥٨ الذي لم يعرف ا لله بعد ، هو غير أهلٍ لمذهب السكون ، كما أنـه يتكبَّد أخطاراً عديدة . الوحدة تخنق غـير المتمرّسـين ؛ إذ لكونهـم لم يذوقـوا حـلاوة ا لله ، يُفنون زمـانهم في حـوادث السـبي والانسـراق ، والضجــر ، ويتعرّضون للَخرَف والخبَل .

٥٩ من اختبر محاسن الصلاة يهرب من الجموع هَرَبَ حمار الوحـش ؛ لأنه ماذا سوى الصلاة يجعله هكذا حرّاً مثل جحش الفـرا[٥] مـن كـل صلـة بالناس ؟

---

(١) انظر (متى ٦ : ٢٥ ـ ٣٤ ؛ تيطس ١ : ٢ ؛ عبرانيين ١٠ : ٢٢)

(٢) وقـفَ وقفـاً وأوقافـاً : أي حبسها في سبيل ا لله ، كرّسها لله .

(٣) أي أن الاهتمامات المختلفة تعطّل سيرة المتوحّد تعطيلاً بليغاً وتعوّق نموّه في الإيمان والنعمة والمعرفة الروحيّة

(٤) د · الحائزين هذه المعرفة الإلهية ، التي هي فلسفة السكون الحقيقي .

(٥) هو حمار الوحش

٦٠ من استحوزت عليــه الأوجـاع وهـو يقيـم في القفـر ، فـإن عقلـه يكون مأسوراً بهذيذها[١] ؛ هكذا قـال لي مـرةً ذلـك الشـيخ القديـس لكـي يعلّمني ، أعني جرجس الأرسيلايتي ، الذي لا يجهله وقارك[٢] . هذّب ذلـك الفاضل وقتذاك نفس حقارتي ، مرشداً إياي صوب انفراد السكون، فقال : " إنني لاحظـت أن شيطانَيْ المجـد البـاطل والشـهوة اعتـادا الإغـارة علينـا بالغداة؛ في الظهيرة يجيء شياطين الضجر والغم والغضب ؛ وفي المساء يوافينا الوسخون طغاة البطن الشقية .

٦١ مطيعٌ مسكين في حياة الشركة ، أفضـل مـن متوحّـد يعـوزه جمـع أفكاره .

٦٢ من دخل إلى الوحدة من السبيل الصحيــح ، ولا يبصـر كـل يـوم ثمارها ، إمّا أن يكون ممارساً إياها بطريقة غير صحيحة ، وإمّا أنه يُسـرَق مـن تشامخ ظنه بذاته .

٦٣ هدوء الوحدة تعبُّدٌ دائم ، ومثول لدى الحضرة الإلهية لا ينقطع .

٦٤ ليتّحد بنسمتك ذكْرُ يسوع ، عند ذاك تعرف قيمة السكون .

٦٥ سقطة راهب المجمع هـي مشـيئته الذاتيـة ؛ وسـقطة المتوحِّـد هـي انقطاع صلاته .

٦٦ إن كنت تفـرح بمجـيء الـزوار إلى قلايتـك ، فـاعلم أنـك بذلـك تفرغ نفسك للضجر وليس لله[٣] .

---

(١) ذلك طبعاً بسبب قلّة الأعمال المادية التي يمكنها إشغال فكره في مباشرتها ؛ كذلك لافتقاره إلى التعاملات التي يمارسها راهب الشركة وتتيح له التعرّف على ضعفاته وأوجاعه فتتوفر لـه فرص الشفاء منهـا . فمـا لم يكـن فكـر المتوحّد مع الله ، فسيكون منشغلاً بغيره: " حيث يكون كنزكم ، هناك يكون قلبكم أيضاً " (لوقا ١٢ : ٣٤) .

(٢) المخاطب هنا هو الأب يوحنا رئيس دير رايتو (٣) ل : لا تأخذ فسحةً من الضجر وحده ، بل من الله .

٦٧ ليكن لك مثالاً في صلاتك، تلك الأرملة المظلومة من خصمها[١]؛ وليكن لك مثـالاً في طقـس سـكونك أرسـانيوس الكبـير ، عديـلُ الملائكـة . اذكر في توحّدك سيرة ذلك الساكن ، وانظر كيف أنه كثيراً ما ردّ[٢] الذيـن قصدوه ، لئلا يفقد النصيب الأعظم[٣].

٦٨ لقد تحقّقتُ أن الشياطين يستحثّون ناقصي العقل[٤] من الدوّارين، أن يزوروا السـاكنين في الوحـدة سـكوناً حقيقيـاً ، محـاولين بواسـطة أولئـك الطوّافين أن يعوّقوا قليلاً مسيرة هؤلاء العمّالين . سَمْ يا مُؤْثـر التوحّـد سِـمةً على الذين هذه الحال حالهم؛ ولا تستعفِ س أن تغمَّ بورعٍ أولئك المتوانين ؛ فلعلهم نتيجة اغتمامهم يكفّون عن جولانهم . لكن احذر

أن تُحزن باطلاً نفساً ، تأتيك من تلقاء عطشها لتغترف من عندك ماء . ففي جميع الأمور يعوزك مصباح[٥] .

٦٩ إن حياة الذين يباشرون حياة السكون ـ لاسيما أولئـك المنفرديـن تماماً ـ ينبغي أن يسوسها الضمير والحس الباطني[٦] . فالذي يركـض في هـذا الميدان كما يليق ، متمّماً كل ما يباشره ، أو يتفوّه به ، أو يفكـر فيـه ؛ كـل خطوة ، وكل قصد ، وكل حركة بحسب الرب ، ومن أجـل الـرب ، يعمـل بحمية الروح[٧] كما في حضرة الرب . أمّا إن كان يُسرّق ، فإنه لا يحيـا بعـد بحسب الفضيلة .

٧٠ قد قال قـائل : " سأبسـط علـى المزمـار مشـكلتي ومـرادي "[٨]

---

(١) لوقا ١٨ : ١ـ ٨ (٢) صَرَفَ (٣) لوقا ١٠ : ٤٢ (٤) د : الرهبان الزائفين (٥) الإفراز
(٦) ل: والفهم (٧) ب ،د : يصدق حسّ النفس (٨) مزمور ٤٩ : ٤ حسب الترجمة السبعينية

ذلك بسبب أن إفرازه كـان لا يـزال ناقصاً . أمّا أنـا فسـأقف لله بـالصلاة إرادتي ، ومنه أتوقّع يقيني .

٧١ الإيمان هـو جنـاح الصــلاة ، الـذي بدونـه ترجـع إلى حضـني صلاتي[١] .

٧٢ الإيمان هو ثبات النفس الذي لا يهتزّ والذي لا يزعزعه شيءٌ مـن المضادّات .

٧٣ ليس المؤمن من يعتقد أن الله على كل شيء قدير ، إنما المؤمن هو من يصدّق أنه سينال كل شيء .

٧٤ الإيمان يجعـل في متناولنـا مـا يمتنـع ارتجاؤه[٢] ، وقـد أثبـت ذلـك اللص نفسه[٣] .

٧٥ أمّ الإيمان هي الاجتهاد واستقامة القلب[٤] ، فالأخيرة تجعل الإيمان ثابتاً ، أمّا الاجتهاد فيبنيه .

٧٦ الإيمان أُمّ المتوحّد ، لأنه إن كان لا يحيا بالإيمان ، فكيف يسـتطيع البقاء في الوحدة ؟

٧٧ من قُيّد في سجن يخاف مـن الـذي يـأتي ليعاقبـه ؛ أمـا المتوحّـد في قلايته فهو يلد مخافة الرب[٥] . الأول ما يروّعه مجلس القضـاء مثلمـا يـروّع الثاني منبرُ الديّان . تعـوزك أيهـا المفضـال في هـدوء إنفـرادك مخافـةٌ كثـيرة ، فليس شيء آخر فعّالٌ في طرد الضجر بهذا المقدار مثلها .

(١) مزمور ٣٥ . ١٣ (٢) أي تأمله ؛ ارتجى ارتجاءً من رجا وترجّى (٣) انظر لوقا ٢٣ : ٤٢ . ٤٣
(٤) عبرانيين ١٠ : ٢٢ (٥) أي يسببها في الآخرين .

٧٨ المجرم يترقب كل حين متى يجيء الحـاكم إلى السـجن ؛ والفـاعل الصادق يترجّى أن يعرف متـى يوافيـه الـذي يدعـوه علـى عجـل[١] . الأول يضغطه نير حزنه ؛ والثاني له ينبوعٌ من الدموع .

٧٩ إذا تمسّكت بعصا الصبر ، كفَّ الكلاب سريعاً عن توقّحهم .

٨٠ الصبر تعبٌ لا يسحق النفس ، وهو لا يتزعزع بالمعوِّقات أبـداً ، سواء تلك المفيدة أم المؤذية .

٨١ الصبر هو وضع حدود للضِيقة ، من حيث أنـه يقتبلها يومـاً بعـد يوم .

٨٢ الصبور فاعلٌ لا يسقط ، وهو يضفر من سقطاته عينها إكليلاً .

٨٣ الصبر هو قطع كل حجة ، وكلُّ انتباه إلى ذاته[٢] .

٨٤ لا يحتاج الفاعل[٣] إلى طعامه ، كاحتياجـه إلى صـبره ؛ لأن نقـص الأول يسبِّب له إكليلاً ، أمّا عوزه إلى الثاني فينتج له هلاكاً[٤] .

٨٥ الرجل الصبور قد مات منذ زمان قبل أن يُثْـوَى في قـبره ، إذ قـد جعل من قلايته قبره[٥] .

٨٦ الرجاء يولّد صبراً ، وهكذا يفعل النوح[٦] ؛ أمّا مَن عَدِمَ كليهمـا فهو عبدٌ للضجر .

---

(١) ل : ملاك الموت

(٢) د ، م : وكلُّ انتباهه إلى ذاته . أمّا المذكور في النص أعلاه فيتفق مع (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٤)

(٣) أي الراهب عموماً، والمتوحّد خصوصاً

(٤) ب ، م : لأنه بصبره يُحصّل إكليلاً بينما بطعامه ربما يستمد لنفسه هلاكاً .

(٥) هكذا نصح الأب آمون القديس بيمن ليتغلغل في قلبه الصبر على أخيه الذي كان يفسد عليه هدوءه بكثرة خروجه ودخوله مع أصدقائه : " ..اجلس ، وتأمّل ، وقل : إنني الآن ميت ، ولي عامٌ في القبر

(٦) د : الكرب ـ وكلا المعنيين صحيح ، فالنوح على الخطايا يطرد الضجر ويعطي مكاناً للصبر في القلاية. وكذلك الضيق ينشئ صبراً ـ انظر (رو ٥ : ٤ ؛ يع ١ : ٣)

٨٧ يجب علـى المصـارع لـدى المسيح أن يعـرف أيَّ أعـداء يجـب أن يطردهم من على بعد ، وأيّهم يجب أن يقارعهم عن قـرب . أحيانـاً يسـتحق الصراع إكليلاً، وأحياناً يصير رافض القتال مرفوضاً[١] . وإنه غـير ممكـن أن نضـع مبـادئ لمثـل هـذه الأمـور ،إذ ليسـت لجميعنـا نفـس الميـول ،ولا نحـن متساوون في الخصائص أو الصفات .

٨٨ إن واحداً من الأرواح ينبغي أن ترصده بأبلغ تيقّظ ، إذ من شـأنه أن يقاتلك بلا هوادة : في وقوفك ، في مَشْيك ، في حركتك ، في نهوضك ، في صلاتك ، وفي نومك .

٨٩ ليس جميع أرغفة الحنطة السـمائية لهـذا الطعـام الروحـاني ، ذات شكل واحد ؛ فقومٌ من الفلاحين في حقل السكون يزرعون في داخلهـم هـذا الفكر : " تقدمت فرأيت الرب أمـامي في كـل حـين"[٢] ؛ بينمـا آخـرون : " بصـبركم سـتقتنون أنفسـكم "[٣] ؛ وغـيرهم : " اسـهروا وصلـوا "[٤] ؛ وغيرهم:" أَعْدِدْ أعمالك لخروجك "[٥] وغيرهم: " تذلّلت فخلّصني "[٦] ؛ وبعضٌ : " لأن آلام هـذا الدهـر الحـاضر ، لا تسـتحقّ أن تقـارَن بـالمجد المنتظَر "[٧] ؛ وقومٌ يتفحّصون كلِ حين : " لئلا يختطفكـم وليـس لكـم مـن مُنقِذ "[٨] . الجميع يركضون فعلاً ، لكن واحداً فقط ينال الجائزة خلواً مـن تعب[٩] .

---

(١) انظر (كورنثوس الأولى ٩ : ٢٧) (٢) مزمور ١٦ : ٨ (٣) لوقا ٢١ : ١٩ (٤) متى ٢٦ : ٤٢

(٥) ب : + من الدنيا ل ، د : لموتك. أمثال ٢٤ : ٢٧ (٦) مزمور ١١٥ : ٥ (٧) رومية ٨ : ١٨

(٨) مزمور ٥٠ : ٢٢ (٩) كورنثوس الأولى ٩ : ٢٤

٩٠ من يحقق في مسيرته تقدماً ، يعمل لا في يقظته فقط ، بل وفي نومه أيضاً . فمن هذا القبيل ينتهر بعضٌ في نومهم الشياطين الذين يقتربون إليهم ، ويعظون نسوةً فاسقاتٍ في إيثار العفّة . لكن لا تتوقع فواجئ حضور زائريك، ولا تتهيأ لها مُسبّقاً، فإن مذهب السكون بسيطٌ تماماً، حرٌّ تماماً[١].

٩١ لا يشرعُ معتزمٌ على ابتناء برجٍ - أو قلاّية سكون - ما لم يجلس أولاً فيحسب حساب النفقة ، ويتحسَّس بصلاته طريقه ، وبعين الاعتبار ينظر إن كان يحوي في داخله ما يلزم لإكماله ، لئلا بعد أن يضع الأساس يصير عند أعدائه ضحكةً ، ولغيره من الفَعَلة[٢] عثرة .

٩٢ تفحَّصْ في الحلاوة التي تستشعرها في نفسك ألا يكون قد ركّبها لك ومزجها أطبّاء قساة ، أو بالحري [أدعياء] غدّارون[٣] .

٩٣ خوِّل[٤] معظمَ ليلك للصلاة ، وأقلّه لتلاوة المزامير[٥] . وفي نهارك رتّب نفسك من جديد كنحو قوّتك .

٩٤ القراءة تضيء العقل كثيراً وتجمعه ، لأنها أقوال الروح القدس . وهي تقوِّم الذين ينتبهون إليها[٦] .

٩٥ دَع الأقوال التي تقرأها ، تقودك إلى العمل بها ، لأنك عمّال[٧] ؛ فإن العمل بها يجعل القراءات الأخرى فضلةً زائدة[٨] .

---

(١) أي من الاهتمام بشيء

(٢) أي الرهبان

(٣) أي أن هناك تعزيات مزيّفة من الشياطين

(٤) خوّله الشيء : أعطاه وملّكه إيّاه

(٥) د : للتسبيح

(٦) د : يعملون بها ب : الذين يتلونها — انظر (تيموثاوس الثانية ٣ : ١٦)

(٧) يعقوب ١ : ٢٢ ، تيموثاوس الثانية ٣ : ١٧

(٨) أي ان العمل بأقوال الكتاب المقدس(وهو المقصود هنا بالأقوال)تحكّم القاريء وتغنيه عن قراءات أخرى كثيرة

٩٦ انشُد أن تستنير بكلمات الخلاص والعافية من خلال أتعـابك ، لا من مجرد المصاحف .

٩٧ لا تتلُوَنْ ـ قبل أن تقتبل قوةً روحانية ــ أقـوالاً مستترةٌ معانيهـا ، لأنها أقوال غامضة[1] ، وتُظلم ذوي التمييز الناقص .

٩٨ قدحٌ واحدٌ مـن النبيـذ يكفـي غالبـاً لاستيضاح طعمـه ؛ وكلمـة واحـدة من المتوحّـد تكشـف لـمن يقتـدر أن يتـذّوق الأقـوال حالـه البـــاطن وتصرّفه .

٩٩ ثبِّت مقابل العُجب[2] عينَ نفس لا تغفل ، إذ ليس ثمة شــيء مثلـه يحطِّم ويُميت[3] .

١٠٠ صُنْ لسانك عند خروجك من فلايتك ، فإنه يستطيع في لحظـة واحدة أن يبدد ثمار أتعابٍ كثيرة .

١٠١ أحْكِمْ[4] طقساً خالياً مـن فضـولٍ وتفتيـش[5] ، فإنـه لا شـيء يستطيع أن يدنّس سكون الوحدة مثل البحث فيما لا ينفع .

١٠٢ قدِّم لزائريك ما هو ضروري ، سواء للروح أم للجســد . فـإن كانوا أحكم منا ، فسبيلنا أن نبيِّن بسكوتنا حكمتنا ؛ وإن كانوا يؤاخوننا في طقسنا ، فلنفتحنْ بـاب التحـدّث إليهـم بقيـاس مناســب ؛ بـل الأفضـل أن نحتسب الكل أفضل منا وأعظم .

---

(١) ب . ل : مظلمة ـ يقصد بعض الأسفار ذات المعنى المجازي كنشيد الأناشيد وما يشبهه ، فإن فيها كلمات غير واضحة المعنى ومحيرة ربما تجرح الذين يتمسكون بالحرف وبظاهر المعنى بسبب عدم تقدمهم في الروح ـ انظر (كورنثوس الثانية ٣ : ٦ ؛ بطرس الثانية ٣ : ١٦)

(٢) أو الظن بالذات (غلاطية ٦ : ٣)

(٣) ب : يسرق في الخفاء

(٤) اقتسر ذاتك لتبلغ

(٥) د : + في شئون الآخرين

١٠٣ عند إيثاري أن أمنع تماماً عن الذين هم بعدُ أطفال ، أن يمارسوا عملاً جسدياً أثناء [صلوات] المجمع ، منعني ذلك الذي حمل الرمل في الزنبيل[١] طوال الليل[٢].

١٠٤ إن ما يُقال في عقيدة الثالوث الأقدس غير المخلوق والمسجود له ، يبدو مضاداً لتعليم تدبير التجسد للواحد من هذا الثالوث الكلّي مجدُه . لأن ما هو جمعٌ في الثالوث ، مفرد فيه[٣] ؛ وما هو مفرد هناك ، مجموع هنا[٤] . كذلك هنالك أعمالٌ تناسب المتوحّد ، وأخرى تليق بالذين تحت الطاعة[٥] .

١٠٥ قال الرسول القديس : " من يعرف فكر الرب ؟ "[٦] ؛ أمّا أنا فأقول : من يعرف فكر ساكنٍ بجسده وبروحه ؟

١٠٦ عِزّة المِلك تكمُن في ثروته وكثرة رعاياه ؛ وقدرة المتوحّد ، في وفرة صلاته .

---

(١) ل ، د : في عباءته (٢) هو القديس مقاريوس الاسكندري ، لما ألحّت عليه أفكار العظمة بترك قلايته والذهاب إلى روما لينفع كثيرين ، ألقى بنفسه داخل قلايته عند بابها . . فلما اشتدت عليه أفكار القتال ، ملأ القفة رملاً وأخذ يطوف بها في البرّية ؛ واستمر هكذا حتى تعب وهدأت عنه الأفكار . (٣) في الثالوث القدوس ثلاثة أقانيم ، أمّا المسيح فهو أقنوم واحد (٤) في الثالوث القدوس طبع اللاهوت فقط ، أما المسيح فيجمع في شخصه اللاهوت والناسوت متّحدين ؛ طبيعة واحدة من طبيعتين بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغير .
(٥) أي في رهبانية الشركة . (٦) رومية ١١: ٣٤

الدرجة الثامنة والعشرون

الصلاة المقدسة والمغبوطة وموقف العقل والجسد أثناءها

١ الصلاة من حيث طبيعتها ، هي محادثة الإنسان مع الله واتحادهما ؛ وهي من حيث فعلها دعامة العالم ومصالحته مع الله . إنها أُمّ الدموع وابنتها أيضاً ، اغتفار الخطايا ، مِعبَرٌ فوق التجارب ، سورٌ بإزاء الأحزان ، سحق القتالات ، عمل الملائكة ، طعام جميع غير المتجسّدين ، السرور العتيد ، العمل الذي لا ينتهي أبداً[1] ، ينبوع الفضائل ، منبع المواهب ، ارتقاءٌ غير ملحوظ ، غذاء النفس ، استنارة العقل ، فأس قطع الإياس ، برهان الرجاء ، حلُّ الغمّ ، ثروة الرهبان ، كنز الساكنين في الوحدة ، مَحْقُ الغضب ، مِرآة التقدّم ، تحقيق النجاح ، اختبار حالة المرء ، اعتلان المستقبل ، علامة المجد .

الصلاة لذلك الذي يصلّي حقاً هي مَحكمة ، وقاعة محاكمة ، ومنبر الرب ، قبل الدينونة العتيدة .

٢ دعنا نقوم ونصغي لهذه الجليلة مَلِكة الفضائل ، إذ تهتف نحونا بصوتٍ عالٍ قائلة : تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأوساق ، فأنا أُريحكم . احملوا عليكم نيري ، فتجدوا راحةً لنفوسكم ، وشفاء لجراحاتكم، لأن نيري سهلٌ[2] وهو دواء ناجعٌ لكثرةٍ من الخطايا .

---

(١) د : لا يتوقّف

(٢) متى ١١ : ٢٨ - ٣٠

٣ كلنا الذين نروم أن نقف لدى ملكنا وإلهنا ونخاطبه ينبغي علينا ألا ننـدفع في طريقنا خلواً من استعداد ، لئلا يرانا من بُعدٍ عُزّلاً[١] من أسلحة ، مجرَّدين من زيٍ يناسب مثولنا لديه ، فيوعز إلى خُدّامه وعبيده بطرحنا موثّقين بعيداً عن حضرته ، ويمزّق رقاع[٢] توسلاتنا ويلقيها في وجهنا .

٤ ليكن ثوب نفسك حالَ ذهابك للوقوف لدى ربّك منسوجاً كله بغير ضغينة أو حقد[٣] . وإلاّ فلن تَفيد من صلاتك نفعاً .

٥ ليكن لفظ توسّلك كله بسيطاً ، لأن كلا العشار والابن المُفْرط ، بعبارةٍ واحدة قد صالحا إلهنا .

٦ إن وقفة الصلاة للجميع واحدة، إلاّ أن هناك أنواعاً كثيرة للصلاة ، وصلواتٍ كثيرةً متنوّعة . فقومٌ يتحدثون إلى إلههم كما مع وديدهم وسيّدِهم، متشفّعين بتسبيحهم وتضرّعهم لا من أجل أنفسهم ، بل من أجل غيرهم . غير هؤلاء يبتغون منه ثروة [روحية] أكثر ومجداً ودالّةً عنده ؛ وآخرون يسألون خلاصاً تاماً من خصمهم . وبعضٌ يستميحونه أن يخوّلهم مرتبةً ما من المراتب . آخرون يطلبون زوالَ كل اهتمامٍ بشأن ذنوبهم[٤] ؛ وغيرهم يسألونه إطلاقاً من حبسهم[٥] . آخرون يستميحونه صفحاً عن جرائمهم .

٧ ينبغي قبل كل شيء أن نرتّب في رقعة توسّلنا شكراً خالصاً . وعلى السطر الثاني يجب أن نضع اعترافاً بخطايانا وخشوع نفسٍ من عمق حسّها ، ثم بعد ذلك لنقدّم لدى ملك الكل سؤالنا. فهذا هو أفضل أسلوب للصلاة، على نحو ما أعلن ملاكُ الرب لواحدٍ من اخوتنا .

---

(١) جمع أعزل (٢) ورقات (٣) قارن (يوحنا ١٩ : ٢٣) .

(٤) ل إيفاء كاملاً لديونهم (٥) انظر (لوقا ٤ : ١٨ ، فيلبي ١ : ٢٣) .

٨ إن كنت قد حضرت مرةً أمام قاضٍ أرضي[١] ، فلـن يعـوزك نموذجٌ آخر لصلاتك . فإن كنت ما مَثلـتَ أمـام القضـاء ، ولا رأيـت مستَفحَصين عن جنايات ، فتعلَّم على الأقل من أسلوب توسّل المرضى إلى الأطبّـاء حـال اعتزامهم أن يَبُطّوهم[٢] أو يكووهم[٣] .

٩ لا تتفلسف في صلاتك بألفاظك ، فإن مناغاة أطفـالٍ بسيطةً خاليـةً من زخرف ، قد عطَّفت في كثير من الأحيان قلب أبيهم السماوي .

١٠ لا ترومنّ أن تُكثر من أقـوال صلاتـك كيـلا تُشتّت عقلـك في البحث عن كلمات . إن كلمةً واحدة من العشار استرضت الله ؛ وصرخـة إيمان واحدة قد خلّصت اللص . إكثـار الكـلام في الصـلاة غالبـاً مـا يُشتت العقل وينتهي به إلى الوهم والخيالات . بينما القول المفرد[٤] عـادةً مـا يجمـع العقل .

١١ إذا شعرت بحلاوةٍ أو تخشعٍ في كلمةٍ من كلمـات الصـلاة ؛ فَـدُمْ فيها ، ذلك أن حافظنا[٥] حينذاك يصلّي معنا .

١٢ مهما يكن ما أحرزته من نقاوة ، لا تكن كثير الثقة ؛ بل بـالحري تقدَّم بتواضع عميق ، عندئذ ستقتبل بذلك ثقة ودالة أعظم كثيراً .

١٣ لو كنت قد ارتقيت سلَّم الفضائل كلها ، صلِّ مبتهلاً في اغتفـار خطاياك ؛ إذ تسمع بولس يصـرخ في تكلُّمِهِ عـن الخطـاة قـائلاً : " إنـني[٦] الأول بينهم " .

---

(١) ب : + ... ما بجناية

(٢) بَطّ الجرح : شقّه بالمِبَط ، أي بالمشرط

(٣) كان الكيّ من وسائل العلاج الشائعة إلى وقت قريب .

(٤) أي ترديد عبارة واحدة μονολογία .

(٥) ل ، د : ملاكنا الحارس

(٦) تيموثاوس الأولى ١ : ١٥

١٤ إن الزيت والملح يُتبّلان الطعام ؛ أمّـا العفّـة[١] والدمـوع فيعطيـان أجنحة للصلاة .

١٥ إن توشّحتَ بكافة الوداعة وزوال الغضب ، فلن تتعـب كثيراً في تحرير عقلك من السبي[٢] .

١٦ إلى أن نبلغ اقتناء الصلاة الحقيقية ، نشبه الذين يبدأون في تدريب الأطفال على المشي .

١٧ اجتهـد أن ترفـع فكـرك ، أو بـالحري أن تغلـق عليـه في كلمـات صلاتك ؛ فإن كان بسبب حال طفولته يضعف ويسقط ، ارجعه من جديد ؛ فإن عدم الثبات من خاصيّات العقل، لكن الله يستطيع أن يثبِّت كل شيء . إن أنت ثبتَّ في الجهاد بلا كلل، فإن ذاك الذي وضع تخوماً لبحر العقل[٣] ، سوف يأتيك وفي أثناء صلاتك سيقول له : " إلى هنـا تـأتي ولا تتعدّى " . إن الروح لا يمكن أن يقيَّد ، لكن أينما يحلّ خالق الروح ، فالكل له يخضع .

١٨ إن كنت تأمّلت الشمس كما ينبغي، فستقدر كذلك أن تتخاطب معه كما يليق؛ وإلاّ فكيف تستطيع حقـاً أن تُجـري حديثـاً معـه إن كنـت لم تبصره ؟

١٩ ابتـداء الصـلاة هـو طـرد الهواجـس بكلمـة واحـدة[٤] في لحظـة ظهورها ، والدرجة الوسطى هي أن نحصر عقولنا في ما نقوله أو نفكّر فيـه . وكمال الصلاة هو اختطاف العقل[٥] إلى الرب .

---

(١) د : التعفّف : ضبط الهوى (غلاطية ٥ : ٢٣) (٢) لأن الكثير من حوادث سبي الفكر ، يكـون نتيجـة شروده في الغضب أو الاستياء من إنسان تصرّف معنا تصرفاً أغضبنا ، سواء بعلّةٍ أم بحق (٣) أيوب ٣٨ : ١١
(٤) أي بصرخة استغاثة قوية مثل مناداة يسوع . (٥) أي الدهش ، الابتهاج المفرط Ecstacy

٢٠ الابتهاج العارض في الصلاة للمقيمين في الشركة ، غير الابتهاج الحادث للذين يصلّون في سكون الوحدة . فالأول ربّما يداخله التيه[١] ، أما الآخر فمملوءٌ تماماً بالتواضع .

٢١ إن كنت تروّض عقلك دائماً ألاّ يطيش عنك أبداً ، فسيكون بقربك أثناء [جلوسك إلى] المائدة أيضاً . فإن كان يجول خلواً من كبح ، فلن يثبت قريباً منك أبداً .

٢٢ قال فاعلٌ من فَعَلة الصلاة السامية الكاملة : " أريد أن أقول خمس كلمات بذهني "[٢] وما يتلو ذلك . لكن مثل هذه الصلاة غريبةٌ عن النفوس الطفلية . لهذا ، فلكوننا ناقصين بعد ، نحتاج لا إلى كيفية الصلاة فحسب ، بل إلى وفرة كميّتها أيضاً ؛ لأن الأخيرة تمهّد الطريق إلى الأولى ، لأنه قيل : " المعطي صلاة [نقية] للمصلّي بمداومة "[٣] ، رغم أن صلاته وسِخة[٤] وشاقة .

٢٣ وسَخُ الصلاة شيء ، وفناؤها شيءٌ آخر . والسَرقة شيءٌ ثالث ، والصلاة المعيبة شيءٌ آخر . فوسخ الصلاة هو أن يقف المصلّي لدى الله ويتصوّر أفكاراً غريبة وغير لائقة . ضياعُ الصلاة هو ترك الفكر يُسبَى باهتمامات غير نافعة . سرقة الصلاة هي شرود الفكر دون إحساس بذلك . أمّا ما يعيب الصلاة فهو الهاجس الرديء الذي يهاجمنا أثناءها .

٢٤ إن لم نكن على انفرادٍ في وقت الصلاة ، فسبيلنا أن نشكّل باطننا

(١) أي العُجب والزهو والخيلاء ـ ب ، د : التخيّل
(٢) كورنثوس الأولى ١٤ : ١٩
(٣) صموئيل الأول ٢ : ٩ حسب الترجمة السبعينية .
(٤) د : + بالطياشات

بشكل التوسّل . أما إذا لم يكن أحدٌ في التسبيح معنا ، فحتى هيئتنا الخارجية ينبغي أن تتّخذ موقف الصلاة . لأنه في غـير الكـاملين ، يتمثّـل العقـل غالبـاً بشكل الجسد .

٢٥ نحتاج كلنا المتوجّهين إلى ملكنا ، لا سيما أولئك الذين يلتمسـون عفواً عن ديونهم ، إلى انسحاق قلب لا يوصف .

٢٦ مـا دمنـا في الحبـس ينبغـي أن نسـمع القـائل لبطـرس : " تمنطَـقْ بمنطقة[1] الطاعة ، وانزع مشـيئاتك الخاصـة ، وتقـدّمْ عاريـاً منهـا إلى الـرب بالصلاة ناشداً مشيئته وحدها . عند ذلك سوف تستقبل إلهـك الـذي يتقلّـد دفّة نفسك ويدبّرك[2] بأمان .

٢٧ انبعثْ[3] من محبـة العـالم والملـذّات ، اطـرح اهتمامـاتك ، وجـرِّد فكرك ، واجحد جسدك ؛ فإن الصلاة ليست شيئاً آخر سوى الاغتراب عن العالم المنظور والعالم غير المنظـور . لأنـه " مـاذا لي في السـماء ؟ " لاشيء ، " وماذا أردت على الأرض معك[4] ؟ " لا شيء . إلاّ أن ألاصقك بـالصلاة كل حين خلواً من طياشة . قومٌ ينشـدون ثـروةً ، وآخـرون يؤْثـرونْ مجـداً ، وغيرهم أملاكاً. " أمّا أنا فمرامي الالتصاق با لله، وأن ألقي عليه رجـائي[5] " في زوال الأسقام عني .

٢٨ الإيمان يعطي أجنحـة للصـلاة ، وبدونـه لا يمكنهـا[6] أن تطـير إلى السمـاء .

---

(١) المنطقة هي الزنار أو الحزام الذي يشده الجندي أو الفلاح على وسطه

(٢) قارن أعمال الرسل ١٢ : ٨ ، يعقوب ٣ : ٤ (٣) الانبعاث هو القيامة من الموت

(٤) مزمور ٧٣ : ٢٥ ـ ٢٨ (٥) مزمور ١٧ : ١٤ ، ١٥ (٦) ل ، د : لا يمكننا أن نطير إلى السماء

٢٩ سبيلنا نحن المغلوبين لـلآلام ، أن نصلّـي إلى الـرب بلجاجـة ، لأن جميع الأبرياء من الآلام ، عبروا من الخضوع للآلام إلى عدم التألّم .

٣٠ إن القاضي لايخاف الله ، بما أنه الإله ؛ لكن لأن نفساً ترمّلت منه ـ بخطاياها وسقطاتها ـ تزعجه ، سينتقم لها من الجسد خصمها ، ومن الأرواح الذين يقاتلونها .

٣١ إنّ مخلّصنا الصالح[1] يجذب إلى محبّته النفوسَ المعترفة[2] باستجابة سؤالهم سريعاً . أمّا النفوس غير الشكورة[3] فيجعلها تدوم في الصلاة أمامه زمناً طويلاً جائعةً ظمآنةً إلى مطلوبها ؛ ذلك أن الكلب الجاحد حالما ينال خبزَهُ يولّي به مُدبراً تاركاً مَن أعطاه[4] .

٣٢ لا تقُلْ بعد تماديك في الصلاة زمناً طويلاً : " إنني ما ربحت شيئاً " ؛ لأنك بالحقيقة قد نِلت . فأيُّ خير أعظم من الالتصاق بالله والمثابرة على الاتحاد به بغير انقطاع ؟

٣٣ إن المجرم لا يرهب النطق بالعقوبة كثيراً ، مثلما يرهب المحترُّ بالصلاة[5] وقفةَ الصلاة . فإن كان عاقلاً وحكيماً ، فمن تذكّره تلك الرهبة ، يمكنه أن يحتمل كلّ شتيمة ، ويرفض كلَّ غضب وكلَّ اهتمام ، كلَّ انشغال ، وكلّ ضيقة ، كلَّ تجربة ، وكلَّ شَبَع ، كلَّ فكر[6] ، وكلَّ طياشة .

٣٤ أعدد ذاتك مقدَّماً للأوقات المحدّدة للصلاة ، بصلاةٍ في نفسك لا

(١) د : الممتلئ صلاحاً وحكمة
(٢) أي المعترفة بفضله ؛ الشكورة
(٣) د : + مثل الكلاب
(٤) د : من أحسن إليه
(٥) د : الذي يعرف ما هي الصلاة
(٦) د : + رديء

تتوقّف . عند ذلك ستحقّق تقدّماً سريعاً .

٣٥ رأيت متلألئين بالطاعة ولا يألون جهـداً في أن يحفظـوا في عقولهـم ذكـر الله ؛ وحالما وقفوا للصلاة ضبطوا للوقـت عقولهـم ، وذرفـوا دمعـاً مدرارا؛ لأن الطاعة الحميدة سبقت فهيّأتهم لذلك .

٣٦ التسبيح[١] بـين الجماعـة يصاحبـه سبي الفكـر وطياشتة ؛ أمّـا في الانفراد فالأمر ليس هكذا . فالذين في الوحدة يتعرّضـون لقتـال الضجـر ، بينما في الشركة يساعد الإخوان بعضهم بعضاً بحماستهم .

٣٧ حبّ الجندي لملكه تُظهره الحرب ؛ وحبّ الراهب لإلهـه يوضّحـه وقت صلاته وترتيبها .

٣٨ إن صلاتك تُريك في أيّة حال أنـت ، فـإن اللاهوتيـين قـد سـلّموا بأن مِرآة الراهب صلاته .

٣٩ من يكون مشغولاً بشـيء مـا ، ثـم يـوافي وقـتُ صلاتـه فيواصـل الانشغال به عنها ، فذاك هزأة الشياطين . لأن أولئك اللصوص يقصدون أن يسرقوا منا ساعةً بساعة[٢] .

٤٠ لا تستعفِ إذا طُلِبَ إليك أن تصلّـي مـن أجـل نفـس ، حتـى إذا كنت لم تمتلك الصلاة ؛ لأن إيمان الذي يطلب ، كثيراً ما يخلّص أيضـاً ذلـك الذي يصلّي بانسحاق .

٤١ لا تترفّع إذا توسّلت لأجـل آخريـن فاستُجيب لـك ، فـإن إيمـان

(١) أو الترتيل

(٢) أي يسرقوا منا سواعي الصلاة ، واحدةً بعد أخرى .

أولئك هو الذي كان قوياً وفعّالاً .

٤٢ كلُّ صبيٍ يُطالَب كلَّ يومٍ مـن معلّمه بما علّمه إيّاه مطالَبةً غير منقوصة ؛ كذلك بالعدل يُساءل كلُّ عقل عن القوة التي اقتبلها من الله في كلِّ صلاة[١] . لهذا ينبغي أن نكون منتبهين .

٤٣ إذا كنت ستصلّي بانتباه ، سوف تقاتل سريعاً بحركات الغضب ؛ لأن هذا ما يقصده أعداؤنا[٢] . لكنه يجب علينا أن نباشر جميع الفضائل - ولا سيما العكوف على الصلاة - بحسٍّ داخلي عميق . والحال أن النفس تصلّي بهذا الحسّ ، متى قهرت الغضب .

٤٤ إن ما يُقتنى بعد زمان طويل بصلاة متواترة ، يدوم[٣] .

٤٥ إن من وجد الرب ، لن يعرِضَ فيما بعد هدفَ صلاته [لدى الله] لأن الروح آنذاك يتشفّع فيه من داخل قلبه بأناتٍ لا يُنطق بها[٤] .

٤٦ لا تَقبلَنْ في صلاتك أيَّ تخيّل محسوس ، لئلا يصيبك من ذلك ضلال .

٤٧ الإيقان[٥] بكل سؤال[٦] ، نقتبله بوضوحٍ أثناء الصلاة . الإيقان[٥] هو التخلّص من الشكّ . الإيقان[٥] هو وضوحٌ أكيد لما يتعذر وضوحه .

٤٨ كن رحوماً للغاية يا من تَنْصَبُّ[٧] على الصلاة ، فإنه في الصلاة يأخذ الرهبان المئة ضعف ، والباقي في الدهر الآتي[٨] .

---

(١) د : عما فعله بالقوة التي اقتبلها (٢) أي أن يضيعوا القوة التي نلناها بالصلاة ، بإيقاعنا في الغضب .

(٣) د : يُمتحن من الزمن (٤) رومية ٨ : ٢٦ (٥) د : + الباطني (٦) د : باستجابة كل سؤال

(٧) انصبَّ على ، عكف على : باشر باهتمام ومداومة - انظر (تيموثاوس الأولى ٤ : ١٣) .

(٨) متى ١٩ : ٢٩

٤٩ متى حضرت النار إلى قلبنا ، تُحيي صلاتنـا . وعندمـا تقـوم هـذه وتصعد إلى السماء ، يحدث انحدار النار في علّية نفسنا[١].

٥٠ قد قال قائلون إن الصلاة أفضل من تذكّر الموت ؛ أمّا أنا فأسبّح واحدة من اثنتين[٢].

٥١ الحصان المروّض بقدر ما يتقدّم ، بقدر ما يحتّر في ركضـه وينشـط أكـثر فـأكثر . أعـني بـالركض التسـبيح ، وبـالجواد العقـل الشـجاع ؛ إنـه يستروح[٣] القتال من بعيد ، ويستعدّ ويبقى تماماً غير مقهور .

٥٢ من القسوة أن يُخطَف الماء من فم العطشان ؛ وأكثر قسـوةٍ علـى نفسٍ تصلّي بتخشّعٍ ، أن تُنتزَع من عملها المستَحبّ قبل أن تنتهي إلى نهايـة صلاتها .

٥٣ لا تهجرنّ صـلاتك إلى أن تبصر توقُّف النار والماء[٤] بتدبير العنايـة الإلهية؛ فلعلك لن تجد طوال عمرك وقتاً مثلَ هذا لتنال صفحاً عن خطاياك .

٥٤ إن كلمة واحدة تفرط ممن قد ذاق طعم الصلاة ، غالباً ما تدنّـس عقله ؛ وحين يعود بعد ذلك إلى الصلاة ، لن يجد بعدُ تلك الحلاوة التي أَلِفَها من قبل .

٥٥ حراسة القلب بمداومةِ شيء، ومراقبته بواسطة العقل ـ ذلك المدبّر

---

(١) قارن أعمال الرسل ٢ : ٣

(٢) هما المحبة (الصلاة) والمخافة (تذكر الموت) متحدتين ؛ كما أن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين (لاهوت وناسوت) ، بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . أما النصّ الأصلي فهـو " اثنتين في واحدة " ، لأن الأب يوحنا الدرجي (وأيضاً ل ، د) من أصحاب عقيدة الطبيعتين .

(٣) أي يشمّ رائحة

(٤) أي الحرارة والدموع ؛ انظر (مزمور ٦٦ : ١٢) .

ورئيس الكهنة الذي يقرِّب ذبائحَ روحيةً للمسيح ـ شيءٌ آخر . عندما تـأتي النار السمائية وتحلّ في الأوّلين ـ كما يقول واحدٌ ممـن لُقّبـوا بـاللاهوتيين[1] ـ فإنها تحرقهم لأجل نقص نقائهم بعد ، بينما تضـيء الآخريـن بحسـب مقـدار كمالهم . لأن هذه النار الواحدة عينهـا ، تُدعـى النـار الآكلـة والنـور الـذي يضيء[2] [بآن واحد] . فلهذا السبب يخرج البعض من صلاتهـم كمـا مـن أتونِ نار ، يحسّون بتخفيف كما من وَسَخٍ ما ومن كل ما هو مـاديّ ؛ بينمـا تكون حالُ الآخرين حالَ خارجين مـن النـور ، مستنيرين متسـربلين بـرداء التواضع والابتهاج . أمّا الخارجون من صلاتهم خلواً من اختبار أحـد هذيـن الفعلين ، فأولئك قدِ صلّوا صلاة جسدية ، حتى لا أقول ـــ صـلاة يهوديـة ، وليست روحانية[3] .

٥٦ إن كان جسمٌ بملامسته جسماً آخر يتغيَّر في أفعاله ؛ فكيف يبقـى بلا تغيير ذاك الذي يلمس جسد إلهه بيدين طاهرتين[4] ؟

٥٧ إننا نلاحظ أن ملكنا الكليُّ صلاحه ـ مَثَله مثلُ ملك أرضي يوزّع هباته أحياناً بنفسه ، وأحياناً بواسـطة صديقـه ، ومـرةً بعبـدِه، ومـرةً أخـرى بطريقةٍ خفيّة ؛ وهذا يكون دائماً على قياس ثوب التواضع الذي نرتديه .

٥٨ كما أن الملك الأرضي يشمئز ممن يكون واقفاً بحضرته ويحوِّل عنه وجهه مخاطباً أعداء سيّدِه ، كذلـك يتكـدّر ربّنـا ممـن يقبـل في وقـت صلاتـه أفكاراً وسخة .

---

(1) On peut se reporter à l'orat. 40 de st. Gregoire de Nazianze dans P.G.36,409 SS .

(٢) انظر (عبرانيين ١٢ : ٢٩ ؛ يوحنا ١ : ٩) (٣) د : ـ وليست ....

(٤) كناية عن فاعلية الصلاة الطاهرة ، كأنها تلامسُ آخر مع جسد الرب ـ انظر (تيموثاوس الأولى ٢ : ٨)

٥٩ إذا وافاك الكلب فاطرده بعصاك ، ومهما عاودك ــ كما يحدث في الغالب ـ لا تستسلم له أبداً .

٦٠ اسأل بنوحك ، اطلب بطاعتك ، اقرع بصبرك . فإن من يسأل على هذا النحو[١] يأخذ ؛ ومن يطلب يجد ؛ ومن يقرع سيُفتح له[٢] .

٦١ احذر أثناء صلاتك أن تُفرِط في الابتهال لأجل امرأة كيفما اتفقَ لئلا تُسرَق من جهة اليمين .

٦٢ لا تشأ أن تعترف بأفعالك الجسدانية[٣] بتفصيل ، لئلا تنصب فخاخاً لنفسك .

٦٣ لا تجعلنْ وقت صلاتك للتفكرُ في أشياء ضرورية ، ولا حتى في أعمال روحية[٤] ؛ وإلاّ فستفقد النصيب الأفضل[٥] .

٦٤ مَن يمسك بعصا الصلاة بغير تراخٍ لا يعثر ؛ وحتى إن اتفقَ أن عثر ، فلن يسقط إلى النهاية . لأن الصلاة اغتصاب[٦] تقيٌ لله .

٦٥ يمكن الاستدلال على منفعة الصلاة من هجمات[٧] الشياطين علينا في أوقات الاجتماعات[٨] . كذلك نستدلّ على منفعة الصلاة ، من انهزام العدو : " بهذا علمتُ أنك قد هويتني ، لأن عدوي لا يشمت أبداً

---

(١) أي على هذا المثال ؛ بهذا الأسلوب . (٢) متى ٧ : ٨ (٣) أي بخطاياك الجسدية

(٤) د : ذات طقس روحي (٥) انظر (لوقا ١٠ : ٤٢) (٦) لوقا ١٨ : ٥ (٧) ب : تعويقات

(٨) أي عند دقّ الجرس لتأدية الصلوات الجمعية ـ ب : وقت الصلاة ل : وقت الخدمة المقدسة

بي ''[١] في أوان الحرب[٢] . يقول المرنّم : '' صرخت بكل قلبي ''[٣] أي بفمي ونفسي وروحي . لأنه '' حيثما اجتمع الاثنان الأخيران ، فهناك يكون إلهنا فيما بينهما ''[٤] .

٦٦ إننا لم نحصل جميعنا على نفس الحاجات ، سواء ما تخصّ الجسد أو ما تختصّ بالروح ؛ فالإسراع في الترتيل[٥] يوافق أناساً ، كذلك فإن التروّي يوافق غيرهم فالأولون يقاتِلون السبي والآخرون يحاربون عدم التعلّم[٦] .

٦٧ إن كنت تتضرّع إلى مَلِكنا تضرّعاً دائماً على أعدائك ؛ فمتى أغاروا عليك اطمئن ، واثقاً أنك لن تتعب[٧] ، إذ أنهم سيرتدّون سريعاً عنك من تلقاء أنفسهم . إن أولئك الأشرار ما يؤثرون أن يصروك محصّلاً إكليلاً من تلقاء محاربتك إيّاهم بالصلاة . فضلاً عن ذلك ، فإنهم يفرُّون مجلودين بسياط الصلاة كما من نار .

٦٨ اقتن كل شجاعة ، يكن الله نفسه لك معلماً للصلاة . إنه يستحيل أن يتعلَّم أحدٌ الإبصار بالكلام ، لأن الإبصار فعلٌ طبيعي ؛ كذلك يستحيل التحقّق من حسن الصلاة من تعليم الآخرين[٨] . للصلاة معلّم

---

(١) مزمور ٤١ : ١١ ، ٣٠ : ١ (٢) أي أنه إذا صمد الراهب أمام الشيطان الذي يعوّقه أو يمنعه عن حضور الصلاة العامة ـ دون الإذعان لفكر احتياجه إلى راحة أو إلى إنجاز عملٍ ما بخلاف الصلاة ـ فبعد انتهائها يشعر بالسلام والراحة والقوة والعزاء ، ويكمل كل الأعمال بنعمة خاصة في الوقت الذي تدبّره العناية السامية.

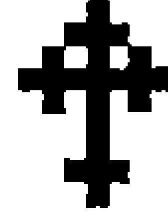
(٣) مزمور ١١٩ : ١٤٥ (٤) قارن (متى ١٨ : ٢٠)

(٥) أي ترتيل المزامير وغيرها من تسابيح .

(٦) يمكن أن يُضاف أن التروّي في التسبيح يُحارب أيضاً عدم تفهّم وعدم تأمّل التعبيرات .

(٧) في الصلاة طويلاً (٨) د : + فالصلاة لا تُعلَّم إلاّ بالصلاة

يخصّها ، هـو الله الـذي " يعلّـم الإنسـان المعرفـة "[1] ، " ويُعطـي صـلاةً ، ويبارك سنوات الأبرار "[2] . آمين .



(١) مزمور ٩٤ : ١٠

(٢) صموئيل الأول ٢ : ٩ حسب الترجمة السبعينية

الدرجة التاسعة والعشرون

زوال الآلام(*)

أو التشبّه بالله ، السماء الأرضية ، الكمال ، قيامة النفس قبل القيامة العامة

١ والآن ، ها نحن الطريحين في جب الجهالة العميق ، في ظلمة الأوجاع وظلّ الموت ، نبتدئ بما لنا من قحّة[1] ، أن نتفلسف في وصف السماء الأرضية .

٢ لا جرم أن جلد السماء تزيِّنُه الكواكب ؛ كذلك فإن زوال الآلام يحوي الفضائل زينةً له . لأن عدم التألّم لا أعني به شيئاً آخر سوى سماء العقل الحاصلة في القلب ، حيث لا تبدو حيل الشياطين أكثر من مجرّد لُعَبٍ تافهة .

٣ إنه بريءٌ من الآلام حقاً ، ولعله يُعرَف بهذا ، مَن قد جعل جسمه عديم الفساد ، ورفع عقله فوق الخلائق ، وله أخضع جميع حواسه ، مُوقِفاً نفسه لدى حضرة ربه ممتدة نحوه أبداً ، ولو بما يفوق قدرته .

٤ يقول قومٌ أيضاً ، إن زوال الأسقام هو قيامة النفس قبل قيامة الجسد؛ وغيرهم يقولون إنه معرفة الله الكاملة ، التي تلي معرفة الملائكة .

٥ إنه كمال للكاملين كامل ، دائماً يتكامل ، هكذا وصفه لي واحدٌ

(*) الآلام ؛ الأوجاع ؛ الأسقام ؛ الأدواء (جمع داء) كلها تعني جذور الخطايا أو الرذائل المتأصلة في النفس أو الجسد أو القلب أو الضمير أو الفكر . زوال الآلام هو البرء (الشفاء) أو التحرّر منها : فزوال الأسقام وانعدام التألم والبرء من الأوجاع واللا ألمية ، كلها ذات معنى واحد هو اكتمال الصحة الروحية والنفسية (١) أي وقاحة

قد ذاقه ؛ وهو يقدِّس العقل ويفصله عن الهيوليات بهذه الكيفية ، حتى أنه في أغلب عمره الباقي في الجسد ، بعد ولوجه هذا الميناء السمائي ، يُختطَف إلى السماء[1] ، ويُرفع إلى التأمل . ونِعم ما قاله واحدٌ قد حاز خبرةً بذلك : " إن أعزّاء الله قد رُفِعوا فوق الأرض جداً "[2] رجلٌ بهذه الصفة ـ كما نعلم ـ كان ذلك المصري الذي لم يكن يترك يديه مدةً طويلة مبسوطتين في صلاته ، حال كان يصلّي مع آخرين[3] .

٦ هناك بريءٌ من الآلام ، وهناك أيضاً من حاز براءةً من التألم أكثر منه . فالأول يمقتُ الشرَ مقتاً شديداً ؛ أمّا الثاني فله كنز في الفضائل لا يفنى[4] .

٧ إن الطهارة أيضاً تُدعى انعدام الآلام ؛ وهذا حق ، لأنها مقدّمة القيامة العامة ، وعدم فساد الفاسد[5] .

٨ قد أوضح زوال أدوائه ، ذلك القائل : " إن لي فكر الرب "[6] . قد بيَّن خلوه من الانسقام ، المصريُ القائل إنه ما يخاف بعدُ ربَّه[7] . قد

---

(١) ل : كمن هو في السماء ـ (انظر كورنثوس الثانية ١٢ : ٢)

(٢) مزمور ٤٧ : ١٠ حسب الترجمة السبعينية

(٣) هو القديس شيشوي ، الذي كان بعدما يبسط ذراعيه للصلاة ، كان يُختطَف عقله إلى فوق ، فلا يدري بما حوله ومن حوله . فلكي يتحاشى أن يُعرف هذا عنه ، كان إذا صلّى مع آخرين ـ يخفض يديه سريعاً بعد ابتداء الصلاة .

(٤) قارن (لوقا ١٢ : ٣٣) ـ د : لا يُنقَب

(٥) قارن (كورنثوس الأولى ١٥ : ٥٣ ، ٥٤)

(٦) كورنثوس الأولى ٢ : ١٦ ، ٧ : ٤٠)

(٧) هو القديس أنطونيوس الكبير الذي قال : " إنني منذ الآن لا أخاف الله ، لكنني أحبّه ؛ لأن المحبة تطرد الخوف خارجاً "

أظهر زوال أسقامه ذلك الذي ابتهل أن ترجـع إليـه أوجاعـه [١]. ومَن قَبْـلَ المجد العتيد ، قد مُنح عدم التألم هذا ، نظير ذلك السوري[٢] ؟ ذلك أن داود الشهير في الأنبياء قد قال للرب : ‟ اتركني لكي أسـترد أنفاسـي ‟[٣] ، أمّـا ذلك المجاهد لدى الله فصرخ إليه ‟ سكّت عني أمواج نعمتك ‟ .

٩ النفس التي امتلكت انعدام التألم ، قد تمكّنت بهـذا المقـدار في الفضل، مثل تمكُّن المنسقمين بالأوجاع في اللذّات .

١٠ إن يكن هذا أوجَ نهم البطن ، أن يغتصب صاحبه علـى الأكـل ، حتى وهولا يشتهي[٤] [مأكولاً] ؛ فهذا على كـل حـال أوجُ ضبـط الهـوى والتعفّف ، أن يضبط الجائع طبيعته حال جوعه جوعاً لا يُلام عليه .

١١ إن تكن قمّة الشبق والفسق ، أن يهتـام[٥] صاحبـه بالأحيـاء غـير العاقلة والجمادات ؛ فهذه قمّة الطهـارة ، أن يكـون جـسّ صاحبهـا بالنسـبة لأي شخص مهما كان ، مثلما يكون بالنسبة للجمادات .

١٢ إن تكن هذه ذروة حبّ المال ، أن يواصل صاحبـه الجمـعَ ويظـلّ بلا شبع ؛ فهذه ذروة المسكنة ألاّ يشفق المرء حتى على جسمه ذاته .

---

(١) هو القديس يوحنا القصير ، الذي قال عنه القديس بيمن إنه طلـب إلى الله فرفـع عنـه الآلام وصـار بـلا هـمّ . فلما توجّه إلى الشيخ قال له : ‟ ها أنا كما تراني يا أبي مستريح ، وليس هناك ما يقاتلني علـى الإطـلاق ‟ فقـال له الشيخ : ‟ امض واسأل الله أن يُرجع إليك القتال، لأنه بالقتال تنجح النفس وتفوز ‟؛ فلما جـاءه القتـال ، لم يصلّ لكي يُرفع عنه ، بل كان يقول : ‟ اعطني يارب صبراً على الاحتمال ‟ .

(٢) هو القديس افـرام السـرياني شماس إديسا بـين النهريـن ، الذي قـال عنـه ضمـن مـا قـال في مديحـه القديـس غريغوريوس النيسي: ‟ إنه كان قد بلغَ الميناء الهادئ لغير المتجسدين، حيث لم يكن يخاف بعد من عاصفة أو موجة ‟

(٣) مزمور ٣٩ : ١٣ — (٤) د : وهو غير جائع — (٥) من الهيام ، أي العشق والكلَف .

١٣ إن تكن هذه قمّة الضجر ، أن يكون الضجور في غاية الراحة ولا يمتلك صبراً ؛ فهذه قمّة الصبر أن يحتسب الصبور نفسه في الضيقة ، كأنه في الراحة .

١٤ إن يُدعى هذا بحر الغيظ ، أن يستشيط صاحبه احتداداً حتى دون أن يكون بقربه أحد ؛ فهذا بحر طـول الـروح[١] أن يكـون صاحبـه هادئـاً في حضور شاتمه ، كما في حال غيابه .

١٥ إن يكـن هـذا حـدّ تعـاظم المجـد البـاطل ، أن يتزيّـا أحـدٌ بسـلوك التصنّع والتظاهر ، مع أنه يرى ألا أحد حاضر بجانبه ليمدحه ؛ فمن البيِّن أن هذه علامة غياب المجد الباطل ، ألاّ يُسرَق قلبك أبداً في حضور مادحيك .

١٦ إن تكن هذه علامة الهلاك - الذي هو الكبريـاء - أن يـترفّع أحـدٌ حتى في حالِهِ الحقيرة[٢] ؛ فهذه دلالة الاتضاع المخلّص أن يكـون صاحبـه في الأعمال السامية والمآثر النبيلة ، ذا فكرٍ ذليل وشعور متواضع .

١٧ إن كانت هذه دلالة الانسقام الكامل بالأوجاع ، أن يُذعـن المـرء سريعاً لكافة الهواجس التي تبذرها فيه الشياطين ؛ فأنا أعتبر هذا علامةً عـدم التألّم المقدس ، أن يستطيع حائزه أن يقول : " عند جنـوح الخبيـث عـني ؛ لم أكن أعلم ذلك[٣] " ، ولا أعلم كيـف أتـاني ، ولا لماذا ، ولا كيـف انصـرف عني ؛ لكني في جميع هذه العوارض كنت فـاقداً تمامـاً الإحسـاس بهـا ، لأنـي كنت وسأكون دائماً بكُلّيتي متحداً بإلهي .

---

(١) ب : + والتمهّل (أي التلطّف)
(٢) ب ، ل ، : في لباس زري (أي ملبس حقير)
(٣) مزمور ١٠٠ : ٤ حسب الترجمة السبعينية

١٨ الذي وُهب هذه الحالة الجليلة ، مع أنه لا يزال بعْـدُ في الجسـد ، فقد اقتنى الله على الدوام ساكناً فيه ، هادياً إيّاه في كافة أفعاله وأقواله وأفكاره . لذلك فإنه باستنارته يدرك مشيئة الله كصوتٍ داخلي . إنه يسمو فوق كل تعليم بشري ، و[لسان حالِهِ] يقول : " متى أجيء وأتراءى قدام الله[١] ؟ " ، لأنني لست احتمل بعد عنف حبّي ؛ إنني أتوق إلى البهاء الأبدي الذي أعطيتنيه عوضَ هذا الطين .

١٩ لماذا أقول أكثر من هذا في وصف البريء من الآلام ؟ إنه ليس فيما بعد حيّاً ، بل المسيح هو الحيُّ فيه ، على ما ذكر ذاك الذي جاهد الجهاد الحميد ، وتمّم سعيه وحفظ الإيمان[٢] .

٢٠ تاج الملك لا يتكوّن من جوهرة واحدة ؛ وزوال الأسقام لا يبلغ الكمال إن أهملنا ولو واحدة من الفضائل مهما كانت[٣] .

٢١ اعتبرْ أن زوال الأسقام هو القصر السمائي ؛ وأن المنازل العديدة[٤] هي المساكن التي من داخل المدينة[٥] ، وأن سور أورشليم السمائية هذه هو غفران الخطايا . فلنحاضر[٦] يا إخوتي ، فلنحاضر لكي ندخل خدر[٧] هذا القصر . فإن كان ثمّة عائقٍ يمنعنا ، مثل نيرٍ ما ، أو عادةٍ سالفة ، أو الزمن نفسه[٨] ، فترحاً لها من مصيبة ![٩] لكن ينبغي علينا على

---

(١) مزمور ٤٢ : ٢ (٢) (تيموثاوس الثانية ٤ : ٧) ب : + القويم

(٣) ب : + حقيرة ل : + مألوفة ؛ عادية (٤) يوحنا ١٤ : ٢ (٥) د : هي الحالات الروحية المختلفة التي تصادف هناك (٦) نحاضر = نسعى = نركض = نجري (٧) الخِدر هو الغرفة الداخلية الخاصة بالعروسين (٨) د : العوز إلى وقت (٩) أي يا لها من مصيبة محزنة (الترح هو الحزن) .

الأقل أن نشغل واحداً من تلك المنازل التي تحيط بهذا الخدر. فإن كنا نتثاقل وقد صرنا مخلّعين ـ فلنستوثق من أن نكون على الأقل داخـل الأسـوار . لأن من لا يدخل إلى هناك قبل وفاته ، أو بالحري من لا يثب السور ، فسيظلّ في بريّة الشياطين والأسقام ؛ ولهذا السبب صلّى واحدٌ قـائلاً : " بـإلهي سـأثب السور[1] " . كما قال آخر نائبـاً عـن الله : " أليسـت خطايـاكم هـي الـتي فصلتكم عني ؟[2] " .

فدعنـا إذن يـا أحبـاء أن ننقـب[3] حـائط السـياج هـذا ، الـذي ابتنينـاه لضررنا بعدم طاعتنا ، ونتسلّم بذلك غفرانـاً لذنوبنـا ، لأن ليـس في الجحيـم من يقتدر أن يمحو ديوننا .

فسبيلنا أيها الإخوة أن نتفرَّغ لعملنا لأننا سُـجِّلنا في سـجل المتفرِّغـين ، وليس من عذرٍ نحتجُّ به عن سقطةٍ ، أو نقص فرصة ، أو نـيرٍ مـا . لأن جميـع الذين اقتبلوا الرب بحميم الميلاد الثاني[4] ، قـد أعطـاهم سـلطاناً أن يصـيروا أولاد الله[5] بقولـه : " تفرَّغـوا واعلمـوا أنـي أنـا إلهكـم[6] " ، وزوال أسقامكم فله المجد إلى دهر الدهور آمين

أمّا عدم التألم المغبوط ، فيرفع العقل " المسكين من التراب " إلى السماء ، " ويُنهض البائس من مزبلة " الآلام ؛ أمّا المحبة التي يفوقَ الكلَّ بحدُها ، " فتُجلسه مع رؤساء " الملائكة ، " ومع رؤساء شعب الرب[7] " .

---

(١) مزمور ٨ : ٢٩ حسب الترجمة السبعينية (٢) أشعياء ٥٩ : ٢ (٣) د : نقوِّض (٤) تيطس ٣: ٥
(٥) يوحنا ١ : ١٢ (٦) مزمور ٤٦ : ١٠ حسب الترجمة السبعينية (٧) قارن (مزمور ١١٣ : ٧ ، ٨)

الدرجة الثلاثون

ترابط الثالوث الأسمى بين الفضائل

١ الآن بعد كافة ما قدّمنا ذكره ، يتبقّى أمامنا هذه الثلاثة التي تربط الفضائل كلها ، وتكفل اتحادها : ألا وهي الإيمان ، والرجاء ، والحبّ[1] ؛ أعظمها كلها الحبّ ، لأن الله نفسه هكذا يُدعى[2] .

٢ على قدر فهمي أنا أرى الأول مثل الشعاع ، والثاني مثل النور ، والثالث مثل الكُرة[3] ، ولجميعها إشعاعٌ ولمعانٌ واحد .

٣ الأول[4] يقتدر أن يعمل ويخلق جميع الأشياء ؛ والرحمة الإلهية تحيط بالثاني وتَقِيهِ من أن يخزى ؛ والثالث لا يسقط[5] ، ولا يتوقّف في سعيه ، ولا يُمهِل المجروح به أن يهدأ عن حميّة المبهجة .

٤ من شاء أن يتكلّم في وصف الحبّ ، قد شرعَ أن يتكلّم عن الله نفسه ؛ والإطناب بالأقوال في وصف الله هو لغير الحَذِرين خطرٌ مورِّط في العطب[6] .

٥ إن الملائكة يعرفون أن يتكلموا عن الحبّ ، وحتى هم فإنهم يقتدرون على ذلك بقدر ما نالوا من الاستنارة فقط .

٦ الحُبّ هو الله ؛ لذلك فمن يشاء أن يضع له تعريفاً ، هو أعمى يبتغي أن يحصي ذرّات رمل البحر .

---

(١) كورنثوس الأولى ١٣ : ١٣ (٢) يوحنا الأولى ٤ : ٨ ، ١٦ (٣) أي قرص الشمس : ب ، ل : مثل دائرة
(٤) ب : الإيمان (٥) كورنثوس الأولى ١٣ : ٨ (٦) انظر : لاهوت ، معرفة (في فهرس الموضوعات)

٧ الحُبَ من حيث طبيعته ، هو تشبُّه با لله على قدر ما يمكنُ للمائتين ، وهو من جهة فاعليته سكْرٌ للنفس ؛ أمّا من جهة خاصيته المميِّزة فهو ينبوع إيمان ، لجّة صبر ، بحر تواضع .

٨ الحبَ هو قبل كل شيء دحض كل فكر عداوة[١] ، لأن الحب لا يفكر بالسوء[٢] .

٩ الحب وزوال الانسقام والتبنّي يتميّزون كأبناء — الواحد عن الآخَرَيْن - بالاسم فقط . وكما أن الضوء والنار والحرارة تأتلف إلى فعلٍ واحد ، هكذا الحال كما اعتقد بالنسبة لهذه الحقائق الثلاث .

١٠ بقدر ما ينقص الحبّ يظهر الخوف ؛ لأن الخالي من الخوف ، إمّا أن يكون ممتلئاً من الحبّ ، وإمّا أن يكون ميّتاً بالنفس .

١١ ليس غيرَ لائق ، لأن نستعير من الأمور البشرية صوراً للتعبير عن الشوق ، والمخافة ، والغيرة ، والحسد ، والخدمة ، والحب التائق إلى ا لله .

✠ طوبى لمن اقتنى شوقاً إلى ا لله ، مثلما يتوق المحبّ إلى محبوبه .

✠ طوبى لمن يخاف ا لله بقدر ما يخاف المتّهمون قاضيهم .

✠ مغبوطٌ من اضطرم حرارةً هكذا مخلصة ، مثل حرارة الخادم الأمين لسيّده .

✠ طوبى لمن صار غيوراً لأجل الفضائل بهذا المقدار ، مثل الأزواج الذين توقظهم غيرتهم على نسائهم .

✠ مغبوطٌ من يقف في الصلاة قدام الرب ، كما يقف الخَدم أمام ملكهم .

---

(١) ب ، ل : كل فكرٍ مضاد (أي مضاد للمحبّة)

(٢) كورنثوس الأولى ١٣: ٥

✣ طوبى لمن يجتهد في إرضاء الله بلا فتور ، مثلما يسعى الآخرون لإرضاء الناس .

١٢ الأم لا تتشبّث بصغيرها هكذا على صدرها ، كما يلتصق ابن الحب بالرب كل حين .

١٣ من يحبّ حقاً ، يتمثّل كل حين وجه حبيبه ويقبّله بالتذاذٍ في خياله؛ ومَن هذه حاله لا يستطيع أن يهدأ من شوقه حتى أثناء نومه ، بل يواصل أيضاً الانشغال بحبيبه[1] . هكذا حال طبيعتنا الجسدية ، والأمر كذلك بالنسبة للروح . وقد قال عن نفسه واحدٌ من الذين انجرحوا بالحب وقد تعجبتُ مما قاله : " إنني أنام بسبب حاجة طبيعتي ، أمّا قلبي فمستيقظ لأجل وفرة حبّه[2] " .

١٤ ينبغي أن تلاحظ ، أيها الأخ الموقّر، أن النفس - مثلها مثل الإيَّل - بعد إهلاكها تلك الحيّات ، تشتاق حينئذ ولهانةً[3] إلى الرب بنار حبّه ، مرشوقة كما من سهم .

١٥ إن تأثير الجوع كامنٌ غير محدَّد ؛ أمّا فعل العطش [في العطشان] فواضحٌ محدَّد ، دَلَّ كلَّ من يبصره على التهابه ؛ لذلك قال مَن كان إلى الله تائقاً : " عطشت نفسي إلى الله ، الإله القوي الحيّ "[4] .

١٦ إن يكن وجه صديقنا المحبوب يغيِّرنا بجملتنا تغييراً واضحاً ويجعلنا فرحين مبتهجين وبلا همّ ، فما الذي لا يفعله وجه الرب حالَ حضوره السرّي في نفس نقيّة ؟

---

(١) ل : التحدث مع حبيبه

(٢) نشيد الأناشيد ٥ : ٢

(٣) ولَهَ الصبي إلى أمه : فزعَ إليها

(٤) مزمور ٤٢ : ٢

١٧ إن المخافة إذا تأصَّل فعلها في حسّ النفس ، فهي تُذيب كل وَسَخٍ وتلتهمه ؛ لأنه قيل : " سَمِّرْ لحمي بمخافتك "[1] .. إلاّ أن الحبّ المقدَّس يلتهم بعضاً من الناس التهاماً ، حسبما قيل : " لقد سلبت قلبي ، لقد سلبت قلبي ! "[2] كما يملأ البعض نوراً وابتهاجاً ، لأنه قيل : " عليه اتّكل قلبي ، فأُعِنْتُ وأزهر جسدي "[3] ، وأيضاً : " القلب المسرور يُبهي وجه صاحبه[4] " . فإذا امتزج الإنسان كلّه بكيفيةٍ ما بحبّ الله ، حينئذ تظهر بهجة نفسه على مظهر جسمه ظهوراً كأنه في مرآة . على هذا المثال تمجَّد موسى ، ذلك الذي تنعَّم بمعاينة الله[5] .

١٨ الذين قد بلغوا هذه الدرجة الملائكية ، غالباً ما ينسون الطعام الجسداني ؛ بل أظن أنهم لا يشعرون غالباً برغبةٍ إليه ، وليس في ذلك غرابة، إذ أن الشوق المضادّ لكونه أقوى ، غالباً ما يدفع[6] الشوق إلى الطعام .

١٩ أظن أن هؤلاء العديمي الفساد ، ما يتعرَّض جسمهم للمرض بعد، على حسب ما قد أُزيل فساده ، إذ قد تطهَّر بلهيب الطهارة التي أطفأت لهيبه . كما أظن أنه حتى الطعام الذي يقدَّم لهم ، ما يتقدّمون إليه بلذّة . لأنه كما أن الماء الأرضي من شأنه أن يغذّي جذور الشجرة ، هكذا فإن النار السمائية تغذّي نفوس هؤلاء .

٢٠ نمو المخافة هو بداية المحبّة ؛ كما أن اكتمال الطهارة أساس التكلّم عن الله .

---

(١) مزمور ١١٩ : ١٢٠ حسب الترجمة السبعينية

(٢) نشيد الأناشيد ٤ : ٩

(٣) مزمور ٢٨ : ٧ حسب الترجمة السبعينية

(٤) أمثال ١٥ : ١٣

(٥) خروج ٣٤ : ٢٩ ، كورنثوس الثانية ٣ : ١٤

(٦) أي يطرد

٢١ من قد وحّد عمق حسّهِ با لله توحيداً تاماً ، يقوده ا لله سرّاً لفهم أقواله ؛ فبغير هذا الاتحاد يصعب التكلّم عن ا لله .

٢٢ الكلمة المغروسة [فينا][1] ، تكمّل طهارتنا ، إذ تُميت بحضورها الموت . فمتى أُميتَ الموتُ ، عند ذاك يستضيء المتتلمذ للمعرفة الإلهية[2] . كلمة الرب التي من ا لله الآب طاهرة ثابتة إلى أبد الدهور . أمّا من لم يعرف ا لله بعد ، إنما يتكلّم على جهة الحدس .

٢٣ إن الطهارة تجعل تلميذها لاهوتياً، مُدرِكاً من ذاته عقائد الثالوث

٢٤ من أحبّ الرب ، فقد أحبّ أخاه قبلاً ؛ لأن برهان حبّه ربَّه إنما هو حبُّه لأخيه .

٢٥ من يحب القريب لا يحتمل المغتابين أبداً ، بل بالحري يهرب منهم كهاربٍ من النار .

٢٦ من يقول إنه يحب ا لله ، وهو يغتاظ على أخيه ؛ شبيهٌ بمن يحلم في نومه أنه يجري .

٢٧ قوّة الحبّ هي الرجاء ، لأننا بالرجاء ننتظر المكافأة عن الحبّ.

٢٨ الرجاء هو ثروة من ثروات[3] مخفاه .

٢٩ الرجاء هو كنز اليقين بالكنز المحفوظ[4] .

---

(١) قارن (يعقوب ١ : ٢١) ب : الكلمة الواحد في الجوهر (٢) د : تلميذ اللاهوت .

(٣) د : كنز مصنوع من كنوز مخفاة : المقصود أن الرجاء الحي ثمرة فضائل كثيرة غير ظاهرة

(٤) أي المحفوظ لنا في السموات ـ انظر (كولوسي ١ : ٥) د: الرجاء كنز يقتنيه المرء مسبقاً قبل الكنز الآخر .

٣٠ الرجاء راحة من الأتعاب ؛ هو باب الحبّ ؛ إلغاء اليأس ؛ صورة النِعم الغائبة .

٣١ نقص الرجاء هو اختفاء الحبّ ؛ عليه تعتمد الأعمال ؛ عليه تستريح الأتعاب ؛ الرحمة تحيط به .

٣٢ الراهب ذو الرجاء الحسن هو ذبّاح الضجر ، وبهذا السيف يقتلعه اقتلاعاً .

٣٣ اختبار مواهب الربّ يولّد الرجاء . أما المفتقر إلى هذه الخبرة ، فيظلّ في شكّ .

٣٤ الغضب يهدم الرجاء ، لأن الرجاء لا يُخزِي[١] . أما الرجل الغضوب فلا يستحق مجداً[٢] .

٣٥ الحب رازق النبوّة ؛ الحب مُبدع المعجزات ؛ الحبّ لجّة استنارة . الحبّ ينبوعُ نارٍ بقدر ما تفور ، بقدر ما تُلهِب النفس الظمآنة . الحبّ حالة الملائكة . الحبّ تقدُّم الأبدية[٣] .

صِفْ لنا أيها الجميل في الفضائل أين ترعى قطيعك أين تسكن في الظهيرة[٤]؟ أَضِئْنا ، إطْفِئْ ظمأنا ، أرشدنا ، أَمسِك بأيدينا ، إذ نحن نشاء أن نصعد إليك، لأنك أنت تسود على الكل[٥]. والآن فقد سَبَيتَ نفسي[٦]، ولست أستطيع بعدُ أن أحتوي لهيبك . لذلك أسعى نحوك مسبِّحاً إياك . " أنت تسود على اقتدار البحر وتُسكن عجيج أمواجه وتميته . أنت تذلّل

---

(١) رومية ٥ : ٥ (٢) أمثال ١١ : ٢٥ حسب الترجمة السبعينية ـ ل: فهو خالٍ من النعمة

(٣) د : تقدُّم أبدي (٤) نشيد الأناشيد ١ : ٧ (٥) مزمور ١٠٣ : ١٩ (٦) نشيد الأناشيد ٤ : ٩

فكراً مستكبراً تذليل جريح ؛ بذراع قوّتك بدّدت أعداءك[1] ؛ وجعلت محبّيك غير مقهورين . إنني أتوق أن أعرف كيف رآك يعقوب مستنداً على السلّم ، متلهّفٌ أن تخبرني وسائل هذا الصعود الذي هذه صفته . بأيّة كيفيةٍ جُمِعَتْ معاً ، وممَ تكوّنت درجاتُ تلك السلّم التي رتّبها عاشقك مصاعدَ في قلبه[2] ؟ إنني ظامئٌ لمعرفة عددها ، وأيضاً الزمن الذي يتطلّبه هذا الصعود. لأن الذي علّمتَه الصراع والرؤية[3] ، قد أخبرنا بالمعالم فقط ، وما أراد - أو بالحري ما استطاع - أن يوضح لنا أكثر .

كما أن هذه الملِكة ، ولعلي بأكثر دقّة هذا الملك قد ظهر لي كما من أعلى السماء وناجاني في أُذُن نفسي قائلاً : " يا عاشقي ، إنّك ما لم تنحلّ من كثافة ترابك ما تستطيع أن تدرك جمالي " .

فلعلّ هذه السلّم تعلّمك هذه السلسلة الروحية من الفضائل ، التي على قمّتها وطّدتُ نفسي ، على نحو ما قاله مستودَع سرّي العظيم : أمّا الآن فتثبتُ هذه الثلاث
الإيمان ، والرجاء ، والمحبّة ،
ولكن أعظمهن
المحبّة[4] .

---

(1) مزمور ٨٩ : ٩ ، ١٠

(2) مزمور ٨٤ : ٥ حسب الترجمة السبعينية

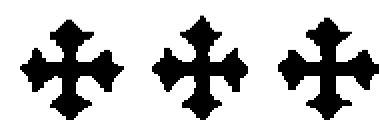
(3) يعقوب أبو الأسباط - (انظر تكوين ٢٨ : ١٢ - ١٧ و ٣١: ١٠ - ١٣ و ٣٢: ١، ٢٤- ٣٠) .

(4) كورنثوس الأولى ١٣ : ١٣

نُصحٌ موجز يلخِّص ما قيل بهذا الكتاب

اصعدوا يا إخوتي ، اصعدوا بحماس ، صمِّموا في قلوبكم على أن تصعدوا [1] . أعيروا أسماعكم للقائل : " هلمّوا نصعد إلى جبل الرب ، وإلى بيت إلهنا [2] " ، الذي يمكّن أرجلنا كأرجل الإيَّل ، وعلى المرتفعات يقيمنا[3] لكي نفوز بتسبيحه [4] .

اركضوا ، أسألكم مع ذلك القائل " لنسارعْ إلى أن نبلغ إلى اتحاد الإيمان ، إلى معرفة الله ، إلى حالة إنسان كامل ، إلى مقدار قامة ملء المسيح[5] ، الذي حين اصطبغ في الثلاثين من عمره المنظور ، أكمل الدرجة الثلاثين من هذه السلَّم الروحية . إذ أن الحبّ حقاً هو الله[6] . الذي له التسبيح ، والسيادة ، والقدرة ، الذي كان ، ويكون ، وسيكون مصدر جميع الخيرات في جميع الدهور وإلى الأبد . آمين .



---

(١) مزمور ٨٤ : ٥ حسب الترجمة السبعينية (٢) إشعياء ٢ : ٣ (٣) مزمور ١٨ : ٣٣

(٤) حبقوق ٣ . ١٩ حسب الترجمة السبعينية ، والمقصود : لكي ننتصر بواسطة تسبيحنا إياه .

(٥) قارن (أفسس ٤ . ١٣) (٦) يوحنا الأولى ٤ : ٨

رسالة إلى الراعي

١ لقد رتّبتك أيها الراعي الموقّر ، في هذا المصحف آخر الكل ، أمّا في مصحف الحياة العلوي ، فإني واثق أنك تتقدّم على الجميع ، كما تخبرنا كلمة الحق أن أولئك الذين هم آخِرين في فكرهم ، سيكونون الأوائل في الكرامة[1] .

٢ الراعي الحقيقي هو الذي يستطيع بصلاحه وغيرته وصلاته ، أن يطلب الهالكين من الخراف الناطقة[2] ، ويردّهم إلى الطريق المستقيم .

٣ المدبّر الصالح حقاً، هو الذي أخذ من نعمة الله ومنْ أتعابه الخاصة ، قوةً روحية تجعله قادراً أن يخلّص السفينة ، لا من الأمواج الثائرة فحسب ، بل من عمق اللجّة أيضاً .

٤ الطبيب الحقيقي هو ذاك الذي قد اقتنى صحّة النفس والجسد ، ولم يعد بحاجةٍ إلى دواء ما[3] .

٥ المعلّم الحقيقي هو الذي يحمل في نفسه كتاب المعرفة المسطّر بأصبع الله، أي بفعل الاستنارة النابعة من الله، وليس في حاجةٍ بعدُ إلى كتابٍ آخر.

٦ عارٌ على المعلّم أن يعلّم نقلاً عن آخرين ، مثلما خزيٌ بالرسّام أن يقلّد رسوم السابقين .

٧ يا من تعلّم هؤلاء الذين هم دونك ، علّم الأمور التي مما فوق إذ

---

(١) قارن (متى ١٩ : ٣٠ و ٢٠ : ٢٥ - ٢٧ ؛ لوقا ١٨ : ٩ - ١٤) .

(٢) قارن (لوقا ١٩ : ١٠)

(٣) ب، م : إلى علاج من آخر سواه

أنت نفسك متعلّم من فوق ؛ وليعلّمك وضعك المنظور ما هو غير منظور .

٨ لا تنسَ قول من قال : " لا من الناس ، ولا من إنسان تعلمّت ما أعلم[١] " إذ يستحيل على الراقدين على الأرض أن يعالجوا آخرين .

٩ الربّان الصالح يخلّص السفينة ، والراعي الصالح يشفي ويُحيي الخراف المريضة .

١٠ يرمي الراعي أحجار كلامه على الغنم التي تخلّفت بالتواني والنهم[٢] .

١١ هذه أيضاً علامة الراعي الصالح : إذا بدأ الفتور يستولي على الغنم ، نتيجةً لحرارة الشمس أو بالحري ثقل البدن ، يَشخص الراعي نحو السماء ساهراً على خرافه[٣] بزيادة . لأنه كثيراً ما يحدث في وقت الحَرّ الشديد والسَموم ، أن يصير كثير من الخراف فريسة للذئاب . فضلاً عن ذلك ، إذا رأينا الغنم تخفض رأس النفس نحو الأرض في أوقات الحَرّ ـ كما يحدث عادةً ـ سنرى تحقّق هذا القول : " إن قلباً منسحقاً ومتواضعاً ، لا يرذله الله "[٤] .

١٢ إذا ما حلّت على القطيع ظلمات وليل الأوجاع ، فليت الكلب يظلّ متّجهاً بثباتٍ نحو الله ، ملازماً نوبة حراسته بالليل .

١٣ هذه خاصيّة مما وهبه ربّنا الصالح لطبيعتنا ، وهي أن المريض لمجرد رؤيته الطبيب يُسرّ جذلاً ، حتى إذا لم يتلقَّ منه أيّة منفعة .

(١) غلاطية ١ : ١١ ، ١٢

(٢) ب ، م : + فترفع رؤوسها بفزعٍ وتكفّ .

(٣) . ب ، م : + بدلاً عنهم يصلّي

(٤) مزمور ٥١ : ١٩

١٤ كذلك ينبغي عليك. أيها الطبيب العجيب، أن تتّخذ لَزوقاتٍ[١] ، وأشربة ، وذَرورات[٢] ، وقَطْرات ، واسفنجات ، ومباضِعَ ، ومكاوي ، ومراهم ، ومنوِّمات ، ومشرطاً ، وعصائب[٣] ، ومـا يُسـمّى بمضـادات التقزّز[٤] . فإذا لم يكن لنا هذه التي وصفناها ، فمن أين يُعرف أننا أطباء ؟ ليس عن الكلام تُعطَي المكافأة ، إنما يُعطَى الجزاء عن الأعمال .

اللَزوق يُبتغَى لشفاء الأوجاع الظاهرة ــ أعني المختصّة بالجسد[٥] . الشراب لشفاء الأوجاع الباطنة ولإفراغ الأوساخ الغامضة . الذَرور هو الهوان ، وهو علاج كاوٍ ينظّف ويجفّف تقيّح العُجب . القطْرة لتنقية عين النفس التي تعكرّت وأظلمت من الغضب[٦] ؛ القطرة تأنيبٌ مرّ يشفي في زمن قليل . المِبضع هو إفراغ سريع لنتن خفي . إنه اختراق فعّال باترٌ لنجاة المرضى . الاسفنجة هي العنايات والإراحة التي تعقب فصد الدم أو إجراء الجراحة ، يباشرها الطبيب بكلمات التعزية والعطف والودّ . الكيّ عقوبةٌ وتأديب مفروض لزمان [محدود] بنيّة رحيمة . المرهم هو العزاء الذي يعطي للمريض من بعد الكيّ بكلام لطيف أو براحةٍ خفيفة . المنوِّم هو أن يَحمل [التلميذ] نير التلمذة ، فتنيله بطاعته ، الراحة ، والنوم اليقظ ، والعمى المغبوط الذي يمنعه عن رؤية ما فيه من صلاح .

العصابة هي أن تشدّ وتضغط بذكر الموت[٧] على الذين صاروا

---

(١) أو لبخات ؛ واللَزوق : هو دواء يلتصق بالعضو المريض ـ أو الجرح ـ حتى يبرأ ، ويسمى بالعامية " لزقة " .

(٢) الذَرور : هو المسحوق ، وبالعامية " بودرة "

(٣) العصابة : هي الرباط (من الشاش أو غيره) .

(٤) التقزّز هو الغثيان ، أو الميل إلى التقيّأ ، وبالعامية " التقرّف " .

(٥) ب : + إمساك اللزوق أيضاً هو بسط اليدين في الخفاء من أجل شفاء وخلاص المرضى .

(٦) انظر (مزمور ٦ : ٧ حسب الترجمة السبعينية)

(٧) د : بالصبر حتى الموت

مسترخين كسالى ، إذ مالوا إلى المجد الباطل . أخيراً يأتي المشرط ، وهو قرار قطع الجسم التي ماتت النفس منه ، والعضو الذي فسد وتقرّح ، كيلا تنتقل منه العدوى إلى بقية الأعضاء .

١٥ جيّدٌ في الأطباء عدم التقزز ، وفي الرؤساء انعدام الأوجاع ؛ لأن الأولين إذا كانوا لا يتقزّزون من شيء ، فهم يتلطّخون بقَذَر المرضى بغير تقرّف ، أمّا الآخرون فيستطيعون أن يُحيوا كل نفس ميتة .

١٦ ليكن أحد الأمور التي يطلبها الراعي في صلاته أن يُظهر الودّ للجميع بحسب استحقاق كل واحد ، حاسباً حساباً لميولهم واستعداداتهم . وإلاّ ، فإنه يخاطر ـ مثل يعقوب[١] ـ بأن يضرّ سويةَ الذي يميل إليه بالحب وباقي تلاميذه أيضاً . يعرض أن يحدث هذا للذين ليست لهم بعدُ حواسُ النفس المدرّبة تماماً على التمييز بين الخير والشر وما بينهما[٢] .

١٧ إنه عارٌ كثير على الراعي أن ينال بصلواته لأجل تلميذه ، ما لم ينله هو نفسه بعد .

١٨ إن الذين أبصروا وجه الملك واكتسبوا صداقته ، يستطيعون بعد ذلك أن يوفّقوا بينه وبين خُدّامه ، بل أيضاً بينه وبين الغرباء أو حتى الأعداء ، إن أرادوا ، كما ينالون لهم أن يتنعّموا معه بمجده . هكذا الأمر أيضاً ـ كما أظن ـ بالنسبة للقديسين .

١٩ يستحي الأصدقاء من الأصدقاء المخلِصين الودودين ، ويعتبرونهم كثيراً ويطيعونهم ، بل يُقتَسرون منهم . هكذا جيّد أن نقتني لنا أصدقاء

(١) تكوين ٣٧ : ٣ ـ ٤

(٢) عبرانيين ٥ : ١٤

روحين[1] ؛ لأنهِ ليس شيءٌ مثلُ هذا ، يستطيع أن يعيننا على التقدّم في الفضيلة[2] .

٢٠ حدّثني واحدٌ من أحبّاء الله ، وقال : " إذا كان الله يُفيض مواهبه كل حينٍ على خُدامه ، فبالأكثر يفعل ذلك حين الأعياد الكبرى السنوية والأعيادِ الإلهية .

٢١ يجب على الطبيب أن يكون مجرّداً تماماً من الأوجاع ، حتى يمكنه في مناسبات معيّنة أن يتظاهر بها ـ ولا سيما الغضب ـ والحق أنه إذا لم يكن قد انعتق تماماً من الأوجاع ، فلن يمكنه أن يستعمل أحدها استعمالاً ظاهرياً دون أن يتأثّر به في داخله .

٢٢ رأيت حصاناً غير مهذّب تهذيباً كافياً ، يمشي بهدوء طالما كان ممسَكاً باللجام ، لكنه لمّا أُرخي لـه العنان قليلاً ، حاول أن يطرح صاحبه أرضاً . كذلك فالخاضعون لاثنين من الشياطين يلاقون عادةً نفس الصعوبة .

---

(١) ب : الملائكة أصدقاء (٢) هذه إشارة إلى فعّالية شفاعة القديسين بحكم دالتهم لدى الله . وهذه الحقيقة عبّر عنها الروح القدس باختصار ووضوح بالقول: " إن طلبة البار تقتدر كثيراً في فاعليتها "(يعقوب ٥ : ١٦) . لكن من الواضح أن طلبة البار عن آخر تظلّ قاصرةً عن تحقيق غايتها ، ما لم يكن المتشفّع بالبار عاملاً وساعياً لخلاص نفسه ، لتكميل قصد الله الذي يريد خلاص الجميع . انظر (تيموثاوس الأولى ٣ : ٤ ؛ لوقا ٧ : ٣٠ و ١٣ : ٢٤) . أي أن طلبة البار ـ مهما كان برّه ـ ذات فعّالية محدودة . انظر (حزقيال ١٤ : ١٣ ـ ٢٠ ؛ تكوين ١٨ : ٢٠ ـ ١٩ : ٢٩) وسيّان إذا كان الشفيع حياً أم انتقل، لأن الجميع عند الله أحياء (لو ٢٠ : ٣٨) بل إن الذي أكمل سعيه وتيقن من إكليله قد نال من الله دالة وسلطة أوسع (لوقا ١٩ : ١١ـ ١٩) كمسئول ومعين على خلاص كثيرين ، كما مُنح إمكانيات أعظم بما لا يُقاس . انظر (كورنثوس الأولى ١٣ : ٩ ـ ١٢) .

كل من يريد أن يسعى ليفهم ، فليجتهد في سعيه[1] .

٢٣ يعرف الطبيب أن الله أعطاه الحكمة ، عندما يستطيع أن يشفي أمراضاً يستعصي شفاؤها بواسطة آخرين كثيرين .

٢٤ ليس ما يدعو إلى الإعجاب بالمعلّم الذي يحكّم غلماناً مهذّبين حسناً ، بل بالحري بمن يقود إلى الحكمة والكمال ، تلاميذاً أفظاظاً قساة . تلمع مهارة قوّاد المركبات ، وتجتذب إليهم المديح ، عندما يحالفهم النصر بجيادٍ غير مروّضة[2] ، ويحضرونها صحيحة سالمة .

٢٥ إذا كنت قد اقتبلت عينين قادرتين على رؤية العاصفة من على بُعد ، أخبر بحكمةٍ جميع من في السفينة ؛ وإلاّ صرت أنت وحدك سببَ الغرق ، بما أن الجميع قد ائتمنوك على التدبير ، تاركين كل اهتمام .

٢٦ رأيت أطباء لا ينبِّهون المرضى إلى الخطر ، فنالوا بذلك لمرضاهم ولأنفسهم ، كثيراً من الغمّ والآلام .

٢٧ بقدر ما يلاحظ الرئيس أنه ليس تلاميذه فقط بل هناك غرباء[3] أيضاً لهم فيه ثقة كبيرة ، بقدر ما يجب عليه أن يستعمل يقظة وحذراً في كل ما يعمله أو يقوله ، عالماً أن الجميع ينظرون إليه كما إلى نموذج مثالي ، ويعتبرون أقواله وأفعاله كقاعدة ومقياس .

---

(١) لعل المقصود بهذه الفقرة - وهي مرتبطة بسابقتها ، أن الراعي هذا كان مستعداً للغضب ـ هذا الداء الذي كثيراً ما يكون منضفراً مع الكبرياء ؛ انظر (٨ : ٣٠) . فإنه إذ تراخى قليلاً عن معالجة هذين بالوداعة والتواضع وطول الأناة والاحتمال ، فقد يسقط بغتةً من علوه ويفتضح ، شأنه شأن الراكب على حصان غير مهذب حين يسقطه أمام الآخرين ويخجله .

(٢) أي على القتال والكرّ والفرّ .

(٣) من يأتون إليه من بعيد

٢٨ إنها المحبّة التي تُظهر الراعي الحقيقي ، بما أن الراعي الأعظم قد ارتضى أن يُصلب عن محبّة .

٢٩[١] بالكلام ، قُلْ إنك قد ارتكبت نفس الخطايا التي للآخرين ؛ بهذا لن يعوزك تواضع كثير .

٣٠ أحزِن المريض وقتاً ما ، خشية أن يُزمن مرضه ، أو أن يموت بسبب سكوتك الملعون . سكوت الربّان جعل كثيرين يظنون أنهم يُبحرون حسناً ، إلى أن اصطدموا بصخرة .

٣١ لنُصغِ إلى ما كتبه بولس إلى تيموثاوس : " داوِم ، في وقت مناسب ، وغير مناسب[٢] . في وقت مناسب ، إذا كان الموبَّخون يحتملون التوبيخ عن طيب خاطر ؛ في وقت غير مناسب ، إذا كان التوبيخ يُنكيهم[٣] . لأن الينابيع تُسيل ماءها، حتى إذا لم يكن هناك عطشانٌ ليشرب.

٣٢ يوجد عند بعض الرعاة ميل طبيعي للخجل المغلوط ، غالباً ما يمنعهم عن أن يقولوا لتلاميذهم ما هو لمنفعتهم[٤] . فأولئك لا يجب أن يرفضوا أن يعاملوهم معاملة المعلم للتلميذ ، ويختبروا الاتصال بهم ونصحَهم بما فيه منفعتهم وخلاصهم كتابةً .

٣٣ لنسمع ما يقوله الكتاب المقدس بشأن البعض : " اقطعها ؛ لماذا تُشغل الأرض بلا طائل ؟ "[٥] و" اعزلوا الخبيث من بينكم "[٦] ، وأيضاً :

---

(١) ب : ـــ (٢) تيموثاوس الثانية ٤ : ٢ (٣) أي يكدّرهم ، يغيظهم

(٤) أو إلفات نظرهم إلى مناقصهم (٥) لوقا ١٣ : ٧ (٦) كورنثوس الأولى ٥ : ١٣

" لاتصلِّ لأجل هذا الشعب "[1] ، وهو نفس ما قيل قبلاً عن شاول[2] . كل هذا ، ينبغي بالضرورة على الراعي أن يعرف على مَن يطبِّقه ، وكيف ، ومتى ؛ لأنه ليس أحدٌ أصدقَ من الله[3] .

٣٤ إن كان أحدٌ لا يستحي عندما يُوبَّخ على انفراد ، فسيجعل في التوبيخات العلنية أيضاً فرصة لإظهار وقاحته ، راذلاً بمشيئته خلاصه .

٣٥ لاحظت أيضاً أمراً آخر[4] ، رأيته حادثاً لبعض المرضى ذوي الإرادة الحسنة : فلمعرفتهم جبنهم وضعفهم تضرّعوا إلى أطبّائهم أن يربطوهم رغم أنفهم ويعالجوهم كُرهاً برضاهم؛ ذلك لأن " الروح نشيط " بسبب الرجاء المرتقَب ، " أمّا الجسد فضعيف "[5] بسبب العادات السالفة التي أَلِفوها قبلاً . فلما رأيت هذا ، ابتهلت إلى الأطباء أن ينزلوا على رغبتهم .

٣٦ لا يليق أن يقول المرشد لكل من يأتي إليه[6] " إن الطريق ضيّقة حرجة " ، ولا للجميع " إن النير حلو والحمل خفيف " . بل بالحري ينبغي أن يراعي [حالة المرتشد] ويهيئ الأدوية بطريقة ملائمة . فالذين يرهقهم نير خطاياهم فأشرفوا على قطع الرجاء ، يناسبهم القول الثاني ؛ وبالعكس ، فالذين يميلون إلى ظنون العُجب والاستعلاء ، يوافقهم الدواء الأول .

٣٧ هناك قومٌ استعدوا للسير في طريق طويلة ، وسألوا الذين يعرفونها. فلما أجابوهم بأنها سهلة مأمونة ، شرعوا في المسير بغير كثيرٍ من

(١) إرميا ٧ : ١٦
(٢) صموئيل الأول ١٦ : ١
(٣) ب ، م : + الذي أمرَ بهذا
(٤) بدير التائبين درجة ٥
(٥) متى ٢٦ : ٤١
(٦) ب ، م : إلى الرهبانية

الحمية[١] . فلما بلغوا منتصف الشوط أصابهم الخطر ، أو ارتدّوا إلى الوراء، لأنهم لم يكونوا متأهّبين للشدائد . أعرف أيضاً العكس : متى لمس حبّ الله قلباً ، فإن كلمات التخويف تفقد قوّتها ؛ وحين يظهر خوف جهنم ، فجميع الأتعاب تُحتمل بجلادة[٢]؛ وحين يُعرَف أنه يمكن ترجّي الملكوت[٣] ، فكل ما على الأرض يُحتقَر[٤] .

٣٨ ينبغي على القائد النابه أن يعرف الحالة الداخلية[٥] لكل واحد من تابعيه ، ودرجةَ تقدّمه . لأنه يمكن أن يوجد بين الصف جنودٌ قادرون على المقاتَلة في مقدّمة الجبهة ، أو أن يلتحموا بالصراع الفردي ، أولئك الذين ينبغي أن يجعلهم بالقرب منه فوق زملائهم في الألوية[٦] ، أو يرتّبهم في سكون الوحدة[٧] .

٣٩ لا يستطيع الربّان أن ينقذ السفينة وحده ، بغير مساعدة البحّارة؛ كذلك لا يقدر الطبيب أن يشفي العليل ما لم يأتِه أولاً لاستشارته ، ويكشف له جروحه بثقة تامة . الجروح التي يخفيها الحياء الخاطئ ، غالباً ما تُعدِي ، وكثيرون من ذلك يموتون .

٤٠ إذا كانت الغنم في المرعى ، فليداوم الراعي استعمال مزمار الكلمة ، لاسيّما عندما يتهيّأ القطيع للنوم . لأنه ليس شيءٌ يُفزع الذئاب مثل صوت مزمار الراعي .

---

(١) ب ، م : بالتهاون والاسترخاء (٢) أي بصبر وأناة (٣) انظر (أفسس ١ : ١٨)

(٤) انظر (كورنثوس الأولى ٢ : ٩ ؛ رومية ٨ : ١٨) (٥) ب ، م : سيرة

(٦) جمع لواء ؛ قسم من الجيش . (٧) ب ، م : + ليقاتلوا بالصلاة بدلاً عن إخوتهم

٤١ لا ينبغي على الرئيس أن يوضع نفسه دائماً عن جهالة[١] ، ولا أن يُدمن الترفّع بلا معرفة ؛ بل عليه أن يلاحظ بولس الرسول في سلوكه أحياناً هذه السبيل ، وأحياناً تلك[٢] .

٤٢ غالباً ما يضع الرب برقعاً على عيني الرعية ،ليخفي عنهم نقائص معيَّنة في الراعي ؛ فإن كان يكشفها بنفسه، فهو يسبِّب عندهم قلة الثقة[٣] .

٤٣ رأيت رئيساً مدفوعاً من اتضاعه الفائق ، يطلب أحياناً مشورة أولاده ؛ كما رأيت آخر حرّكه تعظّمُه ، يفعل ذلك مريداً أن يُظهر لهم حكمته المجنونة وأن يسخر بهم[٤] .

٤٤ نادراً - لكنه في حالاتٍ معيَّنة ، رأيت أناساً خاضعين للآلام قد صاروا رؤساء على أبرياء من الآلام ، وقليلاً قليلاً تملّكهم الخجل من مرؤوسيهم، إلى أن استبعدوا أوجاعهم. وأظن أن ذلك مكافأةٌ [لهم بسبب] الذين كانوا يكمِّلون خلاصهم بفضلهم . وهكذا صار العمل الذي شرعوا فيه وهم بعدُ خاضعون للأوجاع ، فرصةً لبُرئهم[٥] منها .

٤٥ ينبغي أن نحذر ألا نفقد في طمطام البحر ما جُمِعَ في الميناء ؛ لا يدرك هذا القول ، الذين لم يعانوا بعدُ من السجس[٦] الخارجي .

---

(١) ب : جزافاً

(٢) راجع (كورنثوس الثانية ص ١١، ١٢)

(٣) أي قلة الثقة فيه ، وفي الطريق الرهباني - أو الروحي بصفة عامة ، بل وفي نعمة الله ، الذي يحيي الموتى ، ويخلق من جديد، ويجعل ظلمة الضلال التي فينا تضيء من قبل إتيان ابنه الوحيد في الجسد؛ انظر (رومية ٤ : ١٧؛ كورنثوس الثانية ٤ : ٦ ، ٧)

(٤) ب ، م : + بل إنه بنفسه يسخر ، وليس بهم

(٥) البرء هو الشفاء

(٦) السجس : هو الاضطراب ؛ التشويش ، الإزعاج

٤٦ إنه لأمرٌ عظيم حقاً ، أن نحتمل بشجاعة وجلادة ، الحَرّ المحرق وشدة هدوء البحر ، انحلال العزيمة الذي يصاحب التوحّد في السكون ، دون أن نطلب عوضاً عنها تعزياتٍ خارج سفينة القلاية ، مثل الملاّحين الفاترين الذين إذا لم تَطِب لهم الريح للوقت يسبحون . لكن الأعظم بما لا يُقاس ، ألاّ نخاف من السجس الخارجي ، وأن نحتمل الصدمات بقلبٍ باسل لا يتزعزع ، نتعامل خارجياً مع الناس ، وفي الداخل مع الله .

٤٧ ليكن لك ـ أيها الأب الوقور ـ ما يحدث في المحاكم الدنيوية منبِّهاً إلى ما يختصّ بنا ؛ فالبعض يَمثُلون لدى محكمتنا الحقيقية المرهِبة كمذنبين ، بينما آخرون يلتحقون بعمل الله وخدمته بنشاط . فكما أن دخول هؤلاء إلى الرهبانية مختلفٌ تماماً عن دخول أولئك ، كذلك ينبغي أن يتدبّر كلاهما بسيرة مناسبة . فالمذنب ، ينبغي قبل كل شيء أن يُسأل ـ وإنما على انفراد ـ عن الأعمال التي اقترفها[1] ـ وذلك لسببين : الأول ، لكي إذ ينخسه دائماً تذكُّر اعترافه ، يتجنّب الدالة[2] ؛ والثاني ، لكي إذ يعلم بأيّة جروح كان مصاباً عندما قبلناه ، يتحرّق إلى طاعتنا[3] .

٤٨[4] لا يخفَ عليك أيها الراعي المبجَّل ـ إذ أني واثقٌ أنك لا تجهل هذا ـ أنه ينبغي علينا أن نحسب حساباً لأماكن وعاداتٍ وقوانين توبةِ المذنبين، لأنها عديدة ومتنوعة . فغالباً ما يكون أكثر المرضى ضعفاً ، أكثرهم كذلك تواضعاً : فينبغي إذن أن يَلقى من الأطباء الروحيين معاملةً أكثر لطفاً وحلاوة . وعكس هذا واضح .

---

(١) م : عن ذنوبه التي لعلها واحدةً فواحدة .

(٢) د : يشرح الدالة على أنها عدم التحفظ في الكلام وفي السلوك أيضاً .

(٣) د : إلى أن يحبّنا

(٤) ب : -

٤٩ لا يليق أبداً بالأسد أن يرعى خرافاً ؛ كذلك من الخطر أن يدبِّر المغلوب للأوجاع من هم مثله في شكاة[١] الأوجاع .

٥٠ إنه لَمحزنٌ أن يُرى ثعلب في وسط الدجاج ، لكن ما يغمُّ أكثر ، أن يُرى راعٍ يغضب[٢] . الأول يشيع بين الطيور الاضطراب والتقتيل ، والآخر يفعل ذلك بين الأنفس العاقلة .

٥١ حذارِ أن تكون فاحصاً مدقِّقاً في النقائص الصغيرة ؛ وإلاّ ، فلن تكون بعدُ شبيهاً با لله .

٥٢ أمّا أنت نفسك ، فليكن لك ا لله قائداً ومدبّراً لجميع باطنك وجميع ظاهرك ، مثل ربّان ماهر . اقطع عنك مشيئتك الخاصة لأجل مشيئة ا لله ، بذلك تصير حُرّاً من كل اهتمام ، مقوداً بمشيئته فحسب .

٥٣ ينبغي أن تسأل نفسك ـ مثل كل رئيس ـ عمّا إذا كانت النعمة تتنازل غالباً للعمل بنا بسبب إيمان أولئك الذين يتّصلون بنا ، وليس بسببٍ من نقاوتنا . بهذه الطريقة غالباً ما عَمِلَ العجائبَ ، أناسٌ تحت الآلام. وبما أنه قد كُتِبَ : " في ذلك اليوم ، كثيرون سيقولون لي : " ربّنا ؛ ربّنا ، أليس باسمك تنبّأنا (إلى آخره) "[٣]، فرأيي هذا ليس عديم التصديق.

٥٤ من جعل ا لله معيناً له حقاً ، يستطيع أن يريح المتوجّعين سرّاً ودون أن يشعروا ؛ بهذا يحقّق منفعتين : أن يحتفظ من المجد البشري كما من آفة ، وأن يحثّ الذين عمل معهم الرحمة ألا ينسبوا الفضل إلاّ لله وحده[٤] .

---

(١) الشكاة هي المرض (٢) ب ، م : غضوب (٣) متى ٧ : ٢٢ (٤) ب : ـ بهذا ....

٥٥[١] قدّم للذين يركضون بحماس الشباب، الأغذية الأفضل والأسمى[٢] ؛ أمّا الذين يأتون من بعيد ، فنظراً لاستعدادهم وطبيعة مزاجهم ـ شأنهم شأن رضعان ـ فأعطهم لبناً ، إذ هم لا يزالون في زمن التعزية .

غالباً ما يحدث أن طعاماً واحداً بعينه ، يُحدِث لقوم حرارة ونشاطاً ، ولآخرين فشلاً وقنوطاً . ينبغي إذن ، قبل أن نبذر بذارنا ، أن نراعي الأحوال : بحسب الزمان ، والأشخاص ، والكمية والكيفية .

٥٦ هناك بعضٌ يحتسبون نير الرعاية كلا شيء ، فشرعوا بجهالة أن يحملوا على عاتقهم قيادة النفوس ، وبما أنهم لم يكونوا قبلاً على جانب كبير من اليسار[٣] ، رحلوا صفر اليدين بعد ما وزّعوا كل شيء على الذين تكفّلوا[٤] بهم .

٥٧ هناك أبناء شرعيون ، مولودون من زواج أول ، وآخرون من زواج ثانٍ[٥] ، وأبناء من سراري[٦] ، وأبناء من فسْق[٧] . كذلك توجد حالات متنوعة من التكفّل بالنسبة للذين يضطلع الكفيل بأعبائهم . وهناك نمط للتكفّل بآخرين ـ وهو الجيّد ـ أن يبذل الكفيل نفسه بدل نفس القريب

(١) ب : ـ (٢) يقصد التعاليم الأكثر صعوبة ، المختصّة بإنكار الذات وحمل الصليب ، والتطلّع الدائم إلى الأمام وإلى ما فوق ـ انظر (عبرانيين ٥ : ١٢ ـ ١٤) (٣) أي الثروة

(٤) كَفَلَ فلاناً : عالهُ وانفق عليه ، وقام بأمره ـ الكفالة هي الضمان ـ الكافل ؛ والكفيل : هو الضامن ، أو العائل، أو القائم بأمر اليتيم ـ تكفّل به : التزمه ؛ ألزم نفسه به .

(٥) الفرق بين أبناء الزوجة الأولى وأبناء الزوجة الثانية في محبّة الأب وعنايته بكل من الفريقين ، واضح في معاملة ومحبة يعقوب ليوسف وبنيامين بعناية ورقة ، أكثر من إخوتهما بني ليئة . (٦) أبناء من سراري : مثل اسمعيل ابن إبراهيم من هاجر ؛ ومثل بني يعقوب من زلفة وبلهة ؛ انظر (تكوين ٢١ : ١٠ ـ ١٤ و ٢٥ : ٦ و ٣٧ : ٢ ـ ٤). (٧) مثل يفتاح الجلعادي ، الذي طرده إخوته لكونه من امرأة زانية (قضاة ١١ : ١ ـ ٣).

بوجه شامل . لكن هناك نمطاً آخر ، ألا يتحمّل الكفيل سوى الخطايا السالفة ، وآخر لا يتحمل سوى الخطايا الآتية ، وآخر [من الكفلاء] لا يضطلع إلاّ بنير التوجيهات الخاصة التي أعطاها . وهذا كله ناتج عن نقص القوة الروحية وعدم توافر التحرّر من الآلام . وحتى في الحالة الأولى ، تكون مسؤوليتنا تجاه الآخرين ، بقدر قطع مشيئتهم [لنا][1] .

٥٨ يُعرَف الابن الحقيقي من موقفه في غياب أبيه[2] أظن أن الأمر كذلك بالنسبة لرهبان الشركة .

٥٩ على الرئيس أن يلاحظ جيّداً ويفطن إلى الذين يناقضونه ويقاومونه ، ويوقّع عليهم عقوباتٍ صارمة في حضرة بعضٍ من الشيوخ ؛ لعلّه بواسطة مثالهم ، يوحي إلى آخرين بالخشية ، حتى إذا كان الهوان يلدغهم بشدّة ؛ لأن منفعة الكثيرين أفضل من استياء فرد واحد .

٦٠ هناك أناس بدافع المحبة الروحية ، يضطلعون بأثقال غيرهم ، بما يفوق قدراتهم ، عاملين بهذا القول : " ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا الذي يضحي بنفسه لأجل من يحبّهم[3] .

وهناك آخرون ، مع أنهم قد نالوا فعلاً من الله قوة لاضطلاع بأعباء غيرهم ، لا يحملون النير معهم عن طيب خاطر ؛ لأجل خلاص إخوتهم . هؤلاء أرثي عليهم ، لأنهم خالون من المحبة ؛ أمّا الأوائل ، فيصدق فيهم

(١) ب ، م : وجملة هذا كلّه ، إنه بقدر قطع هواه للمعلّم ، بقدر ما يحمل ثقل كفالته .

(٢) ب ، م : + الابن النغل في حضرة أبيه بالاسم يُظهر دغله وسوء رأيه ومعصيته ؛ انظر (عبرانيين ١٢ : ٨) .

(٣) يوحنا ١٥ : ١٣

القـول : " إذا استخرجت الثمين من المرذول ، مثل فمي تكـون "[1] ، وأيضاً : " كما فعلت ، سيُفعل بك "[2] .

٦١ أسألك أن تراعى هذا أيضـاً : غالبـاً مـا تُحسب خطيئة الرئيس بالفكر[3] ، أشـدّ خطـراً مـن خطيئـة التلميـذ الفعلية ، مثلمـا تكـون مخالفـة الجندي أقل أهمية بالنسبة لزلّة القائد الأعلى في الحكم .

٦٢ ألفِتْ نظر تلاميذك إلى عدم تذكّر خطايـا النجاسـة والشـهوة[4] ؛ أمّا خطاياهم الأخرى فليهذّوا نهاراً وليلاً بذكرها واحدة فواحدة .

٦٣ عوِّد تلاميذك على أن يكونوا بسـطاء في كـل شـيء بعضهـم نحـو البعض ؛ أمّا بإزاء الشياطين ، فليكونوا في غاية الحذر والتيقّظ .

٦٤ لا يَغِبْ عنك أن تعرف إلى أي شيء تميل العلاقات الـتي يوطّدها الخراف بين بعضهم والبعض ؛ لأن الذئاب[5] تميـل عـادةً إلى إرخـاء الحـارّين بواسطة المتهاملين .

٦٥ لا تتردّد قط في أن تصلّي - إذا طُلِب منـك ذلـك - حتـى لأجـل أولئك المتوانين تماماً . لا تتوسّل لأجل أن يُرحموا ، لأن هذا مستحيل تمامـاً ، ما داموا لا يشاركون في العمل لنيل رحمة، بل صلِّ لكيّ يوقظ ا لله غيرتهم .

٦٦ لا يأكل الضعفاء مع الهراطقة[6] ، كمـا تفـرض بذلـك القوانـين .

---

(١) إرميا ١٥ : ١٩ ب : « الذي يصيّر الشرير صالحاً ، مثل فمي يكون» وهذا النص شرح للآية الكتابية (١) .

(٢) عوبديا ١ : ١٥

(٣) د : خطيئة الرئيس الداخلية

(٤) د : عدم الاعتراف تفصيلاً بخطايا ب : + لئلا يُسرّوا بتذكّر لذّتها .

(٥) أي الشياطين

(٦) كلمة يونانية دخيلة ، تعني المبتدعين في الدين .

أمّا الأقوياء بالرب ، فإذا دعاهم غير مؤمنين بقصد الإيمان وأرادوا هم أن يذهبوا ليجاوبوهم ، فليفعلوا من أجل مجد الله .

٦٧ لا تحتجّ بعدم معرفتك ؛ لأن الذي يفعل عن غير معرفةٍ ما يستوجب العقاب ، يُعاقب بسبب عدم تعلّمه[١] .

٦٨ عارٌ على الراعي أن يرهب الموت ، لأن هذا هو تعريف الطاعة : " التحرّر من خشية الموت " .

٦٩ إعرفْ أيها الأب المغبوط أيّة فضيلة بدونها لن يعاين أحدٌ الرب[٢] ؛ أكثر من أيّة فضيلة أخرى سلّمها لأبنائك ، مجنّباً إياهم مناظر الأحداث الذين وجوههم تشبه وجوه النساء .

ليكن لجميع الذين يطيعوننا في الرب تدابيرٌ مختلفة ، ومواضع متباينة بحسب أعمارهم الطبيعية .

٧٠ ليس من اللائق أن يُدفع أحداً من الميناء[٣] .

٧١ بحسب الفطنة التي تقتضيها متطلبات العصر ، لا تضع الأيدي على أحدٍ بعجلة[٤] ، خشية أن واحداً من الخراف قَدِمَ إلينا عن جهل ، لا يقتدر بعدُ على تحمّل حرارة النير حالما يوضع عليه، فيولّي الإدبار إلى العالم . وهذا الأمر لن يكون خالياً من خطر[٥] بالنسبة لأولئك الذين كانوا سيضعون عليه الأيدي قبل الأوان .

٧٢ من هو المدبِّر المعيَّن من الله ، الذي لم يعد محتاجاً لنفسه إلى

(١) قارن لوقا (١٢ : ٤٨) (٢) أي الطهارة - انظر (عبرانيين ١٢ : ١٤) (٣) ب ، م : + إذا هو التجأ إليه
(٤) أي لا تسرّع في الصلاة على أحد لتقليده الشكل الرهباني ؛ قارن (تيموثاوس الأولى ٥ : ٢٢) .
(٥) ب ، م : من دينونة الله

دموعه وتنهّداتــه وأتعابـه ، بـل يقتـدر أن يخدم بهـا لـدى ا لله لأجـل تطهـير آخرين[1] ؟

٧٣ لا تكُفَّ عن غسل النفوس وتطهيرها ، ولا سيّما الأجسـاد الـتي تدنّست ، لكي تستطيع أن تطلب بثقة أكاليل بهيّـة ، لا لنفسـك فحسـب ، بل أيضاً لأنفس آخرين سيتصدّرون جبهة القتال[2] [بعد تتميم سهرك علـى خدمتهم في زمان مرضهم] .

٧٤ رأيت مريضاً يشفي بإيمانه مريضاً آخر ، مستعملاً لأجله لدى ا لله وقاحةً ممدوحة[3] ، واضعاً نفسه بدل نفس قريبـه[4] بكـل تواضـع ؛ وهكـذا بشقائه أخيه شُفِيَ هو أيضاً[5] . كما رأيت آخر يسعى نفس المسـعى ـ لكـن بدافعٍ من إعجابه بنفسـه ، فسـمع هذا التوبيـخ : " أيها الطبيـب ، اشـفِ نفسك ! "[6] .

٧٥ يمكن الامتناع عن خير ، من أجل تحقيق خيرٍ أفضـل ، مثـل ذلـك الذي هرب من الاستشهاد ، لا بداعي الخوف ، بل لمنفعة أولئك الذين كـان يجب عليه أن يخلّصهم[7] .

٧٦ يوجد من يعرّضـون أنفسـهم للهـوان مـن أجـل إكـرام آخريـن ،

(١) هنا يبسط القديس يوحنا السُلّمي أمامنا أروع تفسير لقول الرب : " من هـو تُـرى الوكيـل الأمين الحكيـم ، الذي يقيمه سيّده على عبيده ليعطيهم طعامهم في حينه . طوبى لذلك العبد الذي متى جاء سيّده يجده يفعل هكذا " (لوقا ١٢ : ٤٢ ، ٤٣) .

(٢) ب ، م ليس فقط الأكلّة [جمع إكليل] للذين معك ، بل أيضاً تطلب أنت منه بدالةٍ خلاصَ أنفس غريبة .

(٣) قارن (لوقا ١١ : ٨) (٤) قارن (يوحنا ١٣ : ٣٧ و ١٥ : ١٣) (٥) أي أن ا لله كافأه بالشفاء لأجل بذله نفسه عن أخيه. (٦) لوقا ٤ : ٢٣ (٧) هنا إشارة إلى أن الاضطلاع بخدمة خـلاص النفـوس بممارسة الإماتة اليومية عنها ، أعظم من مجد الاستشهاد [هذه الخدمة السامية يشرحها المؤلف في الفقرات التالية .

وكثيرون يعتبرونهم كمحبّي اللذّة ومضلّين مع كونهم صادقين .

٧٧ إذا كان الذي يستطيع أن ينفع بكلامه ولا يُشيعه بسخاء لن ينجو من عقاب ، فكم يكون - أيها الأب العزيز - الخطر الذي سيواجهه أولئك الذين يمكنهم أن يعملوا بحرارة لمساعدة من هم في ضيقة ، ولا يريدون أن يشاركوا في التألُّم لأجلهم[١] ؟

٧٨ خلّص الآخرين ، يا من خلّصك الله ؛ أنقذ الذين يسعون نحو الهلاك يا من أُنقِذْت ! لا تتوانَ أبداً عن افتداء الذين يلتمس الشياطين قتلهم . هكذا تنال لدى الله الجزاء الأسمى ، فوق كل عمل ، وكل رؤيا ، للناس والملائكة !

٧٩ سيظهر أنه شريكٌ للقوات الروحانية غير المتجسِّدة ، ذاك الذي - بفضل النقاوة التي وُهِبها من الله - يغسل ويطهِّر أوساخ آخرين ، ويقدِّم لله مثل قرابين بلا دنس ، أولئك الذين كانوا قبلاً دنسين . هذا هو العمل الجَلِد الفريد ، والخدمة المقدّسة ، كما هو مكتوب : " جميع الذين حوله ، يقدِّمون له هدايا "[٢] ، بخلاص النفوس .

٨٠ ليس أدلّ على صلاح خالقنا ومحبته للبشر ، أكثر من تركه التسعة والتسعين ليسعى في طلب الخروف الضال[٣] . فكن إذن منتبهاً أيها الأب المكرّم - وابذل كل غيرتك ، كل محبّتك ، كل طاقتك ، كل عنايتك ، كل ضراعتك لدى الله ، لمنفعة ذاك الذي ضلَّ تماماً وتحطّم . لأنه حيث الأمراض والجروح خطيرة ، هناك أيضاً تعظُمُ - ولا شك - المكافأة.

٨١ لنتفكّر ، ونتيقّظ ، ثم بعد ذلك نتصرّف . حقاً إنه غير لائق

(١) انظر (رومية ١٢ : ١٥ ؛ عبرانيين ١٣ : ٣) (٢) مزمور ٧٥ : ١٥ (٣) لوقا ١٥ : ٤

بالرئيس أن يحكم دائماً بحسب القانون ، وذلك بسبب ضعف الضعفاء . هكذا رأيت أخين حَكَمَ بينهما قاضٍ واحدٌ ممتلئ حِكمة : استصوب جهاراً من كان مخطئاً ـ لأنه كان طائشاً ، بينما أدان الذي كان معه الحق ـ لأنه كان شجاعاً باسلاً ؛ و[فَعَلَ] هذا لكي لا يُلقي بينهم الشقاق بإصدار حكمٍ مضبوط دقيق . لكنه في الخفية ، قال لكل منهما على حدة ما كان يناسبه بالعدل ـ وبالأخصّ ـ لذاك الذي كانت نفسه مريضة .

٨٢ المروج الخضراء تُوافق سائر البهائم ؛ أما ما يُفيد كثيراً جميع الخراف الناطقة ، فهو التعليم وذكر الموت ، اللذان يستطيعان أن يشفيا كل بَرَص .

٨٣[1] لاحظ ذوي النفوس الشهمة، وواضعهم[2] في حضور الضعفاء، لكي تشفي جروح قومٍ ، بدواء مقدَّم لقوم ، ولتلقين ذوي الرخاوة أن يكونوا بواسل .

٨٤ إننا نرى أن الله بعد سماعه اعترافاً ، لا يُشهره أبداً ؛ هذا لكي لا يكون المعترفون بذنوبهم ممسوكين بهذا الإفشاء ، فيصبح مرضهم بالتالي عديم الشفاء .

٨٥ حتى إذا كانت لنا موهبة العلم بالمستقبلات ، لا ينبغي أن نخبر المذنبين بخطاياهم قبل أن يقرّوا بها ، بل بالحري نُحثُّهم بكلمات غير صريحة على الاعتراف بها. لأن اعترافهم لنا يساهم بنصيب كبير في نيلهم الغفران

---

(١) ب : ـ ، وهذا يطابق المثل العامي " اضرب المربوط يخاف السائب " .

(٢) واضعْ من الوضاعة ، وهي الاحتقار أو الهوان .

أما عقب الاعتراف ، فلنتباسط معهم ليتباسطوا معنا بغير كُلفة ، ولنُظهِر نحوهم رعاية واهتماماً أزيد مما قبل : بهذا تزداد كثيراً ثقتهم بنا ومحبتهم لنا .

٨٦ يجب علينا أيضاً ، بآن واحد ، أن نُريهم فينا مثال الاتضاع المتناهي، وأن نعلّمهم أنْ يحفظوا المهابة نحونا . ينبغي عليك أن تُظهر صبرك في كل شيء ، إلاّ حين يخالف أحدٌ أوامرك[١] . احذر أن تتضع أكثر من الواجب ، لئلا تجمع جمراً على رأس أبنائك[٢] .

٨٧ تبصَّر ألاّ يكون في حقلك أشجار تشغل الأرض بلا منفعة ، بينما قد يمكن أن تثمر في مكان آخر . خُذ مشورة ، ولا تتردّد في اقتلاعها بمحبة لأجل غرسها في موضعٍ آخر .

٨٨ هناك بعض حالات ، فيها يمكن للرئيس بلا ضرر أن يمارس الفضيلة في أماكن غير مناسبة، أعني في المدينة وفي المواضع المملوءة بالملذّات.

٨٩ إذا كان الطبيب متنعّماً بالهدوء الداخلي ، فهو بحاجة إلى قدرٍ أقل من المعالجة الخارجية التي يعامل بها مرضاه[٣] .

---

(١) ينبغي التبصّر عند محاولة استخدام قانون العقوبات الشديدة مع المخالف ، آخذين بعين الاعتبار أن الدستور الحاوي لكل القوانين هو المحبّة التي لا تطلّب ما لنفسها ، وتحتمل كل شيء ، وتصدّق كل شيء . كما أن الراعي يلزمه ـ كما ذكر المؤلف في غير موضع ـ أن يكون خبراً من الإنقلاب لألم من آلام الخطيئة ، وأن يحرص على الإقتداء بالراعي الصالح الأوحد ، في كل ما يعمل أو يقول . أمّا إذا خالف التلميذ أمر معلمه ، وكان الأمر ذاته في غير محله ، فالأولى بالمعلّم ـ الذي ينبغي أن يحمل ضعفات الضعفاء ويبذل نفسه عن العصاة المستوجبين المؤاخذة ، كوصية ومثال سيده ـ أن يعاقب نفسه وحده ، كما فعل القديس باخوميوس حين خالف تلميذه تادرس ، الذي لكونه مسئولاً عن الثياب ، استبدل سترة القديس الشتوية بأخرى جديدة رفض القديس ارتداءها .

(٢) أمثال ٢٥ : ٢٢

(٣) ب : فهو ليس بحاجة إلى الهدوء الجسداني

٩٠[1] ليتفطّن الرئيس قبل أن يقبل أحداً في التلمذة ، لأن الله لا يستقبح كل رفض أو كل استغناء .

٩١ إن أفضل العطايا التي نستطيع أن نقدّمها لله ، هي أن نقرّب له أنفس الناطقين بالتوبة ؛ فإن العالم كله لا يساوي نفساً واحدة[2] ، لأنه يمضي ويزول ؛ أما النفس فلا تفسد بل تبقى . فلا تغبطَن أولئك الذين يقدّمون أموالاً ، أيها الأب المغبوط ، بل الذين يقدّمون للمسيح خرافاً ناطقة.

٩٢ طهّر مُحرَقتك من كل دنس[3] ، وإلاّ فلن تنتفع منها بشيء لنفسك .

٩٣ ينبغي التفطن في هذا القول : " إن ابن الإنسان كان سيسلّم ، لكن الويل لذلك الذي سلّمه "[4] ؛ كذلك أعتقد أن العكس صحيح : " إنه ينبغي أن كثيرين يخلصون ، أعني المختارين ، لكن المكافأة للذين بواسطتهم - بعد الرب - يحصُل الخلاص " .

٩٤ إنها القوة الروحية - أيها الأب الموقّر - التي تعوزنا قبل كل شيء آخر ، لكي نستطيع أن نخلّص من زحمة الأفكار ونأخذ بيد أولئك الذين أهتممنا أن نُدخِلهم إلى قدس الأقداس[5] ، وشرعنا أن نريهم المسيح مستريحاً على المائدة السريّة السرانرية ، عندما نراهم معذّبين متضايقين من تزاحم الأفكار التي تبغي أن تصدّهم عن الدخول ، لا سيّما حين يضعون أقدامهم على العتبة . وإن كان البعض لا يزالون بعد أطفالاً ، أو ضعفاء للغاية ، فينبغي أن نحملهم على أكتافنا إلى أن يعبروا الباب الضيّق حقاً

---

(١) ب : –

(٢) قارن متى ٢٥ : ٢٢

(٣) كورنثوس الثانية ٧ : ١

(٤) قارن (مرقس ١٤ : ٢١)

(٥) يقصد بقدس الأقداس الحياة الروحية العميقة .

ويدخلوا . فهناك يختبر المرء عادةً كثيراً من الكرب والقلق . ولهذا قال في هذا الصدد قائل : " إن تعباً قُدّامي ، إلى أن أدخل مقدس الله "[1] .

٩٥ كلّمتك قبلاً ، يا أبا الآباء ، عن أبي الآباء ومعلّم المعلّمين ، ذاك الرجل الذي قلت عنه إنه كان كمن هو متسربل كليةً بالحكمة التي من فوق[2] في غير تزييف ، دقيقاً ، صارماً ، فطناً متنازلاً ، ذا نفس ممتلئة بالفرح البهيّ . أمّا ما كان يُدهش فيه بالأكثر ، أنه عندما كان يرى إخوةً راغبين في تكميل خلاصهم ، كان يهذّبهم بصرامة وتدقيق شديد . كذلك فإنه عندما كان يرى من كانوا يتمسّكون بهواهم ، أو يتعلّقون بشيء من الأشياء ، كان يفطمهم عنه بمثل هذا الأسلوب [الصارم] حتى أن الجميع فيما بعد صاروا يحرصون على عدم إبداء أيّة مشيئة ذاتية بالنسبة إلى ما كانوا يتمسّكون به . كان ذلك الرجل ذو الذِكر الأبدي[3] يقول : " إنه لأفضلُ أن يُطرد أحدٌ من الدير ، من أن يُترك ليعمل إرادته الخاصة . وكان يَحدث غالباً ، عندما كان يُطرد واحدٌ ، أنه كان يصير بذلك أكثر اتضاعاً ، قاطعاً فيما بعد لهواه . وعلى عكس ذلك ، إن نحن أظهرنا مراعاة الخواطر لمسايرة هذا الصنف من الإخوة ، تحت مظهر الرحمة والتنازل معهم ، فإنهم سيلعنوننا بنحيبٍ في ساعة الموت ، لكوننا قد أضللناهم بدلاً من أن نساعدهم " .

وبعد تكميل صلوات المساء ، كان يُرى هذا الشيخ الجليل جالساً مثل مَلِكٍ على عرش منظورٍ وغير منظور معاً : منظورٍ لكونه مصنوعاً من عيدان مضفورة ، وغير منظور لكونه مؤلّفاً من فضائل روحية . وكان مجمع

(١) مزمور ٧٢ : ١٦ ، ١٧ حسب الترجمة السبعينية (٢) يعقوب ٣ : ١٧ (٣) مزمور ١١٢ : ٦

الشركة الصالح يُحدق براعيه مثل النحل الحكيم ، الكلُّ مصغٍ إلى تعاليمه وأوامره كأنها من الله . فواحدٌ ، كان يأمره بتلاوة خمسين مزموراً قبل النوم؛ وآخرُ ثلاثين ؛ وآخر مائة ؛ لهذا يعيِّن مائة سجدة[1] ؛ وذاك يفرض عليه أن ينام جالساً ؛ وآخر يأمره بالقراءة وقتاً محدوداً ، وغيره بأن يكرِّس نفس الوقت للصلاة .

وكان قد عيَّن اثنين من الإخوة كمراقِبَيْن ؛ فنهاراً كان يجب عليهما ملاحظة[2] الإخوة ومنع المحادثات والبطالة ؛ وليلاً لمنع السهر غير المناسب وما لا يمكن وصفه بالكتابة . كذلك فإن ذلك الشيخ العظيم كان قد خصَّص لكلٍ قانونه الخاص فيما يختصّ بالغذاء ؛ إذ لم يكن يفرض على الجميع نظاماً واحداً بعينه ، بل كان يعامل كلَّ واحد بحسب طبيعة كيانه . لقد كان ذلك المدبِّر الصالح يراه حريّاً بالبعض أن يتناولوا أطعمة يابسة ، ويخصِّص لآخرين غذاءً أكثر رخاء . وما هو أحرى بالتعجّب ، أن ما كان يأمر به كان ينفَّذ بلا دمدمة[3] ، كأنه من فم الله . وكان يتبع لذلك الأب المجيد ، الكامل في كل شيء ، دير كان يرسل إليه من بين إخوة الدير [الرئيسي] من هم قادرون على السيرة التوحّدية .

٩٦ أسألك ألا تجعل المستقيمين[4] ذوي حيلةٍ وماكرين في أفكارهم ؛ بل اجتهد ـ إن كان ممكناً ـ أن تحوِّل ذوي الفطنة الكثيرة إلى البساطة ؛ ولو أن هذا الأمر جدير حقاً بالتعجّب .

٩٧[5] الذي بلغ نقاوة فائقة ـــ بفضل تحرّره من الآلام ، يستطيع أن يستعمل الصرامة مثل الديّان الإلهي لأن الإعواز إلى التحرّر من الآلام ، يجعل

(١) ب ، م : مطانية
(٢) ب ، م : افتقاد
(٣) أي تذمّر
(٤) ب : الودعاء والمنبسطين

قلب القاضي عليلاً ، ولا يمكّنه من التأديب والتطهير كما ينبغي .

٩٨ قبل كل شيء ، ورِّث بنيك إيماناً صحيحاً وتعاليماً سليمة ، وهكذا تقود إلى الله في طريق الإيمان القويم لا أبناءك فحسب ، بل أيضاً بني بنيك .

٩٩ لا تمنعك الشفقة من أن تُضني وتُتعب الأحداث المملوئين حيوية[١] ، فإنهم سيمدحونك[٢] لأجل ذلك وقت رحيلهم .

١٠٠ كذلك ليكن لك مثالاً في هذا الشأن ـ أيها الأب الحكيم ـ موسى رئيس الأنبياء ؛ فإنه لم يستطع أن يحرّر من عبودية فرعون من كانوا خاضعين له وتابعين عن طيب خاطر ، قبل أن يأكلوا الفطير بأعشاب مُرّة . فالفطير هو نفسٌ ليس عندها إيثار[٣] لمشيئتها الخاصة ؛ لأن هذا الأمر يجعلها تنتفخ وتترفّع ، بينما الفطير دائماً منخفض[٤] . أما الأعشاب المُرّة ، فهي حيناً ـ المرارة اللاذعة التي تلحق بالأوامر المأخوذة ، وحيناً ـ هي مرارة تقشّف الصوم

١٠١ أمّا من جهتي يا أبا الآباء ، إذ كتبت كل هذا ، فأظن أني أسمع هذا القول : " أنت الذي تعلّم غيرك ، ألا تعلّم نفسك ! "[٥] فالآن إذن ، لن أقول بعدُ إلاّ هذا قبل أن أختم حديثي : إن نفساً متّحدة با لله بفضل نقائها ، ليست بحاجةٍ إلى كلمةٍ من آخرين لتعليمها[٦] ، لأن تلك النفس المغبوطة تحمل في ذاتها " الكلمة الأزلي " الذي هو مشيرها ، وقائدها ، ونورها .

---

(١) ب : الشقيي الأجساد (٢) ب ، م : + ويصلّون عليك (٣) أي تفضيل

(٤) أي بخلاف الخبز ، الذي يكون منتفخاً بفعل الخميرة (٥) رومية ٢ : ٢١ (٦) الفقرات من ٥ إلى ٨

١٠٢ نظير هذه [النفس] أنا أعرفه أعني قدسك الموقّر المملوء نوراً، إذ أعرف حقاً نقاوة نفسك ، ليس بمجرد السماع عنها ، بل برؤيتها بالفعل والاختبار ، تتألّق لاسيما من خلال وداعتك التي أهلكت الحيّات ، واتضاعك ، على مثال موسى واضع الشريعة . إذ أنك تتّبع خطواته عن كثب ، أيها الأب الممتلئ صبراً ، وقد تقدّمت باطّرادٍ نحو المعالي ، ولولا قليلٍ كنت تساويه ، أعني باستحقاق الطهارة والإمساك ، بما أنه بهاتين الفضيلتين ، أكثر من كل ما عداهما ، نستطيع أن نقترب إلى الله بكل طهارة ، هذا الذي وحده يساعدنا على اقتناء التحرّر الكامل من الآلام ويهبنا إيّاه . على هاتين الفضيلتين ، كما فوق مركبة نارية، صعدتَ سريعاً ، كمثال إيليا العفيف . ليس فقط ذبحت المصري وأخفيت استحقاقك في رمل التواضع ، بل أيضاً تسلّقت الجبل ورأيت الله من خلال العلّيقة[1] بأسلوب سيرة شائكة شظفة[2] . لقد سمعت صوت الله وابتهجت ببهائه ؛ خلعت نعليك ، أعني كل دثار[3] الطبيعة المائتة[4] ، وأمسكت بالذنب ، أي بنهاية ذلك الملاك الذي تحوّل إلى حيّة[5] ، وأرجعته في الدياجي[6] إلى جُحره في الهاوية المظلمة السحيقة . لقد غلبت فرعون المتعظّم المتوقّح ، وضربت المصريين وأهلكت أبكارهم ، الأمر الذي يستحق التقدير أكثر من كل ما عداه . لذلك ائتمنك الله ـ لكونك أميناً غير متزعزع ـ على قيادة الإخوة . أجَلْ ، لقد جعلتهم ـ يا أمهر المرشدين ـ يهجرون بلا أدنى خوفٍ

---

(١) خروج ٣ : ٢ (٢) هنا يقصد المؤلف بالعليقة ـ وهي شجيرة صحراوية شائكة ـ عيشة النسك والتقشف .

(٣) الدثار : الثوب (٤) م : كل فساد الجسد الميّت

(٥) أي الشيطان : الملاك الساقط من رتبته (٦) أي الظلمات

فرعون ، ومذلّة اللبن الطيني(١) الذي حرّرتهم منه . وبخبرتك الغنيّة ، أريتهم النار المقدسة وسحابةِ الطهارة(٢) ، أولئك الذين أطفأوا تماماً نار الشهوة(٣) . وإذ لم تكتفِ بهذا ، فلقتَ أيضاً لأجلهم هذا البحر الأحمر المحرق(٤) ، الذي غالباً ما يتعرّض معظمنا لخطره . بعصاك ومعرفتك الراعوية ، قُدتهم إلى النصر والفوز ، مغرقاً بالتمام في المياه أولئك الذين لاحقوهم .

من بعد هذا ـ عقب انتصارك على البحر ـ جعلت عماليق العُجب والتشامخ يهرب ،هذا الذي من عادته أن يأتي على المنتصرين . فقد قهرته برفع يديك فيما بين العمل والرؤيا . لأجل شعبك ـ الذي كان يضيء عليه الله بنوره ـ غلبت الأمم ، وهديت جميع الذين كانوا يتبعونك إلى جبل اللا ألمية(٥) ، وأقمتهم كهنة ، وألزمتهم بالختان ، لأن الذين لم يتطهّروا به لا يستطيعون أن يعاينوا الله .

ثم صعدتَ إلى الأعالي ، مبدِّداً الدياجير(٦) والسحب والعواصف ، أعني عتمة الجهل المثلّثة . لقد اقتربت من نورٍ أكثر مهابةً وبهاءً وسمواً من نور العلّيقة . لقد كنت مستحقاً لسماع صوت الله ، والرؤية ، والتنبؤ . لقد عاينت ـ بكيفية ما ـ مع أنك حيٌّ بعدُ ها هنا الخيراتِ الآتية ، أعني الاستنارة الأخيرة للمعرفة التي ستمنح لنا حينذاك . بعد ذلك سمعت الصوتَ المقدس قائلاً لك: " لا يستطيع إنسانٌ أن يراني " (٧). لهذا، بعد أن

---

(١) ب ، م : الوسخ : أي الجسد الشهواني (٢) قارن (خروج ١٣ : ٢٠ ، ٢١) .

(٣) كما شبّه المؤلفُ الجسدَ باللبن ، هنا يرمز بالنار التي كان يُحرق بها اللّبن ليصير طوباً إلى شهوات الجسد

(٤) هنا يشبّه البحر الأحمر ـ حمرة النار ـ إلى محبة العالم والأشياء التي فيه من ممتلكات وجاه وثروة ، تُهلك المخدوع بالسعي وراءها فتصيّره عدواً لله وتفقده سعادته الأبدية . انظر (يعقوب ٤ : ٤ ؛ ٥ : ١ ـ ٣ و تيموثاوس الأولى ٦ : ٦ ـ ١٢) .

(٥) اللا ألمية : هي التحرُّر من جميع آلام الخطيئة .

(٦) الظلمات

(٧) خروج ٣٣ : ٢٠

رأيت ، نزلت من جديد إلى وادي الاتضاع العميق ، إلى حوريب ، حاملاً معك لوحي الصعود إلى الرؤية ، والوجه منك يُشعّ بالنور ، في نفسك وفي جسدك .

لكن أي مشهد مُحزن إلاّ مشهد تمثال ذهبي مصنوع ! وذلك في مجمع شركتنا ؛ وتكسير لوحي الشريعة ! وماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد أخذت بيد الشعب ، وقُدتَهُ في البريّة . ولعله أيضاً عندما كان محترقاً بناره الخاصّة ، فجّرت ينبوعاً للدموع ، ضارباً الصخرة بالخشبة[1]، أعني صالباً الجسد مع أهوائه وشهواته[2] .

حاربت أمم الأعداء ، مهلكاً إيّاهم بنار الرب . ثم أتيت إلى الأردن ـ لا شيء يمنع من إيجاز القصّة قليلاً ـ يا يشوع الجديد ، وأجزت الشعب بفضل كلمتك ، تاركاً المياه السفليّة تسيل نحو البحر الميّت والمالح ، مُبقياً على المياه العالية، التي للمحبّة ـ تحت نظر الإسرائيليين الروحيين الذين لك .

ثم أمرت بإحضار اثنى عشر حجراً لإعلان إرسالية الرسل ، أو لإظهار الغلبة على الشعوب الثمانية ، أعني الآلام الثمانية ، ونصرة الفضائل الأربعة الرئيسية . تركت خلفك البحر الميت غير المثمر ، وسرت إلى مدينة العدو ؛ جعلت بوق الصلاة يدوّي، قاصداً بالرقم سبعة مدة العمر البشري . لقد جعلت أسواره تنهار وقهرته ، عن طريق قدرتك على التسبيح لمعينك غير المادي وغير المنظور : " سيوف العدو قد تكسّرت إلى الأبد وقد هدمت مدناً "[3] .

---

(١) ب : بعود الصليب

(٢) غلاطية ٥ : ٢٤

(٣) مزمور ٩ : ٦ حسب الترجمة السبعينية ب ، م : ومدن أوجاعي هدمت

والآن آتي ـ إذا شئتَ ـ إلى ما هو أهمّ : لقد صعدت إلى أورشليم ، إلى رؤية السلام الكامل للنفس[1]. هناك شاهدت المسيح ، إله السلام ، بعد أن اشتركت معه في احتمال المشقات كجندي صالح[2] ، وصلبتَ الجسد مع آلامه وشهواته ؛ وهذا عدلٌ ، لأنك أنت نفسك صرتَ إلهاً لفرعون ولكل قواته المقاومين لنا . دُفِنتَ بعد ذلك مع المسيح ، ونزلت معه إلى أعماق اللاهوت والأسرار التي لا ينطق بها ، لقد دُهِنت بالمرّ وضُمِّختَ بالطيوب بواسطة النسوة[3] ، أعني الفضائل .

قمتَ من الموت ـ ومن يمنعني عن قول هذا أيضاً ، بما أنك جالسٌ أيضاً عن يمين الآب في السموات ؟[4] ولكن يا لغرابة هذا التعبير ـ لقد قمت أنت أيضاً بعد ثلاثة أيام ، أعني بعد نصرتك على ثلاثة جبابرة ، أو لأجل التكلّم بأكثر وضوح ،إمّا بعد انتصارك على الجسد ، والنفس ، والروح ، وإمّا بعد تطهير ثلاثة أجزاء النفس ، المختصّة بالشهوة والغضب والفكر .

لقد ارتقيت جبل الزيتون . أَجَلْ ، يجب أن نختم ولا نُطيل التحكّم ، بما أننا نكتب بالأخصّ لحكيم يفوق جميعنا في المعرفة ـ على هذا الجبل الذي قال عنه رحّالة ماهر شهير : " الجبال العالية للوعول "[5] ، أعني النفوس التي تُهلك الحيّات[6] . فقد أسرعت أنت أيضاً إلى هناك ، وبلغت قمة[7] الجبل . رفعت عينيك إلى السماء ـ وهنا أبدِّل الكلام من جديد على سبيل الاستعارة ـ وباركتنا نحن تلاميذك . أبصرتَ سُلّمَ الفضائل منصوبةً بمتانة . هذه السلّم وضعتَ أنت نفسك أساساً بحسب النعمة المعطاة لك كبنّاء حكيم[8] ؛ بل

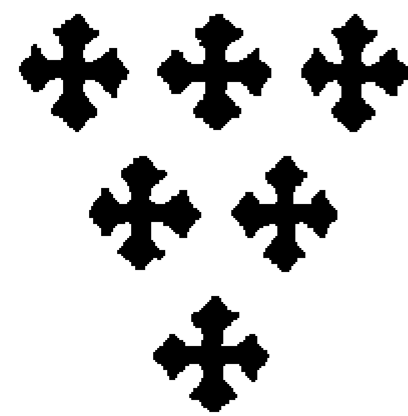
(١) لأن أورشليم تعني مدينة السلام ـ انظر (فيلبي ٤ : ٧) . (٢) تيموثاوس الثانية ٢ : ٣ ، ٢٤ و ٤ : ٤

(٣) د + ووالديك وأحبائك (٤) قارن (أفسس ٢ : ٦) (٥) مزمور ١٠٤ : ١٨

(٦) ب الأوجاع (٧) د : سفح (٨) كورنثوس الأولى ٣ : ١٠

أيضاً إن الفضل كله في إنشائها يرجع إليك ، بما أنك اجتذبت من مأوى التواضع بغتةً سذاجتنا ، وأجبرتنا على إعارتك شفاهنا الدنسة ؛ للتكلّم بها إلى شعبك . بل وليس في هذا عجب ، بما أن موسى نفسه بحسب الظاهر احتجَّ بتلعثمه وثقل لسانه؛ لكنه كان بهارون خادماً وحاملاً ماهراً للكلمة . أمّا أنت فعلى العكس أيها المطّلع على الأسرار التي لا يُباح بها : لقد شرعتَ أن تتقدّم ـ ولا أدري لماذا ـ إلى عينٍ ناضبة ممتلئةٍ بضفادع مصر ، أو بالحري بالجمر الأسود .

لكن بما أنه لا يليق بنا أن نمضي تاركين سعي كلامنا ناقصاً ،أيها الساعي نحو السماء ، فنحن ننسج أيضاً ثناءنا على فضيلتك قائلين إنك تقدَّمت إلى الجبل المقدس ، ورفعت نحو السماء ناظريك، واقتربت من قمّته[1] ، تقدّمت ، وارتقيته ، وركبت على شيروبيم الفضائل ، وطِرْتَ ، وبلغت الأعالي بين التهليل والهتاف ، عقب انتصارك على الأعداء ؛ كذلك سرت في الطليعة[2] وكنت قائداً . واليوم أيضاً تسير أمامنا وتَهدي جميعنا ، في ارتفاعك نحو رأس السُلّم وفي اتحادك بالمحبة[3] ، التي هي الله . له المجد في جميع الدهور آمين .



---

(١) د : سفحه

(٢) أي المقدّمة

(٣) ربط المؤلف بين رأس السُلّم وبين المحبة ، لأن المحبة هي تكميل الناموس ، أو بالحري رباط الكمال ـــ انظر (رومية ١٣ : ١٠ ؛ كولوسي ٣ : ١٤) .

فهرس الشخصيات

العدد الأول : رقم الدرجة
العدد الثاني : رقم الفقرة
ر : رسالة إلى الراعي
م : الموجز الذي يلي الدرجة ٢٦
ـ : تحلّ محلّ الكلمة الرئيسية

مثال ٧ : ٥٠ تعني الفقرة الخمسين من الدرجة السابعة

فهرس الأماكن

فهرس الموضوعات

(قد يصلح لتحضير عظات أو مواضيع محاضرات بالاضافة إلى غيره من مراجع)

اغتمام

اغتياب

إفخارستيا :

إفراز

تصحيح (أخوي)

تصوّر : ابعد كل تصوّر محسوس أثناء الصلاة

تظاهر :

تعب

تعزية

دينونة الله

رأفة

سلام النفس

سهر

سيرة

شركة

شفاعة

شكر

شهوة

شوق :

شيخ :

شياطين

طاعة :

أنظر : شركة ، قيادة ذاتيّة .

طبع :

كتاب مقدّس

كذب

كرازة

مودّة :

موهبة

مواهب طبيعية

نار

نجاسة

نساء

نسك

نعمة



أيقونة أثرية فيها يبارك الرب يسوع كتاب « السلّم » للآب يوحنا





